دار مجلة مرقس

تاريخ الكنيسة القبطية

فاضل

الجزء الأول

من القرن الأول إلى القرن الخامس

إعداد الراهب يعقوب المقاري "المتنيح"

دار مجلة مرقس

تاريخ الكنيسة القبطية

الجزء الأول

من القرن الأول إلى القرن الخامس

إعداد الراهب يعقوب المقاري "المتنيح"

كتاب: تاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية (الجزء الأول)
من القرن الأول إلى القرن الخامس
المؤلف: الراهب القس يعقوب المقاري (المتنيِّح)
الطبعة الأولى: ٢٠١٦م.
مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون.
ص. ب ٢٧٨٠ - القاهرة.
الناشر: دار مجلة مرقس ص.ب ٣١ شبرا
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٤٦٦٢ ٢٠١٣
الترقيم الدولي: **978-977-240-286-1**

(هذا الكتاب هو تجميع لمقالات سبق نشرها في مجلة مرقس من عدد فبراير ١٩٩٥ إلى عدد فبراير ٢٠٠٠؛ ومن عدد أكتوبر ٢٠٠٢ إلى عدد ديسمبر ٢٠٠٢).

المقاري، يعقوب.
تاريخ الكنيسة القبطية /
يعقوب المقاري. - وادي النطرون:
دير القديس أنبا مقار، برية شيهيت، ٢٠١٣
مج [illegible] ٢٤سم.
المحتويات: - من القرن الأول إلى القرن الخامس.
تدمك ١ ٢٨٦ ٢٤٠ ٩٧٧ ٩٧٨
[illegible] الكنيسة - تاريخ
[illegible] ٢٧٩,[illegible]



الرب يسوع المسيح رئيس الكهنة الأعظم

" الأسقف الكبير ورئيس الأسقفية والأول في طغمة الكهنوت ورأس الكهنة "

والصخرة التي أقام عليها بنيان الكنيسة

له وحده كل المجد والكرامة في كل جيل ومدى الدهور.



القديس الشهيد والأب والإنجيلي والرسول مارمرقس ناظر الإله كاروز الديار المصرية

"أتيتَ وأنرتَ لنا بإنجيلك وعلّمتنا الآب والابن والروح القدس"
(ذكصولوجية مارمرقس الإنجيلي)
أيقونة القديس مارمرقس في الكنيسة المعلقة بمصر القديمة



القديس البابا أثناسيوس الرسولي البابا العشرون حامي الإيمان القويم

والقديس البابا كيرلس الإسكندري عمود الإيمان

المحتويات

صفحة

القرن الأول والقرن الثاني

كنيسة الإسكندرية

في القرنين الأول والثاني للميلاد

مقدمة:

دخلت المسيحية إلى مصر مبكِّراً جداً بعد يوم الخمسين، يوم حلول الروح القدس على التلاميذ، يوم ميلاد الكنيسة في أورشليم في علِّيَّة صهيون. ففي ذلك اليوم كان حاضراً قوم يهود من مصر والإسكندرية. هؤلاء سمعوا ورأوا التلاميذ وهم يكرزون ويُعمِّدون باكورة نسل إبراهيم، نحو ثلاثة آلاف نفس (أع ٢: ٤١).

كما كان ليهود الإسكندرية والقيروان مجمع خاص بهم في أورشليم: «المجمع الذي يُقال له مجمع الليبرتينيِّين والقيروانيِّين (قيرين في ليبيا: وهي الموطن الأصلي لعائلة القديس مرقس، وهي غير القيروان بتونس) والإسكندريِّين» (أع ٦: ٩).

كذلك نعلم من سفر أعمال الرسل أن أبُلُّوس الإسكندري تعلَّم المسيحية (ولو بطريقة ناقصة قليلاً، لأنه لم يكن يعرف سوى معمودية الماء التي ليوحنا المعمدان، وليس معمودية الروح القدس - أع ١٨: ٢٤،٢٥) في وطنه، في الإسكندرية، وكان هذا فصيحاً مقتدراً في الكتب وحارّاً بالروح القدس (أع ١٨: ٢٤- ١٩: ٧)، وهذا كان حوالي سنة ٥٠م.

وإذا طلبنا المزيد من البحث عن المسيحية في مصر، نجد أن التقليد الكنسي الذي حفظه لنا يوسابيوس القيصري المؤرخ الكنسي في القرن الرابع في تاريخه، يُحدِّثنا عن جماعة الثيرابيوتا اليهودية التي آمنت بالمسيح، والتي كانت تعيش حول بحيرة مريوط:

[في كل بيت من بيوتهم يوجد مكان مقدَّس يُدعى ''محراباً'' (هيكلاً)، حيث يؤدُّون فيه أسرار الحياة الدينية في عُزلة تامة، لا يُدخِلون إليه أي شيء من الطعام أو الشراب أو

حاجات الجسد، بل الشرائع وأقوال الأنبياء الحيَّة والترانيم(١) وغيرها، مما يُساعد على كمال معرفتهم وتقواهم. وكانت كل الفترة من الصباح إلى المساء هي وقت رياضة روحية لهم، لأنهم يقرأون الكتب المقدسة (أي أسفار العهد القديم)، ويُفسِّرون فلسفة آبائهم بطريقة رمزية. وكان لديهم أيضاً كتابات من القدماء مؤسِّسي جماعتهم الذين تركوا آثاراً كبيرة رمزية والذين كانوا يتخذونهم قدوة لهم ويُقلِّدون مبادئهم. وكانوا يُفسِّرون الكتب المقدسة رمزياً بواسطة استعارات، لأن كل الناموس (أسفار الشريعة) يبدو لهؤلاء الناس كأنه مجموعة عضوية حيَّة](٢).

ويُعلِّق الأب متى المسكين في كتاب ''التسبحة اليومية ومزامير السواعي'' على ذلك بقوله:

[إن هذا التسجيل الذي يُسجِّله يوسابيوس القيصري (٢٦٤-٣٤٠م) عن فيلو اليهودي الذي شاهد بعينيه المسيحيين الأوائل، يُعتبر من أهم الوثائق التي تحت أيدينا عن بداية نشأة الكنيسة القبطية بهذه القوة الهائلة](٣).

القديس مرقس والمسيحية المصرية:

حينما نتتبَّع حياة القديس مرقس في العهد الجديد، نقابله أول مرة في علِّية أورشليم حيث صنع المسيح العشاء الأخير (حوالي سنة ٣٠م)، وربما كان هو الشاب الذي هرب عارياً عند القبض على الرب يسوع (مر ١٤: ٥١، ٥٢)، ثم نقرأ عنه بعد ذلك مع كنيسة أورشليم التي كانت تجتمع في «بيت مريم أم يوحنا مرقس» (أع ١٢: ١٢)، أيام حُكْم هيرودس أغريباس سنة ٤١-٤٤م. ومن هناك رافق برنابا (خاله) والقديس بولس الرسول إلى أنطاكية (أع ١٢: ٢٥) وإلى قبرص وآسيا الصغرى، ثم فارقهما في بَرْجَة عائداً إلى أورشليم (أع ١٣: ٤، ١٣). فكان هذا سبباً لرفض

---

(١) غالباً ما يكون المقصود بهذه الكتب هو ''أسفار التوراه''، وقد ذُكِرت في النص اليوناني بمعنى ''شريعة νόμος وأقوال الأنبياء''، وكان هذا تقليداً يهودياً يختص بخدمة المجمع اليهودي: قراءة من الشريعة، ثم من الأنبياء، والترانيم؛ ربما إشارة إلى ''البركات الثماني عشرة'' التي كانت تُتلى باللحن عقب كل خدمة.

(2) Eus; *E.H.* II 17: 7-9.

(٣) ''التسبحة اليومية ومزامير السواعي''، للأب متى المسكين، مطبعة دير القديس أنبا مقار، الطبعة الثالثة: سنة ١٩٩٣، ص ١٢٩.

القديس بولس أن يأخذه معه في رحلته التبشيرية التالية واستبدله بسيلا (سلوانس) (أع ١٥: ٣٧-٤٠). أما القديس مرقس فقد رافق برنابا إلى قبرص مرة ثانية (أع ١٥: ٣٩)، وبعد ذلك لا نسمع عنه في سفر الأعمال شيئاً، لأن سفر الأعمال صار يُركِّز بعد ذلك على كرازة القديس بولس.

ومن الرسائل الأخرى في العهد الجديد التي ذكرت اسم القديس مرقس، نرى القديس بولس يدعوه هكذا: «**مرقس** وأرِسْتَرخُس وديماس ولوقا العاملون معي» (فليمون ٢٤)، ربما كان ذلك أثناء اعتقال بولس الرسول سنة ٦٢م. ويُكرِّر القديس بولس ذِكْر القديس مرقس في رسالة كولوسي: «**مرقس** ابن أُخت برنابا، الذي أخذتم لأجله وصايا» (كولوسي ٤: ١٠)، وهذه الرسالة كُتبت أيضاً سنة ٦٢م. ثم يذكره في آخر رسائله، إذ يقول عنه: «لأنه نافع لي للخدمة» (٢تي ٤: ١١) سنة ٦٧م.

كذلك كان مرقس الرسول مُعاصراً ومُرافقاً للقديس بطرس في روما، حيث شهد له في رسالته الأولى أنه: «ابني» (١بط ٥: ١٣)، وهي الرسالة التي كتبها من روما أو من مصر (بحسب تقليد الكنيسة القبطية) إلى يهود الشتات في آسيا الصغرى.

إذن، يكون القديس مرقس قد تربَّى في أورشليم، وعاصر المسيح وتلاميذه وهو ما يزال فتىً يافعاً، وعاصر نشأة كنيسة أورشليم تحت قيادة القديس يعقوب الرسول، ورافق بعد ذلك القديسين بولس وبطرس وبرنابا في رحلاتهم التبشرية.

ثم ينقلنا التقليد الذي حفظه يوسابيوس القيصري في تاريخه الكنسي إلى أن القديس مرقس قد كتب إنجيله في روما تحت إشراف القديس بطرس (حوالي سنة ٤٣م)[٤]، ويتحدث بعد هذا مباشرة عن كرازة القديس مرقس في الإسكندرية.

إلاَّ أنه، بحسب تقليد الكنيسة القبطية، يسود الاعتقاد بأن إنجيل مرقس قد كُتِبَ في الإسكندرية، كما يشهد بذلك أيضاً القديس يوحنا ذهبي الفم في شرحه لإنجيل القديس متى (العظة الأولى على إنجيل متى). كذلك يذكر القديس إيرينيئوس أنه عقب استشهاد القديسَيْن بطرس وبولس، كتب القديس مرقس إنجيله الذي بين أيدينا.

---

(٤) وإن كان يختلف معه في هذا الرأي بعض القديسين مثل: إيرينيئوس، ويوحنا ذهبي الفم.

ومن المعروف أن القديس مرقس عاد إلى مصر بعد استشهاد هذين الرسولين، أي أن كتابة إنجيل مرقس كانت في مصر. والحقيقة أن هناك رسالة مُكتشفة حديثاً للعلاَّمة كليمندس الإسكندري(٥) في شكل وريقات غير كاملة Fragment، نُشرت سنة ١٩٧٣، يقول فيها إن القديس مرقس كتب إنجيله خلال فترة إقامته مع القديس بطرس في روما. ولكن بعد استشهاد القديس بطرس، أتى القديس مرقس إلى الإسكندرية حيث توسَّع فيما كتبه أولاً، وأضاف إليه ملاحظات القديس بطرس، لكي يُقدِّم لنا إنجيلاً روحياً لاستعمال كنيسة الإسكندرية، وهو الإنجيل الذي أساء تفسيره كاربوكراتس وزيَّف معناه. ويذكر العلاَّمة كليمندس الإسكندري في رسالته هذه أن ذلك كان تقليداً كنسياً في أيامه في القرن الثاني.

وعموماً، فقد تأكَّدت كرازة القديس مرقس للإسكندرية، ليس فقط بشهادة يوسابيوس القيصري، بل وأيضاً بشهادة القديس إيرينيئوس والعلاَّمة كليمندس الإسكندري؛ إلاَّ أن يوسابيوس القيصري في تاريخه لم يجزم بأن مرقس الرسول بشَّر الإسكندرية، إذ كتب: "ويُقال φασι"، التي كانت السبب في تشكيك الغربيين في رسولية الكنيسة القبطية.

ولا شكَّ أن زيارة القديس مرقس للمسيحيين في مصر والإسكندرية كانت عن إحساس رسولي وبمسئولية، كما حدث من قبل حينما كرز فيلبُّس الشماس في مدينة من السامرة: «فلما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله، أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا (رسولَي الختان)» (أع ٨: ١٤). وكما حدث مع أهل أفسس الذين آمنوا ولم يقبلوا الروح (أع ١٩: ١-٧).

ولكن من المعتقد أن الإيمان المسيحي بدأ بين المصريين واليهود بعد يوم الخمسين بنوع من الاجتهاد، بدون تسليم رسولي، أي كان عملاً فردياً؛ مما حتَّم وجود تنظيم رسولي يستطيع أن يصبغ الجماعات المتفرِّقة بصبغة الوحدانية حتى يمكن أن تصير **"كنيسة مقدسة جامعة رسولية"**، حسب التقليد الرسولي. وهذا كان يتم بوضع اليد لحلول الروح القدس، كما حدث من القديسَيْن بطرس ويوحنا في السامرة، والقديس بولس في أفسس. حيث إن التقليد يضع أهمية عُظمى على تسلسل وضع اليد لنوال الروح القدس المعطَى من المسيح بواسطة الرسل للأسقفية والقسوسية،

(5) Morton Smith: Clement of Alexandria & a Secret Gospel of Mark. (Cambridge; Harvard Univ. Press 1973).

ولإعطاء مواهب الرئاسة والتدبير والتعليم لتسليم الحق الرسولي، والقطع باستقامة هذا الحق، وحفظ الوديعة المقدسة. فما يؤهِّل الرئاسات الكهنوتية لتكون رسولية، هو تكوينها السرائري ونوالها الروح القدس من خلال وضع يد الرسل أو الأساقفة، لأن التسلسل الأسقفي بوضع اليد أهَّلها على مدى الأجيال لحفظ الوديعة الإيمانية وأسرارها بكل قوة وأمانة(٦).

التنظيم الكنسي المرقسي:

هكذا أصبحت الضرورة مُلحَّة لحضور القديس مرقس إلى الإسكندرية، من واقع المسئولية التي تحمَّلها من قِبَل الروح القدس والرب يسوع. وتذكر سيرة حياة القديس مرقس أنه تقابل مع أنيانوس الإسكافي عند دخوله الإسكندرية من جهة شرقيها، حيث يتأكَّد هذا التحديد الجغرافي من دراسة حديثة لإسكندرية البطالسة، يظهر فيها الحي اليهودي شرقي المدينة(٧).

وتمضي سيرة القديس مرقس وتحكي عن دخول المخراز في باطن كف أنيانوس عند إصلاحة نعل القديس مرقس، فصاح "يا الله الواحد εἷς Θεός". ومن هذه الكلمة انطلق القديس مرقس يشرح الكرازة بالمسيح. وكان جواب أنيانوس أنه لا يعلم شيئاً عن هذا الإله الواحد، ولا عن العهد القديم، لأن ما تعلَّمه هو نفس ما تَعلَّمه سائر أهل مدينة الإسكندرية في كتب الفلاسفة.

هنا نريد أن نضع تصحيحاً أو توضيحاً لهذا الجزء من السيرة:

١ - بما أنه كان في الإسكندرية حيَّان يقطن فيهما اليهود من بين أحيائها الخمسة، وكان دخول القديس مرقس من الميناء الشرقية أي من البوابة الشرقية، حيث كان أول ما يُصادفه هو الحي اليهودي؛ لذا يكون أنيانوس هو الاسم اليوناني لـ "حنانيا" اليهودي. وتكون εἷς Θεός "الإله الواحد" التي وردت في سيرة القديس مرقس الرسول تعني: إله العبرانيين المعروف لدى الجالية اليهودية في الإسكندرية وفي كل الشتات.

٢ - بانتشار الكرازة بالمسيح، بدأت الغيرة تدبُّ في صفوف الوثنيين حتى اضطربت المدينة

(٦) كتاب: "التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي"، للأب متى المسكين، مطبعة دير القديس أنبا مقار، الطبعة الثانية: ١٩٨٥، ص ٢٥،٢٦.

(٧) Roots of Egypt. Christ., p. 159.

واضطر القديس مرقس للتفكير في مغادرتها، لذلك رسم القديس مرقس أنيانوسَ أسقفاً ومعه ثلاثة قسوس وسبعة شمامسة. فأصبح التنظيم الكنسي في كنيسة الإسكندرية هكذا:

١. القديس مرقس: من رتبة الرسل.

٢. أنيانوس: أسقف.

٣. أبيليوس: قس، وهو من أصل وباسم يهودي "هابيل".

٤. كردون (كردونيوس): قس.

٥. بريموس: قس (أفرايم).

٦-١٢. ٧ شمامسة.

وقد أقام مرقس الرسول "**يسطس**" أول مدير للمدرسة اللاهوتية للموعوظين، والذي صار فيما بعد البطريرك السادس للكرسي الإسكندري.

وبحسب تقليد كنيسة الإسكندرية، كان الأسقف يُختار من بين مجمع القسوس، كما يشهد بذلك روفينوس والكتابات المنسوبة لأمبروزياستر (Ambrosiaster)[٨]. وهذا التنظيم، في الحقيقة، كان قائماً في كنيسة أورشليم الأولى (التي تكوَّنت من اليهود المؤمنين بالمسيح)، بينما في آسيا الصغرى كان الأسقف يُعاونه شمامسة فقط. لكن وجود "مجمع الاثني عشر" كان تنظيماً رسولياً جاء في إنجيل القديس متى وإنجيل القديس لوقا:

+ «أنتم الذين تبعتموني، في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسيِّ مجده، تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسيّاً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر» (مت ١٩: ٢٨؛ لو ٢٢: ٢٨-٣٠).

---

(٨) Danielou; The Christ. Centuries, Vol. 1, p. 46.

مختصر تاريخ البطاركة من الأول إلى الحادي عشر:

١ - **القديس مرقس البشير والإنجيلي**: زار مصر سنة ٦٢م، ورسم أنيانوس أسقفاً على المؤمنين في مدينة الإسكندرية سنة ٦٣م، ورسم معه ثلاثة كهنة وسبعة شمامسة. ثم رحل إلى روما حيث كان بجوار القديس بطرس والقديس بولس حتى استشهادهما سنة ٦٧ / ٦٨م. ثم عاد إلى الإسكندرية حيث استُشهد في ٣٠ برمودة.

٢ - **أنيانوس (حنانيا)**: رسمه القديس مرقس سنة ٦٣م، ومكث ٢٢ سنة على الكرسي الإسكندري. كانت هناك كنيسة على اسمه في الإسكندرية وهي البيت الذي كان يسكنه.

٣ - **أبيليوس** (المخطوطات القبطية تدعوه ميليوس): وهو من أصل يهودي واسمه اليهودي "هابيل". كان أول الثلاثة القسوس الذين رسمهم القديس مرقس خلال زيارته الأولى. تولّى الأسقفية سنة ٨٤م، وجلس ١٢ سنة على الكرسي الأسقفي.

٤ - **كِرْدون، كِرْدونيوس**: أحد القسوس الذين رسمهم القديس مرقس. تولّى الأسقفية سنة ٩٨م ومكث تسع سنوات واستُشهد على يد الإمبراطور تراجان سنة ١٠٧م.

٥ - **بريموس، أبرآيموس (أفرايم)**: ثالث القسوس الذين رسمهم القديس مرقس. تولى الأسقفية سنة ١٠٧م لمدة ١٢ سنة. حدثت في عهده ثورة عارمة من يهود ليبيا والإسكندرية ووقعوا بالوثنيين وقتلوا منهم كثيرين بلا رحمة، وحاصروهم داخل أسوار المدينة. فانتقم الوثنيون اليونانيون من كل اليهود الساكنين في الإسكندرية حتى كادوا أن يبيدوهم. وقد أرسل الإمبراطور تراجان أحد قواده Marcilis Turbo، فقام بحملة تأديبية وقتل آلافاً من المشاغبين من الطرفين حتى أخمد ثورتهم.

٦ - **يسطس، (يوستينوس)**: رُسم أسقفاً سنة ١١٩م. ويذكر سنكسار الكنيسة الإثيوبية أن القديس مرقس هو الذي عمَّده، وكان صالحاً عاقلاً محبوباً من الله.

٧ - **يومينيوس**: تولّى الأسقفية سنة ١٣٠م، والتاريخ صامت عن الآلام التي حاقت بالمؤمنين في مصر خلال رئاسته للكنيسة، وأثناء زيارة الإمبراطور هادريانوس لمصر، حيث أقام عمود بومبي (عمود السواري في الإسكندرية)، وحضر احتفالات "تأليه" صديقه المفضَّل "أنتينوس" الذي سُمِّيَت على اسمه عاصمة طيبة الجديدة "أَنْصِنا" على الضفة الشرقية للنيل أمام ملوي. ولا شكَّ

أن المسيحية في مصر عانت كثيراً في هذه الفترة نتيجة ثورة ابن كوكبا في فلسطين سنة ١٣٢-١٣٥م[٩] الذي حاول إجبار المؤمنين في فلسطين على الانضمام إلى ثورته ضد روما باعتباره المسيَّا، وبتزكية وتأييد الرابِّي بن عقيبا أكبر الربِّيين اليهود في مدرسة طبرية اليهودية التي حلَّت محل هيكل أورشليم بعد خرابه سنة ٧٠م. وفي نفس هذه الفترة انتشر وباء هرطقة الغنوسية على يد معلِّميها الكبار في الإسكندرية وهم باسيليدس[١٠] (E.H. IV 7)، كاربوكراتس، فالنتينوس (الذي كان في أرسينو "الفيوم" وسافر إلى روما محاولاً أن يكون أسقفها).

٨ - **مرقيانوس:** تولَّى الأسقفية سنة ١٤٣م، وصحة اسمه "مرقس" لكن تعدَّل إلى مرقيانوس، حيث جرت العادة في الكنيسة شرقاً وغرباً ألا يُطلق اسم مؤسس الكرسي الرسولي على أحد الجالسين عليه في الأجيال التالية، فاسم "بطرس" لم يُدْعَ على أي أسقف من أساقفة روما. كما أنه لم يحمل أحد من بطاركة الإسكندرية اسم مرقس حتى القرن التاسع.

٩ - **قيلاديون:** تولى الأسقفية سنة ١٥٣م، وكان محبوباً من شعبه.

١٠ - **أغريبينوس:** تولى الأسقفية سنة ١٦٧م.

١١ - **يوليانوس:** تولى الأسقفية سنة ١٧٩م. ومن عهد هذا البطريرك لم يعُدْ أحد من أساقفة الإسكندرية يستطيع الإقامة فيها بسبب شدة الاضطهادات.

النشاط الرعائي للكنيسة:

إن أية معلومات وافية لدينا عن نشاط كنيسة الإسكندرية، يبدأ حوالي سنة ١٥٠م بظهور العلاَّمة بنتينوس مدير المدرسة اللاهوتية في الإسكندرية. ولكن ذُكر الكثير قبل ذلك عن نشاط البدعة الغنوسية والمدارس الغنوسية المتنوعة.

والسؤال الآن: **هل هناك سبب أو علَّة وراء اختفاء ذِكْر نشاط الكنيسة المسيحية وليدة كنيسة أورشليم؟** هذا السكوت أعطى فرصة للاجتهادات العلمية في الغرب في أواخر القرن التاسع عشر التي لم تجد أمامها سوى نشاط أدبي غنوسي.

---

(٩) Ecclesiastical History, IV,6.

(١٠) E. H., IV,7.

ولكن يشاء الله أن تظهر دراسة جديدة عن نشأة كنيسة الإسكندرية، كان أول مَنْ قال بها هو الأب جان دانييلو J. Daniélou في بحوثه عام ١٩٦٦م، على كتابات اليهود المؤمنين بالمسيح، وعلى نشاط كنيسة أورشليم التي أرسلت بعثاتها إلى الإسكندرية. وهكذا كان الخطان يمشيان معاً: كنيسة اليهود المؤمنين بالمسيح، وإرسال البعثات إلى الإسكندرية في شخص القديس مرقس.

وأخيراً، قام الأستاذ الإنجليزي C. H. Robert أشهر علماء البرديات، وألقى ثلاث محاضرات في الأكاديمية البريطانية سنة ١٩٧٧ ونُشرت سنة ١٩٧٩. وكانت محاضراته والنتائج التي أسفرت عنها أبحاثه هي الضربة القاضية للادِّعاء بانتشار البدعة الغنوسية في كنيسة الإسكندرية، ومن ذلك الوقت (١٩٧٩م) بُدِيء في إعادة كتابة هذا التاريخ الكنسي للكنيسة من وجهة نظر صحيحة.

ما هي الأدلة التي قدَّمها هذا العالِم C. H. Robert؟

لا يجب تقييم أعمال شخصيتين هرطوقيتين مثل: باسيليدس وفالنتينوس، لتكون هي التعبير الكامل عن فترة زمنية معينة من تاريخ كنيسة الإسكندرية دون أن نبحث عن ردود الفعل التي أثارتها هذه المبادئ لدى الكنيسة. قد يكون دمغ كنيسة الإسكندرية بالغنوسية في القرن الثاني صحيحاً لو كان هناك صمت كامل من جهة "الكنيسة الجامعة" تجاه هذه الهرطقة. ولكن البراهين المادية الملموسة تحت أيدينا هي التي تدحض أفكار أولئك العلماء الذين نعتوا مسيحية مصر الأولى بأنها هرطوقية، إذ تقول:

١. جميع الكتابات الغنوسية المكتشفة في مصر مترجمة في **القرنين الرابع والخامس**، وفي وقت كانت العقيدة الصحيحة سائدة في مصر، وكانت كنيستها في منتهى القوة بشهادة العالم كله.

٢. يُقال إن الكتابات الغنوسية المكتشفة في نجع حمادي مترجمة عن أصول يونانية يرجع تاريخها إلى القرن الثاني. ولكن حتى الآن لم نعثر على أية برديات غنوسية مصرية من القرن الثاني، في الوقت الذي عثرنا فيه على ١٤ بردية للعهد الجديد والكتابات الكنسية القانونية من نفس القرن، وهي موزَّعة على مساحة جغرافية ممتدة: أرسينو (الفيوم) - هيراكليوبوليس (إهناسيا المدينة بني سويف) - أُكسيرنخوس (البهنسا غرب المنيا) - أنتينوبوليس (شرق المنيا). هذا يعني أن برديات العهد الجديد والكتابات الكنسية القانونية كانت متداولة في الكنيسة المسيحية في هذه البقعة المترامية من الصعيد. أما عدم العثور على برديات من هذا النوع من الكتابات الأرثوذكسية

في الدلتا والإسكندرية، فلا يرجع بأي حال إلى أنها لم تكن متداولة فعلاً، ولكن ربما يرجع عدم عثور علماء حاليين على مثل هذه البرديات إلى رطوبة الجو في الوجه البحري مما أتلف هذه البرديات، وقد يُعثر في المستقبل على مثل هذه البرديات.

لذلك يتعجب هذا العالِم الكبير C. H. Robert، إذ كيف يُكتب في موسوعة *Cambridge History of the Bible,* Vol. 1 هذه العبارة: ''في القرن الثاني بحسب ما وصل إلى علمنا ومعرفتنا، فإن المسيحية في مصر كانت هرطوقية Heterodoxy''.

ويستكمل العالِم الإنجليزي تعليقه: ''الكنيسة كانت صاحية وواعية لأولادها حتى أنه بمجرد استشعارها خطر الغنوسية، كانت كتابات القديس إيرينيئوس أسقف ليون بفرنسا في الردِّ على الهراطقة (سنة ١٨٠ـ١٩٠م) بين يدي شعبها، حيث عثرنا على بردية يرجع تاريخها إلى نهاية القرن الثاني من البهنسا (أُكسيرنخوس). أي قبل أن يجف الحبر على ورق نساخة الكتاب الأصلي للقديس إيرينيئوس، كانت نُسخه توزَّع في مصر وتُنسخ في "أُكسيرنخوس" موطن العلم والكُتَّاب، ليس في مصر فقط، بل وفي العالم الروماني وقتئذ. هذا يكشف مدى يقظة الكنيسة والعلاقات التي كانت تربط الإسكندرية مع روما في هذا القرن''.

لكن، هل هناك تعليل معقول لغياب أية آثار أدبية صادرة عن المسيحيين من أصل يهودي في الإسكندرية؟ هل لأنهم كانوا أقلية عددية ضئيلة؟ إنَّ حلَّ هذه المعضلة ربما يكون في علاقة الكنيسة ونشأتها باليهودية.

فالعلاقات السيئة بين اليهود وجيرانهم من الوثنيين كانت أمراً شائعاً في العالم القديم. وبالنسبة لمصر والإسكندرية سنُعدِّد هنا المصادمات التي حدثت في القرن الأول الميلادي:

١. سنة ٣٨م، أثناء زيارة هيرودس أنتيباس للإسكندرية، حدث شغب انتهى إلى مذابح دموية بين اليهود واليونانيين. وحدث من اليهود رد فعل للانتقام سنة ٤١م، جعل الوالي الروماني يستعمل قواته لردع اليهود، مما تسبب في إسالة دماء يهودية كثيرة.

٢. عند بدء قيام ثورة يهود فلسطين سنة ٦٦م، ثار معهم أيضاً يهود الإسكندرية متضامنين مع إخوتهم، فقُتل منهم ٥٠ ألف يهودي.

٣. ثورتهم في القيروان، في عصر تراجان، والتي امتدت إلى الإسكندرية ومصر الوسطى والصعيد.

ولم يكن مؤمنو الإسكندرية المسيحيون في البداية إلا من اليهود المستوطنين هناك. وكان من الصعب أن تمتد الكرازة خارج اليهود - بسبب بغضة اليونانيين لهم - فكان هذا عائقاً مقيِّداً للكرازة.

وبذلك نضع الملامح الرئيسية لكنيسة الإسكندرية خلال القرنين الأول والثاني:

في المرحلة الأولى، كان مؤمنو الإسكندرية غير راغبين أو غير قادرين على التحرُّر من الصبغة اليهودية التي وصلت بها الرسالة إليهم. فكان مصير الكنيسة في ذلك الوقت مرتبطاً بمصير اليهودية، رغم وجود قليلين من الأمم بلا شك. لكن في عصر تراجان، وخاصة بعد انتهاء ثورة ابن كوكب اليهودية حوالي سنة ١٣٠م، حدث تغيير في الكنيسة نتيجة تغيير مصير اليهود في القرن الأول. وحتى سنة ١٣٠م، كانت الكنيسة المصرية مُعتبَرة في نظر الرومان مذهباً أو شيعة من الدين اليهودي المعترف به قانوناً، وكان عليهم سداد الضرائب للحكومة باعتبارهم يهوداً. لذلك نرى كمية من البرديات اليهودية دون أن نعثر على شيء يدل على لقب المسيحيين، لأنهم كانوا مُعتبَرين ضمن اليهود في نظر الدولة.

ولكن بعد حرب تراجان ضد اليهود سنة ١١٧م، يبدو أنهم قد أُبيدوا، حتى أننا لا نعثر على شيء ما يُذْكَر من البرديات اليهودية. فمن سنة ١١٧-٣٣٧م، يوجد عندنا ٤٢ بردية خلال ٢٢٠ سنة، مقابل ٣٠٠ بردية خلال المائة والخمسين سنة السابقة. وهذا يعني أن حملة تراجان ضدهم تسببت في إبادتهم تقريباً من مصر. وهذا يتأكَّد لنا، إذ بعد سنة ١١٧م بدأت تكثر لدينا البرديات المسيحية.

إذن، تكون الكنيسة المسيحية في الإسكندرية قد تحررت من القيود اليهودية السابقة والتي تحكَّمت في ماضيها. فكان هذا فرصة سانحة لبروز الشخصيات سواء التي تتبع الغنوسية أو التي تتبع المسيحية الصحيحة المعتقد. وهذا ما يشهد به كليمندس الإسكندري(١١)، إذ أن الحنطة كانت تنمو مع الزوان، كما في كل كنيسة أخرى وفي أية بقعة من بقاع العالم. ولكن في الوقت نفسه كانت كنيسة الإسكندرية قادرة أن تستقطب كل الاتجاهات الأخرى وتنمو وتتطور بها حتى

---

(١١) Strom. VII,166.

لا تتخلف عن التيار الكنسي الجامع لكل الكنائس. هذه القدرة على الامتصاص والتعديل والتخلُّص من الهرطقات، هي الخط البارز في نشاط مدرسة الإسكندرية اللاهوتية.



البابا ديمتريوس الأول

البطريرك الثاني عشر

في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري

(١٩١-٢٣٢م)

الأنبا ديمتريوس قبل رسامته بطريركاً:

كان هذا البطريرك قبل انتخابه بطريركاً يعمل كرَّاماً، وكان غير متعلِّم بعلوم عصره، كما كان متزوِّجاً. إذ قيل عنه إنه في شبابه كان ممتنعاً عن الزواج، لكن والده هو الذي أجبره على الزواج من ابنة عمه، فرضخ أخيراً لرغبة والده. وكانت هذه الفتاة أيضاً قد نذرت بتوليتها للرب، ولكنها أُجبرت على الزواج من هذا الشاب. ولذلك بعد اقترانهما، كاشف كل منهما الآخر بما كان يُضمره في قلبه وبما نذره من الحفاظ على البتولية، فاتفقا أن يعيشا معاً كأخ وأخت بطهارة تامة. وهكذا عاشا معاً على هذه الحال مدة ٤٨ سنة.

رسامته بطريركاً بالرغم من اعتراضه:

ولذلك عندما تمَّ انتخابه بطريركاً اعترض على هذا الاختيار، إذ جرت العادة أن يكون المرشح للبطريركية غير متزوج. ولكن برغم احتجاجه، لم يُلتَفت إلى طلبه، وتمَّت رسامته رغماً عنه في ١٨ برمهات سنة ١٩١م، في عهد كومودوس قيصر.

اجتهاده في تحصيل العلم والمعرفة:

وبمجرد رسامته بطريركاً، اجتهد كثيراً لتحصيل ما فاته من العلوم والمعارف، وفتح الله ذهنه ليُدرك الكثير من العلم والحكمة حتى أصبح في طليعة علماء ذلك العصر.

ومما يُروَى عنه أنه استحضر مُعلِّماً ليُعلِّمه، فكان يجلس هو على الكرسي ويجلس المعلِّم عند قدميه، ولكنه لم يكن يفهم شيئاً مما يُلقِّنه إيَّاه المعلِّم. وفي ذات ليلة ظهرت له العذراء مريم

وقدَّمت له قارورة ملآنه ماءً فشربها. ولما أقبل الصباح وحضر إليه المعلِّم كعادته، طلب البطريرك منه أن يجلس هو على الكرسي، بينما يجلس البطريرك عند موطئ قدمي المعلم؛ وحينئذ فتح الله ذهنه وأنعم عليه بالمعرفة والحكمة، حتى أنه كان يَعي ويفهم كل ما يُلقِّنه إيَّاه المعلِّم من أول وهلة وفي وقت قياسي.

وَضْعه حساب الأبقطي:

ونتيجة تحصيله العلوم واستيعابه لها، تمكَّن من أن يضع الحساب المعروف بـ "الأبقطي"، وهو الحساب الخاص بتحديد عيد القيامة. وهذا الحساب معمول به إلى الآن في جميع الكنائس الشرقية.

احتجاج البعض على رسامته بطريركاً وهو متزوج، وإثبات البطريرك للشعب أنه بتول هو وزوجته:

وكان هذا البطريرك يتصف بالورع والتقوى، حتى أنه لم يعرف زوجته قط معرفة الأزواج. ولكن حدث أن البعض تذمَّروا عليه بسبب زواجه، إذ لم يستحسنوا أن يكون البطريرك متزوِّجاً كباقي الشعب. وعندما وصلت إلى البطريرك هذه الأخبار وما صاحبها من سجس وقلق لدى بقية الشعب، انتهز فرصة تأدية الصلاة وانتهاء القداس، فاستحضر زوجته ووضع في جلبابها بعضاً من جمر نار الشورية، ووضع هو أيضاً بعضاً من الجمر المشتعل في جبته، وطاف هو وهي وهما على هذه الحال بين جموع الشعب وأمامهما الشمامسة وهم يُرتِّلون الألحان، حتى انتهوا من دورتهم دون أن يُصاب البطريرك أو زوجته بأي أذى. فاندهش الشعب، وتعجَّب منتقدوه، واقتنع الجميع بطهارة البطريرك، وطلبوا منه الحِلَّ والغفران.

وبعد هذه الحادثة أَمَرَ البطريرك زوجته أن تحيا في بيت للعذارى اللواتي نذرن أنفسهن للرب بالعفة والطهارة، وتكرَّسن للصلاة والعبادة.

موهبة البصيرة الروحية التي منحها الرب للبطريرك:

ولعِظَم تقواه وقداسته، قد أنعم الله عليه بالبصيرة الروحية، فكان مُطَّلِعاً بالروح على تصرفات وأعمال الناس القبيحة والشريرة. فكان يُكثر من توبيخهم وتبكيتهم لكي يتوبوا ويرجعوا إلى الرب

بكل قلوبهم. وعندما يتقدَّم أحدهم للتناول من الأسرار المقدسة، وهو مقترف خطية لم يَتُب عنها، كان يمنعه من التناول، ويكشف له عِظَم خطيته، حتى يخجل ويقر بذنبه ويتوب عن خطيته توبة صادقة.

مواظبته على أعمال الرعاية بالرغم من شيخوخته:

واستمر عاكفاً على خدمته مواظباً على أعمال البطريركية، حتى شاخ وطعن في السن، حتى كان يُحمَل على محفة، وهو لا يفتر عن التعليم والوعظ. وكان يتوافد عليه الشعب للاستفادة من تعاليمه وطرح ما عنَّ لهم من أسئلة واستفسارات، وهو كان يُجيب على أسئلة الشعب بالرغم أن قواه البدنية لم تكن تساعده وهو في هذا العمر على البحث والدراسة.

وكان بطريرك الإسكندرية في ذلك العصر هو الأسقف الوحيد للكرازة المرقسية، ولذلك رأى الأنبا ديمتريوس أنه من الضروري أن يرسم ثلاثة أساقفة للأقاليم البعيدة عن الإسكندرية، وذلك لرعاية شعبها وتعليمهم وتلقينهم الإيمان المستقيم.

الاضطهاد الذي حدث في أيام البطريرك، ونفيه إلى أوسيم:

وفي عصر الإمبراطور سبتميوس ساويرس (١٩٣-٢١١م) حدث اضطهاد عظيم على مسيحيِّي مصر؛ إذ حدث سجس واضطراب في مدينة الإسكندرية، وثار الاضطهاد على المؤمنين، فاستولى لينوس والي مصر الروماني على البطريركية، ونهب أمتعتها، كما أنه سلب أواني الكنيسة، ثم قبض أخيراً على البطريرك ونفاه إلى أوسيم، حيث مكث بها زماناً حتى هدأ الاضطهاد. وكان الإمبراطور قد أصدر مرسوماً يقضي بمنع المسيحيين من تبشير غيرهم أو ضم متنصرين جُدد. وبسبب هذا المرسوم، حلَّت أشد الاضطهادات على المسيحيين في مصر وشمال أفريقيا، واستشهد العديد من المؤمنين، ومن ضمنهم والد العلاَّمة أوريجانوس.

عودته إلى الإسكندرية، وتعيينه العلاَّمة أوريجانوس مديراً لمدرسة الإسكندرية:

وبعد أن هدأت نيران الاضطهاد، عاد الأنبا ديمتريوس إلى مقر كرسيه في الإسكندرية، وكان قد توفي الإمبراطور سبتميوس ساويرس. وعندما وصل البطريرك إلى الإسكندرية، عَلِمَ أن العلاَّمة كليمندس مدير مدرسة الإسكندرية قد اضطر للهرب تحت وطأة الاضطهاد، وانتقل إلى كبادوكية،

ثم توفِّي هناك وهو بعيد عن وطنه.

وفي سنة ٢٠٢م، عيَّن الأنبا ديمتريوس العلاَّمة أوريجانوس مديراً لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية خلفاً للعلاَّمة كليمندس الإسكندري، وذلك بالرغم من حداثة سنه، إذ قد أظهر نبوغاً وشغفاً كبيراً بالدراسة والعلم. وعندما أُسندت إلى أوريجانوس مدرسة الإسكندرية، توافد الكثيرون للاستفادة من علمه، حتى أن الكثيرين من طالبي العلم الوثنيين قد اعتنقوا المسيحية بسبب أوريجانوس.

إرساله العلاَّمة أوريجانوس إلى جزيرة العرب، وقيام أسقف أورشليم برسامة أوريجانوس كاهناً:

وقد نما إلى علم الأنبا ديمتريوس أن هناك بدعة انتشرت في جزيرة العرب، ومفادها أن النفس تموت بموت الجسد، وأنه ليس هناك قيامة للأموات. ولذلك رأى الأنبا ديمتريوس أن يُرسل العلاَّمة أوريجانوس إلى هناك لدحض هذه البدعة ورد أهلها إلى الإيمان المستقيم. وبالفعل نجح أوريجانوس في مهمته.

وفي سنة ٢٢٨م، أرسل الأنبا ديمتريوس العلاَّمة أوريجانوس إلى أخائية ببلاد اليونان لمقاومة الهراطقة. وعند رجوعه مرَّ على فلسطين، فخاطبه ألكسندر أسقف أورشليم بأنه لا يجوز لمعلِّم الأساقفة والكهنة أن لا يكون كاهناً. فاقتنع أوريجانوس بهذا الكلام، ورُسم كاهناً وهو في الـ ٤٣ من عمره.

غضب الأنبا ديمتريوس من تصرُّف أوريجانوس، وعقده مجمعاً يحرم أوريجانوس وينفيه:

وعندما عَلِمَ الأنبا ديمتريوس بذلك، غضب على هذا التصرُّف، وأمر بعقد مجمع، تمَّ فيه حرم العلاَّمة أوريجانوس ونفيه، وذلك لسببين: إن أوريجانوس وهو شاب قد خصى نفسه، وهذا الفعل يَحول بينه وبين رسامته كاهنا؛ وكذلك أنه قَبِلَ الكهنوت من يد أسقف غير أسقفه الشرعي. وعلى أثر ذلك غادر أوريجانوس مدينة الإسكندرية، وتوجَّه إلى فلسطين.

وقد قام البطريرك بتعيين هيراكلاس أحد تلاميذ أوريجانوس مكان معلِّمه.

نياحة الأنبا ديمتريوس:

واستمر البابا ديمتريوس على كرسي مار مرقس قرابة ٤٢ سنة، ثم أسلم روحه الطاهرة في يدي الرب في ١٢ بابة سنة ٢٣٢م، عن عمر يُناهز الـ ١٠٥ عاماً.

مدرسة الإسكندرية اللاهوتية

نشأة المدرسة:

كل معلوماتنا عن هذه المدرسة أنها بدأت كمدرسة للموعوظين، للتعليم الوعظي الذي كانت الكنيسة تباشره لغير المؤمنين الراغبين الدخول إلى الإيمان المسيحي. ونعلم أن مثل هذه المدارس كانت موجودة في كنائس أخرى، فمثلاً كان يوستينوس الشهيد يُمارس هذه الوظيفة كفيلسوف ومعلِّم في روما(١)؛ وكان كأي معلّم في ذلك الزمان، يحضر إليه التلاميذ في بيته، ويحاضرهم هناك. وهذا الافتراض صحيح أيضاً بالنسبة لكنيسة الإسكندرية، أي أن مدرستها للموعوظين بدأت في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي.

لكن كيف تطورت هذه المدرسة خلال قرن واحد فقط من الزمان لتصبح في النصف الثاني من القرن الثاني بالقوة التي بها تنافس المؤسسات الثقافية المعاصرة لها في الإسكندرية؟ فقد كان في الإسكندرية مكتبة ضخمة، ومتحف عظيم، وقاعات للمحاضرات، وحدائق ممتلئة من الزهور والنباتات المتنوعة التي كانت تُجرى عليها دراسات من علماء متخصصين ومتفرغين تمنحهم الحكومة مرتبات وأماكن للإقامة.

كيف استطاعت مدرسة الإسكندرية التي بدأت مثل فصول مدارس الأحد الملحقة بالكنيسة عندنا الآن، أن تصير مؤسسة أو معهداً لاهوتياً تُدرَّس فيه أيضاً العلوم الإنسانية، والفَلَك، والموسيقى، والهندسة، وحساب المثلثات... إلخ، وكتابات الفلاسفة الوثنيين من فصاحة وأصول الخطابة والبلاغة وأدب الإغريق القدماء؟

هنا لابد من الرجوع إلى الوراء قليلاً.

البيئة الثقافية ليهود الإسكندرية:

كما عرفنا، فقد نشأت المسيحية أولاً بين يهود الشتات في الإسكندرية، هؤلاء الذين ترجموا

---

(١) J. Daniélou; Christian Centuries, p. 127.

الأسفار اليهودية من اللغة العبرية إلى اللغة اليونانية والتي اشتهرت باسم "الترجمة السبعينية". وكان عليهم بعد ذلك أن يُكملوا المسيرة، لأنهم يعيشون الآن بين اليونانيين والمصريين الذين لا يكفُّون عن الافتخار بما أنجزوه ثقافياً. لذلك كان لابد من إنتاج أدبي يوازن الشعور بالنقص لدى اليهود الإسكندريين، وهذا الإنتاج لم يكن أدبياً فقط بل "أدبي - ديني". وأشهر هذه الإنتاجات هو ما كتبه يهودي إسكندري في القرن الثاني قبل الميلاد لتمجيد اليهودي التقي بقصد الدعاية للديانة اليهودية، واشتهرت في العالم باسم "نبوات سِبِلة الحكيمة"، والمعروفة الآن في أيدينا بعدما تطعَّمت بعناصر مسيحية فصارت إنتاجاً يهودياً مصبوغاً بالصبغة المسيحية.

ولكن أعظم الإنجازات اليونانية ليهود الإسكندرية كان في مجال "الحكمة"، حيث اشتهر اليونانيون بـ "الفلسفة" أي "محبة الحكمة": φίλο "محبة" - σοφὶα "حكمة". فقد نشأت في الإسكندرية مدرسة يهودية يونانية، كان فيلو اليهودي أبرز كُتَّابها. وقد نهلت هذه المدرسة من الفلسفة الهللينية وأفكارها الغنية وروحها القوية الشاملة، وانزوت تفاسير الربِّيين الفلسطينيين في الخلفية. وكان روَّاد هذه المدرسة يعتقدون بقدرتهم على بلوغ مستوى من الإدراك والفهم أدقَّ وأعمق لشريعة موسى، مستعينين بالفلسفة اليونانية.

إن اليهود فهموا الفلسفة بمعناها الحقيقي أنها محبة الحكمة والعلم. وهذا يتبيَّن من مقدمة سفر يشوع بن سيراخ: "على القارئين أن لا يقتصروا على اكتساب المعرفة، بل ينبغي أن يكونوا محبين للعلم (أي فلاسفة)". وترجع ترجمة هذا السفر إلى اليونانية من أصل عبراني أو آرامي إلى سنة ١٣٠ ق.م، كما يظهر من مقدمته.

إذن، ففي الإسكندرية كان المسيحيون الأوائل من اليهود المتنصِّرين حاملين لتراث العبادة والتقوى اليهودية التي كانت تُمارَس في المجامع اليهودية، هذا كان طبعاً في مقابل العبادة الوثنية المنحلَّة التي لا تعرف كيفية توقير ومخافة الإله الذي يتعبَّد له الوثني. وهناك أيضاً نتيجة التحدِّي الذي كان على يهود الإسكندرية أن يواجهوا به الفلسفة اليونانية، فكانوا يردُّون على ذلك بقولهم إن موسى علَّم المصريين والفينيقيين واليونانيين الحروف الأبجدية التي صار يمكن بها تداول الكتابات المختلفة. كما قالوا عن أفلاطون إن موسى هو الذي سلَّم لأفلاطون أصول التشريع. وبالتالي، فإن جميع الفلاسفة والمفكرين العِظَام لدى اليونانيين اقتبسوا وتتلمذوا لأنبياء وملوك العهد القديم وسرقوا أو نقلوا جميع المبادئ الفلسفية التي يتفاخر بها اليونانيون.

ويرجع ظهور مدرسة الإسكندرية للموعوظين إلى:

١. الميراث التقليدي ليهود الإسكندرية من جهة التقوى وعبادة الله.

٢. وجود جماعات مسيحية قوية في عبادتها.

٣. مدينة الإسكندرية كمركز ثقافي عالمي في ذلك الوقت.

على أن مدرسة الإسكندرية، وقد نشأت في مهد الفلسفة اليونانية (بريادة الفيلسوف فيلو الإسكندري)، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة، أخذت السمة التعليمية الفلسفية. وهكذا تطوَّرت من مدرسة للموعوظين المتهيِّئين للدخول في الإيمان المسيحي إلى أن صارت معهداً لاهوتياً يمارس تأثيراً قوياً على تعليم الكثيرين من الأساقفة ومعلِّمي الكنيسة. فلا عجب أن كان مُعلِّمو المدرسة رجالاً مُلهَمين (لم يكن يزيد عددهم في كل عهد من عهود المدرسة عن معلِّم واحد وفيما بعد اثنين)، اجتذبوا علماء وفلاسفة العصر وتلمذوهم عند أقدام المعلِّم الواحد والمربِّي الصالح كلمة الله (اللوغوس) المتجسِّد.

إن سرَّ نجاح مدرسة الإسكندرية، بل واستمرار بقائها على مدى قرنين من الزمان، كان يكمن أساساً في عاملين:

العامل الأول: قدرة معلِّمي المدرسة على مواجهة تحديات العصر وقضاياه الثقافية السائدة في إيجابية ورؤية واضحة عميقة.

العامل الثاني: صلابة الأرضية التي وقفوا عليها، أي أصالة المضمون التعليمي اللاهوتي الذي استطاع عن جدارة أن يكون بديلاً لأقوى حركة فلسفية شهدها التاريخ الإنساني (وإن كانت قد انحرفت عن المبادئ المسيحية)، وهي حركة الغنوسية.

وكان من أشهر علماء مدرسة الإسكندرية اللاهوتية:

العلاّمة بنتينوس

في هذا العصر كان باسيليدس أول وأكبر معلِّم غنوسي في الإسكندرية حوالي سنة ١٤٠م، وكان ينتسب أيضاً للكنيسة. وبعده بقليل كان فالنتينوس أقوى معلِّمي الغنوسية، ولكنه لم يلبث أن غادر الإسكندرية إلى روما وكاد ينجح في محاولته أن يكون أسقفاً لها حوالي سنة ١٦٠-١٧٠م. وكانت آراء باسيليدس وفالنتينوس غير مقبولة لدى كنيسة الإسكندرية.

في مقابل هؤلاء المعلِّمين الغنوسيين كان بنتينوس هو أول مَنْ نعرفه مديراً لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية وذلك حوالي سنة ١٥٠م. ومن أهم الشهادات التي وصلت إلينا والتي تُظهر مقدرته العلمية وغيرته على الكرازة بالإنجيل والحياة بمقتضى التعاليم الإلهية، ما كتبه الأسقف يوسابيوس القيصري (في القرن الرابع) في تاريخه الكنسي:

[ونحو هذا الوقت عُهد إلى بنتينوس - وهو شخص بارز جداً بسبب علمه - إدارة مدرسة المؤمنين في الإسكندرية، التي كانت قد أُنشئت بها منذ الأزمنة القديمة مدرسة للتعاليم المقدسة، ولا زالت حتى يومنا هذا. وكان يديرها -كما وصل إلى علمنا - **رجال في غاية المقدرة والغيرة نحو الإلهيات**. وقيل إنه برز من بينهم في ذلك الوقت بنتينوس، لأنه تهذَّب بفلسفة الرواقيين.

ويُقال إنه أظهر غيرة شديدة نحو الكلمة الإلهية، حتى أنه عُيِّن سفيراً لإنجيل المسيح للأمم التي في الشرق، ووصل حتى إلى الهند. لأنه كان لا يزال يوجد فعلاً الكثيرون من المبشِّرين بالكلمة، الذين سعوا باجتهاد أن يستخدموا غيرتهم الإلهية، على مثال الرسل، لزيادة انتشار وتثبيت الكلمة الإلهية...].

ثم يختتم كتاب "تاريخ الكنيسة" كلامه عن بنتينوس قائلاً:

[وبعد أعمال مجيدة كثيرة رأس بنتينوس أخيراً مدرسة الإسكندرية، وفسَّر كنوز التعاليم الإلهية (الكتاب المقدس) شفوياً وكتابةً][(١)].

ويقرر كليمندس الإسكندري أنه تتلمذ على يدي بنتينوس وأنه نهل من مَعِين علمه الذي لا

(١) يوسابيوس القيصري، "تاريخ الكنيسة"، ترجمة القس مرقس داود (V, 10, 1-4).

ينضب، وهذا الاعتراف من كليمندس في غاية الأهمية، لأنه يكشف لنا أن ما سيكتبه بعد ذلك لم يكن من تأليفه، بل كان من مضمون التقليد الكنسي. ويُورد هذه الشهادة أيضاً الأسقف يوسابيوس القيصري في كتابه ''تاريخ الكنيسة'':

[وفي كتاب (كليمندس) ''وصف المناظر''، يتحدث عن بنتينوس بالاسم كمعلمه... قائلاً: ''ليس هذا المؤلَّف كتاباً كُتب لمجرد التظاهر، ولكن ملاحظاتي قد ادُّخرت لزمن الشيخوخة خشية النسيان. هي صورة لم تمسها يد الفنان، **وهي مجرد تسجيل بسيط، غير مزوَّق، للكلمات الحيَّة القوية التي كان لي حظ سماعها**، وتصوير لأشخاص مباركين بارزين...

وقد حافظ هؤلاء الأشخاص على التقليد الحقيقي للتعليم المبارك، المسلَّم مباشرة من الرسل القديسين بطرس ويعقوب ويوحنا وبولس، إذ كان الابن يستلمه عن أبيه، وقليلون هم الذين شابهوا آباءهم، حتى وصل إلينا بإرادة الله، لنحافظ على هذه البذار الرسولية'']([٢]).

ترجمة أسفار العهد الجديد إلى اللغة القبطية:

ومن أشهر الأعمال العلمية التي قام بها العلاَّمة بنتينوس - بخلاف تفسيره لأسفار الكتاب المقدس، والتي لم يصل إلينا منها أية كتابات - أنه قام بمساعدة تلميذه كليمندس الإسكندري **بترجمة العهد الجديد من اللغة اليونانية إلى اللغة القبطية**، وذلك بعد أن قاما بكتابة اللغة المصرية القديمة (الديموطيقية) بحروف يونانية مضافاً إليها سبعة حروف غير موجودة في الأصل اليوناني، وما زالت هذه الترجمة هي المستخدمة في الكتب الطقسية في الكنيسة القبطية حتى الآن.

---

(٢) يوسابيوس القيصري، ''تاريخ الكنيسة''، ترجمة القس مرقس داود (V, 11, 2-5).

العلاّمة كليمندس الإسكندري

رغم معرفتنا الضئيلة عن سيرته وحياته، لكن هناك إمكانية على كل حال لمعرفة شيء من تاريخه. يقول القديس إبيفانيوس أسقف قبرص في القرن الرابع، وعنه نقل كل الكُتَّاب: إنه من مواليد أثينا، ولكن القديس إبيفانيوس جاء بهذه المعلومة تحت ظلال من الشك، لأن معرفة كليمندس بالتيارات الفكرية في الإسكندرية وتفاصيل الحياة الاجتماعية فيها ترجِّح لنا بالأكثر أن ولادته ومعيشته كانتا بالإسكندرية[1]. وقد زار بلاداً عديدة مثل: جنوب إيطاليا، بلاد اليونان، سوريا. وأخيراً، استقر في الإسكندرية وخَلَف بنتينوس في مدرسة الإسكندرية بعد أن تتلمذ له مدة من الزمن سنة ١٩٠م. وقد كان كاهناً في كنيستها واستمر فيها حتى الاضطهاد الذي أثاره ساويرس سنة ٢٠٢م، فاضطر للاختفاء حيث سافر إلى أورشليم، حيث نجده هناك سنة ٢١٥م حينما أرسله أسقفها (الذي يُدعى ألكسندروس، الذي كان صديقه وتتلمذ له في مدرسة الإسكندرية) برسالة إلى كنيسة أنطاكية.

وقد كتب كليمندس ثلاثة مجلَّدات:

١. دعوة لليونانيين *Protrepticus*.

٢. المعلِّم أو المربِّي *Paedagogus* في ثلاثة كتب.

٣. المتنوعات أو المتفرقات *Stromateis* في ثمانية كتب.

وهناك مقالة أخرى له معروفة بعنوان: "هل يخلص الغني"؟ والهدف منها هو التأكيد لتلاميذه من الأغنياء والمثقَّفين على أن المسيح لا يدين ولا يرذل الثروة والغِنَى، بل يُبيِّن موقف الإنسان من هذا الغِنَى.

وأيضاً له بعض شذرات أخرى بسيطة.

ولكن كان يوجد إلى جوار الكنيسة ومدرستها الوعظية غنوسيون يؤمنون بالمسيحية، ولكن إفراطهم في الثقة بالفلسفة والعقل البشري جعلهم يخاطرون ويغامرون بالخروج عن الخط الكنسي

(1) Christ. Centur. P. 128.

التقليدي. ولذلك نلاحظ أن الدراسات التي جرت على كتابات كليمندس كشفت عن وجود إحساس بالخطر تجاه حركات الغنوسية من جانب المؤمنين.

وكان لابد من وجود رد فعل مقابل هذه الحركات الغنوسية التي قامت على هامش الكنيسة، ولكنها صارت موضع خطورة. وكان كليمندس هو أحد رواد هذه الحركة في مواجهة الغنوسية. فهو غنوسي حقيقي أي مؤمن بتقاليد الكنيسة وعقائدها وخاضع تماماً لكل سلطانها، لكنه يسعى إلى معرفة فكرية أكثر تعمُّقاً من الحقائق العامة المعترَف بها. لذلك كان التحدي في كنيسة الإسكندرية أكثر وضوحاً من سائر الكنائس الأخرى:

[الآباء وضعوا أساساً متعدد القوى والصفات: بوليكاربوس (أسقف أزمير) يمثِّل بساطة الأسقفية ورزانتها؛ إغناطيوس (أسقف أنطاكية) يمثِّل التقوى الكنسية ووحدة الأسقفية والكنيسة والشعب واستعداد الشهادة؛ يوستينوس (الفيلسوف) يمثِّل الغيرة الرسولية؛ إيرينيئوس (أسقف ليون) يُمثِّل رصانة التعليم والتقليد؛ **كليمندس الإسكندري يُمثِّل الخصب الفكري والاتجاه الاجتماعي**؛ أوريجانوس يُمثِّل عبقرية المعرفة وعمق التأمل وعنف التقشف؛ كبريانوس (أسقف قرطاجنة) يُمثِّل الصرامة الكنسية؛ أثناسيوس يُمثِّل أصالة الإيمان الرسولي والإلهام الإنجيلي؛ ذهبي الفم (بطريرك القسطنطينية) يُمثِّل البراعة في الوعظ الإنجيلي؛ كيرلس الإسكندري (البابا الـ ٢٤ في عداد بطاركة الإسكندرية) يُمثِّل الدقة في اللاهوت العقائدي. قواعد لا تزال تطلب بنائين جُدداً في كل جيل، وتقليد زاخر بمناهج الروح يفيض بالحياة لكل مَنْ يريد أن يحيا](٢).

وأصبح أمام الكنيسة - بسبب الغنوسيين - سؤال ينتظر جواباً:

هل يمكن للفلسفة - أي الحكمة - أن تتصالح مع المسيحية؟ فالشِّيَع الغنوسية ألقت في روع الشعب الكنسي أن مواجهة العقل البشري أمر مُرعب يقتضي الفرار أو الخجل.

والجواب الذي قدَّمه ترتليانس (في شمال أفريقيا) - وهو مُعاصر لكليمندس - أنه لا مصالحة مع العقل البشري، لأن أصل كل هرطقة نابع من إحدى المدارس الفلسفية. أما كليمندس فقد

(٢) "التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي"، للأب متى المسكين، مطبعة دير القديس أنبا مقار، الطبعة الثانية: ١٩٨٥، ص ٢٠،٢١.

اتخذ الجانب المقابل، إذ أن إيمانه بالمسيحية والتصاقه بالكنيسة بروحه وقلبه وحياته؛ لم يمنع إحساسه بنوع من ردِّ الجميل تجاه الفلسفة الهللينية، كما ظهر ذلك قبلا في يوستينوس الشهيد مثلاً، مع الفارق بين الاثنين، حيث تبدو الاقتباسات كثيرة جداً عند كليمندس وخاصة في كتابه "المتنوعات" *Stromata*.

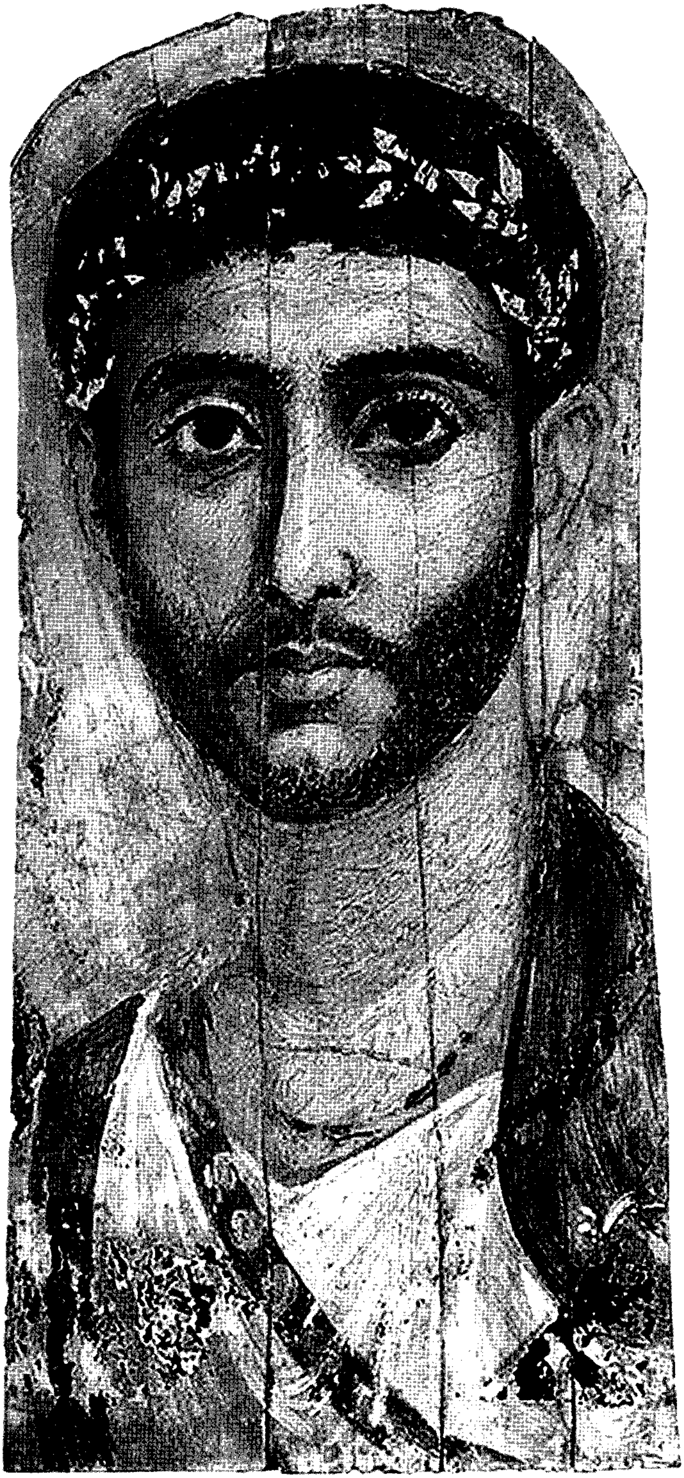
ويتلخَّص جواب كليمندس، في أن الفلسفة اليونانية هي **"هبة من الله"**، ولها هدف خلاصي، سواء في آثارها على الوثنيين في الماضي أو على المسيحيين في الوقت الحاضر. ففي كتابه هذا "المتنوعات" يبدو سمو الحق المسيحي الذي لا يُجارَى، ولكن للفلسفة الوثنية أيضاً دور ثانٍ وتمهيدي، لكنه مفيد ولازم على كل حال. فالفلسفة هي "البحث عن الحق"، وهكذا كان دورها في العالم الوثني. ولكن تعريفه للفلسفة - أي محبة الحق والسعي وراءه - يؤكِّد أن ليس كل فلسفة ينطبق عليها هذا الكلام مثل: الرواقية، الأفلاطونية، الأبيقورية، الأرسطوطالية... إلخ. ولكن أفضل ما في كل فلسفة من هذه المدارس يكوِّن في مجموعه ما سماه كليمندس "الفلسفة".

الكنيسة:

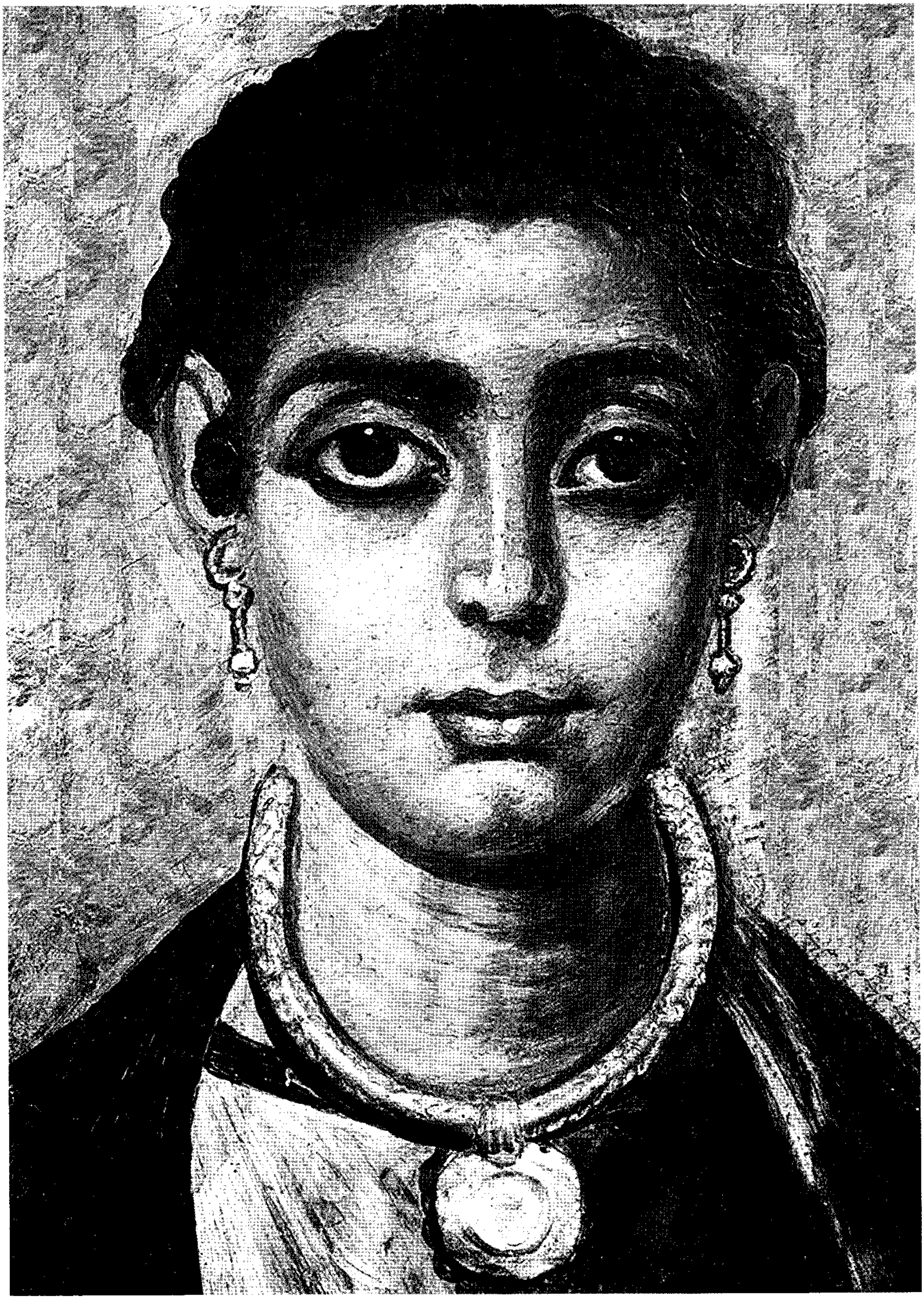
كان كليمندس يُعرِّف الكنيسة بأنها "أمٌّ"، ويحبها بهذه الصفة. هذا التوقير البنوي يظهر في كتابه "المربِّي" (*Paed* III, 12:99; 18:101:1,2) وغيره[٣]. مثل هذه الكنيسة لا يمكن أن تتلاشى كما يقول الغنوسيون، نتيجة ذوبان الأيونات في الملء πλήρωμα، فهي تحيا وتمارس وظيفتها هنا. ولكن هذه الكنيسة التي على الأرض هي صورة للكنيسة السمائية. وليس في هذا عجب بالنسبة لكليمندس الذي كانت روحه تتوق إلى العالم السمائي، إلى جبل الله المقدس، وكنيسة الأعالي؛ حيث يجتمع فيها فلاسفة الله - الإسرائيليون الحقيقيون - أنقياء القلب، وكل الذين "ليس فيهم غَضَن ولا غش".

---

(3) Heresy & Orthodoxy, p. 349.



رجل مصرى من القرن الأول



سيدة مصرية مرسومة بألوان شمعية على خشب (١٣٠-١٦٠م)



القديس البابا ديمتريوس الكرَّام (١٩١-٢٣٢م)



العلاَّمة كليمندس الإسكندري

القرن الثالث

كنيسة الإسكندرية

في القرن الثالث

العلاّمة أوريجانوس

١ . نشأته وحياته

تزداد معرفتنا بكنيسة الإسكندرية ابتداء من القرن الثالث حيث يستفيض المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري في الحديث عن مدرسة الإسكندرية وأساقفتها. في هذا القرن كانت الحركة الفكرية التي بدأها بنتينوس في منتصف القرن الثاني، وامتد بها كليمندس وتوسَّع فيها حتى نهاية هذا القرن الثالث، قد أثمرت[1]، وبدأنا نرى ثمارها في رؤساء مدرسة الإسكندرية، مدرسة التعليم الوعظي التابعة للكنيسة.

وأوريجانوس يُعتبر الشخصية الفذَّة كمعلِّم وكعالِمٍ في الكنيسة الأولى، شرقاً وغرباً، شخصية لا غبار عليها سلوكياً وأخلاقياً، ومن جهة التحصيل يُعتبر بمثابة دائرة معارف Encyclopedia. وبتقرير العالِم Quasten فإن أوريجانوس هو من بين هو أكبر المفكِّرين المسيحيين أصالة في العالم منذ نشأة الكنيسة وحتى الآن.

النشأة:

من جهة اسمه ”أوريجانوس“ فهو منسوب إلى إله المصريين الفراعنة ”حورس“. لذلك حاول بعض النقَّاد المحدثين أن ينسبوا تسميته هذه إلى أن ميلاده كان موافقاً لأحد أعياد هذا الإله في مصر، أي أنه مولود من عائلة وثنية:

---

(1) HE VI:14,8,9; J. Lebreton, J. Zeiller: The Triumph of Christianity, p. 24.

[يرى البعض أن مرسوم سبتميوس ساويرس الصادر سنة ٢٠٢م بمنع التحوُّل للديانتين اليهودية والمسيحية، والمحاكمة والموت للمخالف، واستشهاد ليونيدس أبي أوريجانوس؛ هي قرائن على أنه ربما يكون قد دخل للمسيحية حديثاً][٢].

ولكن الفحص المتأنِّي لكل كتاباته ولكل ما حفظه لنا التاريخ من الذين كتبوا عنه في القرون الأولى، يبين لنا أنه وُلد في أسرة مسيحية تقية سنة ١٨٥م في الإسكندرية.

وبذلك يُعتبر أوريجانوس من أوائل آباء كنيسة الإسكندرية المصريين. فأوريجانوس مصري اسماً وجنساً **وتربَّى في المسيحية منذ أقماط طفوليته**. واهتم أبوه ليونيدس بأن يعلِّمه الكتب المقدسة منذ طفوليته (*HE* VI 2:9-11). فلما صدر مرسوم سبتميوس ساويرس كان ليونيدس أحد ضحاياه، فاعتُقل واقتيد للاستشهاد. وكان أوريجانوس ما يزال ابن ١٧ سنة، وكان اشتياق الغلام للاستشهاد لا يقل عن اشتياق أبيه. فقد كتب لأبيه قائلاً: "لا تتراجع خوفاً علينا" (*HE* VI 2:5,6).

هذا الحماس الذي كان لدى الأب والابن، هو إحدى سمات ذلك العصر الذي شهد سرعة ترقُّب المجيء الثاني للمسيح، والزهد في العالميات، وحب العفة. وسنرى تباعاً في حياة أوريجانوس سيطرة هذه المبادئ: حب الاستشهاد، والمخاطرة بالحياة!!

وباستشهاد ليونيدس ومصادرة أموال الأسرة، آلت الأسرة إلى فقر شديد، ووجد أوريجانوس نفسه مسئولاً عن أمه وإخوته الستة الصغار. لذلك فقد احترف، وهو ما يزال في سن السابعة عشرة، مهنة التدريس، تدريس الآداب اليونانية القديمة بعد أن تكفَّلت به سيدة مُحسنة لتكميل دراسته ليتمكن هو من التدريس.

لقد اضطر العلاَّمة كليمندس للهرب إلى فلسطين من جراء اضطهاد سبتميوس ساويرس، فتوقفت مدرسة الموعوظين. لذلك طلب أنبا ديمتريوس أسقف الإسكندرية من أوريجانوس أن يتفرغ لإحياء هذه المدرسة وموالاة التعليم فيها. وقد باع أوريجانوس، وهو ابن ثماني عشرة سنة، مكتبته وتفرَّغ لتنشيط مدرسة التعليم الوعظي. وكانت هناك خطورة شديدة على فتى ابن ثمانية عشر عاماً، لأن مرسوم سبتميوس ساويرس كان ما يزال ساري المفعول كسيفٍ مسلَّط على كل مَنْ يتقدَّم لتغيير ديانته إلى المسيحية. لذلك كان كثير من الموعوظين المنتظمين في التلمذة لأوريجانوس

---

(2) H. Chadwick; Alex. Christ. p. 172.

من الشهداء الذين أحصاهم يوسابيوس: بلوتارك، وهو وثني متحوِّل إلى المسيحية؛ كيرينوس؛ هيراكليدس؛ هيرو؛ بوطامينا وإيرائيس (*HE* VI 6:4,5). وكان أوريجانوس يسعى لمعونة هؤلاء المعتقلين ليس فقط أثناء السجن، بل حتى وهم يُساقون للتحقيق وللمحاكمة وسماع الحكم بالموت. فكان ينتظرهم في الطرق أو الميادين ويخرج من صفوف المتفرجين لتقبيلهم القبلة الرسولية مما كان يثير ضده غضب المتفرجين والعامة (*HE* VI 3:4).

ويُعطينا يوسابيوس صورة عن الحياة اليومية لأوريجانوس:

[لقد حفظ على قدر طاقته أسلوب المعيشة الفلسفي، مرَّةً يدرِّب نفسه بالصوم، وأخرى يُلزم نفسه بالنوم على الأرض الجرداء بدلاً من النوم على فراش. وفوق كل شيء كان يعتبر أقوال المخلِّص في الإنجيل قابلة للتنفيذ، وهي التي تحثُّنا على ألاَّ يكون لنا ثوبان ولا نرتدي الأحذية ولا نقلق لأمور الغد][٣].

وهذا ما جعله في هذا الوقت يُطبِّق حرفياً قول المسيح: «يوجد خصيان خَصَوْا أنفسهم لأجل ملكوت السموات» (مت ١٩:١٢)[٤]. وهذا نتيجة الإفراط في الحماس. فالبعض يعلِّل هذا التصرُّف بأن أوريجانوس خشي على نفسه من العثرات، وخاصة أنه كان في خدمته لأغراض النساخة والنشر فتيات وشابات حدثات، ومن المستمعين إليه في محاضراته في مدرسة الوعظ سيدات وفتيات. ولكن الدراسة النقدية الفاحصة لكل كتاباته لم تكشف عن أي ميول نفسية أو تحركات عاطفية خاطئة داخله. وليس من تعليل لهذا سوى الإفراط الحماسي المتطرف الذي كان سمة هذا العصر وكان له صدى عميق لدى أوريجانوس، كما ظهر في اندفاعه لمحاولة الاستشهاد مع أبيه ليونيدس لولا أن أمه خبَّأت عنه ملابسه. وقد أعطى علماً بذلك لأسقفه أنبا ديمتريوس فأعجب بشجاعته (حسب تقرير يوسابيوس) في وقتها، ولكن فيما بعد جعلها قضية ضده.

---

(3) HE VI:3,9,10.

(٤) هذا الفعل تُحرِّمه القوانين المدنية (راجع: Justin, *Apol.* I:29)، والكنيسة لم توافق عليه حتى حرَّمته رسمياً (القانون الأول من قوانين مجمع نيقية). وأوريجانوس كتب بعد ذلك معلِّقاً على هذه الآية: "إن كانت هناك أجزاء أخرى ليس في العهد القديم فقط بل وفي العهد الجديد، والتي ينبغي تطبيق هذه الآية عليها: «الحرف يقتل لكن الروح يُحيي»؛ فإن هذه الآية يلزم تطبيقها على نص (مت ١٩:١٢) بالذات" (*In Math.* Vol XV 1).

رحلته إلى روما:

بعد عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة من التدريس مضى في زيارة إلى روما خلال حبرية زفيرينوس واستمع إلى عظة عن المخلِّص لهيبوليتس الذي كان وقتها كاهناً في روما، وقامت بينهما صداقة (ربما كانت هذه الصداقة سبباً بعد ذلك لعدم رضاء أساقفة روما عن أوريجانوس بسبب أحداث خلافية بين هيبوليتس وأساقفة روما).

نمو مدرسة الإسكندرية:

لم يستطع أوريجانوس أن يبقى هكذا بدون مساعد وقد نمت المدرسة وصارت بحاجة إلى مَنْ يُعاونه. فقد كان يُدرِّس في هذه المدرسة: الفصاحة (الخطابة)، الطبيعة، الرياضة، الهندسة، والفلك (Quasten, *Patrology,* Vol. II, p.38). لذلك طلب أوريجانوس معاونة من هيراكلاس الذي أوكله على تعليم المبتدئين سنة ٢١٥م. وكان هيراكلاس هذا قد انتظم في تعلُّم الفلسفة لمدة خمس سنوات.

رحلاته لبلاد العرب وفلسطين:

حوالي سنة ٢١٥م، وصلت رسالة إلى أنبا ديمتريوس وأخرى إلى والي الإسكندرية من والي بلاد العرب (الصحراء الواقعة بين سوريا ونهرَي دجلة والفرات، والتي سمَّاها القديس بولس ''العربية'')، يرجوهما إرسال أوريجانوس إليه للتباحث في بعض أمور الدين (*HE* VI 19:15). وهذا يكشف عن أن مرسوم سبتميوس ساويرس قد ضعف تأثيره، وصار هناك تطلُّع وفضول أكثر نحو المسيحية بين الولاة والقوَّاد الرومانيين. وقد قام بهذه المهمة وعاد مسرعاً.

والحقيقة أن علاقة كنيسة الإسكندرية بمنطقة العربية تمتد إلى القرن الأول لكنيسة الإسكندرية، حيث نرى بنتينوس في رحلة كرازية إلى بلاد الهند مروراً بهذه البلاد: العربية والعراق!! أو العربية واليمن!!

وحوالي سنة ٢١٦م، وعقب عودته، رأى أن كاراكَلّلا - الإمبراطور الذي خلف ساويرس - قد قام بمذبحة بشعة في الإسكندرية. إذ دعا كل شباب المدينة إلى احتفال خاص في الملعب الإسكندري الضخم، ولما اجتمع الشباب أعطى إشارة متفَقاً عليها مع جنوده وقواده فاقتحموا الملعب وقتلوا كل مَنْ فيه من الشباب، وهذا كان عقاباً لهم على الشَّغب الذي قاموا به في المدينة.

وقد قام بطرد كل الأجانب والغرباء، وأغلق المدارس، ومنع الاحتفالات والاستعراضات.

ونتيجة لذلك، رحل أمبروسيوس الصديق الثري لأوريجانوس الذي كان يصرف مرتبات المختزلين والنُّسّاخ العاملين مع أوريجانوس، رحل إلى فلسطين وصاحبه أيضاً أوريجانوس؛ حيث وجد ترحيباً من ألكسندر أسقف أورشليم وتلميذ كليمندس وزميل أوريجانوس في الدراسة. وهناك دعا ألكسندر العلاّمة أوريجانوس للوعظ في كنيسة أورشليم، فابتدأ أوريجانوس يعلِّم ويعظ رغم أن تقليد كنيسة الإسكندرية آنذاك كان يمنع العلمانيين من الوعظ والتعليم في الكنائس ما لم يكونوا من رتب الكهنوت. فلما علم ديمتريوس بذلك احتج لدى أساقفة فلسطين واستدعى أوريجانوس، فعاد وعاود نشاطه في المدرسة الوعظية.

رسامته وحرمانه:

وفي سنة ٢٣٠م، استُدعي أوريجانوس إلى بلاد اليونان لمناقشة إحدى البدع هناك، وأثناء عبوره على فلسطين رسمه أساقفتها كاهنا، وكانت هذه خطوة أكثر خطورة وتحدِّياً لقوانين كنيسة الإسكندرية، مما أثار عليه أسقفها، لأن أوريجانوس لا يتبع كنيسة فلسطين بل كنيسة مصر. وكان ديمتريوس أسقف الإسكندرية على حق حينما عَلِمَ أن أوريجانوس رُسم بدون موافقته. لذلك عقد مجمعاً في الإسكندرية وقرر حرمان أوريجانوس وإبعاده عن المدينة، ولكن لم يمنعه من كهنوته. ولكن هناك دلائل تقول إن ديمتريوس مع أساقفته أعلنوا تجريد أوريجانوس من الكهنوت سنة ٢٣١م، وأرسل بذلك قراراً لكنيسة روما، فجمع أسقفها مجمعاً ووافق على قرار أنبا ديمتريوس. لكن أساقفة فلسطين، أخائية، العربية، فينيقيا، وكبادوكية، لم يُنفِّذوا هذه القرارات.

المرحلة الثانية من حياته في قيصرية فلسطين سنة ٢٣٢ـ٢٥٣م:

بخروج أوريجانوس من الإسكندرية، رحَّب به ثيئوكْتِسْتُس أسقف قيصرية فلسطين متجاهلاً قرارات مجمع الإسكندرية، وشجَّعه على إنشاء مدرسة ثانية في قيصرية ترأَّسها لمدة عشرين سنة تقريباً، وهناك تتلمذ له القديس غريغوريوس المشهور بصانع العجائب وأخوه. هذا كان من أسرة غنية من بنطس ولكنها وثنية، ولما مات أبوه وكان ابن أربع عشرة سنة تحوَّل إلى المسيحية وحاول أن يكون محامياً، فسافر هو وأخوه إلى بيروت التي اشتهرت مدرستها بالمحاماة، وقد صاحبتهما أختهما التي كانت متزوجة من مساعد حاكم فلسطين السورية إلى قيصرية. وهناك سمعوا عن

أوريجانوس وتعليمه، فتتلمذوا له. وبعد خمس سنوات من الدراسة، عاد الشقيقان إلى بنطس حيث اختيرا كلاهما للأسقفية. وقبيل رحيلهما من قيصرية، ألقى غريغوريوس خطاباً وداعياً ما زال محفوظاً لدينا، وتتركَّز أهميته في الإشادة بقدرة أوريجانوس التربوية في إيقاظ مواهب تلاميذه وتربيتهم وثقافتهم.

وهكذا كانت بلاد المشرق معجبةً بأوريجانوس، والدليل على هذا ليس فقط فيما قاله وكتبه غريغوريوس العجائبي، ربما لأن فيه بعض المبالغات من حماس الشباب؛ ولكن فيما قاله أسقف آخر هو فيرميليان Firmilian أسقف قيصرية الكبادوك، وكان أيضاً أحد تلاميذ أوريجانوس (وهو أسقف مُبَجَّل في الكنيسة الشرقية بسبب موقفه من بدعة بولس الساموساطي).

وهكذا بينما كانت الإسكندرية وروما تقفان موقف المعارضة ضد أوريجانوس، كانت بلاد المشرق بأساقفتها معجبةً غاية الإعجاب به. وبدأنا نرى - بسبب أوريجانوس - أول انقسام في الرأي بين أساقفة روما والإسكندرية من جهة، وبين أساقفة المشرق من جهة أخرى؛ حيث لم نَرَ تأثيراً يُذكر لمبادئ أوريجانوس وتفسيراته بالقدر الذي ظهر في المشرق.

وقد حاول أوريجانوس العودة مرة ثانية إلى الإسكندرية بعد نياحة البابا ديمتريوس سنة ٢٣٢م، إلا أن خليفته هيراكلاس - الذي تولَّى مدرسة الإسكندرية بعد رحيل أوريجانوس وكذلك البطريركية بعد نياحة البابا ديمتريوس - تمسَّك بقرارات مجمع الكهنة والأساقفة الإسكندريين. ولكن فيما بعد - وعند القبض عليه وتعذيبه سنة ٢٤٨م - وصلته رسالة عزاء من أسقف الإسكندرية أنبا ديونيسيوس البطريرك الـ ١٤ تُشدِّده وتُشجِّعه، بالرغم من أنه لم يرفع عنه الحرومات. وجديرٌ بالذكر أن القديس أثناسيوس يستشهد برأي أوريجانوس أكثر من مرة ويدعوه "الرجل المجاهد" أو "محب الجهاد" φιλόπονος(٥).

٢. آثاره ومؤلَّفاته الأدبية

تسبَّبت المجادلات الأوريجانية Origenistic Controversies في ضياع أغلب آثار هذا المعلِّم

---

(٥) *PG* 25,465B; *PG* 26,649B.

الإسكندري العظيم، وما تبقَّى منها وصل إلينا معظمه في ترجمة لاتينية ليست حسب الأصل اليوناني. ويقول يوسابيوس القيصري في نهاية سيرة حياة أوريجانوس التي دوَّنها، إنه أرفق قائمة كاملة لأعمال أوريجانوس في الدفاع الذي وضعه هو وصديقه ومعلِّمه بامفيلوس القيصري، ولكنها قد ضاعت أيضاً. أما القديس جيروم الذي اقتبس منها (*Adv. Ruf.* 2:22)، فقد أحصى لنا ألفين من المؤلَّفات، وقد أورد لنا عناوين لستمائة مقالة وكتاب في رسالته إلى تلميذته باولا (*Ep.* 33)، بينما يُقدِّرها القديس إبيفانيوس بستة آلاف (*Haer* 6 4:63).

ولم يكن ممكناً لأوريجانوس أن يكتب هذه الحصيلة الضخمة من المؤلَّفات لولا المساعدات التي قدَّمها أصدقاؤه، وخصوصاً أمبروسيوس الذي كان سابقاً من أتباع بدعة فالنتينوس في الإسكندرية، ثم انضمَّ للكنيسة على يد أوريجانوس، فخصَّص له سبعة من الكتبة المختزلين Stenographers يتناوبون عليه ليُملي عليهم ما تجود به قريحته، مع مجموعة أخرى من الفتيات والشابات ذوات الخط الجميل Calligraphers لنسخها ونشرها (Euseb; *EH* VI 23:1,2).

وهاك بعض الأمثلة لنشاطه العبقري الفذ:

أولاً: الهِكْسَابْلا:
أي (العهد القديم ذو الستة الأعمدة) ἑξάπλα βιβλία:

أعظم ما خرج من تحت يدي هذا المفكِّر العلاَّمة كان مُخصَّصاً لدراسة الكتاب المقدس. والهكسابلا التي تركها لنا جعلته يُعتبَر مؤسِّساً لعلم ضبط نصوص الكتاب المقدس Textual Criticism؛ وهو عمل ضخم استغرق حياته كلها. فقد درس اللغة العبرية على يد الربِّيين الكبار في الإسكندرية وفلسطين، وحاول تحقيق كل ما جاء من ذِكر لأماكن الأحداث التي وردت في العهد القديم، فزار كهوف فلسطين ومغاراتها المطلَّة على نهر الأردن.

ثم قام العلاَّمة أوريجانوس بمقارنة الترجمات المختلفة لأسفار العهد القديم، فقسَّم صفحات المجلَّدات إلى ستة أعمدة: وقد خصَّص العمود الأول للنص العبري بكلماته العبرية؛ والعمود الثاني للنص العبري مكتوباً ومنطوقاً باللغة اليونانية Transliteration لضبط النطق العبري للكلمات العبرية، حيث لم يكن قد اختُرِع بعد نظام تشكيل الكلمات العبرية؛ والعمود الثالث هو الترجمة اليونانية لأكويلا، ويُرمَز له بالحرف اليوناني (ά) (وهو دخيل يهودي عمل ترجمته حوالي سنة ١٣٠م)؛ والعمود الرابع هو ترجمة يونانية أيضاً لشخص يهودي اسمه سيماخوس، ويُرمَز له بالحرف

الأول من اسمه (σ′)، وهو من كُتَّاب أوائل القرن الثالث (وهو معاصر لأوريجانوس)؛ والعمود الخامس هو الترجمة السبعينية المعروفة وقتئذ؛ والعمود السادس والأخير هو ترجمة لثيئودوسيون (θ′) التي أنجزها سنة ١٨٠م.

النص العبري	النص العبري	α′	σ′	ε′	θ′
	بحروف يونانية	أكويلا	سيملخوس	(السبعينية)	ثيئودوسيون

وقد كان اهتمام أوريجانوس بالعمودين الأول والخامس، فكل ما كان ناقصاً في السبعينية عن العبرية أعطاه علامة خاصة (*)، وأضافها إلى السبعينية من ترجمة ثيئودوسيون بعد أن أعطاها علامة خاصة (÷) obelus. وعلى ما يبدو فإن هذا المؤلَّف الضخم (أكثر من ٥٠ مجلَّداً) لم يُنسخ، بل بَقِيَ في مكتبة قيصرية تحت طلب العلماء والدارسين، وقد رآه القديس جيروم هناك (*Comm. in Ps.* 5). إلاَّ أن العمود الخامس هو الذي نُسخ مراراً كثيرة، وما زالت تحت أيدينا نسخة من ترجمته السريانية ترجع إلى القرن السابع الميلادي (سنة ٦١٨م)، قام بها أسقف تلَّلا وهي مدينة بجوار الإسكندرونة في سوريا.

وقد اقتبس من هذا النص أغلب آباء أنطاكية والقسطنطينية، وهو يكاد يكون النص المعتمد لدى الكنيسة البيزنطية والشائع في زماننا هذا.

ثانياً: شروحاته على أسفار الكتاب المقدس:

وهي كثيرة وعلى أغلب الأسفار، والتي بسببها قام بعمل الدراسة النصِّيَّة "الهكسابلا" للكتاب المقدس. وتعتمد شروحاته على دراسة علمية للنص وأصول الكلمة etymology مع ملاحظات لاهوتية فلسفية. وبسبب التزامه بالخط الرمزي allegory وقع في أخطاء تفسيرية كثيرة. لكن المعاني الباطنية التي يستنبطها تُرينا مدى غِنَى قدرته الروحية في النفاذ إلى الأعماق سعياً وراء المعاني الروحية. ومن أمثلة كتاباته التفسيرية:

١. **على إنجيل القديس متى:** ولدينا ثمانية كتب فقط محفوظة في لغتها الأصلية اليونانية،

وبقيتها في ترجمة لاتينية.

٢. **على إنجيل القديس يوحنا:** وقد كرَّسه لصديقه أمبروسيوس، وأهمية هذا الشرح أنه يساعد على فهم المنهج التصوفي لأوريجانوس والحياة الروحية للإنسان.

ثالثاً: أعماله الدفاعية: *Apologetic*

ضد كِلسُوس:

كان كلسوس فيلسوفاً وثنياً، وضع كتاباً أسماه ''كلمة حق'' ἀληθὴς λόγος، ولكنه مفقود حالياً، إلاَّ أنه يمكن جمع عناصره من ردِّ أوريجانوس. وكلسوس هذا درس كل معتقدات وكتابات المسيحيين حتى الكتاب المقدس، ويعرف جيداً الخلافات الكائنة بين الكنيسة والشِّيَع الغنوسية. لذلك لم يلتفت إلى الوشايات والشائعات التي كان ينشرها رعاع الجماهير ضد المسيحيين.

وقد بدأ كلسوس مهاجمته بإقامة حوار يهودي يشرح اعتراضاته ضد المسيح، وتطور بعد ذلك فهاجم اليهود والمسيحيين معاً. ومع ذلك فهو لا يُمانع في قيام المسيحية بشروط: أن يكون للمسيحيين دور إيجابي في الحياة السياسية والدينية للحضارة والمدنية الرومانية، وهو يرى أن سلبيتهم قد تسبَّبت في انقسام الدولة الرومانية. وختم كتابه بتوجيه نداء إلى المسيحيين لمساعدة الإمبراطور والتعاون معه لإقامة العدالة، والمحاربة في صفوف جيشه وتحت قيادته دفاعاً عن الحضارة والمدنية، ولمساهمتهم الإيجابية لأجل القانون والعدالة.

أما رد أوريجانوس فكان يتلخَّص فيما يأتي:

[الإنجيل يحمل برهانه الإلهي الداخلي (الباطني) أكثر مما هو بالحوار المبني على المنطق الجدلي الفلسفي. وهذا الأسلوب يسميه الرسول: «برهان الروح والقوة». ''الروح'' باعتبار النبوَّات الجديرة بغرس الإيمان في كل قارئيها، خاصة ما يتعلَّق منها بالمسيح؛ و''القوة'' لأن الآيات والعجائب التي تمَّت يمكن إثباتها على أُسس أخرى، لأن آثارها ما زالت باقية محفوظة بين الذين يصيغون حياتهم على مبادئ الإنجيل] (*Contra Celsus* 1:2).

[وألوهية المسيح ليست كائنة فقط فيما صنعه من عجائب وما كمَّله من نبوَّات، بل

وأيضاً بواسطة قوة الروح القدس العامل في المسيحيين].

(*Ibid.* 1:46)

أما رده على الموقف تجاه السلطة المدنية فيقول: إن نظام الحكم الروماني مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالديانة الوثنية. وبينما يتشدَّد كلسوس في احترام القانون والسلطة المدنية بما تتضمنه من عبادة آلهة الدولة (الوثنية)، يؤكِّد أوريجانوس على وجوب الطاعة والخضوع لهما طالما ليس هناك ما يتعارض مع الشريعة الإلهية. وبينما يظهر كلسوس كوطني متحمس يُطالب بالدفاع عن الأرض والوطن والقِيَم التي تتضمنها، يُخاطب أوريجانوس القارئ كمواطن عالمي cosmopolitan حيث يظهر تاريخ البشرية أمامه وهو سائر نحو اهتدائه إلى الله والشريعة الإلهية.

وهذه الإجابات تكشف عن مدى تأثُّر أوريجانوس بالفلسفة الأفلاطونية القائلة بأن هدف الدولة ليس في ازدياد قوتها وتسلُّطها، بل في نشر الحضارة والثقافة. وفي هذا الرد نرى المثقفين من كل جانب يتصارعون بالحجج في مواجهةٍ معاً: فالوثنيون ويمثِّلهم كلسوس، يقابلهم المسيحيون ويمثِّلهم أوريجانوس. وقد كان هذا الكتاب موضع تقدير مفكِّري ذلك العصر، حيث قال عنه يوسابيوس: إن أوريجانوس أجاب فيه على كل البدع والهرطقات لأجيال كثيرة قادمة.

رابعاً: الكتابات اللاهوتية:

١. كتاب المبادئ: *De Princip*

كانت عادة فلاسفة ذلك العصر أن يضعوا منهجاً يُلخِّصون فيه مبادئهم التي يُنادون بها أو يدرِّسونها في مدارسهم ومحاضراتهم. فكان كتاب "المبادئ" هو الفلسفة التي يُدرِّسها العلاَّمة أوريجانوس في مدرسة الإسكندرية. وهو أول محاولة لتبويب التعليم اللاهوتي المسيحي وترتيبه منهجياً، كتبه أوريجانوس بين سنتي ٢٢٠ و٢٣٠م. وللأسف لم يبقَ من الأصل اليوناني إلا شذرات قليلة في الفيلوكاليا التي وضعها القديس باسيليوس رئيس أساقفة قيصرية الكبادوك والقديس غريغوريوس اللاهوتي أسقف سازيما، وما جاء أيضاً في مرسومين أصدرهما جوستنيان البيزنطي. وما بين أيدينا الآن هو ترجمة لاتينية بتصرُّف قام بها روفينوس، وقد اجتهد أن يرفع منها المؤاخذات التي تسببت في العاصفة التي هبَّت ضد أوريجانوس. وقام جيروم من الناحية المقابلة

بعمل ترجمة كاملة عن الأصل اليوناني كان مآلها إلى الضياع أيضاً.

والكتاب من أربعة أجزاء ومُقدِّمة تمهِّد له. والعنوان الرئيسي لكل جزء منها: الله، العالم، الحرية، الوحي الإلهي. وهي القضايا الرئيسية في الإيمان المسيحي. وفي المقدمة يقول إن مصادر المسيحية هي الأسفار المقدسة والتقليد:

أ. **الكتاب الأول:** يتحدث فيه أوريجانوس عن وحدانية الله وتساميه عن المادة، مع ذِكر الثلاثة الأقانيم وما بينهم من علاقة. فالآب هو العامل في كل الكائنات؛ والكلمة – اللوغوس – عامل في الكائنات العاقلة أي النفس؛ والروح القدس عامل في النفوس العاقلة التي يُقدِّسها (أي التي آمنت). ثم يتبع ذلك حديثه عن الملائكة وأصلهم وطبيعتهم وسقوطهم.

ب. **الكتاب الثاني:** ويتكلَّم عن العالم المنظور وخلقة الإنسان، ثم تعدِّي آدم وفدائه بواسطة اللوغوس المتجسِّد، وتعاليم القيامة والدينونة الأخيرة.

ج. **الكتاب الثالث:** ويتحدث عن حرية الاختيار، فاتحاد النفس بالجسد أعطى للنفس فرصة الجهاد والانتصار. ففي الجهاد نرى الملائكة يتقدَّمون لمعونة النفس، والأرواح الشريرة يصدُّونها ويقاومونها. ورغم ذلك ما زالت للإنسان حرية الاختيار. ونتيجة للتعليم بالحرية يبقى للإنسان مسئوليته الأدبية واضحة ويُدان من الله عن حق.

والنتيجة غير المباشرة لهذا التعليم هو القضاء على عقيدة التنجيم لدى الشعب، والتي كان يُغذيها الفلاسفة والمنجِّمون، حيث كانوا يقولون إن مصير الإنسان مقيَّد بحركة النجوم. ومن هنا نشأت "قراءة الطالع" ونشط المنجِّمون والفلكيون في هذا السبيل حتى صار عِلْماً قائماً بذاته، وصار الإنسان خاضعاً لمصيره وقَدَره، لا يملك تغييره إلا بواسطة المنجِّمين، كما جاء بكتاب ابن ديصان وهو أحد الغنوسيين السريان المعروفين.

ولكن يؤخذ عليه قوله بقيام ووجود النفس البشرية قبل ميلاد الإنسان.

د. **الكتاب الرابع: الوحي الإلهي**: في هذا الكتاب يقوم بتلخيص التعاليم السابقة مع بحث عن الأسفار الإلهية كمصدر للإيمان والوحي والمستويات الثلاثة التي تتضمنها الكلمة الإلهية.

هذه "الخلاصة اللاهوتية Theologica Summa" ليست منهجاً بالمعنى الدقيق للكلمة، بل تبدو كمذكرات يُمليها المحاضر عن موضوعات متفرقة تجعلنا نحس أن الباحث يحاول اقتحام آفاق

مجهولة غامضة بشجاعة وجرأة نادرتين، دون أن تكون لديه الأدوات الأساسية التي تضمن الوصول إلى نتائج قد لا يُدرِك الباحث مدى خطورتها وتأثيرها.

إن ما يشغل أوريجانوس هو الجرأة التي يندفع بها عقله وما تثيره في النفس من بهجة المخاطرة في اقتحام المجهول ولذة المغامرة والاكتشاف، وما تثيره من إعجاب حول شخصيته من القريبين والبعيدين. هذا مع عدم التيقُّن من صحة ودقة النصوص التي يقوم بفحصها ودراستها والاجتهاد وراء معانيها المستترة. فإذا صادفته صعوبة في مشكلة عويصة فلا مفر من اللجوء إلى الأفلاطونية. ومن هنا جاءت النتائج الخاطئة التي لم تكن في قصد أوريجانوس منذ البداية، لكنه اضطر إليها اضطراراً لأنه بطبيعته مغامر جريء.

٢. الحوار مع هيراكليدس:

وهو من الاكتشافات التي تمت حديثاً قُرْب طره في الجبل بجوار حلوان، إذ بينما كان الجيش الإنجليزي أثناء الحرب العالمية الثانية يُعِدُّ إحدى مغارات جبل المقطم لتكون مخزناً للأسلحة والذخيرة؛ اكتشف بردية مكتوبة في القرن السادس الميلادي، تحكي عن اجتماع تمَّ بين أوريجانوس ومجموعة أساقفة في "العربية". وتسرد البردية قصة اجتماع بعض الأساقفة المجاورين لهيراكليدس بأوريجانوس سنة ٢٤٥م ليستوضحوا منه عن بعض النقاط والتعبيرات الغامضة التي كان يُعلِّم بها هيراكليدس بخصوص العلاقة بين الآب والابن.

وكانت هذه العلاقة (بين الآب والابن) دائماً موضع بحث وشرح في القرون السابقة لمجمع نيقية، حيث كانت اللغة والكلمات والمصطلحات المستخدمة قاصرة دائماً عن إيفاء هذه العلاقة حقها في الشرح والتوضيح.

خامساً: كتاباته الروحية:

له مقالة ممتازة عن الصلاة كتبها تحت إلحاح صديقه أمبروسيوس أسقف ميلان سنة ٢٣٣-٢٣٤م، ومدوَّنة في مخطوطة وحيدة باللغة اليونانية محفوظة في جامعة كمبردج. في القسم الأول منها يحلِّل ويقسِّم أوريجانوس الصلاة إلى أربعة أنواع: طلبة δέησις، عبادة (صلاة) προσευχή، ابتهال - شفاعة ἔντευξις؛ شكر εὐχαριστία؛ وفي القسم الثاني يقوم

بشرح وتعليق على صلاة "أبانا الذي في السموات..."، ويذكر أيضاً أوضاع الصلاة والعبادة ومعنى الاتجاه إلى الشرق.

والمبادئ المشروحة في هذه المقالة كانت ذات تأثير بعيد المدى على تاريخ الروحانية، وكانت من ضمن الكتابات الأوريجانية المتداولة في بداية الحركة الرهبانية.

ودراسة نصوص كتابات العلاّمة أوريجانوس تكشف عن أنه هو أول مَنْ نحت التعبير الذي استخدمه البابا أثناسيوس الرسولي وجعله معياراً صحيحاً للعقيدة السليمة في علاقة الآب بالابن، وهو تعبير: ὁμοούσιος مساوٍ في الجوهر؛ وكذلك التعبيرات الكريستولوجية الأخرى: θεάνθρωπος الإله المتأنِّس، οὐσία الجوهر، ὑπόστασις الأقنوم، φύσις الطبيعة.

القديس هيراكلاس
البطريرك الثالث عشر
في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري
(٢٣٢-٢٤٧م)

نشأته:

نعرف القليل عن حياته من يوسابيوس القيصري، فقد كان وثنياً يتردَّد على مدارس الفلاسفة ليُعدَّ نفسه ليكون فيلسوفاً. وفي إحدى مدارسهم تعرَّف عليه العلاَّمة أوريجانوس، فانضم إلى مدرسة الإسكندرية التي كان يُدرَّس فيها العلوم الفلسفية مع فروع العلم الأخرى أيام أوريجانوس. ثم تعمَّد ونال نعمة الكهنوت من يد البابا ديمتريوس، كما اختاره أوريجانوس ليكون مساعداً له في مدرسة الإسكندرية، وسلَّمه الموعوظين المستجدين. ويكتب عنه يوسابيوس نقلاً عن أوريجانوس:

> [وقد تتبَّعت في ذلك ما سبق أن فعله هيراكلاس (من دراسة العلوم الفلسفية في المدارس الوثنية) الذي هو أحد كهنة الإسكندرية الآن. فقد قابله في بيت معلِّم الفلسفة حيث درس على يديه خمس سنوات قبلاً مني. خلال هذه الفترة تخلَّى هيراكلاس عن الزي المألوف (لأهل المدينة)، وارتدى وشاح الفلاسفة الذي ما زال يحتفظ به حتى الآن، مواظباً على دراسة كتب اليونانيين (الفلسفية) بقدر استطاعته] (*HE*, VI 19:12).

وهذا أيضاً ما سبق أن فعله يوستينوس الشهيد في روما عندما فتح مدرسة للموعوظين، وكان يلبس وشاح الفلاسفة الأبيض، وترتليانوس أيضاً في شمال أفريقيا.

ولما غادر أوريجانوس مدرسة الإسكندرية، اختار البابا ديمتريوس هيراكلاس مديراً لها. وبعد قليل - ربما سنة واحدة - تنيح أنبا ديمتريوس، فاختير هيراكلاس للبطريركية سنة ٢٣٢م.

يوليوس أفريكانوس

من أشهر الذين تتلمذوا للقديس هيراكلاس أثناء عمله في مدرسة الإسكندرية فيما بين سنتي ٢٢٨ و٢٣٢م حسب اعترافه هو عن نفسه. وهو من مواليد أورشليم وكان جندياً في جيش سبتميوس ساويرس في حملته في بلاد العربية والرها سنة ١٩٥م. وصار بعد ذلك مندوباً عن الإمبراطور لتعمير مدينة نيكوبوليس التي كانت تُسمَّى قبلاً عمواس (بخلاف عمواس المعروفة في العهد الجديد والقريبة من أورشليم). ولا شكَّ أنه سمع هناك عن مدرسة الإسكندرية، فجاء إليها وتتلمذ للقديس هيراكلاس كما كان يُراسل أوريجانوس. وما يزال التاريخ يحفظ له رسالة كتبها لأوريجانوس ينتقد فيها قصة سوسنَّة.

كذلك وُجدت إحدى البرديات في البهنسا - أكسيرنخوس - مذكور فيها أن الإمبراطور ألكسندر ساويرس - المعروف بميله نحو المسيحيين - استدعاه لبناء مكتبة في مبنى مجمع الآلهة في روما[١] - البانثيون Pantheon - وقضى بقية حياته في نيكوبوليس هذه، حيث مات بعد سنة ٢٤٠م. والتقليد المتأخر يذكر أنه صار أسقفاً لهذه المدينة، وإن كانت الدراسات الحديثة ترى أنه خصص حياته للكتابة المدنية وليس للعلوم الكنسية.

أما أهم مؤلَّفاته - بخلاف انتقاداته على قصة سوسنَّة في سفر دانيال - فأهمها ”حولياته“ التي جعلته يُعتبر أول مؤرِّخ يجمع تاريخ العالم المدني - اليوناني والروماني - مع التاريخ العبري الذي يبدأ منذ بدء خلقة العالم. وكذلك محاولته التوفيق بين سلسلة أنساب المسيح ويوسف النجار في كل من إنجيلَي القديس متى والقديس لوقا.

وطبعاً هذه النظرة الفاحصة التي تُفتِّش وتُنقِّب وتبحث على أُسس منطقية علمية صحيحة، هي إحدى ثمار تعليم مدرسة الإسكندرية. لذلك يُعتبر يوليوس أفريكانوس مع معاصره غريغوريوس صانع العجائب من ثمار تعاليم كنيسة الإسكندرية اللاهوتية.

(١) Genfell, Hunt; *Oxyrench. Papyr.* Vol. III, n° 412, cited in *Heresy & Orthodoxy,* p. 178; Quasten, Patrology, Vol. II, p. 138.

عصر القديس هيراكلاس:

عاصر هذا البطريرك عدة أباطرة، أهمهم كانوا ثلاثة:

١. ألكسندر ساويرس: (٢٢٢-٢٣٥م)

أي أنه عاصر أواخر أيام هذا الإمبراطور. وكان عصر هذا الإمبراطور من العصور السلامية التي مرَّت بها الكنيسة مما ساعد على امتداد البشارة. وكانت أُمه – جوليا ماميا – متعاطفة مع المسيحية، وقد استدعت أوريجانوس أثناء إحدى زياراته لفلسطين لزيارتها في قصرها بأنطاكية للتداول في شئون الدين (Euseb; *HE,* VI 21:3). ويحكي عنه يوسابيوس أن أسرته وأغلبية حاشيته كانوا من المسيحيين. ولكن هذا لا يعني أنه كان مسيحياً، لأن عمليات المزج والتوفيق بين ديانات الإمبراطورية الواسعة كانت سمة مميزة لهذا العصر. لذلك يحكي عنه كاتب تاريخ القياصرة الرومان أنه في معبده الخصوصي في روما حيث اعتاد المرور عليه كل صباح قبل مباشرته أعمال إمبراطوريته، كان يضع تماثيل الإسكندر الأكبر وأورفيوس (الآلهة اليونانيون) إلى جوار إبراهيم أبي الآباء ويسوع المسيح. ويقول مؤرِّخ سِيَر القياصرة إنه كان على وشك أن يُعلن ضم "يسوع المسيح" رسمياً إلى "مجمع آلهة روما Pantheon"، كما نقش على حائط قصره آية إنجيل القديس متى التي كررها أيضاً الديداخيه: "ما لا تريد أن يفعله بك الناس، لا تفعله أنت أيضاً بهم".

وهذا يكشف لنا عن مدى تغلغُل المسيحية في المجتمع الوثني وبلاط الأباطرة، وتأثيرها على أخلاقهم. فلا نسمع في عصر ألكسندر ساويرس عن أية اضطهادات، بل سمح بوجود المسيحيين كجماعة لها حقوق الملكية القانونية.

وللأسف اغتاله جنوده سنة ٢٣٥م أثناء وجوده في ألمانيا.

٢. مكسيمين التراقي: (٢٣٥-٢٣٨م)

وهو أحد قادة الجيش الإمبراطوري، وقد دبَّر مؤامرة اغتيال ألكسندر ساويرس وتولَّى الحكم بعده. وبسبب خشونة طباعه، وخوفاً على حياته، بدأ في مطاردة أسرة ألكسندر ساويرس ورجال حاشيته الذين عرف عنهم أنهم مسيحيون. لكن هذا الاضطهاد لم يؤثِّر كثيراً على كنيسة مصر، حيث لا نسمع عن استشهاد أحد فيها، ويبدو أن رؤساء الكنيسة استطاعوا الهروب والاختفاء، كما أن مكسيمين نفسه اغتيل بواسطة جنوده سنة ٢٣٨م.

٣. فيليب العربي: (٢٤٤-٢٤٩م)

في الفترة ما بين ٢٣٨ و٢٤٤م توالى فيها حُكَّام لا يعرف التاريخ عنهم شيئاً يُذْكَر، حتى جاء "فيليب العربي"، وسُمِّي كذلك لأنه من مواليد حوران في صحراء العربية بين دمشق والعراق.

ويقول يوسابيوس إنه أول إمبراطور مسيحي، وإن بطريرك أنطاكية وضع عليه قانون توبة قبل السماح بدخوله إلى كنيسة أنطاكية أثناء عيد الفصح (*HE,* VI 34 – "تاريخ الكنيسة" ليوسابيوس القيصري). ويعود ذهبي الفم بعد أكثر من مائة سنة فيؤكِّد – وكان آنذاك كاهناً لكنيسة أنطاكية – هذه القصة قائلاً: إن هذا البطريرك هو القديس الشهيد بابيلاس الذي على جسده أُقيمت كنيسة مشهورة في ضواحي أنطاكية (Chrysost. *De St. Babyla; Contra Jud. et Gen.*). ولا نستطيع أن نشك في صحة هذه القصة، خاصة أن يوسابيوس يتكلَّم عن بعض الرسائل التي أرسلها أوريجانوس لهذا الإمبراطور وزوجته أوتاسيليا ساويرا Otacilia Severa (*HE,* VI 36:3)، والتي تلقي ضوءاً على شخصية الإمبراطور. فهي على الأقل تكشف عن ميوله هو وزوجته نحو المسيحية. وديونيسيوس بطريرك الإسكندرية الـ ١٤ (الذي خلف هيراكلاس) يشير في إحدى رسائله إلى هذا التعاطُف (*HE,* VI 34). وهذا التعاطُف جعل جيروم في كتابه: "مشاهير الرجال" (*De Vir. Illus.* LIV) يعتبره أول إمبراطور مسيحي.

لكن الذي لا شكَّ فيه أن اعتناقه المسيحية كان سرّاً وخِفية وبدون تأثير على واجباته وحياته العامة. فقد كان يترأَّس بنفسه الاحتفالات الرياضية والمهرجانات السنوية التي تُقام في ملاعب روما كرئيس دولة يحافظ على المظهر الديني الرسمي للأباطرة الرومان. وعلى كل حال، تمتَّعت الكنيسة في عصره بالسلام العام.

وهذا ما جعل القديس هيراكلاس يقوم برسامة ٢٠ أسقفاً خلال الست عشرة سنة التي جلس فيها على الكرسي المرقسي، وذلك نتيجة امتداد الكرازة.

وللأسف لم يحفظ لنا التاريخ شيئاً من آثاره الأدبية أو أية كتابات تركها لنا.

القديس ديونيسيوس الكبير

البطريرك الرابع عشر

في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري

(٢٤٧-٢٦٤م)

نشأته:

أعظم أساقفة الكنيسة في القرن الثالث. تتلمذ لأوريجانوس، وبعد اختيار هيراكلاس للبطريركية تعيَّن مديراً لمدرسة الإسكندرية سنة ٢٣٢ حتى سنة ٢٤٦م، ثم اختير للبطريركية بعد نياحة أنبا هيراكلاس. وكان عمره حوالي ٣٠ سنة عندما تولَّى مدرسة الموعوظين، وخلال هذه الفترة وضع كتاباً ''عن الطبيعة'' يردُّ فيه على الأبيقوريين القائلين بنظرية الذرات والجُسَيْمات في تفسير خلقة الكون والطبيعة.

وله كتابات ورسائل حفظها لنا يوسابيوس القيصري، تكشف عن أسلوبه الفصيح الشيِّق ومطالعاته الكثيرة في الأدب اليوناني الكلاسيكي؛ وقد جعلت البعض يتخوَّفون عليه من هذه المطالعات والدراسات كما يحكي هو عن نفسه:

[أنا نفسي عشت بين تقاليد وتعاليم الهراطقة التي تغذَّت عليها نفسي في بعض الأحيان. ولكن انتفعت كثيراً من وجودي طويلاً بينهم، إذ عرفت كيف أُربكهم بعد أن نفرتُ من تعاليمهم. وقد حاول أحد الإخوة، وكان كاهناً، أن يحوِّلني بعيداً عنهم لأنه كان يخشى عليَّ من التلوث بحمأة آثامهم فتُسبَى نفسي، وأنا أعرف أن هذا حق. لكن جاءتني رؤيا من الله شدَّدتني، وسمعت صوتاً يقول لي كأمر صريح: خُذْ كل ما تجده أمامك لأنك قادر أن تميز الصواب فاحصاً كل شيء، وكان هذا من البداية علَّة وسبب إيمانك بي (يحكي سنكسار الكنيسة أنه اهتدى للإيمان من مطالعاته لرسائل القديس بولس التي ابتاعها من أرملة عجوز). وقد قبلتُ هذه الرؤيا لأنها تتفق مع كلمة الرسول التي تقول للأقوياء: «امتحنوا كل شيء، تمسَّكوا بالحسن» (١تس ٥: ١)].

هكذا تظهر أمامنا عظمة هذه الشخصية، فهو مثل أوريجانوس معلمه كان يفتِّش ويفحص

ويقرأ كل ما تقع عليه عيناه، ولكن في الوقت نفسه كان يستلهم الله ويسترشد بروحه القدوس. لم نسمع أو نقرأ في حياة أوريجانوس عن مثل هذه الرؤيا أو هذا الإلهام. ولكن الإلهام الإلهي لا يكفي ما لم يرتبط الإلهام بالكلمة الرسولية. وهذا ما فات على أوريجانوس أن يفعله.

حياته أثناء البطريركية:

كما رأينا في حياة أنبا هيراكلاس البطريرك الـ ١٣ أن عصره كان سلاماً للكنيسة، هكذا قضى ديونيسيوس ١٦ سنة في رئاسة مدرسة الإسكندرية في سلام. لكن بقية أيام بطريركته كانت على العكس، امتلأت بالمخاوف والرعب.

لقد عاصر آخر سنة من حكم الإمبراطور فيليب العربي الذي عُرف عنه تساهله وميله نحو المسيحية، لكن ذلك لم يمنع انفجار الغضب والكراهية من الوثنيين في الإسكندرية التي أثارها أحد المشعوذين الذي ادَّعى النبوَّة وكان شاعراً (*HE*, VI 41,42,44 – "تاريخ الكنيسة" ليوسابيوس القيصري)، فقامت فيها سنة ٢٤٨م أعمال السلب والنهب والفوضى واقتحام بيوت المسيحيين وقتل واستشهاد كثير من أولاد البابا المؤمنين، كما كتب يقول في وصف هذه الأعمال المرعبة التي وقعت في السنة الأولى من بطريركيته (في رسالة إلى فابيوس بطريرك أنطاكية):

> [لم يعد هناك طريق أو شارع أو ممر مفتوح أمامنا، سواء بالليل أو بالنهار. الجميع يصرخون في كل مكان دون أن يتوقفوا: "على كل واحد أن يُجدِّف ويلعن، والذي يرفض يُقتاد ويُحرق بالنار". فهرب المسيحيون وأصابتهم خسائر فادحة في الأرواح والأموال، لكن لم يرتد أحد منهم عن الإيمان إلا واحد فقط] (*HE*, VI 41,42,44 – "تاريخ الكنيسة" ليوسابيوس القيصري).

بعد اغتيال فيليب العربي تولَّى الحكم أحد قواده ويسمَّى داكيوس سنة ٢٤٨م، الذي أصدر مرسوماً باضطهاد المسيحيين. والقصد من هذا المرسوم لم يكن مجرد تعبير شعبي عن الغضب ضد المسيحيين، بقدر ما هو محاولة من النظام الحاكم لاستعادة السيطرة على الأمور بدءاً بإعادة توحيد مؤسسات الإمبراطورية وتقويتها تحت شكل واحد. وبالطبع كان هناك الضعفاء من المؤمنين الذين في المراكز الكبرى في المدن (*HE*, VI 41:11-13) الذين استسلموا وقدَّموا القرابين والذبائح، كما كان هناك شهداء ومعترفون أيضاً. وفي رسالة أرسلها إلى فابيوس بطريرك أنطاكية يقص البابا ديونيسيوس عن هذه المحاكمات ويصف حالة الكنيسة المضطهدة فيقول:

[كان بعض كهنة المدينة قد اختفوا حتى يتمكنوا من افتقاد الإخوة سرّاً، منهم مكسيموس (الذي صار بطريك الإسكندرية بعد القديس ديونيسيوس) وديوسقوروس وديمتريوس ولوكيوس. أما المشهورون من (أراخنة) المدينة مثل: فاوستوس وأكويلا، فجالوا في أنحاء مصر. والشمامسة الذين بقوا أحياء (بعد وباء الدفتيريا أو الطاعون الذي اجتاح أفريقيا ومصر في حكم Gallus وفولسيانوس Volusianus سنة ٢٥٢م) مثل: يوسابيوس (الذي صار فيما بعد أسقفاً على اللاذقية في سوريا سنة ٢٦٩م) الذي شدَّده الله منذ البداية وهيَّأه ليوالي عمله بشجاعة بين المعترفين في المحاجر والسجون، ليس بدون أخطار؛ فكان يقوم بدفن أجساد الشهداء الطوباويين الذين كملوا، لأنه حتى اليوم، ما زال الوالي يُسلِّم كل مَنْ يقع في يديه إلى الموت التعسفي أو التعذيب بتمزيق الأعضاء، أو يتركهم يئنون تحت ثقل القيود الحديدية في السجون والمطابق، ويمنع كل مَنْ يحاول الاقتراب إليهم لمواساتهم أو تخفيف آلامهم. إلا أن الله لا يَعدُم وسيلة يقدِّم بها عزاءً للمضطهدين بشجاعة ومثابرة الإخوة].

(*HE,* VII 11:24,25 – "تاريخ الكنيسة" ليوسابيوس القيصري)

ورغم أن القساوة الظاهرة من الولاة والحكام كانت متماثلة في روما وقرطاجنة كما هي في الإسكندرية أيضاً، إلا أن مقاومة كنيسة الإسكندرية للاضطهاد كانت أفضل بكثير منها في أي مكان آخر – وبالذات روما – حيث كانت الكنيسة منظمة تحت توجيه الأسقف والكهنة والشمامسة (راجع خطاب البطريرك لجرمانوس الأسقف المصري في *HE,* VII 11:2-19 – "تاريخ الكنيسة" ليوسابيوس القيصري) فقد ظل ديونيسيوس مختفياً ثلاثة أيام في بيته بينما الجنود الرومان كانوا يتقصون عنه في كل مكان:

[... لم يكن سهلاً عليَّ في اليوم الرابع أن أرحل، كما أمرني الله وفتح أمامي الطريق بطريقة إعجازية، فخرجنا معاً، أنا ومساعديَّ وبعض الإخوة].

وفي المساء قبضوا عليه واقتادوه إلى تابوزيرس (ضاحية بجوار برج العرب حالياً) حيث عُلم نبأ القبض على البطريرك من أحد الأشخاص المتوجِّهين إلى حفلة عُرس في إحدى قُرى المنطقة. فقام الجميع دفعة واحدة واندفعوا نحو مكان اعتقال البطريرك، فهرب حراسه ونجا من الاعتقال، واختفى في إحدى نواحي ليبيا (كل المنطقة غرب الإسكندرية كانت تسمَّى ليبيا)، ومن مخبئه كان يُراسل كنيسته ويعرف أخبارها (*HE,* VII 11:23 – "تاريخ الكنيسة" ليوسابيوس القيصري).

في صيف سنة ٢٥١م قُتل الإمبراطور داكيوس في حربه ضد الغوطيين (قبائل جرمانية على حدود المجر وفيما عُرف بعد ذلك بتشيكوسلوفاكيا)، وأعقبه جاللوس الذي قُتل أيضاً سنة ٢٥٣م، وأعقبه فاليريان وابنه جاللينوس، وكان من سياستهما التهدئة مع المسيحيين كما كتب القديس ديونيسيوس في إحدى رسائله إلى هيرمامون:

[... ونجاحه (نجاح فاليريان) يعتمد على مدى مودته ولطفه نحو شعب الله (الكنيسة)، إذ لم يسبق أحد من الأباطرة أن أظهر مثل هذا الإحسان... حتى أن كل حاشيته وأهل بيته من الأتقياء، كانوا حقاً كنيسة الله](*HE*, VII 10).

وبدأت كنيسة الإسكندرية تستمتع قليلاً بالسلام ما بين سنتي ٢٥٣ و٢٥٧م، فكان ذلك فرصة للقديس ديونيسيوس لمعالجة الانقسامات وحل المشاكل الناجمة عن سنين الاضطهاد السابقة. **وأهم قضيتين كانتا أمامه هما: ''قبول المرتدِّين''، و''معمودية الهراطقة''**. وكان ديونيسيوس صاحب الموقف المعتدل الذي هو سمة مميزة لسلوكه في كل تدبير الكنيسة.

أولاً: قبول المرتدِّين:

بسبب الاضطهاد العنيف الذي شنَّه داكيوس ونوابه وولاته على الشعب المسيحي، كان الارتداد شائعاً وشديداً في كثير من الأحيان، كما يصفه القديس ديونيسيوس نفسه في رسالته إلى فابيوس بطريرك أنطاكية:

[كانت الرعبة التي تتهددنا مريعة وعظيمة حقاً... الجميع حقاً أحسوا بالويل، حتى أنه بين الصفوة المختارة (من المجتمع) أعدَّ الكثيرون منهم أنفسهم للموافقة على المرسوم (بتقديم الذبائح للأوثان)، وآخرون من الذين كانوا يتولَّون أعمالاً رئيسية في المدينة اضطروا للامتثال بسبب التزامات واجباتهم العامة مع الجمهور[1]. آخرون انساقوا وراء أصدقائهم، وحينما نودي على أسمائهم تقدَّموا بالذبائح النجسة غير المقدسة. آخرون تقدَّموا بوجوه شاحبة كما لو كانوا هم شخصياً الذبائح التي ستُقدَّم للأصنام، فكانوا موضع تهكُّم الجموع المتراصة في المشهد، وصار واضحاً للجميع أنهم أكثر جبناً ورعبة من مواجهة الموت

(١) كانت العادة أن يتوجَّه كبار الموظفين إلى الميادين العامة وقاعات الاجتماعات، ليستمعوا إلى آخر الأوامر الإمبراطورية التي تُقال هناك جهراً. فكانوا هم أول مَنْ يجب عليهم أن يقدِّموا الذبائح للأوثان.

أو تقديم الذبائح. ولكن كان هناك أيضاً مَنْ أسرع إلى مذابح الأصنام مؤكِّدين بصوت عالٍ أنهم لم يكونوا أبداً مسيحيين قبلاً، هؤلاء هم الذين ينطبق عليهم ما أنبأ به المخلِّص أنهم من العسير أن يخلصوا... كما كان أيضاً هناك الذين ذهبوا بعيداً في التمسُّك بإيمانهم حتى القيود والحبس، وبعد عدة أيام أنكروا الإيمان وجحدوه عندما وقفوا أمام منصة القاضي، وغيرهم من الذين قاوموا التعذيب زماناً ثم ركعوا وخضعوا أمام منظر العذابات التي تُجرى أمامهم] (*HE,* VI 41:9-13).

وبانتهاء هذه الأيام المرعبة وحلول السلام، كان الشهداء – قبل استشهادهم – والمعترفون الذين نجوا من التعذيب والموت، يتوسطون لصالح هؤلاء المرتدِّين بإعطائهم أحياناً شهادات مكتوبة للرؤساء الدينيين. ومثل هذا الأمر كان يجري في كل مكان، ولكن في قرطاجنة مثلاً لم يجد قبولاً لدى الكنيسة عند حلول أزمنة السلام، بينما في الإسكندرية وقف القديس ديونيسيوس إلى جانب الراجعين، بل وكان محامياً عنهم بطريقته المعتدلة المقنعة كما يظهر من رسالته إلى فابيوس بطريرك أنطاكية الذي يشهد عنه يوسابيوس أنه كان يؤيِّد المعترضين على قبول الراجعين:

[الشهداء الأبرار الذين كانوا بيننا، هم الآن جالسون مع المسيح شركاء ملكوته يحكمون ويدينون معه وينطقون الأحكام معه. لقد بسطوا حمايتهم (أو شفاعتهم) على البعض من إخوتنا الذين سقطوا وارتدُّوا وصاروا مُدانين بتقديم الذبائح للأوثان. هؤلاء الشهداء نظروا بأعينهم رجوع وتوبة أولئك الذين يمكن قبولهم لدى ذاك الذي لا يشاء موت الخاطئ بل بالأحرى توبته. لقد برهنوا على إخلاص نيتهم وقبلوهم (لما كانوا معهم في السجون) وجمعوهم واتحدوا بهم وشاركوهم الصلوات والموائد (أثناء الاعتقال والتعذيب). فماذا تحكمون أيها الإخوة؟ وماذا ينبغي علينا أن نفعل؟ أنوافق على ما صنعه الشهداء؟ أنحترم أحكامهم والغفران الذي منحوه (للراجعين)؟ ألا ينبغي أن نفعل الصلاح تجاههم؟ أم نقول إن قرار الشهداء غير عادل، فنُظهر أنفسنا كمنتقدين لأحكامهم وننقض التدبير الذي وضعوه].

(*HE,* VI 42:5,6)

ولم يكتفِ القديس ديونيسيوس بذلك، بل وهو عالم أن فابيوس كان يميل إلى المعترضين على قبول الراجعين، قصَّ الواقعة التالية:

[كان هناك كهل متقدم في السن يُدعى سيرابيون، أمضى حياته الطويلة بلا لوم لكنه سقط في أثناء الاضطهاد. ومراراً كثيرة التمس أن ينال الحِلّ، فلم يلتفت إليه أحد[٢] لأنه قدَّم وضحَّى للأوثان. ولما مَرِضَ مَرَضَ الموت، استمر ثلاثة أيام غائباً عن الوعي ثم انتبه في اليوم الرابع قليلاً ودعا حفيده قائلاً: ''إلى متى يا بُنيَّ تؤخِّرني؟ أسرع، أرجوك، وامنحني الحِلَّ واستدعِ لي أحد الكهنة''. وبعدما نطق بهذه الكلمات، سكت ثانية (غاب عن الوعي). فهرع الغلام إلى الكاهن، وكان ليل، ولكن الكاهن كان مريضاً فلم يستطع أن يذهب مع الغلام. وكنتُ قد أعطيت وصية أن الذين على فراش الموت إذا التمسوا نوال الحِلِّ مرات عديدة وبإلحاح وغيرة شديدتين، يُعطَى لهم، حتى يُفارقوا الحياة برجاء بهيج.

(كان مثل هذا القرار قد صدر من مجمع أساقفة أفريقيا في زمن معاصر لديونيسيوس، وأوصى بإعطاء الحِلِّ للمرتدِّين الراجعين إذا اقتربوا من خطر الموت، بشرط أن يكونوا قد سبق وألحوا في طلبه عدة مرات قبل مرضهم — ارجع إلى رسالة كبريانوس إلى أنطونيانوس: ANF Vol. V, p. 327).

ونظراً لعدم استطاعة الكاهن مغادرة بيته بسبب مرضه، فقد أعطى الغلام قطعة صغيرة من الإفخارستيا، وأوصاه أن يغمسها في قليل من الماء ليُمكن بلعها ويضعها في فم الجد العجوز. فرجع الغلام حاملاً قطعة الإفخارستيا، وقبلما يدخل إلى الجد العجوز، استعاد سيرابيون وعيه وفاه بهذه الكلمات: ''هوذا قد رجعت يا غلامي، والكاهن لم يستطع الحضور. لكن أسرع وافعل ما أوصاك به حتى أرحل يا بُنيَّ''.

فغمس الغلام قطعة الإفخارستيا في قليل ماء وأسقطها في فم الرجل، وبمجرد أن ابتلعها، أسلم الروح. أليس واضحاً أنه استمر في الوجود على الأرض إلى أن ينال الحلَّ؟ وبمجرد أن مُحيت خطاياه، استحق جزاء الخيرات التي قد صنعها قبلاً؟] – *(HE, VI 44:2-6)*

(٢) كان إعطاء الحلِّ للراجعين إلى الكنيسة بعد الإنكار وتقديم الذبائح للأصنام، يتطلَّب أيضاً موافقة شعب الكنيسة مع رضاء الأسقف، وكان أحياناً يبادر الأسقف فيطلب من الشعب قبول الراجع والتائب (رسالة كبريانوس إلى كورنيليوس بابا روما؛ ارجع إلى رسالة كبريانوس رقم ٥٣: ANF Vol. V, p. 336).

مراسلاته بخصوص نوفاتيان:

مَن هو نوفاتيان؟

هو من فريجيا (آسيا الصغرى)، وكان من كهنة روما، واشتهر بالفصاحة في الأدب حتى صار متقدِّماً بين كهنة روما. ولذلك انتهز فرصة استشهاد بابا روما فابيانوس في اضطهادات داكيوس سنة ٢٤٩، وحاول أن يصير أسقفاً لروما. لكن لما اختير كورنيليوس لهذا الكرسي سنة ٢٥١، وكان هذا الأسقف متسامحاً تجاه قبول المرتدِّين الراجعين؛ انقلب نوفاتيان ضد الكنيسة، وكوَّن حزباً متعصِّباً، ونادى بأن المرتدِّين الذين جحدوا الإيمان وقدَّموا الذبائح للأوثان يلزم اعتبارهم محرومين إلى الأبد. ثم استغل بساطة ثلاثة أساقفة من ريف إيطاليا وضغط عليهم حتى رسموه أسقفاً، فصار "أسقفا منشقاً" ضد بابا روما واستمر يناوئ الكنيسة.

لذلك اهتم القديس ديونيسيوس بإرسال خطاب إلى نوفاتيان ينصحه باستخدام اللين وبالرضوخ لأحكام كنيسة روما، وأن يتخلَّى عن مطامعه في أن يكون بابا روما، وكذلك بتغيير موقفه من الراجعين إلى الإيمان (*HE*, VI 45).

ونستطيع أن نستشف من هذا الخطاب روح القديس ديونيسيوس السامية ومحبته الجمَّة لكنيسة الله التي تبلغ استعداد الموت من أجلها ومن أجل الحفاظ على سلامها ووحدتها. نستشف ذلك من مضمون النصائح التي يوجِّهها إلى نوفاتيان:

[كان الأحرى بك أن تتحمل كل ألم بدلاً من أن تقسِّم كنيسة الله. فإن الموت من أجل تجنب الانقسام لا يكون أقل مجداً من الاستشهاد تجنُّباً لعبادة الأوثان؛ بل إنه يبدو – وفي نظري – أعظم، لأنه في الحالة الأخيرة يستشهد المرء من أجل نفسه، وفي الحالة الأولى من أجل الكنيسة بأجمعها] *(HE, VI 45)*.

كما يقول أيضاً في موضع آخر:

[(إذا أصغينا إلى نوفاتيان) فسنفعل عكس ما فعل المسيح الذي في صلاحه وجوده مضى إلى الجبال مفتشاً عن الخروف الضال. فإذا هرب بعيداً يدعوه، حتى إذا ما وجده يحمله على منكبيه. بينما (نحن إذ) نرى الخروف آتياً إلينا، نركله بأقدامنا بخشونة] ***(Triumph of Christ. p. 131)***.

وقد أرسل كورنيليوس بابا روما للبابا ديونيسيوس يُعْلمه بما حدث من انشقاق في كنيسة روما بسبب نوفاتيان وصرامته في التشدُّد مع الراجعين؛ فأجاب القديس ديونيسيوس مزكّياً ومؤيّداً موقف كنيسة روما من حرم نوفاتيان ومُبدياً حرصه الشديد على وحدة الكنائس الأخرى في الشرق ضد بدعة نوفاتيان:

[... وأنه قد دُعِيَ من هيلينوس أسقف طرسوس في كيليكية، وفيرميليان أسقف كبادوكية (آسيا الصغرى) وثيئوكتستس في فلسطين لمجمع في أنطاكية، حيث حاول البعض تأييد بدعة نوفاتيان] (**HE, VI 46:3**).

ويعود البابا ديونيسيوس فيكرر نفس العبارات تقريباً في رسالته إلى البابا الذي أعقب كورنيليوس، معبِّراً عن فرحه بعودة السلام بين كنائس المشرق:

[اعلم، يا أخي، أن كل كنائس الشرق وما بعدها التي كانت قبلاً منفصلة، رجعت مرة ثانية إلى الوحدة، وعاد كل رؤسائها بفكر واحد مبتهجين بفرح لا يُصدَّق بهذا السلام الذي طال انتظاره؛ أعني ديمتريانوس بطريرك (أنطاكية)، ثيئوكتستس في قيصرية، مازابينوس في آليا (الاسم الذي أطلقه الإمبراطور هادريان على أورشليم بعد أن أعاد تخريبها عقب ثورة ابن كوكبا سنة ١٣٥م) بعد استشهاد ألكسندروس، مارينوس في صور، هليودوروس في لاودكية (اللاذقية بسوريا)، هيلينوس في طرسوس وكل كنائس كيليكية، فيرميليانوس في قيصرية وكل كبادوكية... بالحقيقة كل سوريا والعربية التي كنتم ترسلون لهم من قبل عطايا، بلاد ما بين النهرين وبنطس وبيثينية. وأستطيع أن أوجز كل شيء في كلمة واحدة: هوذا كل البلاد في كل مكان مبتهجة تسبِّح الله لهذا التوافق في القلب الواحد والمحبة الأخوية] .(***HE, VII 5:1,2***)

كان هذا موقف القديس ديونيسيوس العظيم، ورسائله التي تفيض فرحاً وعزاءً وتشجيعاً لإحلال السلام وتقوية أواصر المحبة والفكر الواحد بدون الغيرة الكاذبة والحماس المزيَّف على الكنيسة، خاصة بالنظر إلى الظروف الأليمة التي اجتاحت المجتمعات المسيحية لقسوة الاضطهاد.

ثانياً: معمودية الهراطقة:

من المشاكل التي واجهت الكنيسة الجامعة وأصابتها بالقلق والاضطراب، موضوع الأشخاص

الذين تعمَّدوا من يد الهراطقة، ثم اكتشفوا التزييف الذي عندهم فعادوا يطلبون الانضمام للكنيسة. بالنسبة لكنيسة روما كانت مصالحة هؤلاء الأشخاص مع الكنيسة لا تقتضي إعادة المعمودية، طالما قد تمَّت من وجهة نظر كنيسة روما حسب القواعد الإنجيلية، أي باسم الآب والابن والروح القدس، واكتفت الكنيسة بوضع اليد فقط. ولكن كنائس أفريقيا في عصر القديس كبريانوس، ومنذ أيام ترتليانوس، كانت ترى أن الهرطوقي لا يصلح أصلاً لممارسة معمودية صحيحة مقبولة (راجع ترتليانوس *De Baptismo* XV). وهكذا قررت المجامع المكانية المتتالية في شمال أفريقيا - آخرها على عصر كبريانوس - نفس هذا المعنى. وكذلك أيضاً كنائس آسيا الصغرى وفريجيا وشمال سوريا، حيث انتشرت بينهم بدعة المونتانيين، الذين كانوا يعتقدون أن نَبيَّهم مونتانوس هو نفسه الروح القدس، فكانوا يقولون: "باسم الآب والابن ومونتانوس".

وهكذا نرى موقف الكنائس يتلخَّص في الآتي:

١. كنائس أفريقيا، تُعلن أن معمودية الهراطقة باطلة حتى إذا كانت صيغة التعميد موافقة للإنجيل، وذلك بسبب عدم أهلية الشخص المعمِّد - خادم السر - لأنه لم يتسلم الروح القدس تسليماً قانونياً طقسياً. وقد عارض القديس أُغسطينوس هذا التعليم فيما بعد قائلاً إن شخص المسيح نفسه هو الذي يعمِّد، سواء كان المعمِّد بطرس أو يوحنا أو حتى يهوذا! والقديس أُغسطينوس كان أيضاً من شمال أفريقيا (*Leberton,* Zeiller; *BK* III, p. 288).

٢. كنائس آسيا وفريجية، تُبطل معموديـــة الهراطقة بسبب أن الصيغة التي تُقال على المعمَّدين صيغة باطلة، لأن الصيغة التي يقولها المونتانيون هناك ليست حسب الإنجيل.

غير أن المراجع الكاثوليكية في هذا الصدد تحاول تبرئة بابا روما القديس ، ويقولون إن موقف كنيسة روما مماثل لموقف كنيستي الإسكندرية وفلسطين (*Leberton,* Zeiller; *BK* III, p. 289; *BK* IV, p. 132). ولكن على ما يبدو أن المراسلات التي جرت بين القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة - وكان أحد المعارضين لموقف بابا روما - والأسقف فيرميليان أسقف قيصرية الكبادوك، تضمنت نقداً لموقف بابا روما بسبب طرده الأساقفة الشرقيين الذين قصدوا روما للتفاهم معه، ثم تهديده بقطع وحرمان أساقفة الشرق الذين خالفوا رأيه في ذلك الموضوع. وأما موقف القديس ديونيسيوس فكان يتميز بالاعتدال الكثير في هذا الموضوع والرغبة الملحَّة في جمع شتات المتفرقين. فمع أنه لم يُعارض موقف إستفانوس بابا روما في عدم إعادة معمودية الهراطقة، إلا أنه لامه بشدة

على تهديده بالقطع والحرمان للذين لا يشتركون معه في هذا الرأي.

والحقيقة أن البابا إستفانوس هدَّد بقطع وحرمان الأساقفة الذين أعادوا معمودية الهراطقة، كما جاء في تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري (*HE,* VII 5:4)، إلا أن موته وربما استشهاده وضع حدّاً لتصعيد المشكلة. كل هذا يجعلنا نحاول مرة أخرى اكتشاف موقف كنيسة الإسكندرية من هذه المشكلة، مما يقوله القديس ديونيسيوس نفسه:

[لقد تسلَّمتُ هذه القاعدة وهذا الحكم من أبي الطوباوي هيراكلاس، لأجل الآتين إلينا من الهرطقات، رغم أنهم قد ارتدُّوا عن الكنيسة، وهم في الواقع لم يرتدُّوا بل كانوا يجتمعون معهم (مع الهراطقة). لذلك فهم يُلامون لالتجائهم إلى بعض المعلِّمين الكذبة. فبعدما طردهم من الكنيسة لم يقبلهم على التوّ عند رجوعهم رغم التماسهم هذا الأمر، إلى أن يُقرُّوا علناً بكل ما سمعوه من المنشقين، وبعد ذلك يقبلهم دون أن يطلب منهم معمودية ثانية[٣]، لأنهم قد نالوا الروح القدس من قبل على يديه].

ثم يستكمل يوسابيوس القيصري اقتباسه من رسالة القديس ديونيسيوس الكبير:

[وقد علمت أيضاً أن هذه ليست عادة جديدة دخلت إلى (كنائس) أفريقيا وحدها، بل منذ زمان بعيد كان الأساقفة السابقون لنا قد تبنُّوها في كنائسهم ومجامعهم في إيقونية (وهي كبرى مدن ولاية ليكأونية) وسينَّادا (كبرى مدن فريجية) وغيرهما. وإن محاولة قلب آرائهم وجذبهم إلى الخصام أمر لا أحتمله، لأنه قد كُتب: "لا تنقل التخوم التي وضعها آباؤك" (تث ١٩:١٤)].

(*HE,* VII 7:4,5)

ويكرر القديس ديونيسيوس نصائحه وتحذيراته للقديس سكستوس بابا روما، لكن في قصة واقعية:

[أحد الإخوة المواظبين على الاجتماعات (أي القدَّاسات)، الذي كان يُعتبر لزمان طويل من المؤمنين - وقبل رسامتي، وربما قبل رسامة هيراكلاس الطوباوي - كان عضواً في

(٣) هذا كان موقف كبريانوس في شمال أفريقيا. والذي يقصده ديونيسيوس هو أن تكون إعادة المعمودية قاصرة على الذين تعمَّدوا بواسطة الهراطقة، هؤلاء وحدهم تعمِّدهم الكنيسة (راجع: رسالة كبريانوس رقم ٧٠).

الجماعة وحاضراً مع الذين تعمَّدوا أخيراً. وعندما سمع الأسئلة والأجوبة (وهي التي كان يلقيها الكاهن أو خادم السر على المعمَّد قبل إنزاله إلى مياه المعمودية)، أتاني نائحاً ومعطياً الويل لنفسه ووقع على قدميَّ معترفاً ومقرّاً أن المعمودية التي نالها من الهراطقة لم تكن بهذه السمة (القوية) ولا كانت تُشبهها بأي شكلٍ كان، لأنها كانت من الجحود وعدم التقوى. وقال لي إن روحه تنخسه بالأسى حتى أنه ليس لديه ثقة أن يرفع عينيه نحو الله، لأنه عاش بهذه الكلمات والأعمال الجاحدة. وألح في التضرُّع أن ينال التطهير الكامل (لخطاياه) ونوال النعمة. ولكني لم أجرؤ أن أفعل هذا قائلاً إن انتظامه الطويل في التناول كان يغني عن ذلك. إذ لم أتجاسر أن أُجدِّد من البداية ذاك الذي سمع التشكُّرات (الإفخارستيا) واشترك في ترديد "آمين"، الذي وقف بجوار مائدة المذبح ومدَّ يديه ليقبل القوت الروحاني، وقَبِلَه واشترك طويلاً في جسد ودم ربنا يسوع المسيح. لكني نصحته أن يتشجَّع ويتعزَّى ويقترب إلى شركة القديسين بإيمان راسخ ورجاء صالح. لكنه لم يتوقف عن البكاء وارتعب من الاقتراب من المائدة (المقدسة)، ونادراً ما تجرَّأ على الحضور أثناء الصلوات].

(*HE*, VII 9:2-5)

والذي يتبادر إلى الذهن من القراءة العابرة، أن القديس ديونيسيوس هنا لا يريد إعادة معمودية ذاك الإنسان الذي تعمَّد لدى الهراطقة. لكن الموضوع الذي يطرحه ـ في هذه الحالة الاستثنائية ـ هو: هل ممكن أن تحل النعمة التي نالها هذا الإنسان خلال الفترات الطويلة التي كان فيها يتناول من الجسد والدم فينال التقديس، عِوَضاً عن النعمة التي تأتيه من المعمودية المقدسة فيما لو أعاد البابا ديونيسيوس معموديته مرة أخرى؟ ألاَ يمكن أن يكون ذلك إهانة لفاعلية الروح القدس العامل في سرِّ الإفخارستيا خلال هذه السنين الطويلة؟ وفي هذه الرسالة يسأل القديس ديونيسيوس بابا الإسكندرية سِكستوس بابا روما ليس عن إعادة معمودية الإنسان، سواء كانت صحيحة أو ناقصة، لأنه لم يتعرض لتفاصيلها مطلقاً؛ لكن يسأله: ما هو الوضع بالنسبة لهذا الشخص الذي مارس شركة الإفخارستيا سنين هذا مقدارها؟

اضطهاد فاليريان (٢٥٧ـ٢٦٠م):

بعد سني التسامح الأربعة من ٢٥٣ـ٢٥٧م، انقلبت الأوضاع إلى العكس. ويخبرنا القديس

ديونيسيوس أن سبب هذا الانقلاب يعود إلى وزير المالية ''ماكرينوس'' في عهد فاليريان. ماكرينوس هذا كان مصرياً، رئيس نقابة السحرة والمجوس في مصر (*HE*, VII 10:4).

وكانت أحوال الإمبراطورية في اضطراب نتيجة الحملات العسكرية ضدها عند الحدود. فكانت القبائل الغوطية تهاجم الحدود الشمالية الشرقية، والفُرْس يهاجمون الحدود الشرقية، بينما كانت الأوبئة والأمراض تهاجم الشعب بصفة مستمرة منذ بداية حكم داكيوس ولمدة ١٥ سنة. فكانت النتيجة أن خزانة الدولة أفلست، وانحطَّت قيمة العملة. وفي الوقت نفسه، استطاع ماكرينوس أن يوهم الإمبراطور بأن سبب البلايا هو التسامح والتهاون تجاه المسيحيين، واحتقارهم لآلهة روما. وباعتبار ماكرينوس نقيب السحرة، ونحن نعلم عن شهرة مصر في السحر منذ أيام فرعون وموسى النبي، لذلك أوهم الإمبراطور واضطره لاستصدار قرار يمنع الاجتماعات المسيحية في المدافن، وإلزام رؤسائهم الدينيين بتقديم الذبائح والقرابين للآلهة الوثنيين، وإلاَّ تُصادر أموالهم وممتلكاتهم. وفي سنة ٢٥٨م، صدر مرسوم ثانٍ بإعدام الرؤساء الدينيين وكبار رجال الدولة المسيحيين الذين لم يُقدِّموا الذبائح لآلهة روما، وبالتالي مصادرة أموالهم لصالح الدولة.

ويصف لنا القديس ديونيسيوس محاكمته التي جرت أمام نائب الإمبراطور في مصر (حيث كان الوالي الروماني برتبة نائب الإمبراطور). ويبدو أن هذا الوصف قد نقله ديونيسيوس عن المحاضر الرسمية للمحاكمة، حيث يظهر إميليانوس الوالي كشخص سياسي يحاول بالمنطق وبالدهاء السياسي أن يتفهَّم عناد المسيحيين ضد آلهة روما، حيث لا يمنعهم المرسوم الإمبراطوري من عبادتهم، لكن يُطالبهم باحترام الآلهة الأخرى وتقديم فروض العبادة لها:

> [لقد تحادثت معكم[٤] عن الخير الذي يصنعه سادتنا الأباطرة (فاليريان وشريكه في الحكم ابنه جاللينوس) تجاهكم، وهم سيتساهلون معكم متى تحوَّلتم إلى ما هو متوافق مع الطبيعة، فتوقِّروا الآلهة التي تخلِّص الإمبراطورية وتحفظها (سالمة)، وتتخلوا عن كل ما هو مضاد للطبيعة. فبماذا تجيبون؟ لا أتوقع أن تكونوا جاحدين لإنعامات أباطرتنا العظام الذين لا يطلبون سوى الخير العام.

(٤) الكلام هنا موجَّه من نائب الإمبراطور إلى أنبا ديونيسيوس الكبير ومكسيموس الكاهن (مساعده والذي جاء بطريركاً بعده) والشمامسة فاوستوس وشيرامون ومارسيللوس.

فأجاب ديونيسيوس: ليس الجميع يوقِّرون الآلهة (التي تقول عنها)، بل كل واحد يتعبَّد للإله الذي يعتقد أنه هو فعلاً هكذا. نحن نعبد الإله الذي خلق الكائنات، والذي سلَّم الإمبراطورية في يد قياصرتنا الأتقياء: فاليريان وجاللينوس، الإله الذي نعبده ونكرمه ونصلِّي إليه دوماً لأجل مملكتهم لتبقى سالمة.

فقال لهم إميليانوس: مَنْ ذا الذي يمنعكم من عبادته ما دام هو إلهاً من الآلهة الأخرى التي بحسب الطبيعة؟ لأنكم ملتزمون بعبادة الآلهة المعترَف بها من الجميع.

فأجاب ديونيسيوس: نحن لا نعبد أي إله آخر سوى الله.

فأمر إميليانوس قائلاً: أرى أنكم جميعاً جاحدون وغير مستجيبين لِلُطف قياصرتنا. وبالتالي، لن تبقوا بعد في هذه المدينة بل ستُستبعدون إلى ليبيا، إلى ''خفرو'' المكان الذي اخترته لكم بناء على أوامر قياصرتنا، وممنوع منعاً باتاً عقد اجتماعات أو الاقتراب من المدافن (لعمل اجتماعاتكم المألوفة)، وإذا ما اكتشفتُ غياب أي واحد منكم عن المكان المحدد لإقامته، أو كان في اجتماع؛ فإنه يُعرِّض نفسه للموت والهلاك، ولن يُعفى من العقاب القاسي. فامضوا إلى الموضع المرسوم لكم] (**HE, VII 11:9-11**).

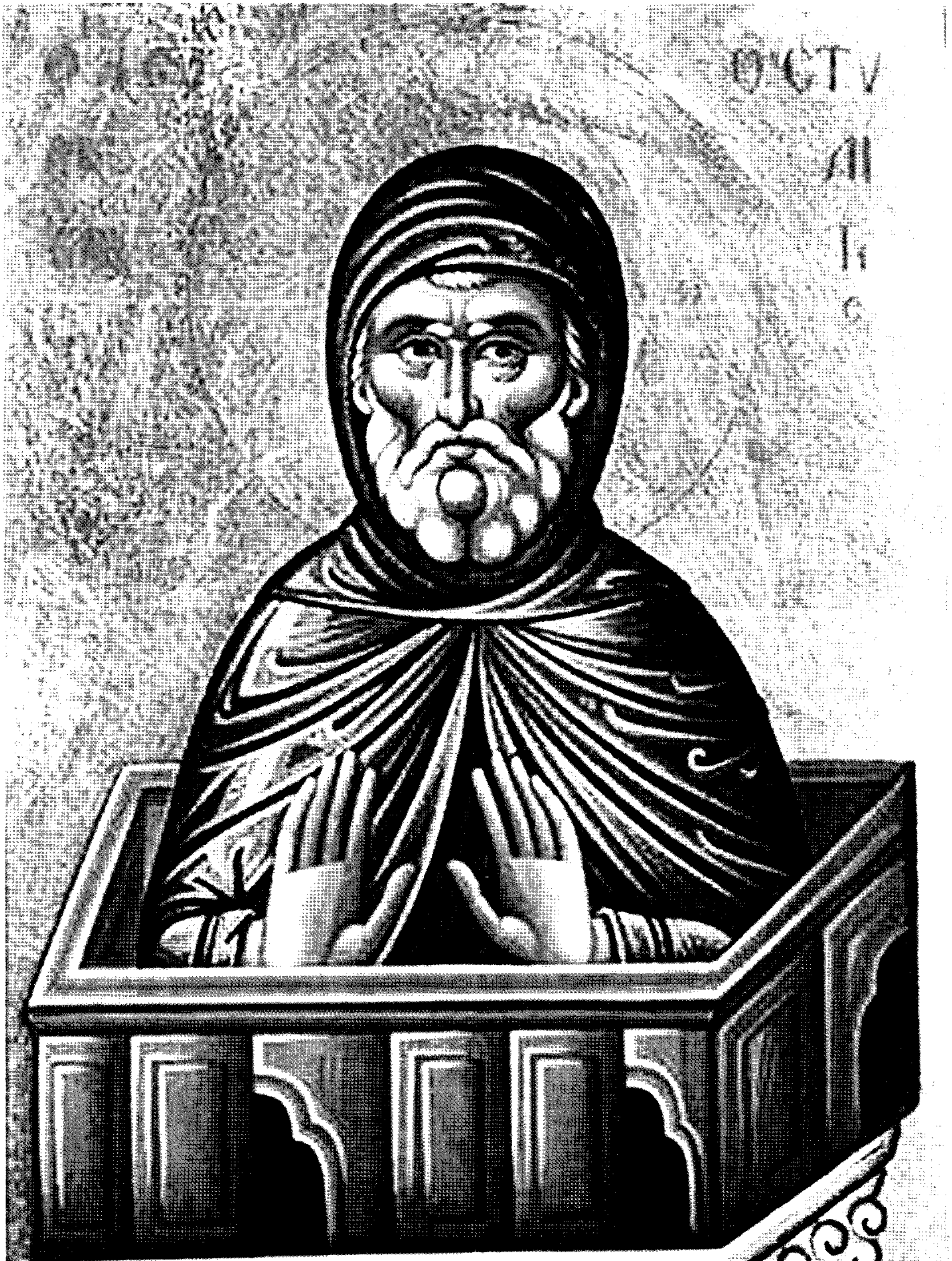
وما إن وصل الركب إلى ''خفرو''، حتى قذفهم الأهالي الوثنيون بالحجارة. لكن بعد قليل آمن البعض منهم، لذلك نقلهم الوالي إلى موضع أبعد في ليبيا محدِّداً لكل واحد منهم مكان إقامته في مكان منعزل وحده. ولأسباب لا نعلمها، لم يَجْرِ عليهم مثلما جرى على كبريانوس في شمال أفريقيا الذي استُشهد في هذا الوقت سنة ٢٥٩م. وفي نهاية هذا العام أو بداية العام التالي، وقع فاليريان في أَسْر سابور الأول ملك فارس، فتولَّى ابنه جاللينوس الحكم بعده. وقد أصدر جاللينوس مرسوم التسامح، ربما تحت تأثير زوجته المسيحية سالوينا، الذي يمنح بمقتضاه للمسيحيين حرية العبادة وحق المحافظة على أماكن عبادتهم وأموالهم.

انتهاء الاضطهاد:

وهكذا عاد ديونيسيوس الكبير إلى الإسكندرية بعد انتهاء الاضطهاد وحلول عصر السلام الذي سيستمر حوالي ٤٠ سنة، لكي يواصل كفاحه فيها؛ لأن المدينة انقسمت إلى فريقين: أحدهما يُشايع جاللينوس الإمبراطور الحقيقي، والثاني: يُناصر ماكرينوس وأولاده، إذ أن ماكرينوس



العلاَّمة أوريجانوس الإسكندرى ولد عام ١٨٥م



البابا ابريموس وهو البابا الخامس بعد القديس مرقس الرسول.
وقد رَسَم لأول مرة أساقفة وقسوساً للكنيسة



البابا ديونيسيوس الإسكندرى (٢٤٧- ٢٦٤م)



أيقونة البابا بطرس خاتم الشهداء ورؤيا تمزيق ثوب المسيح

(٣٠٠- ٣١١م)

كان رئيس نقابة السحرة في الإسكندرية ووزير مالية الدولة. وفي ظل هذه الفوضى يصف القديس ديونيسيوس أحوال الإسكندرية:

[ليس من السهل على المرء أن يتنقَّل داخل حدود ولايته، بل ولا حتى الانتقال من شرق المدينة إلى غربها. فعبور الصحراء الرحبة التي فيها عَبَرَ شعب إسرائيل أيسر من التجول في قلب المدينة. ومياه الميناء الساكنة امتلأت بالدماء حتى يُخيَّل للناظر أنها مياه البحر الأحمر (!!)... ويتعجَّب الناس من أين أتت الأوبئة والأمراض من كل نوع؟ وما علَّة اقفرار المدينة من العابرين فيها، حتى أن المرء لا يُقابل فيها سوى كهولٍ على شفا الموت وأطفالٍ صغارٍ، مع أنها كانت مملوءة من الأشداء والأقوياء؟] (***HE*, VII 21:3-10**)

ثم يصف لنا البابا ديونيسيوس حال الكنيسة أثناء الاضطرابات التي سببتها الأوبئة، بالمقارنة مع ما فعله الوثنيون:

[حقاً، على هذا المنوال رحل عنا إخوتنا، ومنهم بعض الكهنة والشمامسة و(أراخنة الشعب) الذين كانوا مشهورين جداً. فكان هذا النموذج في مجابهة الموت بما أظهروه من تقوى عظيمة وإيمانٍ قويٍّ لا ينقص شيئاً عن الاستشهاد. فكانوا يحملون أجساد القديسين على أيديهم المجردة وفي أحضانهم، ويغلقون (يُسبِّلون) أعينهم وأفواههم، وعلى أكتافهم يحملونهم، ويضعونهم على فراشهم، ويمسكون بهم ويحتضنونهم، ثم يُغسِّلونهم الاغتسال اللائق ويكفِّنونهم في الملابس. وبعد قليل ينالون هم أيضاً نفس هذه المعاملة، لأن الباقين أحياءً كانوا بعد قليل يلحقون مَنْ سبقوهم[٥].

أما عن الوثنيين، فكان كل شيء مختلفاً تماماً. كانوا يهجرون من ابتدأ منهم يمرض، ويهربون من أعز أصدقائهم، وكانوا يطرحونهم في الشوارع وهم نصف موتى ويتركونهم كأنهم نفاية بدون دفن. بل كانوا ينفرون من أية خلطة أو شركة مع موتاهم، ورغم كل هذه التحذيرات والاحتياطات لم يكن سهلاً أن يهربوا من الوباء والموت] (*HE*, VII 22:8-10).

(٥) هذا الوصف تطبيق لما جاء في سفر طوبيا، وهو أحد أسفار الترجمة السبعينية التي قام بإنجازها يهود الإسكندرية.

بدعة الحُكْم الألفي:

خلال نفي البابا ديونيسيوس في ليبيا، نشطت بدعة ''الألف سنة''، تلك البدعة التي خمدت نتيجة ارتفاع المستوى الروحي الذهني لرجال الكنيسة خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين. ولكن الملاحظ دائماً، أنه نتيجة اشتداد حملات الاضطهاد ضد المسيحية، أن بعض النفوس تخور وتستسلم؛ والبعض الآخر يفتر جهادهم الروحي فيلتمسون عزاءً في بعض الأفكار الجسدانية مثل: حُكْم الألف سنة، وكيفية مُلْك المسيح على الأرض، وفرض إنجيله بالقوة على الشعوب؛ فهذا بلا شك مبدأ متوارث من اليهودية الفرِّيسية وعدم قدرتها على السمو الروحي المتناسب مع الإنجيل.

ونشاط هذه البدعة كان متركِّزاً في مدينة أرسينو بمقاطعة الفيوم، حيث ألَّف أسقفها، وكان يُدعى نيبوس، كتاباً سمَّاه: ''الرد على القائلين بالرمزية''، وفيه يُنادي بوجوب تصديق الكتابات النبوية وسفر الرؤيا بالذات تصديقاً حرفياً كما قَبِله رجال العهد القديم وقديسوه، وهذا كان ردَّ فعل ضد أوريجانوس ومَن تبعه. وقد تنيح هذا الأسقف وصار بعده ''كوراسيون Coracion'' رأس هذه الجماعة في الفيوم. وكان لهذه الجماعة تنظيمٌ ومعلِّمون وكهنة ونشاط أقلق القديس ديونيسيوس.

لذلك وضع القديس ديونيسيوس كتابين للردِّ على هذه الجماعة باسم: ''على المواعيد الإلهية''؛ فنَّد فيهما آراء نيبوس في مسألة الحكم الألفي، كما اجتمع مع كهنة وشعب المنطقة ورؤسائها ومعلميها لمدة ثلاثة أيام من الصباح حتى المساء، في حوار حر هادئ ظهرت فيه قدرة هذا القديس في الكلام والإقناع وطول الأناة والحوار الطاهر المقدس، حتى اقتنع الجميع بوجهة نظره، وأعلن كوراسيون هذا علانية: إنه قد تخلَّى نهائياً عن هذه المبادئ والتعليم، وإنه متمسك بكل الأسانيد التي قدَّمها أنبا ديونيسيوس.

ومن تعليق القديس ديونيسيوس على رأيه الخاص بخصوص سفر الرؤيا، أنه لا يرفض هذا السِّفْر بل يؤمن بقداسته، وأنه موحى به من الله كسفر مقدس:

[لكن في الحقيقة إن أفكاره تفوق قدراتي الذهنية. ومع هذا أظن أن في كل قطعة منه معنى مختبئاً مثيراً للدهشة] (***HE*, VII 25:4**).

ثم يقدِّم الأسانيد التي تجعله يعتقد أن كاتبه ليس هو القديس يوحنا الإنجيلي كاتب الإنجيل الرابع والرسائل، بسبب الاختلاف اللغوي والخصائص الأدبية الواضحة بين هذا السفر وباقي

كتاباته. وهذا يُرينا قدرة هذا القديس العلمية على استيعاب قواعد نصوص الكتاب المقدس التقليدية كما كانت في مدرسة الإسكندرية.

حوار حول موضوع الثالوث الأقدس:

كانت كنائس ليبيا تحت سلطة كرسي الإسكندرية، حيث قامت مناقشات خطيرة حول الثالوث الأقدس. ففي الخمس المدن، نشأ سابيليوس ونشر بدعته التي ألغى فيها التمييز بين الثلاثة الأقانيم. وقال: إن الآب ظهر في العهد القديم للآباء والأنبياء، وهو هو نفسه في العهد الجديد تسمَّى باسم الابن، وهو هو الآن يُسمَّى الروح القدس؛ فالأقانيم ليست أكثر من ظهورات مختلفة لله الواحد.

وقد انتشرت هذه البدعة في ليبيا وامتدت إلى الإسكندرية، حتى أنه في أيام نفي ديونيسيوس لم يَعُدْ أحد في كنائس ليبيا قادراً أن يتكلَّم عن الابن. وسنوات المنفى منعت القديس ديونيسيوس من التدخُّل في الوقت المناسب للرد على المبتدعين. ولكن منذ سنة ٢٥٧م، بدأ تدخُّله على النحو الذي يصفه القديس أثناسيوس بعد ذلك في مقالته: "على أفكار ديونيسيوس". فقد كتب القديس ديونيسيوس إلى مبتدعي هذه الهرطقة لكي يتركوها، ولكنهم لم يستجيبوا، بل ازدادوا جسارة في تجديفهم(٦).

ثم توالت رسائل القديس ديونيسيوس إلى ليبيا والخمس المدن، بل وحتى إلى كنيسة الإسكندرية. وبسبب قلقه على إظهار التمييز بين عمل الأقانيم الثلاثة، لم يؤكِّد أو لم تظهر في رسائله التأكيدات على وحدانية الجوهر الإلهي، وكان هذا الإغفال غير المتعمد فرصة فيما بعد للآريوسيين أن يتخذوا من رسائله حجة لتأييد دعواهم بخضوع الابن للآب، لأنه أقل منه كرامةً، حسب معتقداتهم. لذلك شرح القديس أثناسيوس رسائل ديونيسيوس بطريرك الإسكندرية التي تبادلها مع سميِّه بابا روما، مُعترفاً بعدم وضوح بعض تعبيرات القديس ديونيسيوس، ولكنها على أيَّة حال تُناقض البدعة الآريوسية.

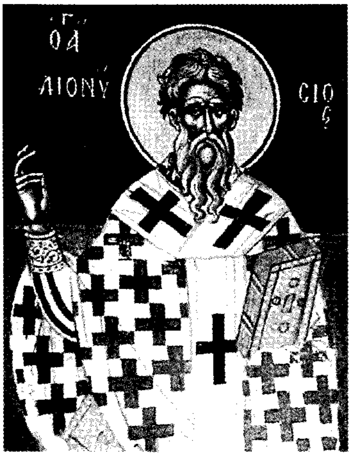
---

(6) *HE,* VII 26:1; Athanasius, *De Sentenia Dionysii* V.

نياحته:

دعا أساقفة كرسي أنطاكية سنة ٢٦٤م القديس ديونيسيوس لحضور مجمع لمحاكمة بولس الساموساطي، وذلك بسبب تصرفاته الشخصية والمآخذ التي أُخِذَت عليه؛ ولكن القديس ديونيسيوس اعتذر عن الحضور لشيخوخته وضعف صحته، مستعيضاً عن حضوره برسالة أرسلها إلى المجمع. وبعد قليل تنيَّح بسلام، وخلفه على الكرسي الإسكندري البابا مكسيموس البطريرك الـ ١٥.

وتُعيِّد الكنيسة القبطية لنياحته يوم ٣ توت من كل عام.



أيقونة بيزنطية للبابا القديس ديونيسيوس الكبير

كنيسة الإسكندرية في النصف الثاني من القرن الثالث

البابا مكسيموس

البطريرك الخامس عشر في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري

(٢٦٤ - ٢٨١م)

حياته:

نشأ في بيت مسيحي، وتربَّى في الإسكندرية، وورث تعاليم وتقاليد مدرستها وكنيستها. وقد صَاحَبَ مكسيموس البابا ديونيسيوس الكبير أثناء اضطهاد فاليريان، وكان هو الكاهن الوحيد المصاحب للبطريرك مع ثلاثة شمامسة أثناء محاكمته أمام إميليانوس نائب الإمبراطور وحاكم الإسكندرية.

فلما صدر قرار نفي البابا ديونيسيوس إلى ''خفرو'' بليبيا، صاحَبه إلى هناك الكاهن مكسيموس وبعض الشمامسة. وقد قامت هذه الجماعة بنشاط رعوي بين الوثنيين، أدَّى إلى قبولهم الإيمان المسيحي وتعميدهم، مما اضطر الوالي إلى نقل هذه الجماعة إلى مكان أبعد في ليبيا. وقد انتدب البابا ديونيسيوس الكاهن مكسيموس لافتقاد الرعية سرّاً، بينما أوصى الشمامسة بتطبيب ضحايا الأوبئة وافتقاد المعترفين وتكفين الشهداء (*HE,* VII 11:4,24,25).

شخصيات هامة في هذه الفترة:

١. **يوسابيوس:** كان أحد الشمامسة الذين انتدبهم البابا ديونيسيوس لافتقاد ضحايا الأوبئة في الإسكندرية. ولما دُعِيَ البطريرك لمجمع أنطاكية لعزل بولس السموساطي بطريرك أنطاكية، ولم يتمكن من الذهاب لضعف صحته وشيخوخته؛ أرسل اثنين من شمامسته كمندوبين عنه، ومن بينهما كان يوسابيوس هذا الذي أثناء اجتيازه مدينة اللاذقية بسوريا تمسَّك به شعب كنيستها

وأقاموه أسقفاً عليهم. وللأسف لم تَطُل مدة إقامته أسقفاً، إذ قد تنيح بعد فترة قصيرة.

٢. أناتوليوس: من مواطني الإسكندرية وكنيستها. وكما نعلم أنه عقب سقوط فاليريان في أَسْر الفرس سنة ٢٦٢م، قام والي الإسكندرية إميليانوس بإعلان نفسه إمبراطوراً ضد الإمبراطور الشرعي جاللينوس ابن فاليريان، الذي أرسل جيشاً حاصر المدينة حتى احتلها وقتل إميليانوس مغتصب السلطة. وكان أناتوليوس من الشمامسة الذين أظهروا بطولة في مواساة ضحايا الحصار والحرب، فانتدبه البابا ديونيسيوس مع رفيقه يوسابيوس لحمل رسالة البطريرك إلى مجمع أنطاكية. وفي أثناء عودته مرَّ على اللاذقية للسفر منها إلى الإسكندرية، فأقاموه أسقفاً خلفاً ليوسابيوس الذي تنيح منذ فترة قصيرة، وكان ذلك حوالي سنة ٢٧٠م.

ويحكي عنه يوسابيوس القيصري أنه أثناء وجوده شماساً في الإسكندرية، كان عالماً متضلِّعاً في الرياضيات والهندسة والفلك وفلسفة أرسطو. ويُعطينا يوسابيوس القيصري في تاريخه تفصيلات لبعض أعماله التي خلفها، مثل: جداول لحساب تاريخ الفصح على مدى تسع عشرة سنة، وهي تماثل تقريباً حساب الكرمة المعروف في الكنيسة القبطية، وله أيضاً مقال على "علم الحساب" حسب قواعد أرسطو.

٣. ثيئوغنسطس: ذاع صيته حوالي سنة ٢٦٥م، وقد تولَّى إدارة مدرسة الإسكندرية بعد اختيار ديونيسيوس مدير المدرسة للبطريركية. ومعرفتنا بكتاباته جاءت عن طريق القديس أثناسيوس الرسولي الذي يستشهد به وبكتاباته باحترام وإكرام زائدين (*De Decivet. Nic. Syn.* 25). وهو تلميذ أوريجانوس، وقد تسببت هذه التلمذة في ضياع مؤلَّفه الوحيد الذي نسمع عنه لدى المؤرخين المتأخرين (البطريرك فوتيوس أسقف أنطاكية)، وقد أسماه: ὑποτυπώσεις = الملخَّص، متمثِّلاً في ذلك بكليمندس الإسكندري. وقد قسَّم هذا المؤلَّف إلى سبعة أجزاء:

الأول: عن الله الآب خالق الكون والمسكونة كلها.

الثاني: عن حتمية وجود الابن طالما هناك آب للكون.

الثالث: عن الروح القدس.

الرابع: عن الملائكة والشياطين.

الخامس والسادس: شرح التجسُّد.

السابع: الخليقة.

وجرى على مؤلَّفه هذا ما جرى على كل كتابات أوريجانوس، إذ اتُّهم بأنه جعل الابن في كرامة أقل من كرامة الآب، إلا أن البابا أثناسيوس الرسولي يستشهد به في دفاعه عن كلمة ''هوموؤوسيوس''، قائلاً إنه استعملها في شروحاته مقتبساً هذا النص من كتابه الضائع:

[جوهر الابن οὐσία ليس مبتدعاً من الخارج، ولا جاء من العدم، ولكنه وُجِد من نفس جوهر الآب ὁμοούσιος كخروج الأشعة من النور، والبخار من الماء. فالأشعة ليست هي النور (تمييز الأقانيم)، والبخار ليس هو الماء. لذلك فالابن ليس هو الآب، ولا هو أيضاً غريب عن الآب (وحدانية الجوهر)، بل هو الشعاع الخارج من جوهر الآب (بهاء جوهره). هذا الجوهر لا يحتمل التجزئة، لأنه كما أن الشمس تبقى كما هي مهما خرجت منها الأشعة التي تفيضها، هكذا أيضاً جوهر الآب سيبقى هكذا دائماً بدون تغيير أو نقصان باعتبار أن الابن هو صورة جوهر الآب] (*ANF*, VI, p. 155).

٤ . **بيريوس**: ذاع صيته حوالي سنة ٢٧٥م، وكان مدير مدرسة الإسكندرية بعد ثيئوغنسطس، ويشهد يوسابيوس القيصري (*HE*, VII 32) عن شهرته في أمرين: الفقر الاختياري، والمعرفة الإلهية.

والقديس جيروم يعطينا عنه تفصيلات أكثر:

[بيريوس، كاهن كنيسة الإسكندرية في عصر تملُّك كاروس ودقلديانوس، في الوقت الذي كان فيه ثيئوناس أسقفاً على نفس الكنيسة (كنيسة الإسكندرية). وكان يقوم بتعليم الشعب (الوعظ) بنجاح مذهل لأجل سلاسة أسلوبه الذي كان بلا كلفة ولا تصنُّع. وكتب كثيراً من المقالات على جميع الموضوعات، حتى أنه دُعِيَ ''أوريجانوس الصغير'' Origen Junior. وقد اشتهر بضبط النفس (العفة)، والفقر الاختياري، وفصاحة الكلام، والحوار. وبعد انتهاء الاضطهاد (المشهور في عصر دقلديانوس)، أمضى بقية حياته في روما. ولا زالت باقية (من مؤلفاته) عظة طويلة عن ''هوشع النبي''، يبدو من براهينها الداخلية أنها أُلقيت في سهرات الفصح] (***De Vir. ill.* 76**).

وقد عانى التعذيب في الإسكندرية لأجل الإيمان قبلما يرحل إلى روما. وعاش بعد التعذيب حتى انقضاء زمن الاضطهاد وتولِّي قسطنطين الحكم. ومن الذين تتلمذوا له في الإسكندرية بامفيلوس الذي استُشهِد في اضطهاد دقلديانوس سنة ٣٠٩م، وهو الذي اشترك مع يوسابيوس

القيصري في كتابة دفاع طويل عن أوريجانوس، وقد ضاع للأسف.

والعظة الطويلة التي ألقاها، والتي يتحدث عنها يوسابيوس وجيروم، كانت على هوشع النبي، وقد ألقاها في الإسكندرية على فترات خلال الفصح، وهي تُعتبر مدخلاً لنبوة هوشع، وذكرها أيضاً جيروم في مقدمته التي كتبها على سفر هوشع باللاتينية.

وإلى جانب هذه العظة الطويلة، هناك أعمال أخرى ذكرها المؤرخون المتأخرون (مكتبة فوتيوس) عن: "إنجيل لوقا"، و"العذراء مريم"، و"حياة الشهيد بامفيلوس" تلميذه.

البابا ثيئوناس

البطريرك السادس عشر

في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري

(٢٨٢-٣٠٠م)

معروف عن هذا البابا أنه بنى أول كنيسة ظاهرة باسم العذراء، وكانت العبادة قبل ذلك تتم كلها في السراديب والمدافن. فلما حلَّ عصر السلام ابتداءً من أيام جاللينوس حوالي سنة ٢٦٢م، بدأت الكنائس تظهر، واعترفت لها الدولة بالملكية القانونية والوجود القانوني.

ومن الحوادث المؤسفة التي وقعت في بداية عصره، أنه لما تولَّى دقلديانوس الحكم سنة ٢٨٤م، ثار ضده والي الإسكندرية أرشيلاوس، فحضر دقلديانوس بجيشه وحاصر المدينة ودكَّ أسوارها.

ولكن من أجمل المؤلَّفات التي تركها لنا هذا القديس، رسالة مسيحية تفيض تعليماً وتوقظ وعي الإنسان المسيحي المتحضِّر والمثقف، لتكشف له كيفية التصرُّف والسلوك في الوظائف الحساسة. فكتب البابا ثيئوناس رسالة إلى لوكيانوس الذي كان يشغل وظيفة كبير أمناء القصر الإمبراطوري في عهد دقلديانوس. فقد اشتهر المسيحيون في النصف الأخير من القرن الثالث بالعفة والأمانة والاستقامة، كما أن الكنيسة كانت تحيا في سلام خلال العشر السنوات الأولى من حكم دقلديانوس (*ANF,* IV, p. 126).

وهذه الوظيفة ـ كبير الأمناء ـ كانت تختص بالعناية الشخصية بحياة الإمبراطور: أكله وشربه وملبسه وقراءاته وسلوكه نحو الإمبراطورة... إلخ. ولأن هذه الرسالة حُفِظَتْ لنا في ترجمتها اللاتينية، لذلك لم يهتم Quasten (العالِم الآبائي المعروف) أن يذكر أي شيء عنها، أما خلاصتها فهي كالآتي:

١. يوصي البابا ثيئوناس لوكيانوس كبير الأمناء بعدم السير بوجهين، أو استغلال منصبه لقبول رشوة نظير تسهيل مقابلة شخص ما مع القيصر.

٢. يعتبر كل أمر صادر من القيصر أنه صادر من الله ما دام لا يتعارض مع الإنجيل.

ولأن لوكيانوس كان يرأس مجموعة من الموظفين المسيحيين، تُشكِّل حاشية القيصر، لذلك بدأ البابا ثيئوناس يُعدِّد تخصُّصات وواجبات كل واحد منهم، مبيِّناً كيف يمكنه أن يمجِّد اسم المسيح في عمله دون أن ينادي أو يبشِّر بالاسم داخل القصر:

- أمين الخزانة: يمسك حسابات دقيقة مضبوطة، ولا يعتمد على ذاكرته. تفاصيل الإيرادات: مصادرها، ومَنْ الذي سلَّمها، والمصروفات بنفس الدقة.

- أمين خزانة الملابس: العناية بالملابس والأردية وفرزها ليعرف النظيف من المتسخ، يعرف أماكنها وترتيبها ونظامها ويعرضها عرضاً أنيقاً، ليُعطي جواباً على كل سؤال.

- أمين آنية الفضة والذهب: يَجردها جرداً منظماً وبصفة دورية، وإعطاء بيان بكل ما فيها من حجارة كريمة، يعرف مَنْ مِن العبيد والخدم استعملها أو تصرف فيها.

- أمين المكتبة وخزانة الكتب: مهمته توازي مهمة أرستياس مدير مكتبة الإسكندرية أيام بطليموس فيلادلفوس الذي امتدح توراة اليهود أمام بطليموس فأمره بترجمتها إلى اليونانية، وصارت هي الترجمة السبعينية المتداولة بين مسيحيي العالم وقتئذ. لا يحتقر الآداب العالمية أو أدب العلمانيين، بل يمدح أعمالهم الفاضلة للقيصر لكي يزكِّي له ما يقرأه أو ما يُتلى على مسامعه، ليس عن رأيه الشخصي بل يُطلعه على آراء الآخرين أيضاً. يهتم بإعادة نساخة المخطوطات القديمة ويختار لها أكفاء من القادرين على المراجعة والتصحيح، ولا يكون كل اهتمامه منحصراً في كتابة الحروف الذهبية والزخرفة فقط.

- الياور الخاص: سريع الاستجابة قدر الطاقة، بوجه بشوش، مرح، لكن في تواضع حتى يظهر أن هذه الصفات هي ثمرة الإيمان بالمسيح. مهندم الملبس لكن ليس في مبالغة وإفراط لكي لا يصير تواضع المسيح عثرة. عند زيارته للإمبراطورة أو زيارتها له، يكون حريصاً جداً في السيرة والنظر والكلام حتى تُلاحظ هي مقدار تعفُّفه وتواضعه. الحديث دائماً يكون باعتدال ووداعة. ليُرفع من بينكم الخصام والحسد والانقسام لئلا تصيروا سبب عداوة القيصر نحو المسيح.

- وتوصيات أخرى:

❖ كُن حكيماً واحتمل حماقة الجاهل.

❖ إذا أساء إليك أحد، فانظر إلى المسيح الذي غفر لك خطاياك حتى تغفر أنت للآخرين.

❖ لا تَدَع يوماً يمر عليك دون أن تُطالع الكتب المقدسة.

❖ أعطِ وقتاً للتأمُّل، فلا شيء يقيت النفس ويغذيها مثل هذه الدراسة المقدسة.

❖ كُن صبوراً، لأن بالصبر اللائق تتمم واجبات وظيفتك تَقَوياً.

وباختصار، فإن هذه الرسالة تهدف إلى شرح الوسائل الكفيلة بتمجيد اسم المسيح خلال العمل في القصر الإمبراطوري.

القرن الرابع

كنيسة الإسكندرية
في القرن الرابع

آخر اضطهاد روماني ضد المسيحية

١. الهدوء الذي يسبق العاصفة:
إيجابياته وسلبياته:

تمتَّعت الكنيسة بعد انتهاء اضطهاد فاليريان سنة ٢٦٠م بسنوات هادئة، حوالي ٤٠ سنة، امتدت فيها الكرازة حتى صار غالبية السكان في بعض المناطق من المسيحيين؛ ومن ضمنها: مصر وبعض مدنها، ومدن من آسيا الصغرى، حيث تزدحم هناك القرى والمدن منذ بدء عصر الإمبراطوريات الإغريقية. وإذا كان انتشار المسيحية قد بدأ في الطبقات الدُّنيا من الشعب؛ إلاَّ أنها امتدت وتغلغلت أكثر فأكثر، حتى أن كلسوس كان يُعيِّر المسيحيين (سنة ١٧٧-١٨٠م) ويسخر من ديانتهم قائلاً: إن الحدَّادين وعمال الغسيل والنظافة وضاربي الصوف، مع العبيد والأطفال والنساء، هم الطبقات التي تنتشر بينها المسيحية.

وبعد ذلك بمئة سنة كَتَبَ بورفيري أحد كبار فلاسفة الأفلاطونية الحديثة سنة ٢٧٠م، متحدِّثاً عن سيدات المجتمع الراقي اللواتي أعطين للكنيسة والفقراء كل ثرواتهن طاعةً لوصية الإنجيل. وفي سنة ٣٠٣م، عند بدء اضطهاد دقلديانوس، كانت المسيحية فعَّالة ونشيطة بين رجال حاشية دقلديانوس وولاة الأقاليم والحكام؛ ومنهم من استشهد مثل دوروثيئوس كبير أمناء القصر الإمبراطوري. كما يُقال أيضاً إن زوجة دوروثيئوس وابنته التي صارت زوجة لجاليريوس ومُعاوِنة له في الحكم، كانتا منجذبتين للمسيحية، ويتضح ذلك من رسالة البابا ثيئوناس بطريرك الإسكندرية الـ ١٦ التي أرسلها إلى كبير أمناء القصر الإمبراطوري.

ومن الجهة الأخرى، كانت هناك أيضاً سلبيات كان على الكنيسة أن تواجهها. فالشعور بالأمان في الكنيسة حرمها من عمليات التصفية ضد المنتسبين اسماً لها، وهي عمليات تصفية الجيد من الرديء التي كان الاضطهاد أو الاضطراب يفرزها ويعزلها. فقد غابت من الكنيسة الحرارة

الروحية التي يُشعلانها الاضطهاد ومواجهة الموت.

هذه البرودة الروحية تتجلَّى في عمليات التوافق أو التلفيق التي تتم بين الخرافات الوثنية ومباريات الحظ والقمار وعمليات الربا؛ ثم موقف الكنيسة تجاه الزواج المختلط وتعدُّد الزوجات في الطبقة الأرستقراطية، وعمليات الإجهاض والزنا، وتقديم البخور والسكائب من جانب المؤمنين للآلهة الوثنية كنوع من المجاملة أو كفرض مُلْزِم لكبار الموظفين الرومانيين مثل: حُكَّام الأقاليم، ومديري المجالس البلدية. فكان كبار الموظفين من المسيحيين يلجأون لحيل يتهرَّبون بها من هذه المواقف، مثل أن ينتدبوا أحداً للقيام بهذه المهمة بدلاً منهم، وتحويل المهرجانات الوثنية والرياضية إلى نوع من المنافسات البعيدة عن إراقة الدماء وتقديم الذبائح.

وهكذا كان على الكنيسة مواجهة مثل هذه المشاكل التي تحتاج إلى يقظة حتى لا تتوه الحقيقة الإنجيلية وسط السلام والتسيُّب الذي يُهيئه عصر الرخاء.

٢. تغيير نظام الحكم وتحويله إلى الاحتكار والسيطرة الكاملة على القدرات البشرية Totalitarianism:

عانت السلطة الحاكمة الرومانية في النصف الثاني من القرن الثالث من تخلخل أداة الحكم داخلاً وخارجاً. ففي الخارج ظهرت دولة الفرس كمنافس خطير للإمبراطورية الرومانية حتى وصلت جيوشها أحياناً إلى حدود أنطاكية قرب البحر الأبيض المتوسط. كما أن القبائل الجرمانية غزت الحدود الشمالية على نهر الراين (بلجيكا وهولندة) والشمالية الشرقية (نهر الدانوب). بالإضافة إلى كثرة تولِّي وسقوط الأباطرة نتيجة المؤامرات وانقسامات القواد العسكريين. كل ذلك أدَّى إلى الفوضى وتدنِّي اقتصاديات الدولة.

لذلك، بمجرد أن تولَّى دقلديانوس الحُكْم سنة ٢٨٤م، حتى شرع في إنقاذ الإمبراطورية من هذا التدهور، وذلك بإعادة فرض السلطة الرومانية على أُسس جديدة، بصرف النظر عن النتائج. وأهم هذه التنظيمات هي احتكار الدولة لكل أنشطة الرعية حتى تصير خادمة وخاضعة لسلامة وأمان الدولة، دون النظر إلى تحوُّل الدولة نفسها إلى سجن ضخم يضم ملايين البشر الذين تستعبدهم. وفي سبيل ذلك، وكأي حُكْم ديكتاتوري، تحوَّلت الدولة إلى هيئة بوليسية تهيمن على كل شيء، مع تهديد مستمر مُسلَّط على رقبة كل واحد من رعاياها. فلأجل تشديد قبضتها، لم يَعُدْ الأمر يحتاج إلى اتهام في مؤامرة انقلاب الحكم حتى يُحكم على أيِّ إنسان بالسجن، بل

يكفي تأخيره في تسديد ضرائب الحكومة يوماً واحداً عن الموعد المحدد، فيُقاد إلى السجون ويُعذَّب حتى الموت بعذابات شديدة.

وحتى يبلغ هذا النظام دقته في الإحكام والسيطرة، كان لابد من إضفاء هالة من القداسة والجلالة على شخصية الإمبراطور، فيصير وكأنه يمتلك نوعاً من الصفات الفائقة على الطبيعة جعلته يفوق الجميع، لأنها قدرات إلهية حسب زعمهم.

هذه بلا شك صاحَبَها صورة مزيَّفة لانتشار الإنجيل واستعلان مواهب الروح القدس الخارزماتية.

الأحداث التاريخية السابقة:

بعد أن تمَّ تهيئة المناخ العام بانتشار المسيحية وبلوغها أعلى الطبقات الأرستقراطية، ثم العوامل الاقتصادية والسياسية التي استدعت تركيز الحكم ديكتاتورياً وتشديد قبضة الدولة لتستطيع الحفاظ على كيانها التقليدي؛ كان لابد من وقوع أحداثٍ محددة تهيِّئ لإضرام النار في الحطب، حيث توقفت لغة التفاهم الودِّي بين الدولة والكنيسة التي بدأت منذ سنة ٢٦٠م.

١ - معاداة جالير يوس:

في سنة ٢٨٦م، أي بعد سنتين من تولِّي دقلديانوس شئون الإمبراطورية، أشرك معه مكسيميان هرقل في الحكم. فاختصَّ هو لنفسه المنطقة الشرقية: آسيا الصغرى، بلاد اليونان، سوريا وفلسطين ومصر؛ بينما ترك لمساعده مكسيميان هرقل شئون الحكم في الغرب: إيطاليا، وبلاد الغال، وإنجلترا، وشمال أفريقيا. وفي سنة ٢٩٢م، أشركا معهما اثنين آخرين معطيين إياهما لقب قيصر، كمعاونين لهما: أحدهما جاليريوس الذي تزوَّج ابنة دقلديانوس (ويُقال إنها كانت تميل للمسيحية)، وجعله دقلديانوس مساعداً له؛ والآخر قنسطنطيوس كلورس (أبو قسطنطين الكبير) الذي صار مساعداً لمكسيميان هرقل.

وبعد خمس سنوات من هذا النظام (حيث صارت السلطة في يد أربعة قياصرة، يرأسهم دقلديانوس)، بدأ نجم جاليريوس يلمع نتيجة الانتصار الذي حقَّقه ضد الفرس سنة ٢٩٧م. ويُحكَى عن تاريخ جاليريوس أنه من مناطق الدانوب، وأمه تكاد تُعتبر من كاهنات آلهة جبال الدانوب الوثنية. وكان جزءٌ كبيرٌ من جيشه من هذه المناطق التي تتعبَّد لآلهة الجبال بتعصُّب وغيرة.

٢ ـ موقف المسيحيين من المراسيم الجديدة المقتبسة من بلاد فارس لتكريم الإمبراطور:

ويُضاف أيضاً عامل جديد استحدثه دقلديانوس، كان قد اقتبسه مما يُجرَى في بلاط ملوك فارس، حيث طلب من كبار رجال الدولة وقادة الجيوش الركوع أمام الإمبراطور علامة الخضوع والولاء، مثلما يتم في أيامنا هذه من مراسيم "القَسَم باليمين" (وإنما بدون ركوع). ويقول أعداء المسيحية إن المسيحيين رفضوا تتميم هذا السجود مما كان سبباً في إثارة حنق الحاكم الدكتاتوري.

٣ ـ عمليات تطهير وإقالة واسعة في الجيش:

والخطوة التالية هي القيام بحملات الاستغناء عن كبار ضباط الجيش والمحاربين، وذلك بإصدار أوامر لقادة الفرق العسكرية بأن يطلبوا من الجنود والضباط طاعة الأوامر بتقديم القرابين والسكائب للآلهة أو الطرد من الجيش والتجريد من كل المزايا التي كانت تُمنح للمحاربين القدماء (*HE,* VIII 4:3).

ومن الشواهد التي قدَّمها يوسابيوس القيصري، نعلم أن كثيرين من المسيحيين الذين طُردوا من الجيش كانوا مِمَّن لا يسهل التأثير عليهم أو إنكارهم للمسيحية. ونعلم من سيرة شهداء هذه الحملة أن كثيرين كانوا من منطقة الدانوب، وهي المنطقة التي أتى منها معظم جنود جيش جاليريوس.

٤ ـ موقف دقلديانوس ضد المانوية والمسيحية:

نعلم أن "**ماني**" مؤسس الهرطقة المانوية، زار بلاد فارس واقتبس الكثير من تعاليم زرادشت الفارسية مثل: إله الخير وإله الشر، إله النور وإله الظلمة. ولذلك لما نشر ماني هرطقته، كانت هي في الحقيقة تطبيقاً للديانة الفارسية مع إضفاء تفسير مسيحي لها. وبالتالي اختلطت لدى دقلديانوس المانوية بالمسيحية، وبسبب بغضته وعداوته لفارس، انعكست هذه البغضة على المسيحية والمانوية، معتبراً إياهما كأنهما طابور خامس في الدولة الرومانية، مما أصبح إعلان الحرب عليهما أمراً وشيكاً.

٥ـ الفتيلة التي أشعلت نار الاضطهاد:

أما الفتيلة التي أشعلت نار الاضطهاد، فهي ما حدث في أنطاكية سنة ٣٠٢م، حيث قدَّم

دقلديانوس الذبيحة الرسمية منتظراً من رئيس الكهنة الوثني أن يُنبئه بالعلامات أو التنبؤات المتوقعة. فلما لم تظهر هذه العلامات، سارع رئيس الكهنة بإلقاء اللوم على المسيحيين من حاشيته وحرسه الخصوصي، قائلاً: إنهم رشموا علامة الصليب فأبطلوا روح النبوَّة. وفي الحال صدرت الأوامر للحاشية والحرس الخاص بتقديم القرابين أو الجلد بالسياط. وبدأ جاليريوس يتبنَّى نفس السياسة مع التطرُّف فيها إلى أقصى الحدود، لأنه لم يكن يكفُّ عن تحريض دقلديانوس عليها.

✞✞✞

المراسيم الصادرة بين سنتي ٣٠٣ و٣٠٤م

المرسوم الأول (٢٣ فبراير) سنة ٣٠٣م:

١. لم تكن رغبة دقلديانوس إراقة الدماء، لذلك كان المرسوم الأول قاصراً على وقف العبادة المسيحية؛ فصادر الكتب المقدسة وحرقها، وكذلك الأدوات الكنسية، وقام بهدم الكنائس وضم أراضيها وممتلكاتها للدولة، وأمر بحرمان المسيحيين من الحقوق الشرعية واللجوء لمحاكم الدولة والقضاء لفض المنازعات، وكذلك حرمان العبيد المسيحيين من حق التحرُّر. وقبلما تبدأ الشرطة بإعلان المرسوم جهاراً كانوا قد احتلوا الكنيسة المواجهة لقصر دقلديانوس في نيقوميديا وهدموها وأحرقوها.

٢. في اليوم التالي وبعدما عُلِّق المرسوم في الأماكن العامة، تقدَّم أحد المسيحيين مغتاظاً ومزَّق المرسوم، فأمسكه الجند وطرحوه حيّاً في النار (وتقول القصص المتداولة عن القديس الشهيد مار جرجس إنه هو الذي مزَّق المرسوم).

٣. في نفس المساء، شبَّ حريق كبير في القصر الإمبراطوري بفعل جاليريوس، وأُلصقت التهمة بالمسيحيين لأجل تقسية قلب دقلديانوس لاتخاذ مزيد من إجراءات الاضطهاد. وبعد تعذيب الخدم والعبيد والحاشية في القصر لم يُعثر على أي دليل يدين المسيحيين.

٤. بعد خمسة عشر يوماً، شبَّ حريق آخر جعل جاليريوس يترك نيقوميديا وهو يقول: ”لا أريد أن أموت محترقاً“ (*HE,* VIII 6). وكانت النتيجة أن دقلديانوس خرج عن حدود العقل والاتزان، إذ أساء الظن بكل المسيحيين على وجه الإطلاق، معتبراً إياهم أنهم أعداء الدولة ما

داموا أعداءه الشخصيين. وهكذا طلب من زوجته وابنته (زوجة جاليريوس) تقديم القرابين لآلهة الدولة وإلاَّ حُسِبتا كمرتدَّتين؛ وكذلك أمر حاشيته بتنفيذ هذا الأمر، فاستشهد دوروثيئوس كبير الأمناء، وبطرس خادم مخدعه الخصوصي، وكثيرون.

المرسومان الثاني والثالث:

كان المرسوم الثاني موجَّهاً ضد رؤساء الكنائس والإكليروس بصفة شخصية، ابتداءً من الأسقف حتى أصغر درجة في رتبة الشمَّاسية. بينما كان المرسوم الثالث يتضمن عفواً عن كل معتقل يُقدِّم البخور والقرابين لآلهة الدولة. وهكذا امتلأت السجون بالملايين من البشر، حيث يذكر إحصاء تقديري أن تعداد المسيحيين في بداية القرن الرابع كان قد بلغ حوالي ٥ مليون نسمة.

المرسوم الرابع والأخير سنة ٣٠٤م:

في فترة زمنية وجيزة تقل عن سنة واحدة، صدرت أربعة مراسيم، مما يدل على مدى العنف والمقاومة التي تُبديها الدولة الرومانية الوثنية ضد المسيحية، باعتبار أن الوقت قد حان لاتخاذ الضربة القاضية ضد المسيحية، وإلاَّ ستنهار الديانة الوثنية التي تُمثِّلها روما. وكان المرض قد اشتد على دقلديانوس وصار شريكه جاليريوس حاكماً مطلقاً، فأصدر المرسوم الرابع بإجبار كل مسيحي بدون تمييز على تقديم القرابين للآلهة مع التهديد بفرض أقصى العقوبات للمتخلِّفين والمتهربين. وهذا يعني التعذيب حتى الموت، أو النفي إلى المناجم والمطابق التي كانت بمثابة موت بطيء حيث كان القتل أكثر رحمة من العمل فيها.

وفي سنة ٣٠٥م، تنحَّى دقلديانوس عن الحُكْم هو ومساعده مكسيميان هرقل، وارتقى جاليريوس وقسطنطيوس كلورس إلى رتبة الإمبراطور؛ أحدهما للشرق والآخر للغرب. ومنذ البداية كانت المناطق الخاضعة لقسطنطيوس تحت اضطهاد مخفف لم يتعدَّ مصادرة الممتلكات وهدم الكنائس والقليل جداً من أعمال الاستشهاد، وهذه المناطق كانت هي: بريطانيا وفرنسا وأسبانيا.

عنف الاضطهاد في مصر:

رغم أن الاضطهاد كان عنيفاً في المناطق الخاضعة لحكم جاليريوس في الشرق، إلاَّ أن مصر وفلسطين نالتا النصيب الأكبر من هذا الاضطهاد (Euseb., *Martyr. Palest.* LXXIII)، حتى أنه

في طيبة - الأقصر حالياً - كان عدد الشهداء يومياً يتزايد من ١٠ إلى ٢٠ إلى ٦٠ إلى ١٠٠ (*HE,* VIII 8,9). وبلغ من قسوته أن الوثنيين أنفسهم تحوَّلوا إلى الشفقة على جيرانهم المؤمنين، فكانوا يساعدونهم على الاختفاء. هنا تتجلَّى الروح القومية التي تسمو على الخلافات الدينية. كان ما يصنعه الوثنيون من المصريين نوعاً من الاحتجاج السلبي الصامت ضد القوة الغاشمة مع أشخاص ظهرت منهم أعمال الرحمة والمحبة. فكان هذا الاضطهاد قوة إضافية لصهر الروح المصرية، وأدَّت في الجيل التالي إلى سرعة تحوُّل مَنْ تبقَّى في الوثنية إلى المسيحية.

ويحكي القديس أثناسيوس عن هذه الأيام فيقول: [إننا سمعنا من الآباء أن الوثنيين كانوا يخفون الإخوة المسيحيين] (رسالة تاريخ الآريوسية إلى الرهبان *Historia Arianorum ad Monachos* LXIV).

✣ ✣ ✣

نهاية الاضطهادات سنة ٣١١م

بسبب طول فترة هذا الاضطهاد - ثماني سنوات - فَقَدَ بعد سنين قليلة قوة الدفع الذاتية التي بدأ بها. وبدأ يتخذ شكلاً منظَّماً على أسلوب حديث يُناسب العصر، بنوع من الدعاية. إذ يحدِّثنا يوسابيوس القيصري عن كتاب مؤلَّف ضد حياة يسوع يسمَّى: "أعمال بيلاطس"، وهو محشو بالأخطاء التاريخية والتهجُّم والذَّم، وكان يُدرَّس للأطفال والأولاد بنوع من الإجبار في جميع المدارس.

ولكن حدث تغيير مفاجئ غير متوقَّع بعد هذه السنين الطويلة من الاضطهاد المنظَّم. ولم يجد المؤمنون أية علَّة أو سبب يمكن به تعليل هذا التغيير سوى تدخُّل العناية الإلهية مع هذا الإمبراطور المضطهِد، مما جعله يصدر قبل ستة أيام من موته مرسوماً بإلغاء كل الممنوعات والمحرمات السابقة. ربما كان هذا التغيير للأسباب التالية:

١. تدهور الموقف السياسي الذي بدأه دقلديانوس في تدبير الإمبراطورية بين أربعة قياصرة، فلم يُطبَّق إلاَّ في حياته فقط. ولكن في عصر جاليريوس كان هناك سبعة من القياصرة يتصارعون.

٢. في سنة ٣١٠م، بدأ دقلديانوس يُعاني من أمراض خطيرة، يُعدِّدها بعض المؤرخين بنوع من الشماتة، مثل: قروح غير قابلة للشفاء، نزيف، غنغرينا، بدأ يسري في جسده الدود (ربما يكون

كنتيجة لمضاعفات مرض السكر). فازدادت حالته الصحية تدهوراً خلال الثمانية عشر شهراً، حتى اضطر في النهاية أن يُصدر في ١١ أبريل سنة ٣١١م مرسوماً بالعفو عن أماكن العبادة، وردِّ جميع الممتلكات المصادرة، وإباحة حرية العبادة والتملُّك، والاعتراف القانوني بالكنيسة. وقد وقَّع على هذا القرار الأربعة القياصرة الرسميون وهم: جاليريوس، ليسينيوس، قسطنطين الكبير، ومكسيمين دايا.

وفي هذا المرسوم يعترف جاليريوس بفشله في التغلُّب على المقاومة السلبية التي أظهرتها الجماعات المسيحية، إذ يلوم المسيحيين على ارتدادهم عن عبادة آلهة روما العظيمة[1].

استمرار الاضطهاد في مصر:

على ما يبدو، لم تكن نتائج هذا المرسوم بالسرعة المنتظرة، ربما لم يستطع جاليريوس إرساله إلى جميع الولاة والحكام بسبب موته المفاجئ. بالإضافة إلى أن مكسيمين دايا لم يكن راضياً على وقف الاضطهاد، لأنه كان أشد تعصُّباً للوثنية من خاله جاليريوس. وبمجرد موت جاليريوس، وسَّع مكسيمين دايا منطقة نفوذه، فلم تقتصر فقط على شمال أفريقيا ومصر وفلسطين وسوريا بل ضم إليها آسيا الصغرى. وبسبب عدائه للمسيحية شن حرباً ضد الأرمن، التي كانت مملكة مسيحية متحالفة مع الدولة الرومانية ضد مملكة الفرس. كما توالى على حكم مصر حكَّام وولاة متعصِّبون. وكان مِمَّن استشهد في الاضطهاد الممتد البابا بطرس البطريرك الـ ١٧ وخاتم الشهداء، وأساقفة مصريون آخرون. واستمرت هذه السياسة العدائية إلى أن استدعى قسطنطين الكبير مكسيمين دايا هذا سنة ٣١٢م، وضغط عليه، فأوقف الاضطهاد. وعندما اختلف مكسيمين مع ليسينيوس حليف قسطنطين وشريكهما الثالث، طردا مكسيمين من الحكم سنة ٣١٨م.

---

(1) *Triumph of Christianity* p. 332.

البابا بطرس خاتم الشهداء
البطريرك السابع عشر
في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري
(٣٠٠-٣١١م)

حياته:

يمتدح يوسابيوس القيصري القديس بطرس خاتم الشهداء مديحاً رائعاً قائلاً:

[وبعد ثيئوناس الذي خدم كنيسة الإسكندرية تسع عشرة سنة، شغل البابا بطرس كرسي الأسقفية في الإسكندرية قبل الاضطهاد (الذي بدأ سنة ٣٠٣م)، حكم خلالها الكنيسة ثلاث سنوات، سالكاً في حياته بنسك صارم، ناظراً إلى الاحتياجات العامة للكنائس دون أن يُخفي نفسه أو يتوارى. والنتيجة أنه في السنة التاسعة من الاضطهاد (سنة ٣١١م) قُطعت رأسه، فنال إكليل الشهادة] (*HE*, VII 32:3).

والآثار الأدبية الباقية من كتابات هذا القديس - الذي يُعتقد أنه كان مديراً لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية قبيل اختياره لكرسي الإسكندرية - تكشف لنا أنه يُعتبر أول مَنْ صحح المبادئ التي خلَّفها أوريجانوس. فيقول في مقالته عن النفس: "سَبْق وجود النفس البشرية قبل وجودها في العالم، أي قبل ولادة الإنسان، هو تعليم الفلسفة الهللينية، وهو غريب عن الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع". وله أيضاً مقالة عن اللاهوت Θεότητος رجع إليها مجمع أفسس سنة ٤٣١م، ومقالة أخرى عن "مجيء المخلِّص" وعن "القيامة".

مشكلة العائدين والتائبين:

مع انفجار موجة الاضطهاد التي بدأها دقلديانوس في فبراير سنة ٣٠٣، تجدَّدت المشكلة القديمة الخاصة بعودة الجاحدين للإيمان والذين قدَّموا الذبيحة والبخور للأوثان، والتي ظهرت قبلاً أيام اضطهاد داكيوس منذ خمسين سنة. وكانت هذه المشكلة هي التي جعلت القديس بطرس

يقدِّم خمسة عشر قانوناً، وهي القوانين المعروفة في مجموعة القوانين الكنسية Nomo-canon. وكانت ضمن رسالة الفصح التي اعتاد أساقفة الإسكندرية منذ عصر البابا ديونيسيوس الكبير (البطريرك الـ ١٤) إعلانها للرعية. وتتلخص هذه القوانين في المبادئ التالية:

١. الذين قُبض عليهم وحُكم عليهم بالسجن والعذاب لرفضهم تقديم العبادة للأوثان، وأصابتهم العذابات الشديدة حتى أفقدتهم الشجاعة وانهاروا وأنكروا الإيمان؛ يستحقون المغفرة لأنهم لم يستسلموا إلاَّ بسبب ضعف الجسد وخيانته وليست إرادتهم هي التي استسلمت. إن «سمات الرب يسوع» (غل ٦:١٧) ظاهرة في أجسادهم. وهوذا قد مضت عليهم الآن ثلاث سنوات، وهم نادمون على غلطتهم هذه (وقد بدأ الاضطهاد سنة ٣٠٣م، وبذلك تحدد تاريخ هذه الرسالة الفصحية ـ كما سيظهر فيما بعد ـ سنة ٣٠٦م)، وهذا وحده كافٍ لذلك. فلهذا يوصَى أنهم من يوم تقدُّمهم للأسقف والسلطات الكنسية يُفرض عليهم قانون توبة لمدة أربعين يوماً كمثالٍ للرب يسوع مخلِّصنا الذي بعدما تعمَّد صام أربعين يوماً مجرَّباً من إبليس. وخلال هذه الأربعين يوماً يُدرِّبون ذواتهم بالصوم مع السهر في الصلاة والتأمُّل في قول المخلِّص الذي حاول إبليس أن يجرِّبه ويُسقطه ليسجد له، فكان ردُّ الرب عليه: «اذهب يا شيطان، لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإيَّاه وحده تعبد» (مت ٤:١٠).

٢. الذين أُلقوا في السجون والمطابق (المناجم) وعاشوا تحت ضيق المكان والرائحة النتنة الكريهة، ولكن بعد ذلك بدون مواجهة أية عذابات أُسروا بانكسار قلوبهم وضعف قوتهم حتى أن بصيرتهم قد عميت فجحدوا وأنكروا؛ هؤلاء يُضاف على مدة توبتهم ستة أيام أخرى على ما تقدم (أي بالإضافة إلى الأربعين يوماً السابق ذكرها) كقانون توبة. وذلك لأنهم رضوا واستسلموا لجحد الاسم المبارك، حتى وإن كان الإخوة المؤمنون قد اهتموا هناك براحتهم وتعزيتهم والاهتمام بأمور وضرورات حياتهم. وهذا قطعاً سيردُّونه مئة ضعفٍ مشتهين أن ينعتقوا من أَسْر إبليس المرِّ متذكرين بالذات قول الرب: «روح الرب عليَّ، لأن الرب مسحني لأُبشِّر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأُنادي للمأسورين بالإطلاق وللعُمي بالبصر... وأكرز بسنة الرب المقبولة» (إش ٦١:١،٢ حسب السبعينية، لو ٤:١٨،١٩).

٣. وأما أولئك الذين لم يتألموا بشيء من مثل هذا، ولم يُظهروا شيئاً من ثمر إيمانهم، بل استسلموا من ذواتهم للأشرار بتأثير الجزع والجبن، والآن يطلبون التوبة؛ هؤلاء يلزم ويليق أن نقدِّم

لهم مَثَل شجرة التين عديمة الثمر كما يقول الرب: «كانت لواحدٍ شجرة تين مغروسة في كرمِهِ. فأتى يطلب فيها ثمراً ولم يجد. فقال للكرَّام: هوذا ثلاث سنين آتي أطلب ثمراً في هذه التينة ولم أجد، اقطعها، لماذا تُبَطِّل الأرض أيضاً؟ فأجاب وقال له: يا سيد اتركها هذه السنة أيضاً حتى أنقب حولها وأضع زبلاً. فإن أعطت ثمراً، وإلاَّ ففيما بعد تقطعها» (لو ١٣:٦-٩). فعلى هؤلاء أن يضعوا هذا المثل نصب أعينهم ويُظهِروا الثمر اللائق بالتوبة لينتفعوا بهذه المهلة الطويلة. (أي يُفرض عليهم قانون توبة لمدة ثلاث سنوات، ويُطلب منهم الثمر الإيماني في السنة الرابعة).

٤ . الذين باستعمالهم وسائل التحايل والمكر والخداع، صنعوا مثلما فعل داود الذي تظاهر بالجنون (١صم ٢١:١٣)، وذلك ليتفادوا الموت، وهم في الحقيقة لم يكونوا مجانين. وأيضاً الذين لم يجحدوا إيمانهم صراحة أو علانية، بل كانوا في ضيقة ومحنة حقيقيتين، فهؤلاء يُشبهون أولاداً حكماء وأذكياء بين أطفال أغبياء، وقد هزأوا بفخاخ أعدائهم، سواء مرُّوا على المذابح دون أن يقدِّموا فيها شيئاً، أو يكتبوا أوراقاً بذلك، أو أرسلوا وثنيين قدَّموا عنهم البخور والذبائح بدلاً منهم، أو تفادوا بأية طريقة أن يلمسوا النار بأيديهم ويُقدِّموا البخور للشياطين الأنجاس؛ وبذلك استطاعوا أن يتهرَّبوا من مراقبة مضطهديهم بمثل هذه الأفعال، كما اعترفوا بذلك لرفقائهم في السجن من المؤمنين المعترفين. فمثل هؤلاء يُعطَى لهم قانون توبة لمدة ستة أشهر، وعليهم أن يتأملوا في قول النبي: «يُولَد لنا ولد، ونُعطَى ابناً، وتكون الرياسة على كتِفِهِ، ويُدعى اسمه عجيباً مشيراً...» (إش ٩:٦). ويُعطى لهم قانون توبة بسبب أنهم ظهروا أمام الآخرين وكأنهم قدَّموا البخور للأوثان، وهذا تحريض غير مباشر لعبادة الأوثان.

٥ . الذين دفعوا عبيدهم المسيحيين أن يقدِّموا البخور للأوثان نيابة عنهم، وقد فعل العبيد ذلك خوفاً من ساداتهم المسيحيين؛ فيُفرض على العبيد قانون توبة لمدة سنة، يُظهرون في هذه المدة توبتهم، لكي يتعلَّموا فيها أيضاً أنهم عبيد للمسيح ينبغي عليهم أن يصنعوا مشيئته ويخشونه، وذلك تكميلاً لقول الرسول بولس: «مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب، عبداً كان أم حُرّاً» (أف ٦:٨). أما السادة الذين اضطروا عبيدهم أن يبخِّروا للأوثان، فهؤلاء السادة يُفرض عليهم قانون توبة لمدة ثلاث سنوات، لأنهم تهاونوا مع عبيدهم ولم يعلِّموهم مخافة الله (أف ٦:٩)، لأن لنا ربّاً واحداً ومعلِّماً واحداً دون اعتبار لليهودي والأممي، الحر والعبد، السكيثي والأعجمي (كو ٣:١١)، مع أنه كانت أمام عبيدهم فرصة أن يهربوا من هذه العبادة الوثنية، ولكن بسبب التزام الخضوع اضطروا أن يفعلوا ما فعلوا.

٦. أما الذين أُسْلِموا بدون إرادتهم ثم جحدوا، وكذلك الذين تقدَّموا من أنفسهم إلى ميدان الاستشهاد معترفين أنهم مسيحيون وعُذِّبوا وطُرِحوا في السجون؛ فهؤلاء يليق بنا بالفرح وتهليل القلب أن نشترك معهم في كل شيء: في الصلاة، وفي جسد المسيح ودمه، وفي المحادثات التشجيعية، حتى يرسخوا أكثر فأكثر في الإيمان والصراع، ويصيروا مستحقين لـ ''جعالة دعوتهم العُليا'' (في ٣: ١٤)، لأنه مكتوب أن: «الصدِّيق يسقط سبع مرات (عدد يمثِّل الكمال والاستمرارية) ويقوم» (أم ٢٤: ١٦)، الأمر الذي لو فعله كل الساقطين والجاحدين لكانوا قد أكملوا توبتهم إلى الكمال.

٧. هناك أيضاً فئة يُطلِق عليها القديس بطرس ''الغافلون أو النائمون''، وهم الذين يرون الاضطهاد قد يهدأ أو يطول أَمَده فيستيقظون فجأة ويندفعون للجهاد بطريقة تُثير الحُكَّام عليهم، هؤلاء باندفاعهم يضرمون نار الاضطهاد أكثر فأكثر ضد إخوتهم. ومع ذلك يوصي القديس بأن يُعاملوا بالرحمة، وأن يشترك معهم الإخوة في الصلاة ولا يتركوهم، لأنهم يتألمون لأجل اسم المسيح المبارك أيضاً، مع أنهم غير فاهمين أنهم بأعمالهم هذه ينقضون وصية المسيح القائلة: ''لا تُدخلنا في تجربة''؛ لأن المسيح نفسه لم يُسلِّم نفسه إلى صالبيه، بل انتظر حتى أسلموه للصَّلْب، وكثيراً ما كان يفعل ذلك.

ما يختص بالإكليروس:

إذا تقدَّم أحد الإكليروس من نفسه للاستشهاد ثم فشل ولم يحتمل قسوة الاستشهاد مما جعله ينكر الإيمان ويجحده، ثم يثوب إلى رشده ثانية ويتقدم ويعترف بالمسيح؛ فلا يحق له بعد ذلك أن يُمارس خدمته الكرازية، لأنه تخلَّى عن وظيفته وتقدَّم من ذاته للاستشهاد في الوقت الذي كانت رعيته محتاجة إليه أشد الاحتياج في زمن الاضطهاد. والقديس بولس يقول عن ذاته: «لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جداً» (في ١: ٢٣)، ولكن القديس بولس لم ينظر إلى نفسه، بل قدَّم خير الرعية على الخير الذي يشتهيه هو شخصياً أي ''الوجود مع المسيح''، ولذلك قال: «... أن أبقى في الجسد أَلْزَمُ من أجلكم» (في ١: ٢٤). لذلك، إذ قد تخلَّى الإكليروس عن وظيفتهم الأساسية في تعليم الرعية، فلا يحق لهم بعد ذلك الرجوع إليها حتى لو لم يسقطوا في الجحود والنكران، لأن عملهم هذا خارج عن حدود التعقُّل والتعليم. أما إذا جحدوا وأنكروا بسبب التعذيب الشديد، فذلك لأنهم تكبَّروا وانتفخوا من قِبَلِ ذهنهم الجسدي، وبذلك

لوَّثوا أيضاً خدمتهم ولم يعودوا صالحين لمباشرتها بعد ذلك.

لذلك يُوصي القديس بطرس أن يكتفي أولئك الإكليروس بالتناول فقط مع المؤمنين، وذلك بنوع من الحرص والاهتمام، وذلك لئلا تضيق أنفسهم بالحزن على غلطتهم وسقطتهم فيُفارقوا الحياة وهم محرومون من الحياة الأبدية بسبب امتناعهم عن التناول؛ ولكي لا يؤخذ عدم تناولهم حجة لآخرين من الذين ارتدُّوا وسقطوا أن يستمروا في الارتداد، إذ يرون أنه لا فائدة من الرجوع للإيمان.

هذا الكلام أيضاً طبَّقه القديس بطرس على أساقفة الكراسي، فيحتفظون بوظائفهم الكهنوتية فقط، ولكن لا يُباشرون أعمال الأسقفية.

قواعد عامة:

- من الجائز وغير المستنكَف الصلاة مع الذين تعذَّبوا كثيراً وسقطوا وجحدوا الإيمان بسبب عنف الاضطهاد أو السجن.
- الذين افتدوا أنفسهم بالأموال والذهب وفضة هذا العالم ليسوا مُدانين، لأنهم قدَّموا الذبيحة لله من أموالهم ونجوا بأنفسهم من هلاك النفس، الأمر الذي لم يفعله آخرون من الأموال المحرَّمة التي اكتسبوها، كما أن الرب يقول: «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه» (مت ١٦:٢٦)، وأيضاً: «لا يقدر أحد أن يخدم سيدين... الله والمال» (مت ٦:٢٤). فهذا التصرُّف منهم برهن على أنهم خدَّام الله، إذ أبغضوا المال واحتقروه وداسوه تحت أقدامهم، وبذلك كمَّلوا المكتوب: «فدية نفسِ رجلٍ غِناهُ» (أم ١٣:٨)، كما نقرأ أيضاً في سفر أعمال الرسل: «ولما لم يجدوهما (أي بولس وسيلا) جرُّوا ياسون وأُناساً من الإخوة إلى حُكَّام المدينة... فأخذوا كفالة من ياسون ومن الباقين ثم أطلقوهم. وأما الإخوة فللوقت أرسلوا بولس وسيلا ليلاً إلى بيريَّة» (أع ١٧:٦-١٠).
- ليس لنا أن ندين أولئك الذين تركوا كل شيء وهربوا معتكفين بعيداً لأجل سلامة أنفسهم. فهوذا بولس الرسول حينما حاول أن يقتحم المحفل منعه التلاميذ (أع ١٩:٢٦-٣٠)، والذين يحاولون أن يجادلوا في هذا الموضوع عليهم أن ينظروا قول الرب: «اهرب لحياتك» (تك ١٩:١٧). وهوذا بطرس الرسول حينما أُلقي في السجن وأُسلم بين أربعة حرَّاس، خرج من السجن ليلاً (أع ١٢:٤) وحُفظ من اليهود بواسطة ملاك الرب، إلا أن هيرودس أهلك

الحرّاس. وهكذا أيضاً أطفال بيت لحم، قُتل منهم مَنْ قُتل حتى يُحفَظ لنا الطفل يسوع. وحاول أيضاً هيرودس قتل الطفل يوحنا بن زكريا وأليصابات، ولكن لما حفظ الله الطفل يوحنا من القتل، أمر هيرودس بقتل زكريا أبيه عِوَضاً عنه. إذن، ليس هناك لوم على الذين هربوا حتى لو تسبب هذا الهروب في موت آخرين أو إلحاق الضرر بهم.

❖ الذين أُغصبوا على فتح أفواههم بالكُلابات والقيود ليشربوا خمر سكائب الآلهة الوثنية، أو أكلوا قهراً مما ذُبح للأوثان، أو الذين وُضِع في أيديهم بالقوة جمر النار مع البخور حتى يُعتبر أنهم قدَّموا البخور للأوثان، فاحترقت أيديهم؛ مثل هؤلاء يُحتَسَبون كمعترفين كلٌ في رتبته: العلماني مع العلمانيين، ورجال الإكليروس مع الإكليروس.

القانون الأخير ١٥:

وصية بالصوم يومَي الأربعاء والجمعة: الأربعاء هو اليوم الذي تمت فيه المشورة بخيانة الرب؛ والجمعة لأنه اليوم الذي تألم فيه الرب وصُلب من أجلنا، ويقول البابا بطرس إن ذلك **بحسب التقليد**. أما يوم الرب فنعتبره يوم فرح، لأن الرب قام فيه، **واستلمنا** ألاّ نحني ركبنا فيه. وهذا ما توصي به قوانين الرسل: ق ٦٦، ق ٦٩ (ANF V, pp. 382,571; VIII Elucidation II).

الذي نلمحه من هذه القوانين أنها متفقة مع المبادئ الأساسية للكنيسة الأولى التي لا تُشجِّع على الاندفاع والتهور وأعمال الإثارة والتحدِّي للسلطات، كما تبيح الهروب والنجاة من الاضطهادات والمضطهدين، وتتسامح مع الذين بسبب ضعف الجسد يخورون ويستسلمون طالما بقيت الإرادة قوية ولم تستسلم مع الجسد وتلقي السلاح.

كما أن هذه القوانين تُشبه ـ إلى حدٍّ ما ـ المبادئ التي سبق أن رأيناها في كتابات القديس ديونيسيوس الكبير منذ خمسين سنة، ولكن ليس فيها ذِكر عن تأجيل التناول حتى لحظة الموت.

ولعل الملاحَظ في كل هذه القوانين هو الاستنارة الروحية التي تكمن وراء كل قانون، والمبدأ الكتابي الذي يؤيده. فهي قوانين ليست فلسفية أو منطقية بل لها أساس كتابي، ينبني عليه القانون التأديبي.

انشقاق ملاتيوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط):

مثلما حدث في كنيسة روما إبان اضطهاد داكيوس سنة ٢٤٩-٢٥١م، وانشقاق نوفاتيان ضد بابا روما الشرعي بسبب تساهله مع المرتدِّين؛ هكذا أيضاً فعل ملاتيوس أسقف ليكوبوليس في مصر، إذ انتهز فرصة غياب أربعة أساقفة عن كراسيهم بسبب الاضطهاد وإلقائهم في السجن، فاستأثر لنفسه بإيبارشياتهم وكنائسهم ورسم أساقفة وكهنة، بل تهوَّر واندفع إلى حدِّ التدخُّل في الإسكندرية نفسها، حيث كان القديس بطرس إما غائباً في السجن، أو غير قادر على عمل شيء بسبب الاضطهادات. وقد كتب هؤلاء الأساقفة الأربعة رسالة إلى ملاتيوس يقولون فيها:

[آباؤنا قد وضعوا الأساس والقاعدة، وهي ألاَّ يُجري أي أسقف رسامة في كنائس الأساقفة الآخرين. لكنك دون اعتبار لقراراتهم، ودون نظر للمستقبل، ولا للقانون التقليدي الذي لآبائنا (الرسل) الطوبانيين الذين أرضوا المسيح، ودون اعتبار لأبينا وأسقفنا العظيم بطرس الذي نعتمد عليه جميعاً حسب رجائنا في المسيح يسوع ربنا، ودون أي اهتمام بالمحاكمات والسجون التي تُجرى علينا، ولا الإهانات التي نُعاني منها كل يوم والتي سببت حزناً وأسىً للجميع؛ سِرْتَ حتى نهاية الشوط في طرح كل شيء تحت الأقدام...].

ولم يؤثِّر هذا الخطاب على ملاتيوس، بل بالعكس اندفع إلى الإسكندرية ونحَّى الوكلاء الذين أقامهم القديس بطرس أسقفها واستعاض عنهم بأشخاص اختارهم بمعرفته. وكان رد فعل القديس بطرس أنْ منع رعاياه من التناول والشركة مع أنصار ملاتيوس (حسب القانون الرسولي أيضاً). أما الأساقفة الذين وقَّعوا ضده، فقد استشهدوا في الاضطهاد.

ولما خفَّت حِدَّة الاضطهاد قليلاً حاول القديس بطرس أن يحل مشكلة الراجعين والمرتدِّين في رسالة الفصح سنة ٣٠٦م حسب ما ذكرناه آنفاً. فكانت النتيجة أن ملاتيوس اتخذ موقفاً مناقضاً، ونصَّب نفسه بطلاً للمتشدِّدين والمتحمسين ضد رجوع التائبين مثلما حدث تماماً مع نوفاتيان قس روما منذ خمسين سنة. وعندما اشتد الاضطهاد مرة ثانية، نُفِيَ ملاتيوس وأنصاره إلى مناجم النحاس في صحراء فلسطين - الفرات، فواصل دعايته ونشاطه بين المنفيين هناك. وبعدما توقف الاضطهاد سنة ٣١١م، وكان القديس بطرس قد استُشهِد؛ كوَّن ملاتيوس كنيسة منشقة سمَّاها: "كنيسة الشهداء"، واستمر انشقاقه بعد ذلك حتى أنه كان مع أنصاره من أشد المتحمسين لآريوس الذي انضم إليهم بعد حرمه بواسطة القديس بطرس.

بقية سيرة حياة البابا بطرس:

كما سبق وعرفنا أن الإمبراطور جاليريوس قبل موته بستة أيام، أصدر قرار التسامح وحرية الأديان، إلاَّ أن نائبه في مصر وفلسطين وسوريا ـ مكسيمين دايا ـ استمر في موالاة الاضطهاد، لأنه كان أكثر تعصُّباً للوثنية من عمه أو خاله جاليريوس. في هذا الاضطهاد المتواصل، اعتُقِل البابا بطرس وأُلقِي في السجن في انتظار الإعدام. وتستكمل لنا وثيقة متأخرة قليلاً عن القرن الرابع الميلادي قصة استشهاده، وهي وثيقة كُتبت باللغة اليونانية بصيغة أدبية بليغة، ولها ترجمات قبطية وسريانية ولاتينية، تبدأ بالقول: إن آريوس كان محروماً من فم هذا البطريرك. ثم تحكي لنا أعمال ملاتيوس أسقف ليكوبوليس المنشق وانضمام آريوس إلى حزبه. ثم تُضيف هذه الوثيقة وتقول:

- ❖ أرسل مكسيمين أربعة قضاة ومعهم الجنود، فقبضوا على البطريرك وألقوه في السجن، ولما سمع الشعب اجتمع حوله رجالٌ وسيدات وعذارى، وقد نذروا أنفسهم لحراسته مما اضطر الجنود إلى استعمال السيوف وقتل آلاف من الشعب قبل وصولهم إلى السجن وتنفيذ حكم الإعدام على البطريرك بقطع رأسه.
- ❖ في هذه الأثناء تقدَّم آريوس بحيلة ومكر الأفاعي متوسلاً لكبار رجال الإكليروس لكي يتوسطوا له ويصالحوه مع البطريرك قبل استشهاده. فلما تقدَّم هؤلاء إلى البطريرك، ظهرت عليه علامات الغضب ورفع يديه نحو السماء قائلاً: ‘‘أتجسرون على التضرُّع لأجل آريوس؟ فهو محروم في هذا الدهر وفي الدهر الآتي‘‘! وكانت مفاجأة أبكمت الحاضرين. ثم أخذ البطريرك مساعدَيْه: أرشيلاوس وألكسندروس المتقدِّمَيْن بين كهنة الإسكندرية وقال لهما: ‘‘أنا إنسان تحت الخطية مثلكما، ولكن خيانة آريوس تفوق كل حسبان. الليلة الماضية أثناء صلاتي لله وقف بي غلام ابن اثنتي عشرة سنة ووجهه مضيء بدرجة لم أحتملها، وكان يلبس تونية مشقوقة من الرقبة حتى القدمين، وهو يمسك بطرفيها لكي يستر عريه. وفي إحساسي بالخجل لرؤيته هكذا تجاسرت وسألته: "يا رب، مَنْ مزَّق ثوبك هكذا"؟ فقال لي: "آريوس! احترس، لأنهم سيأتون هذه الليلة إليك متوسلين لأجله". لذلك احترسا لئلا تقبلاه في شركة الكنيسة‘‘.
- ❖ ولكي يتفادى القديس المذبحة التي توشك أن تحدث بسبب تمسك الشعب براعيه، أرسل سرّاً إلى القضاة والجنود أن ينصرفوا ويرجعوا عند حلول الظلام خلف السجن، حيث سيُعطيهم إشارة على الحائط، بقرعات خفيفة، وهم عندما يسمعونها يحفرون وينقبون الحائط، فيخرج

إليهم وينفِّذون فيه الحكم. أما هو فقد أمضى ليلته كلها مصلياً. ولما سمع وقع أقدامهم قرع حائط السجن قرعات خفيفة، وهكذا نقب الجنود الحائط وأخرجوه متَّجهين بعيداً في جنح الظلام ليتمموا الحكم. وعند سيرهم، عبروا على بقعة تُدعى بوكاليا حيث مدفن القديس مرقس كاروز الديار المصرية، فاستأذن البابا من الحُرَّاس ودخل ليُصلِّي صلاة طويلة حارة. ولما انتهى من صلاته، سمعت عذراء تقطن بجوار قبر القديس مرقس صوتاً من السماء يقول: "بطرس أول الرسل، وهوذا بطرس خاتم الشهداء". ثم رافق البابا الحُرَّاس، فإذا بكهلٍ تصحبه عذراء متقدمة في السن عائدين من الريف إلى المدينة، فنادى عليهما القديس: "هل أنتما مسيحيان"؟ فأجاباه: "نعم"! فأوصاهما القديس أن يُلازماه، وقال لحراسه أن يتمموا الأمر المطلوب. ثم طلب من الرجل والعذراء أن يفرشا ما معهما من جلود، ومدَّ عنقه فوقها، فقام أحد الجنود بقطع رأسه بحدِّ السيف بعدما أغراه بقية الجنود بالمال والذهب وشجعوه لكي يُكمل هذه المهمة. وبعدئذ غادر الجنود المكان، وبقِيَ الشيخ والعذراء محافظين على الجسد والرأس إلى أن بزغ نور النهار، وعُرِف الخبر في أنحاء المدينة، فجاءت الجموع وحملت الجسد والرأس. ثم ذهبوا بالجسد إلى كنيسة السيدة العذراء التي بناها البابا غرب مدينة الإسكندرية، ووضعوه على كرسي الكاتدرا الذي كان يرفض القديس في حياته أن يجلس عليه طوال فترة رئاسته للكنيسة.

بركة صلواته تكون معنا، آمين.

نظرة عامة
على الكنيسة بعد عصر الاستشهاد

بماذا دخلت كنيسة الإسكندرية إلى العصر المسيحي؟

لقد دخلت ومعها:

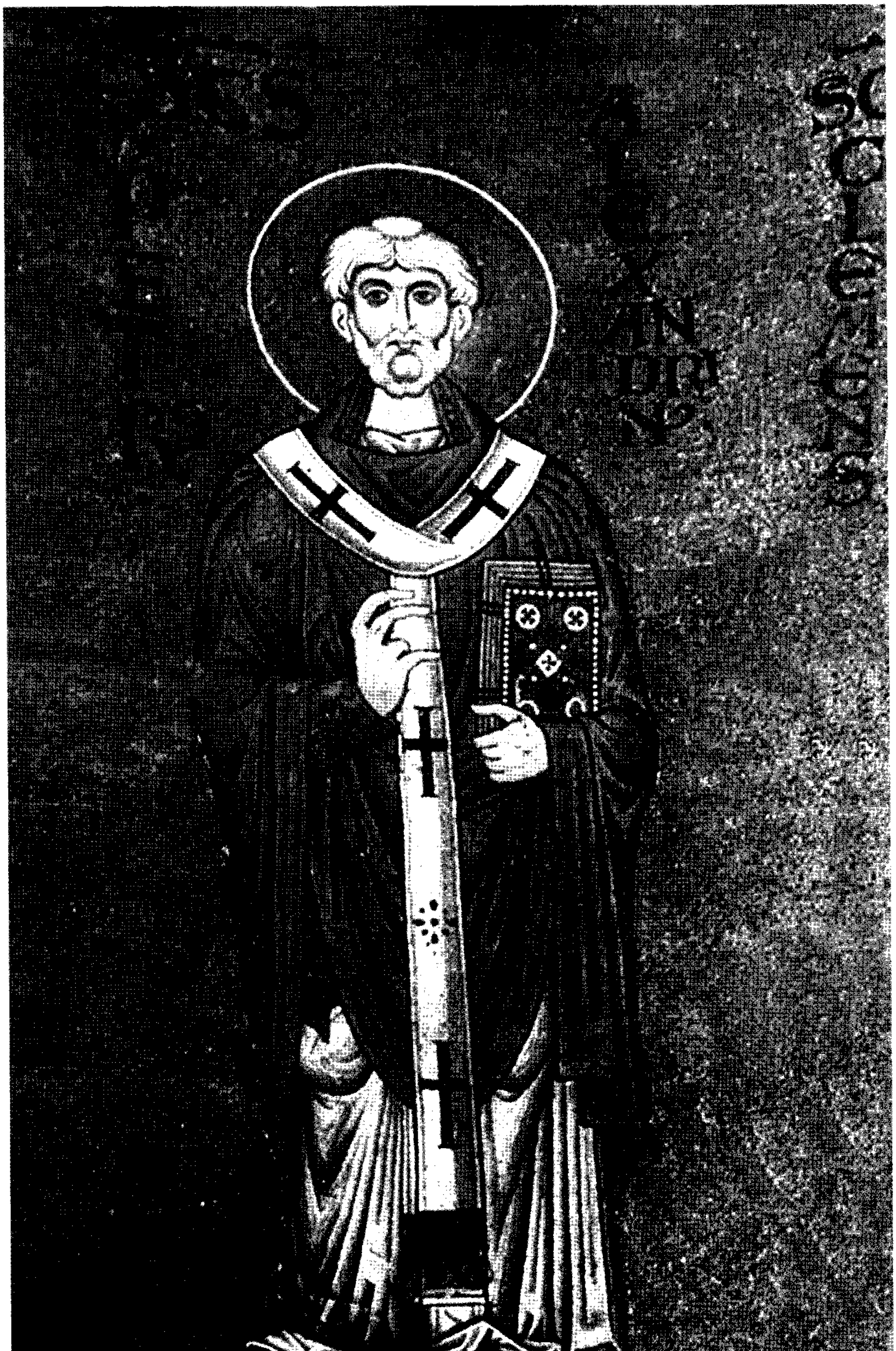
١. الميراث اليهودي المسيحي، وهو أهم ما يميز كنيسة الإسكندرية منذ بدء المسيحية في مدينة الإسكندرية، ويتجلَّى هذا الميراث في:

أ. إنجيل القديس متى الذي كُتب لليهود المؤمنين في فلسطين وأورشليم، والذي يتضمن قصة هروب المسيح إلى مصر. وقبيل خراب أورشليم هرب اليهود إلى بللا، ثم إلى الإسكندرية حيث كانت أكبر جالية يهودية خارج فلسطين.

ب. إنجيل القديس يوحنا الذي وُجدت منه رقوق كثيرة في مصر يرجع تاريخ نساختها إلى سنة ١٢٥م. والإنجيل نفسه مدوَّن سنة ١٠٠م. وهذا يعني مدى قوة مركز المسيحية في الإسكندرية حتى تهتم كنيسة أفسس – حيث كتب القديس يوحنا إنجيله – بإرسال إنجيلها إلى مؤمني مصر سنة ١٢٥م، وكذلك قصص من سيرة حياة القديس يوحنا الإنجيلي كالتي استشهد بها العلاَّمة كليمندس الإسكندري في مقالته عن: "هل يخلص الغني"؟

ج. رسالة يعقوب الرسول، والرسالة إلى العبرانيين؛ اعترفت بقانونيتهما كنائس العالم بناء على اعتراف كنيسة الإسكندرية بهما. هاتان الرسالتان كانتا في كنيسة أورشليم قبيل خراب المدينة، وأُرسلتا إلى مصر: إما مع البعثات التبشيرية التي كانت كنيسة أورشليم تمد الإسكندرية بها، أو مع المهاجرين إليها من فلسطين بسبب حرب تيطس ودكِّه الهيكل سنة ٧٠م.

٢. القديس مرقس الرسول مؤسس كنيسة الإسكندرية، والكاتب لأول إنجيل الذي كان أقدم وثيقة مسيحية. ويشهد المؤرخون، وخاصة جيروم ويوسابيوس وإبيفانيوس، أن القديس مرقس هو أول أسقف على الإسكندرية، وأنه استشهد فيها ودُفن بها. كما انتهى علماء الكتاب المقدس في دراساتهم إلى أن القديس مرقس هو كاتب إنجيله كشاهد عيان ومسجِّل لِمَا كان يرى ويسمع عن قرب من الحوادث ومن الرب نفسه، وأن إنجيله هو أول الأناجيل التي كُتبت وتُرجمت إلى اللغة



البابا بطرس خاتم الشهداء (٣٠٠- ٣١١م)

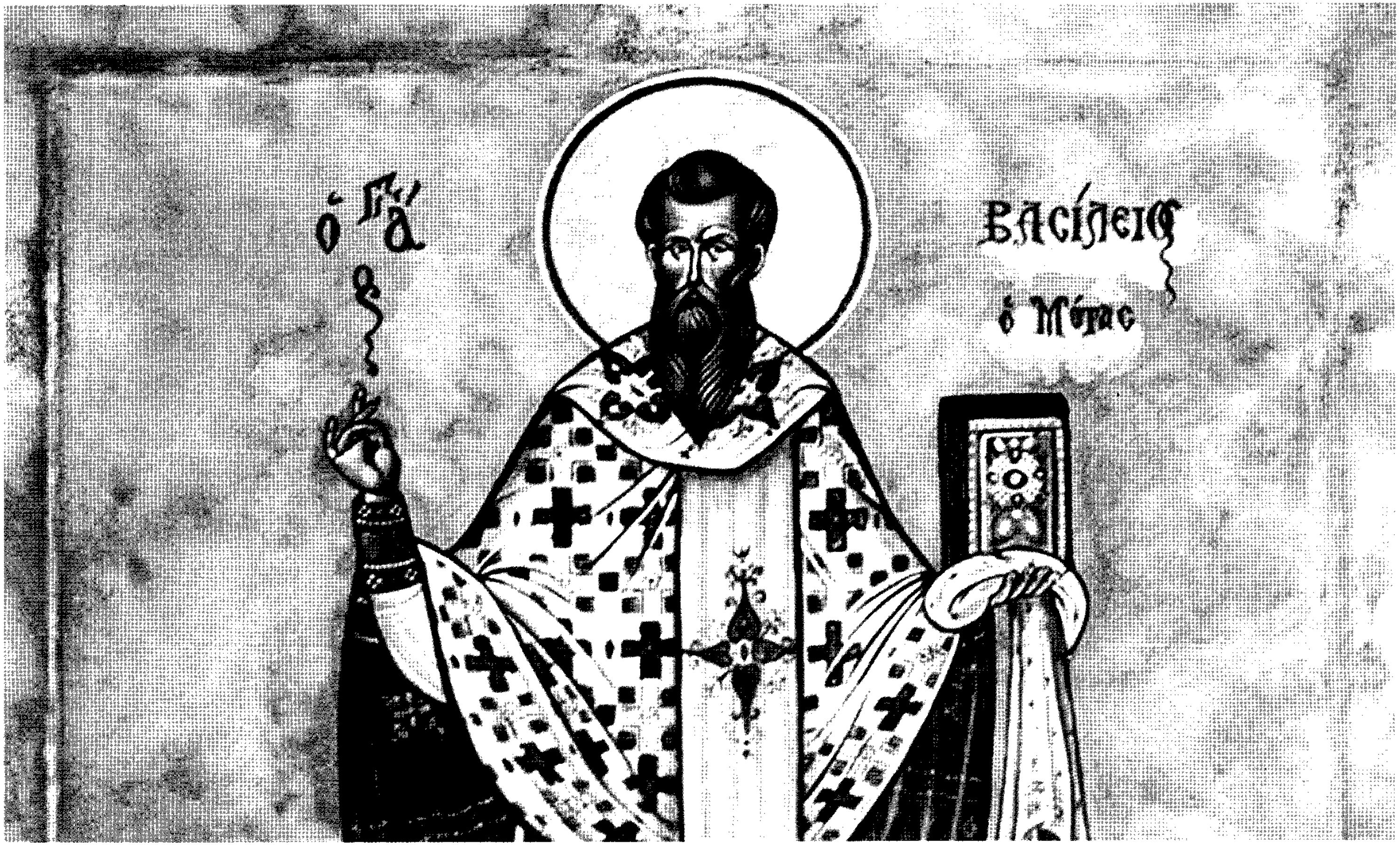


المجمع المسكونى الأول فى نيقية سنة ٣٢٥م

الآباء أساقفة الكنائس المسيحية فى العالم كله وعددهم ٣١٨ أسقفاً مجتمعون معاً وفى الوسط يُري آريوس المتهم بالهرطقة عن شخص أقنوم الابن الكلمة بينما يناقشه البابا ألكسندروس بابا الإسكندرية في هرطقته ويعلمه الإيمان الصحيح لكنه لم يقتنع بالتعليم صحيح وهذا هو بروتوكول وتقليد الكنيسة في كيفية إعلان هرطقة أي شخص في الكنيسة. بحسب تقليد الكنيسة لابد من حضور ومناقشة المُدَّعى عليه بالهرطقة قبل الحكم عليه.



أيقونة تجمع أهم آباء مجمع نيقية المسكونى ويُرى في الوسط الإمبراطور قسطنطين
وفي أقصى اليسار البابا ألكسندروس بابا الإسكندرية.
وهم يُمسكون بمخطوطة قانون الإيمان.



القديس باسيليوس الكبير (٣٢٩- ٣٧٩م)
رئيس أساقفة كبادوكية

القبطية لمنفعة أهل مصر. وقد اهتم القديس مرقس بأن يؤسس في الإسكندرية أول مدرسة لاهوتية لتعليم الموعوظين مبادئ الإيمان. ثم طوّرها قبل استشهاده لتصير أول مدرسة لاهوت لتخريج المعلِّمين والأساقفة. كما وضع القُدَّاس الذي أُطلق عليه اسمه.

٣. اعترفت كنيسة الإسكندرية بأن تحت يديها ما يسمَّى بـ "التقليد الرسولي"، وهذا التعبير يَرِدُ كثيراً في كتابات آباء كنيسة الإسكندرية في القرنين الثاني والثالث على وجه الخصوص: عند كليمندس الإسكندري، والبابا ديمتريوس بطريرك الإسكندرية، والعلاَّمة أوريجانوس، والبابا ديونيسيوس الكبير. وكانت كنيسة الإسكندرية تمتلك نصوصاً إنجيلية مفسَّرة ومشروحة حسب التقليد على شكل وصايا وسلوك وممارسات ليس فيها اجتهاد أو عقلانية، بل تسليم لا يقبل الحوار أو التعديل أو التخريج. ورغم الحماس الجبار الذي قوبلت به كتابات أوريجانوس من المثقفين في العالم - وكانت الإسكندرية هي عاصمة العالم الفكرية والثقافية - إلاَّ أن آباء الكنيسة استوعبوا منها أسلوبه الرمزي في التفسير، بل طعَّموها وغربلوها وتتلمذوا لها دون خوف. فقد كان جُلُّ اهتمامهم متمركزاً على الحياة المسيحية والتقوى في العبادة، وبذلك تتهيَّأ الفرصة للروح القدس أن يُعلِّم الإنسان الحق: «وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم إلى أن يُعلِّمكم أحدٌ، بل كما تعلِّمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء، وهي حقٌّ» (١يو ٢٧:٢). وهذا واضح من كتابات القديس ديونيسيوس الكبير الذي كان يُلهمه الله بحلول المشاكل بالروح أو من خلال الوقائع ذاتها.

٤. دخول الكنيسة فترات الاضطهاد، خاصة اضطهاد داكيوس ما بين سنة ٢٤٩ وسنة ٢٥٢م، وكذلك اضطهاد دقلديانوس وجاليريوس ما بين سنة ٣٠٣ وسنة ٣١١م، وامتداده في مصر حتى سنة ٣١٢م على يد مكسيمين دايا؛ جعل على الكنيسة التزاماً بالبحث في موضوع الجاحدين والمرتدِّين والراجعين. فالارتداد لم يكن وقتئذ خطية فردية بل جماعية، والجحود والنكران هو تجديف على الروح القدس الذي من عمله في المؤمن أن يقوده للتوبة. فهل في مثل هذه الظروف يُفارق الروح مَن ضعف وأنكر الإيمان؟ هل تُعاد معموديته ثانيةً ليُولد مرة أخرى ويحل فيه الروح أيضاً؟

مثل هذه التساؤلات ظلت عالقة في ذهن الكنيسة. فالقواعد التي أقرَّها البابا ديونيسيوس، وكذلك القوانين الخمسة عشرة التي وضعها القديس بطرس خاتم الشهداء، لم تكن هي التقرير النهائي لهذا الموضوع؛ بل كانت بمثابة الجنين الذي ينمو في رحم الكنيسة حتى بلغ حدَّ النضوج

وخرج إلى الحياة في "سر التوبة"، الذي أسهب آباء الكنيسة منذ القرن الرابع في تعريفه باختصار أنه "ولادة ثانية". (راجع مقال الشيخ الروحاني عن التوبة في كتاب: "بستان الرهبان")، إذ اعتُبرت حياة الرهبنة ميلاداً ثانياً لأنها حياة توبة.

هكذا دخلت كنيسة الإسكندرية ما بعد عصر الاستشهاد ومعها هذا التراث.

تغيير الدولة الرومانية من الوثنية إلى المسيحية:

١. بدأ عصر قسطنطين الكبير – في أوائل القرن الرابع – بإطلاق حرية الضمير والعبادة كمبدأ أساسي لسياسة الدولة، أي تُركت لكل إنسان حرية الاختيار بين الوثنية والمسيحية.

٢. ظهر كرم العائلة المالكة في السخاء الذي بذلته في تعمير القدس وكنيسة القيامة والكنائس التي بُنيت أيضاً في بيت لحم.

٣. بدأت الكنيسة تأخذ وضعاً مميزاً في الدولة. فالأحكام التي تصدرها المجالس الأسقفية والمحاكم الكنسية تلتزم بها الدولة وتجنِّد لها إمكانياتها لتنفيذها.

٤. تضاعف عدد الكنائس، وقد اتخذت شكل البازيليكا، أي شكل المباني الملكية التي كان الأباطرة يُقيمونها في كل البلاد الكبرى في الدولة. وصار شكل الكنيسة ضخماً بعد أن كانت في البيوت ثم المغاير والسراديب، حتى تتسع للملك أو الحاكم وحاشيته معه، ودخلت معه بعض المراسيم التي صارت طقوساً كنسية، مثل: جلوس البطريرك أو الأسقف في شرقية الكنيسة، إذ أن هذا النظام يُشبه – إلى حدٍّ ما – النظام المتَّبع في الدولة، حيث يجلس الحاكم أو رئيس الهيئة الحاكمة وحوله مستشاروه للنظر في أمور وقضايا الدولة.

٥. الدخول إلى الإيمان صار جماعياً، أي أن طالبي العماد صاروا جماعات كثيرة وجموعاً غفيرة. فالإمبراطور مسيحي، وكذلك كبار رجال الدولة وقادتها ومسئولوها مسيحيون. وأصبحت كل القيود والتحديدات والتحفُّظات التي ضد الإيمان مرفوعة ولا وجود لها. وتبع ذلك تطبيق التشريعات المسيحية التي أعطت للإنسان كرامته كصورة الله، لذلك توقَّفت عمليات الكيِّ في وجه الإنسان لأي سبب؛ وحُرِّم ما كان يلجأ إليه البعض بسبب الفقر، إذ كانوا يتخلَّصون من أطفالهم – ولاسيما البنات – لأن الدولة أصبحت تُقدِّم دعماً مادياً للصرف على العائلات المحتاجة؛ وصدرت قوانين ترفع من شأن الأسرة والعائلة وتقدِّس الزواج؛ وصار يوم الأحد عطلة رسمية

holiday؛ وحلَّ عصر نساخة المخطوطات الثمينة.

٦. بلغت الكنيسة في مسيرتها إلى مفترق طرق، فعليها أن تُغيِّر وجهتها؛ إذ لم يَعُد همُّها القيام بدور الدفاع ضد تهجُّمات الوثنيين الذين يُواجهونها إما فكرياً عن طريق الفلاسفة وهرطقاتهم، أو باستعمال قوة الدولة وأجهزتها التنفيذية. إذن، ما هو الطريق الذي تسلكه بعد ذلك؟

٧. هل معنى هذا أن الدولة المسيحية هي صورة ملكوت الله على الأرض؟ من المتوقع والمنتظر أن المثالية تقتضي ذلك، لكن الواقع والحقيقة غير ذلك. فأمامنا الآن قطبان، أحياناً يتجاذبان وأحياناً أخرى يتنافران. القطب الأول، هو المؤسسة الكنسية التي يمثِّلها الأسقف أو البطريرك؛ والقطب الثاني، هو الدولة ويمثلها الإمبراطور أو الحاكم.

المؤسسة الكنسية:

١. خلال القرون الثلاثة الأولى كانت الكنيسة قد استكملت تقريباً تنظيماتها - فيما عدا الرهبنة - وأوشكت أن تدخل دور النضوج، وهذا ما فعلته في القرون المسيحية التالية.

٢. أمامنا الآن - إذا تصوَّرنا ذلك - لوحة بها مجموعة من قطع الموزاييك المتجانسة والمتآلفة معاً في انسجام مدهش، هي صورة بديعة رسمتها يد الفنان الإلهي السمائي. وكل قطعة في هذه اللوحة قد أخذت موقعها وعرفت مكانها داخل هذا الإطار المنسجم دون تنافس أو تعارض. وأصغر وحدة في هذه اللوحة هي الخلية التي من مجموعها تكوَّنت الكنيسة الجامعة الرسولية.

٣. ''الخلية'' هي الكنيسة المحلية التي تتكون من أسقف مدينة ومعه معاونوه من كهنة وشمامسة مساعدين في نظام هرمي تنازلي. وكانت هناك بعد ذلك وظائف تحتسب أحياناً ضمن الإكليروس وأحياناً أخرى خارجه، مثل: البوَّاب ⲙ̀ⲛⲟⲩⲧ، ثم ''حفَّارو القبور'' (وردت وظائفهم في قوانين الرسل، وقوانين هيبوليتس من القرن الثالث)، ثم هناك القارئ ''الأناغنوستيس''، ثم ''المعزِّم'' ἐξορκιστής وهو المختص بإخراج الأرواح الشريرة من المتقدِّمين للمعمودية، ثم معلِّمو الموعوظين. وهناك أيضاً جماعات ''الأرامل'' منذ عصر الكنيسة الأولى أيام الرسل، والعذارى المتبتلات المتفرِّغات للصلاة، والشمَّاسات المكرَّسات. كل هذه الرتب متميِّزة عن الشعب العادي.

٤. رغم الخط المميز الواضح بين الإكليروس وبقية الشعب، إلا أن هذا لم يمنع الجماعات

الغنية وذوي النفوذ من التأثير على الإكليروس وعلى إدارة الكنيسة، بل وحتى على الحياة الكنسية نفسها. فهناك السيدات ساكنات القصور اللواتي لا يكففن عن التآمر ضد رجال الكنيسة أو الاتفاق مع المسئولين فيها. والمثال على ذلك قصة المكيدة التي دبَّرتها الإمبراطورة إفدوكسيا - بداية القرن الخامس - والتي تسبَّبت في نفي القديس يوحنا ذهبي الفم تحت حجج وأعذار مختلفة، بل وانعقاد مجمع بسبب ذلك حَكَمَ بالنفي على هذا القديس. كما كان من جهة المبدأ والقاعدة أن الشعب هو الذي يختار أسقفه. لكن هذا لم يمنع تدخُّل الإكليروس أحياناً كثيرة في تزكية شخص معين.

الإمبراطور المسيحي:

١. لم يكن الخط واضحاً بين التنظيمات والمؤسسات الكنسية ومؤسسات الدولة، بين ما هو سمائي وما هو أرضي، ما هو أبدي وما هو زمني. لذلك كان هذا الأمر يعتمد كثيراً على ما في أعماق الحاكم أو الإمبراطور وشخصيته ومبادئه.

٢. الإمبراطور أساساً هو قائد، وهو المسئول عن سلامة المدينة وسلامة الدولة وأراضيها وما تُمثِّله من قيم اجتماعية وإنسانية، ضد كل أخطار تتعرض لها، لذلك فمن واجبه سرعة التحرُّك للإنقاذ. وكلما تزايدت الأخطار كلما انعكس ذلك على المستوى الشعبي والعسكري والمالي، وبذلك تتزايد الخشونة والفظاظة إلى حدِّ التخويف والإرهاب وإشاعة الرعب، مما كان يجعل البعض يتهرَّبون من التجنيد الإجباري عن طريق القيام ببتر جزء من أعضائهم، فكان يُحكم عليهم بالحرق أحياء في أواخر حكم أسرة قسطنطين وفي أيام حكم فالنتنيان. وهذه العقوبة الوحشية كان الإمبراطور دقلديانوس هو الذي أدخلها، وتجدَّدت في عصر الأسرة المالكة المسيحية. وفي عصر الإمبراطور ثيئودوسيوس - أواخر القرن الرابع - وهو الإمبراطور الذي أعلن المسيحية ديانة رسمية للدولة، والذي أبطل العبادة الوثنية نهائياً وقضى عليها تماماً؛ كان المجنَّدون يُكوون بالنار مثل المذنبين حتى لا يهربوا من الجندية، وحتى يسهل التعرُّف عليهم. وكان هذا الكيُّ هو الختم الذي يوضع على كل العمال المحكوم عليهم بالعمل في محاجر ومناجم الدولة.

٣. أضف إلى ذلك، أن الإمبراطور، كحاكم مسيحي، لم يفقد صفة القداسة التي كانت تحيط بالأباطرة الوثنيين، بل في الحقيقة زادتها مسيحيته، وجعلته في عيني نفسه وفي عيون الحاشية التي من حوله ممثِّلاً أرضياً ومنفِّذاً للسلطة الإلهية على الأرض. ومن هنا امتلأت نفسه بالإحساس بأنه

المرشد للجنس البشري بأسره للاهتداء إلى الديانة الحقيقية التي اعتنقها. وقد أضفى بعض اللاهوتيين من الذين في حاشية الإمبراطور عليه - قليلاً قليلاً - شيئاً من السلطان الكهنوتي أو الأسقفي **كراع** للإمبراطورية. وإن كان ليس لنا أن نستطرد وراء هذه الصورة في تطورها ونموها، لكنه على كلٍّ حال اعتبر نفسه "الذراع العلماني" لتنفيذ متطلبات الكنيسة.

٤. كل هذا لا يعني انحصار مهمة الإمبراطور في تسهيل انعقاد المجامع المسكونية وإيجاد كل الوسائل لتنفيذ قراراتها؛ بل كان هو الذي يأخذ المبادرة بالدعوة لانعقاد هذه المجامع، ويضع أمام أساقفة المسكونة المشاكل العقائدية والتعليمية المطلوب دراستها (أي جدول الأعمال)، ويتابع معهم مناقشاتهم وأبحاثهم ويساعد في التقريب من وجهات النظر للوصول إلى قرار للأغلبية أو اتفاق عام. وهذا جعله يفكِّر ويتفاعل عقلياً وداخلياً مع هذه المشاكل ليقيس أخطارها وأبعادها السياسية وآثارها على الدولة. وبذلك لعب دوراً هاماً، ظهرت خطورته فيما بعد، إذ نجم عن هذه السياسة إخفاقات وخسائر فادحة.

وباختصار، كان الإمبراطور - في نظر الكثيرين - هو "القائد" للشعب المسيحي، وهو "موسى الجديد" رأس إسرائيل الحقيقي.

٥. لنجاح هذه السياسة، كان الأمر يقتضي التعاون والتفاهم المطلق بين المؤسسة الإمبراطورية، والمؤسسة الكنسية؛ وأن يكون الاتفاق كاملاً بين بنود الإيمان التي يعتنقها الإمبراطور، وبين إيمان الكنيسة. وفي اللحظة التي كان يتوقف فيها هذا الاتفاق على الإيمان الأرثوذكسي لدى الإمبراطور، كان الإمبراطور يُرَى في نظر الكنيسة أنه صورة الوحش وضد المسيح (كما في سفر الرؤيا) وآلة الشيطان.

٦. وفي هذا السياق دخل تاريخ الكنيسة مرحلة جديدة عُرفت باسم "عصر المجامع المسكونية"، حيث كانت المجامع السابقة كلها "مجامع محلية" راجعتها وأقرّتها المجامع المسكونية اللاحقة. في هذا العصر تكرَّست القرائح وذهنيات العباقرة من مؤمني ورجال الكنيسة للوصول إلى تحديدات وتعريفات واضحة للمصطلحات اللاهوتية التي يقبلها الجميع، ولم يكن ذلك بالأمر الهيِّن. ومن المعروف أن الشرق كان هو الموضع الذي انبثقت منه هذه المجامع: نيقية سنة ٣٢٥، القسطنطينية سنة ٣٨١، أفسس سنة ٤٣١.

وقد أظهرت هذه النهضة العلمية عظماء رجال الكنيسة من اللاهوتيين الموهوبين من أمثال:

القديس أثناسيوس الرسولي، والقديس كيرلس الكبير من الإسكندرية؛ ثم الآباء الكبادوكيون الثلاثة العِظام: باسيليوس الكبير، وغريغوريوس اللاهوتي، وغريغوريوس النيسي؛ بالإضافة إلى القديس يوحنا ذهبي الفم بطريرك القسطنطينية.

٧. كانت النتيجة الحتمية للدخول الجماعي إلى الإيمان المسيحي، هو انخفاض المستوى الروحي للحياة المسيحية، نتيجة استحالة التدقيق في أخلاقيات المتقدِّمين للمعمودية والموعوظين. بالإضافة لانفتاح الباب أمام العائلات الغنية من أصحاب الإقطاعيات والأراضي الذين حافظوا على مستوى معيشتهم الراقي، مما كان له الأثر المباشر على ضياع النسك وروح التجرُّد من الأخلاقيات المسيحية في مثل هذه الطبقات من الشعب. فكان رد الفعل المباشر على هذا التنعُّم والرفاهية السائدة في المجتمع المسيحي، أنْ ظهرت "الرهبنة" بمبادئها الإنجيلية من نسك وعمل يدوي وحياة الصلاة المتواترة الليل مع النهار، كعناصر أساسية مقابل الاسترخاء والحياة الرغدة لأهل المدينة. لذلك فقد أثمرت الرهبنة في ظهور نوع جديد من الأدب لم تعرفه المسيحية من قبل القرن الرابع، نشأ في مصر وغزا العالم كله، وهو الأدب الرهباني: حياة وأعمال وأقوال مؤسِّسي الرهبنة؛ والمبادئ التي وضعوها وجُمعت تحت اسم "الأبوفثجماتا باترم Apophthegmata Patrum"؛ "بستان الرهبان"؛ "فردوس الآباء".

٨. وأخيراً، الليتورجيا والإفخارستيا. وكانت بدايتها بسيطة كما نراها في كتاب "الديداخي". فالإفخارستيا هي إقامة "عشاء الرب" (كسر الخبز) في البيوت المسيحية أولاً، ثم في السراديب والمدافن بعد ذلك. ولكن مع انتشار المسيحية واعتبارها الدين الرسمي للدولة، شُيِّدت الكاتدرائيات الضخمة والفخمة، وأُضيفت إلى الاحتفالات الليتورجية طقوس باهرة قادرة على استقطاب فكر الجميع وقلبهم ليتمكَّنوا من تقديم العبادة اللائقة لله.

وكانت المراكز الرئيسية لنمو الليتورجيا، هي المراكز اللاهوتية العُظمى في العالم: الإسكندرية وأنطاكية في الشرق، وروما في الغرب. فعلى سبيل المثال نسمع عن إفخولوجيون Euphchologion أي كتاب صلوات الإفخارستيا (والمسمَّى في أيامنا الحاضرة "خولاجي") القديس سيرابيون أسقف تمي الأمديد، وهو أول خولاجي مكتوب من القرن الرابع عُثِرَ عليه، وهو من نتاج الكنيسة القبطية.

العصر الذهبي للكنيسة

المجمع المسكوني الأول

("نيقية" سنة ٣٢٥م)

بدخول الكنيسة عصر المجامع المسكونية، دخلت المسيحية حقبة جديدة من تاريخها. وأول هذه المجامع كان مجمع نيقية المسكوني الأول المنعقد سنة ٣٢٥م بسبب بدعة آريوس. والحقيقة أن هذه البدعة كانت مثل كل البدع والهرطقات التي مرَّت بها الكنيسة خلال الثلاثة القرون الأولى، والتي كانت الكنائس تناقشها وتحكم عليها بواسطة مجمع محلي يعقده أسقف المدينة مع مساعديه من الأساقفة والكهنة والشمامسة؛ إذ كانوا يستعرضون فيه الهرطقة ويناقشون صاحبها محاولين إقناعه وردَّه عن خطئه، ثم يصدرون حكمهم بعد ذلك فيها.

ولكن بعد دخول الدولة الرومانية كمناصرة للكنيسة المسيحية، صارت هي اليد الفعلية والسلطة التنفيذية للمجامع، وصار الإمبراطور هو صاحب المبادرة لحل المشاكل اللاهوتية والتعليمية. لذلك ما أن انفرد قسطنطين الكبير بالحكم سنة ٣٢٤م، وضم الشرق لسلطانه بعد حربه مع صهره ليسينيوس - زوج أخته قسطنطيا - حتى واجهه الانقسام الحادث في كنيسة مصر وفلسطين وآسيا الصغرى بسبب هرطقة آريوس، الذي استغاث بصديق تلمذته يوسابيوس النيقوميدي أسقف العاصمة الإمبراطورية وقتئذ نيقوميديا، والذي كان قريباً من الإمبراطور.

من هو آريوس؟ (٢٥٦_٣٣٦م)

كان آريوس من مواليد ليبيا، وتعلَّم في أنطاكية حيث بدأت فيها مدرسة لاهوتية أسَّسها أحد العلماء المسيحيين ويُدعى لوسيان، الذي كان عالماً في نصوص الكتاب المقدس، كما اشتهر بمراجعاته لنص الترجمة السبعينية. هذه الأبحاث كان قد بدأها أوريجانوس في الإسكندرية وأكملها في فلسطين، وعنه ورث لوسيان (أو لوكيانوس) هذا النشاط العلمي. ولكن للأسف كانت للوسيان أخطاؤه اللاهوتية، لأنه تتلمذ لبولس السموساطي أسقف أنطاكية المعزول حوالي سنة ٢٦٤م. وقد توفِّي لوسيان هذا شهيداً في اضطهاد دقلديانوس. لكن ذلك لم يمنع الكنيسة من أن تقول عنه إنه كان آريوسياً قبلما يوجد آريوس.

وبعد عودة آريوس من أنطاكية استقر في الإسكندرية، وسيم شماساً على يد البابا بطرس خاتم الشهداء، الذي اشتمَّ فيه – فيما بعد – رائحة الاعتداد بالذات والغرور مع انسياقه وراء الفلسفة اليونانية فظهرت بوادر هرطقته، وكان التحذير الذي نبَّه إليه خلفاءه أرشيلاوس البطريرك الـ ١٨ وألكسندروس البطريرك الـ ١٩.

ورغم هذا التحذير، كان مظهره النسكي، وذلاقة لسانه، وقدرته المنطقية، وطلاقة حديثه، وطلاوة تعابيره؛ سبباً في أن يقوم أرشيلاوس – حينما صار أسقفاً للإسكندرية – برسامته كاهناً رغم تحذير سلفه القديس بطرس خاتم الشهداء.

وعلى كل حال لم يبقَ البابا أرشيلاوس على كرسي الأسقفية سوى ستة أشهر، وتولَّى بعده البابا ألكسندروس الذي حاول رد آريوس بالحوار الهادئ دون جدوى. وعقد بعد ذلك مجمعاً حضره آريوس فأصرَّ على عناده؛ ولذلك عاد القديس ألكسندروس فعقد مجمعاً مكانياً ثانياً سنة ٣١٨م من مئة أسقف من مصر وليبيا مع الكهنة والشمامسة، فحرموه وقطعوه من الكنيسة هو ومؤيِّديه، وكانوا أسقفين من ليبيا، وخمسة كهنة، وستة شمامسة.

أسباب انتشار البدعة:

١. السنوات التي أعقبت فترات الاضطهاد، مع وجود العديد من المرتدِّين الذين لم يقبلوا قوانين التوبة للرجوع إلى الكنيسة؛ جعلتهم فريسة سهلة للوقوع في الهرطقات (مثل أتباع ملاتيوس).

٢. طبيعة الشعب الإسكندري، حيث ينتشر في مدينة الإسكندرية الفلاسفة الوثنيون ونشاطهم ونهضاتهم لإحياء تراثهم الفلسفي.

٣. وضماناً للانتشار والتبعية، ألَّف آريوس قطعاً شعرية ولحَّنها ووقَّعها كأغاني شعبية يتغنَّى بها العامة في الأسواق والشوارع، وأسماها: "الوليمة θάλεια"، ويصفها القديس أثناسيوس الرسولي أنها موقَّعة على أنغام خليعة سهَّلت انتشارها.

٤. شخصية آريوس نفسها؛ فقد كان شيخاً يناهز السبعين عاماً، ناسكاً متقشفاً مهيب الطلعة، شاعراً موهوباً (ارجع إلى كتاب: "القديس أثناسيوس الرسولي"، للأب متى المسكين، الطبعة الثالثة: ٢٠٠٨، ص ٤٤١–٤٤٥).

ملخَّص التعليم الآريوسي:

تعليم آريوس هو قاعدة تبدأ منها الآريوسية فتُغلق على الذهن الإدراك الصحيح للعلاقة الكائنة بين الله الآب وبين الله الابن. فاللاهوت في الله ليس فقط غير مخلوق، بل وأيضاً غير مولود ἀγέννητος. والعامل المشترَك في كل الهرطقات والبدع، هو قيامها على مبدأ صحيح وتعليم إنجيلي حقيقي، ولكنه ينحصر فيه وحده ثم يبني عليه المبتدِع نظرية منطقية تبدو أمامنا صحيحة وكأنها نظرية هندسية: "بما أنه كذا وكذا وكذا... إذن، النتيجة هي كيت وكيت". هذا المنطق قادر على الوقوف أمام الحوار والجدال، ولذلك ينتهي بصاحبه إلى النتيجة التي ترفضها الكنيسة.

فكان تعليم الآريوسية هكذا:

١. إذا كان الآب قد وَلَد الابن، فالمولود يتحتَّم أن يكون له بدء وجود.

٢. فإن كان للابن بدء وجود، فبالتالي كان هناك زمنٌ ما بعيدٌ كان فيه الابن "غير موجود".

٣. إذن، فالابن مخلوق من العدم أو من اللاشيء ἐξ οὐκ ὄντος.

وهكذا يكون الابن من أصل آخر غير جوهر الله الآب، ولكن هذا - من وجهة نظر آريوس - لم يكن يمنع أبداً أن يكون وسيطاً بين الله والبشر. فهو إله ثانٍ أو ثانوي، أو بمعنى آخر تكون ألوهيته تشريفية - بالتبنِّي - بسابق علم الله وليس بحسب الجوهر، بسبب استحقاقه الذي سيُعلنه حينما يحلُّ في جسد إنسان على الأرض.

هنا — بحسب آريوس - بنوَّة اللوغوس هي نعمة موهوبة للوغوس من الله، مثلنا. لكن ليس هناك شركة حقيقية جوهرية في الألوهية بين الآب والابن. والنتيجة التالية - وقد جاءت متأخرة نوعاً ما - بحسب هرطقة مقدونيوس - أن الروح القدس هو بكر أعمال خلقة الابن، كما أن الابن هو بكر أعمال الآب.

هذا التسلسل المنطقي سهل ومُقنع عقلياً لمفكري القرن الرابع، لأنه يُقدِّم جواباً بسيطاً لكل التساؤلات الصعبة عن العلاقة بين الآب والابن، ويتفادى الدخول في تفاصيل العلاقة السرِّية الداخلية بين الأقانيم. وبهذه السهولة المنطقية ينفتح الباب رحباً وواسعاً للإنسان غير المتعمِّق في كلمة الله لكي يُصدِّق هذه البدعة.

رد الفعل الآريوسي:

١. لم يستسلم آريوس بسهولة لقرار مجمع أساقفة كنيسة الإسكندرية، فلجأ إلى فلسطين وآسيا الصغرى حيث كان رفقاء تلمذته من مدرسة أنطاكية قد صاروا أساقفة من أمثال: يوسابيوس القيصري المؤرخ الكنسي المعروف وأحد المتحمسين لأوريجانوس؛ ويوسابيوس النيقوميدي، وكان أسقف بيروت، ثم استطاع بطموحه وعلاقاته السياسية أن ينتقل إلى نيقوميديا قريباً من مقر الحكم الإمبراطوري ليكون أسقفها، وحتى بعد بناء القسطنطينية صار هو أسقفها سنة ٣٣٦م وقام بعماد قسطنطين الكبير. وقد عُقدت مجامع محلية في فلسطين وآسيا الصغرى رفضت قرارات القديس ألكسندروس وساندت آريوس.

٢. تصاعُد الخلاف بسبب اعتراض أساقفة المدن الكبرى على المجامع المحلية. وقد أيَّد كل من مكاريوس أسقف أورشليم ويوستاثيوس أسقف أنطاكية وأسقف طرابلس وغيرهم البابا ألكسندروس.

٣. تشدُّد البابا ألكسندروس في موقفه، فأرسل رسائل لكل أساقفة العالم يشرح فيها خطورة التعليم الآريوسي، ويحذِّر من قبول آريوس.

وهكذا كان الموقف عندما انفرد قسطنطين الكبير بحكم الإمبراطورية الرومانية المتسعة والممتدة من الجزر البريطانية وأسبانيا غرباً حتى العراق شرقاً. وكان لابد من مواجهة هذا الاضطراب؛ لذلك كلَّف قسطنطين مستشاره الديني، وهو القديس هوسيوس أسقف قرطبة بأسبانيا، والذي كان أحد المعترفين الذين تعذَّبوا من جراء اضطهادات دقلديانوس وجاليريوس، والمشهود له بالتقوى والعلم، لكي يتدخل ويصالح الأطراف المتخاصمة. وقد سبق لقسطنطين أن انتدب الأسقف هوسيوس لمثل هذه المهام في شمال أفريقيا، ونجح في دحض بدعة دوناتُس هناك. وبالفعل جاء القديس هوسيوس إلى الشرق واجتمع مع آريوس وحزبه، ومع القديس ألكسندروس، ولكن بدون فائدة مرجوة بسبب تعنُّت وعناد آريوس. لذلك اقترح الأسقف هوسيوس على الإمبراطور قسطنطين عقد مجمع مسكوني.

مجمع نيقية سنة ٣٢٥م:

بدأت جلسات مجمع نيقية في ٢٠ مايو سنة ٣٢٥م. ونيقية مدينة لا تبعد كثيراً عن العاصمة نيقوميديا مقر البلاط الإمبراطوري. وقد حضر المجمع ٣١٨ أسقفاً بحسب تقليد الكنيسة الشرقية (الكنيسة الكاثوليكية لم تستقر بعد على هذا العدد). ورغم التسهيلات التي أوصى بها قسطنطين من تسخير وسائل المواصلات والاتصالات الإمبراطورية لتسهيل سفر وراحة الأساقفة الذين سيحضرون، إلاَّ أن حضورهم لم يكن متناسباً مع التجمُّعات السكانية داخل حدود الإمبراطورية. فقد كان من الحاضرين أكثر من مائة أسقف من آسيا الصغرى، وحوالي ثلاثين من سوريا وفينيقية، وأقل من عشرين من فلسطين ومصر. أما الغرب فبالكاد حضر منهم ثلاثة أو أربعة أساقفة تصادف وجودهم في البلاط الإمبراطوري آنئذ لأسباب أخرى بخلاف انعقاد المجمع، وكان منهم هوسيوس أسقف قرطبة والمستشار الديني للإمبراطور. أما أسقف روما سلفستر فأرسل اثنين من كهنة روما يمثِّلانه، وإن كان هذا الأمر بموجب الصدفة البحتة، إلاَّ أنه في المجامع المسكونية التالية كان بابا روما يمثِّله وفد أو مندوبون من طرفه. وحضر أيضاً البابا ألكسندروس بصحبة شماسه الشاب أثناسيوس، وبعض الأساقفة مثل بفنوتيوس أحد المعترفين.

ومن الجانب المعارِض، حضر آريوس نفسه مع مؤيِّديه، وكان أقواهم يوسابيوس أسقف نيقوميديا وصديق تلمذة آريوس القديم.

جلسات المجمع:

إذا حاولنا أن نستعرض الحوارات التي دارت في قاعات الاجتماع، سنرى أن الاتجاهات اللاهوتية السائدة كانت هي:

١. الجناح الأيسر المتطرف، وهو يمثِّل الآريوسية الصلبة العنيدة، وهم جماعة قليلة العدد ملتفة حول يوسابيوس النيقوميدي وآريوس وأتباعه.

٢. الجناح الأيسر المعتدل أو المحافظون، ويمثِّلون التعليم اللاهوتي المتردِّد الذي لا يهتم بالتحديدات والتعريفات بقدر ما يتمسك بحرفية الكلمات، إذ لابد أن تكون من الكتاب المقدس. ويهتم هذا الجناح بالمحافظة على الوحدة كنظام قبل كل شيء، ويمثله يوسابيوس أسقف قيصرية فلسطين.

٣. جناح اليمين المعتدل، وهم الذين اكتشفوا خطورة الهرطقة الآريوسية وكانوا يتكتَّلون حول البابا ألكسندروس وشماسه الشاب واللاهوتي الفذ أثناسيوس، وانضم إليهم القديس هوسيوس أسقف قرطبة في أسبانيا.

٤. أخيراً، جناح اليمين المتطرف، ويجتمع حول يوستاثيوس أسقف أنطاكية، ومارسيللوس أسقف أنقرة، الذي تطرَّف إلى الجهة المضادة بإنكاره تمايُز أقانيم الآب والابن والروح القدس، وهو ما يسمَّى بـ "المونارخية".

وبعد مداولات ومشاورات حادَّة قُدِّم إلى المجمع صورة الإيمان الذي تُلقِّنه كنيسة أورشليم للموعوظين والمؤمنين الجُدُد وقت المعمودية. وهاك قانون إيمان كنيسة أورشليم مقارَناً بصيغة إيمان مجمع نيقية:

إيمان كنيسة أورشليم	الإيمان النيقاوي
نؤمن بإله واحد الله الآب ضابط الكل، خالق كل شيء، ما يُرَى وما لا يُرَى.	نؤمن بإله واحد الله الآب ضابط الكل، خالق السماء والأرض، ما يُرَى وما لا يُرَى.
ونؤمن برب واحد يسوع المسيح كلمة الله، إله من إله، نور من نور، حياة من حياة؛ الابن الوحيد الجنس بكر كل الخليقة، مولود من الآب قبل كل الدهور، الذي به خُلق كل شيء، وتجسَّد لأجل خلاصنا.	نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، **المولود من الآب قبل كل** الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، **مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر**، الذي به كان كل شيء، هذا الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسَّد من الروح القدس ومن مريم العذراء، تأنَّس وصلب عنَّا...

ورغم أن قانون إيمان كنيسة أورشليم لا يتناقض لاهوتياً مع مفاهيم الكنيسة وتعليمها، إلاَّ أنه لا يُعطي جواباً على المشكلة المعروضة على المجمع، أي إيضاح العلاقة بين الآب والابن، تلك التي تعثَّر فيها آريوس. وقد لاحظ الشماس أثناسيوس كيف كان إحساس الرضا والموافقة من جانب

الآريوسيين على هذه الصيغة. لذلك أُضيفت على هذه الصيغة بعض التعريفات المحددة مثل: "مولود من الآب قبل كل الدهور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر (هوموؤوسيوس) ὁμοούσιος". وقد أثارت هذه الكلمة "ὁμοούσιος" كثيراً من الجدل واللغط، لأنها حاصرت الآريوسيين وكشفت خداعهم من جهة إيمانهم بتدنِّي الابن عن الآب، فحاولوا استبدالها بكلمة أخرى قريبة جداً منها وهي: ὁμοιούσιος (هومويْؤوسيوس) أي **مُشابه** للآب في الجوهر (لاحظ التلاعب بلفظ **οι** بدلاً من **ο**). لكن آباء المجمع رفضوها، لأنها لا تشرح المعنى الدقيق المسلَّم كتقليد كنسي تعليمي، لأن مشابهة جوهر الابن لجوهر الآب تُفسَّر بمعنى وجود إلهين، بينما الإيمان الإنجيلي هو: «فإنه فيه (أي في المسيح) يحلُّ كلُّ ملء اللاهوت (أي الألوهية) جسدياً» (كو ٢:٩).

بقية قرارات المجمع (أهم القرارات):

أهم قرارات مجمع نيقية بعد الرد على بدعة آريوس، هي:

١. إعطاء لقب **بطريرك** لأساقفة المدن الكبرى: روما، الإسكندرية، أنطاكية.

٢. تحجيم **الملاتيين** الذين كانوا يُقاومون القديس ألكسندروس بحدود تحدُّ من نشاطهم. وكما نعلم أن ملاتيوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط) كان قد سقط في الارتداد في اضطهادات دقلديانوس، ثم عاد وتاب ولم تعجبه القوانين التأديبية التي وضعها القديس بطرس خاتم الشهداء للراجعين، فانفصل عن الكنيسة وكوَّن كنيسة مستقلة متشددة سماها: "كنيسة الشهداء"، ورسم أساقفة وكهنة في المدن التي كان أساقفتها في السجن أو في المنفى، ودخل إلى مدينة الإسكندرية في غياب أسقفها عندما كان القديس بطرس في السجن. وكان الملاتيون مُشايعين لبدعة آريوس، وبقيت شوكتهم تُنَغِّص على كنيسة الإسكندرية إلى ما بعد منتصف القرن الرابع.

٣. كان من ضمن **المقترحات** التي قُدِّمت للمجمع، **قرار بفرض البتولية** على الإكليروس. وكان مثل هذا القرار قد صدر قبل مجمع نيقية بحوالي عشرين سنة (سنة ٣٠٥م) في مجمع محلي في أسبانيا، وهو مجمع **آلفيرا** (قانون ٣٣)، لذلك فمن المرجَّح أن يكون القديس هوسيوس أسقف قرطبة هو الذي قدَّم هذا القرار. ولكن **الأسقف المصري بفنوتيوس أسقف طيبة** ـ الأقصر ـ عارض هذا القرار علانية، وكان هذا القديس من المعترفين الذين تعذَّبوا على يد مكسيميان إذ قُلعت عينه، كما أنه اشتهر بصنع المعجزات، وكان بتولاً غير متزوج. وقد وقف هذا

القديس أثناء مناقشة هذا الاقتراح وقال: ''**إن هذا النير الثقيل جداً ما ينبغي أن يلتزم به الإكليروس**، لأن الزواج والمعاشرة الزوجية مكرَّمة وغير نجسة. فلا يجب أن نُلزم الكنيسة بهذا التشدُّد المتطرف، إذ لا يستطيع الجميع أن يعيشوا في بتولية مطلقة، لأن عدم وجود هذا القرار سيحفظ للزوجة عفتها، وقد يُساء إليها إذا امتنع رجلها وهو من الإكليروس عن معاشرتها. لذلك يكفي المحافظة على التقليد الكنسي القديم، وهو أن الذين يقبلون سر الكهنوت دون أن يكونوا متزوجين، فليبقوا هكذا. وإن كان المدعو للكهنوت متزوجاً فلا ينفصل عن زوجته، ويكفي لمثل هؤلاء ألاَّ يتزوجوا ثانية في حالة موت الزوجة''.

وهذه هي قوانين الرسل المعمول بها منذ القرنين الثاني والثالث في الكنيسة الشرقية. وهكذا امتنع المجمع عن إصدار هذا القرار المجحف بحق سرِّ الزيجة المقدس، وما زال سارياً حتى الآن في الكنائس الشرقية الأرثوذكسية بعائلتيها.

٤. **تعييد الفصح**: قرر المجمع ما كانت تمارسه أغلب الكنائس كعادة تقليدية، وهو تعييد الفصح احتراماً ليوم الصلب الأسبوعي وليس بحسب اليوم الشهري؛ أي بأن يكون يوم الصلبوت هو الجمعة، والقيامة يوم الأحد بدلاً من الالتزام بالتاريخ الشهري وهو الرابع عشر من شهر نيسان، وهو التقليد الذي تمسَّكت به كنائس آسيا الصغرى بخلاف سائر كنائس العالم. وهذا ما كان سارياً في الإسكندرية وفي روما.

ويرجع هذا الخلاف إلى أوائل القرن الثاني، حيث حاول بوليكاربوس أسقف سميرنا وتلميذ القديس يوحنا الإنجيلي التفاوض بشأنه مع أُنيسيتوس أسقف روما سنة ١٥٤م، ولكنهما لم يتفقا. ورغم اختلافهما إلاَّ أن أسقف روما قدَّم ضيفه الأسقف بوليكاربوس لخدمة القداس ورفع الذبيحة الإلهية، وافترقا كصديقين. وفي نهاية القرن الثاني، حاول فيكتور أسقف روما إجبار كنائس آسيا الصغرى بالتخلِّي عن احتفالها بالفصح المسيحي مع الفصح اليهودي (١٤ نيسان) مهدِّداً بالقطع من الشركة والحرومات لكل مَنْ يخالفه، إلاَّ أن بوليكراتس أسقف أفسس وقتئذ رفض الخضوع للتهديد. وتدخَّل القديس إيرينيئوس (ومعنى اسمه: ''ابن السلام'') وهو أصلاً من آسيا الصغرى، ولكنه صار بعد ذلك أسقفاً على ليون في بلاد الغال - فرنسا - ليحثَّ أسقف روما على المحافظة على الوحدة أفضل وأهم من توحيد العادات المستقرة في كل كنيسة، وقد نجح ابن السلام (القديس إيرينيئوس) في مهمته.

وبمرور الزمن ضعفت جماعة "الأربعة عشريين" - كما كانوا يُدعون - وكان مجمع نيقية فرصة مناسبة لتوحيد الاحتفال بعيد الفصح؛ وأُسْنِدَ لبطريرك الإسكندرية مهمة تحديد الاعتدال الربيعي بدلاً من اقتباسه من اليهود، وكذلك حساب الأشهر القمرية، وهو نظام الأبقطي المعروف في الكنيسة القبطية والمنسوب للبابا ديمتريوس البطريرك الـ ١٢، وهو الحساب الفلكي الذي قام به عالِم الفلك المصري بطليموس (القرن الثاني قبل الميلاد). ولذلك كان على البطريرك الإسكندري بعد تعييد الإبيفانيا (عيد الغطاس) أن يُرسِل إلى بطاركة وأساقفة العالم تحديد موعد عيد الفصح في رسائل فصحية، وكانت فرصة مناسبة يستعرض فيها بطريرك الإسكندرية مع أساقفة العالم المشاكل اللاهوتية أو التعليمية المعقدة. وما زال التاريخ يحفظ لنا جزءاً كبيراً من رسائل القديس أثناسيوس الفصحية، وكذلك رسائل خلفائه من أمثال القديس كيرلس الكبير.

٥. انتهى المجمع إلى تجريد وقطع آريوس والأسقفين المنحازَيْن له. وبعد ثلاثة أشهر حاول يوسابيوس النيقوميدي مع اثنين من أساقفة آسيا الصغرى سحب موافقتهم، فتم نفيهم أيضاً، وإن كانت قد جرت بعد ذلك أحداثٌ غيَّرت مجرى التاريخ نتيجة مؤامرات هذا الأسقف الآريوسي (يوسابيوس النيقوميدي).

ملاحظات أخيرة:

١. **تقييم هذا المجمع**: أثارت كلمة ὁμοούσιος "مساوٍ (للآب) في الجوهر" الكثير من الانتقاد حتى بين اللاهوتيين الكاثوليك المعاصرين[1] حتى أنهم يقولون - بلهجة مخفَّفة طبعاً - إن إدخال هذا المصطلح يعني اعترافاً كنسياً جماعياً بالمنطق العقلاني، لأن هذه الكلمة لم تَرِد في الكتاب المقدس، بل هي استنتاج العقل الإنساني لأجل تحديد وتعريف العلاقة بين الآب والابن في محاولاته لشرح وتفسير الوحي الإلهي.

والحقيقة التي لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا أبداً، أن مصطلح الـ "هوموؤوسيوس" ليس من نتاج العقل البشري للآباء المجتمعين في نيقية، بل هو مصطلح تقليدي كنسي تداوله آباء الكنيسة منذ القرن الثاني الميلادي؛ إذ نراه في كتابات القديس إيرينيئوس، وأوريجانوس الذي يشرح بها علاقة

(1) H. Marrou; *Christian Cent.* p. 252.

الآب بالابن في شرح رسالة العبرانيين بنفس المعنى الذي قصده مجمع نيقية[٢].

ولقد كان القديس أثناسيوس الرسولي من أشد المتمسكين بالتقليد الكنسي رغم أنه درس وتتلمذ لجميع آباء كنيسة الإسكندرية المعروف عنهم تآلفهم مع الفلسفة اليونانية ابتداء من كليمندس وأوريجانوس وثيئوغنسطس. ومع ذلك بقِيَ التقليد الكنسي راسخاً في أعماقه دون أن يتشوَّه بأية صورة من صور الفلسفة اليونانية. والتقليد الكنسي في مدرسة الإسكندرية اللاهوتية هو الدعامة الرئيسية لفهم وشرح الكتاب المقدس، ويشهد بذلك دراسة كتابات آباء الإسكندرية في القرنين الثاني والثالث، حتى أن القديس أثناسيوس يقول دائماً ويكرر مراراً: ''إننا نحن شهود لحقيقة واقعة أمامنا، ولسنا شُرَّاحاً أو مفسرين''[٣].

٢. المعروف لدى الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية والغربية الكاثوليكية أن قوانين مجمع نيقية الأصلية عشرون قانوناً.

(٢) كتاب: ''القديس أثناسيوس الرسولي''، للأب متى المسكين، الطبعة الثالثة: ٢٠٠٨، ص ٤٣٢-٤٣٩.

(٣) راجع مقدمة الباب الثاني من القسم اللاهوتي من كتاب: ''القديس أثناسيوس الرسولي''.

تقلُّبات الهرطقة الآريوسية

أصداء قرارات مجمع نيقية، وردود أفعالها في الكنيسة:

١. كثير من أساقفة الشرق قبلوا اصطلاح ''المساواة في الجوهر'' بنوع من التردُّد أو التحفُّظ. أما في مصر فكان هذا الاصطلاح شائع الاستعمال وما زال، بينما في بعض أقطار الشرق قامت اعتراضات كثيرة من أهمها: أن هذا الاصطلاح ''هوموؤوسيوس'' يُطلق على العناصر المادية مثل عُملَتين من معدن واحد، ولأن بعض الهراطقة مثل بولس السموساطي والغنوسيين سبق أن استعملوا هذا المصطلح كثيراً؛ تسبَّب إطلاقه على الثالوث القدوس مثاراً لاعتراضات عديدة. ولذلك لم تستطع جميع المداولات والمناقشات والأبحاث التي دارت عقب الانتهاء من المجمع المسكوني الأول أن تُزيل هذه التخوُّفات والتحفُّظات.

٢. كان للاتجاهات الشخصية دخل كبير في تحفُّظ أو قبول الأساقفة لاصطلاح الـ ''هوموؤوسيوس''؛ فمثلاً كان أحد الأساقفة ويُدعى أستيريوس ذا اتجاهات آريوسية ـ ولكن لم يكن آريوسياً خالصاً ـ ولكنه تبنَّى الدفاع عن هذا المصطلح، مما جعل مارسيللوس أسقف أنقرة ينتقد هذا المصطلح ويتشكك في المعاني المستترة وراءه. في نفس الوقت نجد أن يوسابيوس القيصري يتعثَّر في بعض المبادئ التي يُجاهر بها مارسيللوس هذا الذي كان يُنظر إليه كأحد المائلين إلى حدٍّ ما لهرطقة سابليوس (وهي النقيض المتطرِّف لهرطقة آريوس)، مما حدا بمارسيللوس أن يُقدِّم عن نفسه دفاعاً طويلاً. هذا في الوقت الذي اتَّهم فيه يوسطاثيوس أسقف أنطاكية يوسابيوس القيصري بإفساده الإيمان النيقاوي، فاحتج يوسابيوس على هذا الاتهام بأنه لم يتكلَّم قط سوى بالإيمان الصحيح وقذف يوسطاثيوس بالسابلية.

٣. هكذا كان لتبادُل الاتهامات والتأويلات الدور الرئيسي في البلبلة التي حدثت آنئذٍ، وصار من العسير إعطاء صورة واضحة عن المناقشات والمجادلات التي دارت في الفترة ما بين انعقاد المجمع المسكوني الأول (نيقية) سنة ٣٢٥ والمجمع المسكوني الثاني (القسطنطينية) سنة ٣٨١. ولابد أن نأخذ في الاعتبار أن هناك متغيِّرَيْن ساهما إلى حدٍّ ما في هذه البلبلة الحادثة:

المتغيِّر الأول، هو المكان، لأن المصطلح اللاهوتي الواحد مثل الهوموؤوسيوس يصبح في مكان

ما مثار جدال وحوار ساخن كما كان في بلاد المشرق، بينما في مكان آخر يبدو طبيعياً ولا يخلف أي مشاكل مثلما حدث في مصر وبلاد الغرب.

أما **المتغيِّر الثاني**، فهو الزمان، حيث تتطور المعاني بتطوُّر الشخصيات، وكان هذا العصر متميِّزاً بالشخصيات الكنسية القوية.

٤. بتولِّي القديس أثناسيوس بطريركية الإسكندرية في ٢٨ يونيو سنة ٣٢٨، وجد المناصرون لمصطلح الهوموؤوسيوس مناصراً لا يلين ولا يكلُّ. ويقول بعض المؤرِّخين عن أثناسيوس الرسولي إنه كان ذا شخصية قوية وطبيعة عنيفة مما جعل له أعداءً كثيرين. ولكن في مجال الإيمان والعقيدة فإن الشخصية القوية والطبيعة العنيفة لا تعني سوى المجاهرة بالحق والثبات على العقيدة حتى الموت!!

٥. يبرز أيضاً عامل هام في القلاقل التي حدثت في أعقاب المجمع المسكوني الأول، وهو ازدواج السلطة، أي ''الكنيسة / الدولة'' أو ''الأسقف / الحاكم''. فالمجامع تَدْرس وتبحث وتناقش وتقرر، بينما يبقى في النهاية رأي الإمبراطور. فالإمبراطور لابد أن يُناصر رأياً على رأي، فيتم تثبيت أساقفة على كراسيهم ونفي أساقفة آخرين من إيبارشياتهم، مما ينعكس هذا بدوره على الكنيسة وحياتها. وقد يتغيَّر فجأة رأي الإمبراطور أو يتولَّى الحكم إمبراطور آخر له رأي جديد مخالف، مما يكون له ردود فعل مختلفة على حياة الكنيسة.

وهذا ما حدث مع قسطنطين الكبير، فقد غيَّر موقفه في أقل من ثلاث سنوات بإيعاز من أخته غير الشقيقة قنسطنطيا أرملة ليسينيوس الذي مات في الحرب التي اشتعلت بينه وبين قسطنطين. وكان من نتيجة هذا التغيير أنْ استدعى قسطنطين آريوس من المنفى واعتبره أرثوذكسياً عندما قدَّم إقرار إيمان غامض مُبهم، كما استرد يوسابيوس النيقوميدي حظوته ومكانته لدى البلاط الحاكم، وهكذا استمر قسطنطين بقية حياته حتى وفاته سنة ٣٣٨ مناصراً لأعداء مجمع نيقية.

ردود فعل مضادة:

١. بعد الحرومات التي اختتم بها مجمع نيقية قوانينه، والتعديل الغامض الذي طرأ على موقف آريوس ومؤيديه، لم يعُدْ هناك أحد يُعارض في ألوهية الابن. ولكن الردود والتفسيرات التي قدَّمها مارسيللوس أسقف أنقرة جدَّدت خطر السابلية التي لا ترى في الآب والابن والروح القدس.سوى ظهورات وأعمال خاصة بالله في العالم وليست أقانيم متميِّزة في الذات الإلهية الواحدة.

٢. خطر السابلية هيَّأ الفرصة لقيام جبهة متحدة ضدها برياسة يوسابيوس النيقوميدي الذي كان رجلاً لبقاً متملِّقاً مقتدراً في المؤامرات وذا نفوذٍ في البلاط الإمبراطوري، يهدف إلى اقتلاع كل القائلين بأن الأرثوذكسية ليست شيئاً آخر بخلاف معتقدات وتعريفات مجمع نيقية. لذلك نشطت هذه الجبهة في عمل سلسلة من المجامع المحلية بين سنتي ٣٢٨ و٣٣٥، عزلت فيها عشرات الأساقفة في المنطقة الممتدة من فلسطين حتى تراقيا (على البحر الأسود)، وبلغت غايتها في مجمع صور - أورشليم بين شهري يوليو وسبتمبر عام ٣٣٥ بخلع القديس أثناسيوس من كرسي الإسكندرية ونفيه. ولم تكن مهمة هذه المجامع لاهوتية أو عقائدية بل كانت غايتها الرئيسية البحث في أمور شخصية واتهامات أخلاقية ووشايات كاذبة. فاتهمت يوسطاثيوس بالأخلاق المنحطَّة وإشاعة الأخبار الكاذبة عن الملكة هيلانة أُم الإمبراطور قسطنطين؛ واتهمت القديس أثناسيوس بالعنف والقسوة ضد أنصار ملاتيوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط) المنشق، وأضافت على هذا الاتهام أن أثناسيوس هدَّد بمنع تصدير القمح المصري إلى القسطنطينية. وحاولت روما التدخُّل سنة ٣٣٨/ ٣٣٩ بناءً على طلب القديس أثناسيوس، فرفض أساقفة الشرق ذلك بحجة أن هذه الأحكام صدرت حسب القوانين واللوائح.

٣. بعد موت الإمبراطور قسطنطين تولَّى أولاده الحكم[1]: قسطنطين الابن الأكبر ودُعي قسطنطين الثاني، وقد تولَّى أقاليم الغال (فرنسا الآن وبلجيكا ولمبارديا وسردينيا) وبريطانيا وأسبانيا وجزء من أفريقيا؛ وقسطانس تولَّى أقاليم الليركم وإيطاليا وبقية أفريقيا، وكان يتبع إيمان نيقية؛ وقنسطنطيوس تولَّى الإمبراطورية الشرقية وهي الجزء الأكبر من العالم آنئذ، وكان آريوسياً متعصِّباً، فعانى القديس أثناسيوس على يديه النفي والتشريد، ولكنه وجد في الغرب التأييد.

٤. قام قسطنطين الثاني سنة ٣٤٠ على أخيه قسطانس في معركة أكويلا وتقابل الجيشان، ولكن قواد جيش قسطنطين الثاني قاموا على إمبراطورهم واغتالوه، فتولَّى قسطانس إمبراطورية الغرب كلها. وقد تمكَّن أحد القواد في الغرب ويُدعى ماجنتيوس من قتل قسطانس وإزاحته عن العرش سنة ٣٥٠، ولكن استطاع قنسطنطيوس أن يتغلَّب أخيراً على ماجنتيوس ويسترد حكم

(١) انظر كتاب: "القديس أثناسيوس الرسولي"، للأب متى المسكين، الطبعة الثالثة: ٢٠٠٨، صفحة ١١٨ (الهامش).

الغرب ما بين سنتي ٣٥١ و٣٥٣، ويصبح بذلك إمبراطوراً على الشرق والغرب[٢]. وكان أول الآثار التي نجمت عن تملُّك قسطنطيوس الآريوسي للإمبراطورية بأسرها، هو اضطهاد وتشريد كل الأساقفة المناصرين لمجمع نيقية: لوسيفر أسقف كجلياري، هيلاري أسقف بواتييه، ليبريوس أسقف روما، هوسيوس أسقف قرطبة الذي جاوز عمره المائة عام. وقد خضعوا من جراء تهديد الإمبراطور لهم بالنفي والتعذيب، وبسبب كِبَر السن وحفاظاً على مركزهم، ووقَّعوا على وثيقة عزل وتجريد القديس أثناسيوس.

هذا من جهة القطب الإمبراطوري!

فماذا من جهة القطب الكنسي؟

٥. لقد مات آريوس سنة ٣٣٥، ومات يوسابيوس القيصري سنة ٣٤٠، ولَقِيَ يوسابيوس النيقوميدى حتفه سنة ٣٤١. ومع ذلك لم تكفَّ المحاولات عن استنباط صِيَغ وتعريفات تحل محل اصطلاح الـ "هوموؤوسيوس" ما بين سنتي ٣٤١ و٣٤٥. ففي عام ٣٤١، انعقد مجمع في أنطاكية بمناسبة تدشين كاتدرائيتها الجديدة وافتُتح محضره بهذه الكلمات: "نحن لسنا منساقين وراء آريوس..."، ثم قدَّم المجمع تعريفات عامة لا تتعارض مع الإيمان الأرثوذكسي، ولكنها تتفادى تحديد درجة التساوي أو التشابه بين الآب والابن، وكان تركيزها منصبّاً على دحض السابلية.

٦. انعقد مجمع ثانٍ في أنطاكية سنة ٣٤٥، أصدر شرحاً تفصيلياً من ١٤٠٠ كلمة (أي حوالي ١٠ صفحات من صفحات المخطوطات: السطر ٧ كلمات، والصفحة ٢٠ سطراً)، كل ذلك لكي يتم تكديس التشبيهات والحرومات دون الخوض في المشكلة نفسها، في الوقت الذي يكيل فيه هذا المجمع الاتهامات والافتراءات على مجمع نيقية الذي وُصِمَ بأنه ينادي بوجود ثلاثة آلهة أو ثلاثة أقانيم غير مولودة، كل هذا من أجل تجاوز المصطلح القوي "هوموؤوسيوس".

(٢) شرحه، صفحة ٢٢٠، ٢٢١.

حزب الأنوميين:

كلمة ἀνόμοιος ''أنوميوس'' تعني ''مختلف في الجوهر''، بينما كلمة ὁμοιούσιος ''هومويُؤوسيوس'' تعني ''مشابه في الجوهر''. وهي محاولة لتفادي الاصطلاح الصحيح ὁμοούσιος ''هوموؤوسيوس'' الذي يعني ''مساوٍ في الجوهر'' أو ''من نفس الجوهر''.

١. لم يعُدْ ممكناً لهذا الغموض أن يستمر طويلاً، لأن رفض الشرق لكلمة ''هوموؤوسيوس'' أي ''مساوٍ في الجوهر'' أدّى إلى ظهور نوع من الآريوسية أكثر تطرُّفاً!! هذا الحزب الآريوسي المتطرِّف نادى بأن الابن ليس فقط غير مساوٍ للآب أو **مشابه** للآب في الجوهر، ولكنه مختلف تماماً عن الآب في الجوهر، واستعملوا الكلمة اليونانية المضادة ἀνόμοιος وأُطلِق عليهم اسم ''الأنوميون''.

٢. قام حزب آخر مضاد بقيادة باسيليوس الصغير أسقف أنقرة - بعد وفاة مارسيللوس - وجدَّد الكلمة القديمة ''هومويُؤوسيوس'' أي مشابه في الجوهر، وجعل التشابه مطلقاً أي أنه ''تطابق''، وذلك كنوع من التهرُّب من الكلمة المقلقة ''هوموؤوسيوس'' أي مساوٍ في الجوهر. وتكررت مأساة المجامع والقرارات المتعاقبة لمحاولة إرضاء الإمبراطور قنسطنطيوس المتردِّد الذي أقحم نفسه في المجادلات اللاهوتية.

٣. بالرغم من كل هذه المجادلات والمناقشات، ظل القديس أثناسيوس وحيداً تحت الاضطهاد والتشريد متمسِّكاً بإيمان نيقية، في الوقت الذي استسلم فيه كل أساقفة الغرب، وبالطبع كل أساقفة الشرق للتهديدات والاضطهادات.

٤. جناح اليمين الوسط، أي ''التشبيهيين'' كان من جيل جديد من اللاهوتيين الذين يُنادون بأن الابن مشابه للآب في كل شيء. وحول هذا الجناح اجتمع الثلاثة الكبادوكيون العِظام: باسيليوس أسقف كبادوكية (قيصرية كبادوكية)؛ وغريغوريوس النزينزي (الناطق بالإلهيات)، وهو كاتب كنسي شيِّق من الطراز الأول وشاعر معروف في التسابيح البيزنطية؛ وغريغوريوس النيسي الشقيق الأصغر لباسيليوس، وكان متصوِّفاً وفيلسوفاً روحانياً.

٥. هذا الحزب نشط بتشجيع من القديس أثناسيوس الذي لم تكن تهمه الكلمة في جمودها الحرفي بقدر ما تهمه وحدة رأي الكنيسة حول المدلول اللاهوتي الذي وراء الكلمة، واستعادة الكنيسة لوحدتها. لذلك اجتهد حزب اليمين المعتدل (الوسط) هذا في جمع العبارات المشتركة بين

أنصار مجمع نيقية وأنصاف الآريوسيين في الشرق مع أصحاب المفاهيم اللاهوتية للثالوث القدوس في الغرب اللاتيني، مما أدّى إلى ظهور العبارة اللاهوتية الحاسمة:

التقلُّب الأريوسي:
"جوهر واحد، ثلاثة أقانيم: μία οὐσία, τρεῖς ὑποστάσεις".

فالقول **بالجوهر الواحد** فقط قد يقود إلى المونارخية أو السابلية؛ والقول بالثلاثة أقانيم فقط بدون التأكيد على وحدة الجوهر قد يؤدِّي إلى الاعتقاد بثلاثة آلهة.

وهكذا جاهد القديس باسيليوس الكبير في مراسلة بطاركة وأساقفة العالم شرقاً وغرباً لكي يزيل كل غموض ناجم عن هذه التعبيرات، ويُقرِّب المعاني ووجهات النظر ويشرحها ويوضِّحها؛ مبتدئاً بالقديس أثناسيوس الرسولي الذي كان وقتئذ شيخاً متقدِّماً في الأيام، والذي شجَّعه على ذلك، ثم أسقف روما داماسوس.

وقد رأى القديس أثناسيوس في أواخر أيامه بوادر الاتفاق وبشائر الإجماع على الإيمان الواحد، ولكنه تنيح عام ٣٧٣ وله من العمر ٧٥ عاماً. واستكمل القديس باسيليوس الكبير المسيرة، ولكنه لم يَرَ أيضاً النصرة النهائية لإيمان نيقية، إذ تنيح أول يناير سنة ٣٧٩. ولكن قبل نياحته كان قد انعقد مجمع في أنطاكية من ١٥٣ أسقفاً شرقياً مع قادة حركة الأرثوذكسية الجديدة، واتفقوا على الصيغة اللاهوتية المقبولة لدى كنيسة الإسكندرية وكنيسة روما.

انتصار الأرثوذكسية

(المجمع المسكوني الثاني بالقسطنطينية سنة ٣٨١م)

الموقف الكنسي:

كان مجمع نيقية - كما رأينا - في حقيقته مُفجِّراً للصراعات التي ظهرت بعد ذلك بين القديس أثناسيوس ومعارضيه الآريوسيين وأنصاف الآريوسيين. وكان واضحاً منذ البداية أن قسطنطين الكبير سهل الانخداع، وقد صرَّح لآريوس بالعودة من المنفى، بل وبدخوله ثانية إلى الإسكندرية؛ إذ أن ما كان يشغل قسطنطين كإمبراطور هو التوافق والسلام مهما كان الثمن. وفي المقابل، لم يكن من السهل خداع القديس أثناسيوس، إذ كان ثابتاً على مبدأ نيقية مهما كان الثمن. وهكذا حدث التعارُض بين القطبين: الكنيسة والدولة، الأسقف والإمبراطور. كما صار واضحاً أمام قسطنطين أن أثناسيوس له أعداء كثيرون: أنصار ملاتيوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط)، والآريوسيون، وأنصاف الآريوسيين؛ والكل قد تحالفوا ضده. ولم يكن هناك أمام قسطنطين، في سبيل الوصول إلى الاستقرار والسلام في البلاد، إلاَّ نفي القديس أثناسيوس دون عزله عن كرسيه.

ورغم ذلك بَقِيَ الشعب وفيّاً لأسقفه، حتى أنه لم يسمح بدخول آريوس إلى الإسكندرية، رغم التعليمات الإمبراطورية، ورغم أن أثناسيوس كان منفياً في أقاصي شمال غرب أوروبا - تريف في بلجيكا حالياً.

بدعة أبوليناريوس:

أبوليناريوس هذا كان أسقف اللاذقية ببلاد الشام، وكان من المتحمسين جداً لقرارات مجمع نيقية. ولكن هذا الحماس قاده للتطرُّف والخوف من الثنائية في أقنوم الكلمة المتجسِّد.

والسؤال الذي كان يتبادر إلى ذهنه: كيف يمكن أن تلتحم الشخصية الإنسانية في المسيح مع لاهوته؟ هنا اتَّجه أبوليناريوس إلى فلسفة أفلاطون التي تُعلِّم أن عناصر الشخصية الإنسانية تحتوي

على: جسد، ونفس، وروح. وفي قراءته لإنجيل القديس يوحنا، أوحت له القراءة السطحية للآية: «والكلمة صار جسداً»، أن المسيح كان له فعلاً جسدٌ؛ ولكن عِوَضاً عن النفس الإنسانية التي للناسوت، حلَّ اللاهوت "**اللوغوس**" محلها. وبينما كان آريوس يعتقد أن المسيح أقل درجة من الله وأعلى مرتبة من الإنسان العادي؛ نادى أبوليناريوس أن المسيح هو إله كامل، وفي آنٍ واحد هو إنسان يشبه البشر، ولكنه ـ في الحقيقة ـ ليس بشراً مثلنا تماماً. وهكذا أصبحت بشرية المسيح أو "الناسوت" في المسيح ـ بحسب اعتقاد أبوليناريوس ـ ناقصاً "العقل" أو "النفس العاقلة".

وفي الحقيقة، فإن كل انتقاص من بشرية المسيح ـ أو الناسوت ـ هو انتقاص من التجسُّد، لأن بشرية المسيح هي هي طبيعتنا البشرية تماماً ما خلا الخطية وحدها.

هذه التعاليم انتشرت في الكنيسة أثناء غياب البابا أثناسيوس، الذي بمجرد أن عاد من منفاه سنة ٣٦٢م (بعد موت الإمبراطور قنسطنطيوس)، عقد مجمعاً في الإسكندرية سنة ٣٦٢، ودان هذه التعاليم الغريبة دون أن يذكر اسم أبوليناريوس صراحةً. وكذلك عُقد مجمع في روما سنة ٣٧٧، وأيضاً انعقد مجمع آخر في أنطاكية سنة ٣٧٩ لمجابهة هذه البدعة. وواضح طبعاً أن مجمع روما ومجمع أنطاكية انعقدا بناء على رسائل القديس أثناسيوس المجمعية السابقة التي أرسلها إلى أسقفَي المدينتين، حيث اعتاد أساقفة الكراسي الرسولية تبادُل الرسائل كلَّما جدَّت أمور أو مشاكل تجابه الكنيسة.

بدعة مقدونيوس بطريرك القسطنطينية:

١ ـ لمدة أربعين سنة سادت الآريوسية، بتفرُّعاتها المختلفة وتخريجاتها المتنوعة، على القسطنطينية عاصمة العالم الجديدة أو روما الجديدة (كما كان يُطلق عليها). فالهرطقة ـ مثل أي مرض عضوي ـ سريعة العدوى والانتشار إن لم تُجابَه وتُقاوَم. فالهرطقة الآريوسية حصرت اللاهوت وقصرته على الله الآب وحده، وادَّعت أن الابن والروح القدس مخلوقان؛ أو بصيغة آريوسية أخرى، يكون الابن هو بكر أعمال خلقة الآب، وبالتالي فإن الروح القدس هو بكر أعمال الابن. ولذلك يعتقد الآريوسيون أن نسبة الروح القدس للابن كنسبة الابن للآب.

وقد مهَّد أنصاف الآريوسيين لهذه الهرطقة، إذ رفعوا كرامة الابن في تمسُّكهم بالتشابه الكامل بين الآب والابن من كل الوجوه، ولكنهم ظلوا متمسكين باصطلاح التشابُه في الجوهر "هوموِيُوسيوس"، رافضين اصطلاح المساواة في الجوهر "هوموؤوسيوس".

ولما نُصِّب مقدونيوس بطريركاً للقسطنطينية في حُكْم الإمبراطور الآريوسي قنسطنطيوس، وكان نصف آريوسي، رفض أن يمدَّ الكرامة والمجد اللتين للابن إلى الروح القدس، وخاصة أن قانون مجمع نيقية توقَّف عند: "نؤمن بالروح القدس"، ولم يتوسع في الشرح، لأنه على حدِّ تعبير البابا أثناسيوس: "كان الروح القدس غير محتاج لشرح، لأن الجميع كانوا على اتفاق بخصوصه، ولم يختلف عليه أحد".

٢ – ولكن للأسف وصلت إلى القديس أثناسيوس – في منفاه – رسائل من الأسقف سيرابيون صديقه وأسقف تميّ، يُخبره فيها بالتعاليم الغريبة التي شاعت في الكنيسة، مما سبب حزناً شديداً للقديس أثناسيوس: "فالبعض بسبب نفورهم من التجديف على ابن الله تركوا الآريوسية. ورغم ذلك يدعون الروح القدس خليقة وأحد الأرواح الخالقة (حسب قول الأسقف سيرابيون عن التعاليم الغريبة)".

لذلك لما أُتيحت للقديس أثناسيوس الفرصة للعودة إلى الإسكندرية سنة ٣٦٢، قرَّر مناقشة هذه التعاليم ودحضها في مجمع بالإسكندرية، موضِّحاً صلتها بالآريوسية باعتبار أن أصل هذا التجديف على الروح القدس منشأه الآريوسية نفسها. وكتب بسبب هذه البدعة رسائل مجمعية لأساقفة العالم مؤكِّداً أن الروح القدس من نفس جوهر الآب والابن.

وقد أوضح القديس أثناسيوس في رسائله الثلاثة عن الروح القدس بعض النقاط التالية[1]:

+ إن علاقة الابن بالروح القدس توضَّحت ضمن قانون مجمع نيقية، أما علاقة الروح القدس بالابن فهي قائمة بوضوح في الأسفار المقدسة. فإن كان الابن مساوياً للآب في الجوهر، فإن التساوي في الجوهر "هوموؤوسيوس" بالنسبة للروح القدس أيضاً هو نتيجة حتمية.

+ الروح القدس هو روح الابن وله نفس الاتحاد والوحدة معه كما للابن مع الآب. فإذا كان الابن غير مخلوق يصبح من المستحيل أن يكون الروح القدس مخلوقاً.

+ إن كان من المستحيل أن نفصل الروح القدس عن الابن؛ فإن اعتبار الروح القدس مخلوق – بحسب هرطقة مقدونيوس – يكون ذلك بمثابة إدخال طبيعة غريبة على الثالوث القدوس، وبهذا

(١) انظر كتاب: "القديس أثناسيوس الرسولي"، للأب متى المسكين، الطبعة الثالثة: ٢٠٠٨، صفحة ٢٩٣،٢٩٤.

تُهدَم عقيدة الثالوث المساوي في الجوهر.

+ الثالوث القدوس هو الله الواحد، وهو غير منقسم بل منسجم ومتحد، وبالتالي فإن الحياة والمواهب التي يمنحها الروح القدس تجعله غير مخلوق بل إلهاً.

+ الروح القدس ليس ابناً، ولكنه "**منبثق**" من الآب. فالآب يُسمَّى دائماً آب، والابن هو دائماً ابن، والروح القدس يُدعى دائماً الروح القدس.

+ كل الأشياء التي للآب هي أيضاً للابن، لذلك فالأمور التي يهبها الابن في الروح القدس هي عطايا الآب، **وهي مُعطاة من الآب بالابن في الروح القدس.**

+ وكما أن الابن هو صورة الآب، فإن الروح القدس هو صورة الابن. وقيل في إنجيل القديس يوحنا إن الروح القدس ينبثق من الآب (يو ١٥:٢٦)، لأنه يُشرق ويُرسَل ويُعطَى بواسطة اللوغوس (الكلمة) الذي هو من الآب. فالروح القدس ليس غريباً عن الله.

+ لأن الابن من الآب، لذلك فهو من نفس الجوهر الذي للآب. وبالتالي الروح القدس هو من نفس جوهر الآب، وهو من ذات لاهوت الآب، وفيه يكمل الثالوث.

هذا هو التقليد القديم وإيمان الكنيسة الجامعة المسلَّم من الرب: «اذهبوا وتَلْمِذوا جميع الأمم، وعمِّدوهم **باسم الآب والابن والروح القدس**» (مت ٢٨:١٩).

الإمبراطور ثيئودوسيوس الكبير، والآريوسية:

١ - كانت هذه هي صورة الكنيسة بعد اختلال وتفكُّك أسرة قسطنطين الكبير في أواخر أيامها. وعندما نادى الضباط والجنود سنة ٣٧٩ بالقائد الأسباني المولد والنيقاوي المعتقد ثيئودوسيوس إمبراطوراً للدولة الرومانية، كان عليه أن يستعيد توحيد الشعب المبلبل بسبب كثرة البدع.

٢ - أصدر ثيئودوسيوس قانوناً إلزامياً سنة ٣٨٠ يفرض على جميع الأساقفة والشعب اعتناق قانون إيمان نيقية أو الإنذار بالطرد والنفي للمخالفين. وحتى يُعطي لمرسومه هذا قوة القانون الكنسي والسلطة الدينية، أوصى بعقد مجمع مسكوني في مايو سنة ٣٨١ في مدينة القسطنطينية، حضره ١٥٠ أسقفاً، وهم الذين استمروا على كراسيهم بعد طرد الآريوسيين والمبتدعين. ولم يحضر

هذا المجمع أي أسقف من أساقفة الغرب، ولم يُرسل أسقف روما مندوبين عنه مثلما حدث في مجمع نيقية.

٣ - ترأَّس هذا المجمع **ملاتيوس أسقف أنطاكية** وأكبر الحاضرين سناً، ولكنه تنيَّح أثناء انعقاد جلسات المجمع، فحل محلَّه نكتاريوس بطريرك القسطنطينية. واشتهر هذا المجمع بأن كثيرين مِمَّن حضروه كان لهم اعتبار عظيم الشأن في الكنيسة. ومنهم على سبيل المثال: القديس كيرلس أسقف أورشليم المعروف بعظاته للموعوظين؛ والقديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات، وكان قد عُيِّن أسقفاً للقسطنطينية، ولكنه تنازل عن هذه الأسقفية السامية لنكتاريوس بسبب وجود معارضة في المجمع، لأنه كان منتقلاً من أسقفيته الأصلية ''سازيما'' إلى أسقفية ''القسطنطينية'' بدلاً من أسقفها الهرطوقي مقدونيوس.

وبينما كانت البدع المختلفة مثل الآريوسية هي السائدة على شعب مدينة القسطنطينية، كان غريغوريوس الناطق بالإلهيات يُعلِّم ويعظ في الجماعة الصغيرة الباقية على إيمان نيقية لمدة سنتين في كنيسة صغيرة أو بيت تحوَّل إلى كنيسة باسم الأنستاسيا ''القيامة''، حتى انتصر الإيمان في القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية، وصارت الكاتدرائية الكبيرة تمتلئ بالسامعين من مختلف الهرطقات الذين تحوَّلوا إلى الإيمان المستقيم، مما كان له أكبر الأثر في تثبيت عقيدة الثالوث القدوس. وبسبب مقدرة غريغوريوس الفائقة في التعبير عن الثالوث القدوس في عظاته التي ألقاها في القسطنطينية، أُطلق عليه لقب ''الثيئولوغوس'' أي ''الناطق بالإلهيات''، أو ''اللاهوتي''، وهو نفس اللقب الذي تلقَّب به القديس يوحنا الإنجيلي.

وحضر من كنيسة الإسكندرية البابا تيموثاوس أسقفها، وهو تلميذ القديس أثناسيوس الرسولي الذي كشف وفضح ادِّعاء المرأة الشريرة التي ادَّعت على القديس أثناسيوس أنه أفسد عفتها، وذلك أثناء انعقاد مجمع صور سنة ٣٣٥م ضد القديس أثناسيوس.

٤ - في هذا المجمع أُضيفت بعض الشروحات على عبارات قانون مجمع نيقية. وباعتراف آباء المجمع، فإن العقيدة الأرثوذكسية لا تحتاج بعد نيقية إلى إضافة، لأن العقيدة راسخة. ولكن بمقارنة بسيطة نجد أن بعض العبارات قد أُضيفت لزيادة الشرح، وذلك ردّاً على الهرطقات التي كانت قد شاعت آنئذٍ وتكاثرت. وأهم هذه الإضافات أو الشروحات هو ما يتعلَّق بأقنوم الروح القدس:

[... الرب المحيي المنبثق من الآب. نسجد له ونمجِّده مع الآب والابن (وهذه العبارة تعني

المساواة في الجوهر، لأن الأقانيم الثلاثة هي من جوهر واحد مستحق العبادة والسجود والتمجيد)، الناطق في الأنبياء، وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية. ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا. وننتظر قيامة الأموات، وحياة الدهر الآتي، آمين].

وقد تبنَّت الكنيسة الغربية هذا القانون عينه - رغم عدم تمثيلها في مجمع القسطنطينية - إلاَّ أنها مع تعاقُب السنين أضافت كلمة "والابن" بعد "منبثق من الآب"، وهي الإضافة التي قررها مجمع محلي في الكنيسة اللاتينية الغربية في توليدو بأسبانيا سنة ٥٨٩.

٥- وبعد دحض مجمع القسطنطينية لهرطقة مقدونيوس (الذي تسمَّى في المجمع "عدو الروح القدس") وهرطقة أبوليناريوس (الذي نادى بأن اللاهوت في المسيح حلَّ محل النفس الإنسانية فيه)، أصدر هذا المجمع سبعة قوانين، ومن أهمها إعطاء القسطنطينية المرتبة الثانية بعد روما بالنسبة لبقية الكنائس الرسولية. وهذا التعديل كان سبب احتجاج من كنائس الغرب (روما) ومن كنيسة الإسكندرية - على وجه الخصوص - لأن الكنائس التي تعامل معها مجمع نيقية كانت كنائس ذات تقليد رسولي راسخ، وهي: كنيسة روما (القديسان بطرس وبولس)، كنيسة الإسكندرية (القديس مرقس)، كنيسة أنطاكية (القديس بطرس)، وكنيسة أورشليم (القديس يعقوب). أما القسطنطينية فقد وجدت مَنْ يُضفي عليها الصفة الرسولية ككرسي رسولي؛ إذ كان البعض يقول بأن القديس أندراوس الرسول كرز فيها، والبعض الآخر يُنادي بأن كرسي القديس يوحنا الإنجيلي في أفسس انتقل إلى عاصمة الإمبراطورية... وهكذا.

بداية الأزمات بين الإسكندرية والقسطنطينية:

كانت الإسكندرية منذ العصر المسيحي الأول تتمتع بمركز الامتياز بين الكراسي الرسولية في الشرق بسبب موقعها الجغرافي، ومركزها الحضاري، وريادتها في العلوم اللاهوتية، حتى أن البعض يُشبِّهونها بأسقفية روما في الغرب.

لذلك فقد صار هذا الوضع بالنسبة لكنيسة الإسكندرية شبه قانوني، أو صار أمراً متعارَفاً عليه بعدما قرر مجمع نيقية المسكوني الأول مسئولية كنيسة الإسكندرية في تحديد عيد الفصح، وكذلك تبادُل الرسائل مع أساقفة العالم حول هذا الموضوع. بالإضافة إلى جهاد وكفاح القديس أثناسيوس وثباته على مبادئ مجمع نيقية ومجابهته للآريوسية.

نظراً لكل هذه الاعتبارات، فإنه لم يكن من السهل على كنيسة الإسكندرية - بصفة خاصة - قبول تقدُّم القسطنطينية للمرتبة الثانية بالنسبة للكنائس التي لها أساس رسولي، وبالتالي تأخُّرها هي إلى المرتبة الثالثة. ولكن مع مرور الأيام، وحسماً للمجادلات العقيمة، قبلت كنيسة الإسكندرية بالأمر الواقع، واستمرت على ريادتها في العلوم اللاهوتية، ويقظتها في مجابهة الهرطقات التي سرعان ما كانت تظهر بين الحين والآخر.

الرهبنة القبطية

١. نشأتها

رغم حدَّة المداولات وعنف الحوارات وشدة المناقشات حول لاهوت الآب والابن والروح القدس، والتي بلغت حدَّ المطاردة والاضطهاد إلى الموت؛ إلا أن الله لم يكفَّ عن العمل لإخصاب الكنيسة بواحدة من ثماره العُظمى - ربما الختامية - وهي الرهبنة، حتى تستكمل هيكلها التنظيمي. وكما عمل الروح القدس في مدينة الإسكندرية ليبدأ في مدرستها اللاهوتية "اللاهوت المسيحي المنهجي"، هكذا أيضاً اختار صعيد مصر ليبدأ فيه "الرهبنة المسيحية". الأمر الذي يثير تعجُّبنا أن الذي صارع وجاهد لأجل لاهوت الابن المساوي للآب في الجوهر، وهو القديس أثناسيوس الرسولي، هو بعينه الذي قدَّم للعالم المسيحي سنة ٣٥٧م سيرة حياة مؤسس الرهبنة وأبي الرهبان "القديس أنطونيوس"، حتى يطبع في الذهن الروحي للكنيسة أن اللاهوت المستقيم هو ثمرة النسك القويم.

نظرة مجملة لحركة الروح القدس عَبْر الثلاثة القرون الماضية:

علينا أن نرتفع بالنظر العقلي لاستجماع الصورة العامة للمسيحية لكي تُعطينا الخلفية الصحيحة لهذا التطور الختامي للكنيسة. فالرهبنة ليست طفرة فجائية باغتت العالم، بل هي الخطوة الأخيرة للتدبيرات الإلهية التي خطَّطها الله لأجل ملكوت السموات في حلوله على الأرض ليملأ المسكونة، هي: "... آخر مرحلة من مراحل الشهادة للإيمان المسيحي **الحار الملتهب** الذي استقر في الكنيسة بفعل الروح القدس... هي صورة حيَّة للشهادة للإيمان المسيحي تُمثِّل، أو تُعيد إلى الذهن، بدء الانفعال للإيمان لما حلَّ الروح القدس يوم الخمسين، حينما ترك **كل** إنسان **كل** ماله وأهله وبيته، وانضم للرسل - كوصية الرب أصلاً - وتمثِّل أيضاً أو تعيد إلى الذهن الانفعال الإيماني للاستشهاد... هي **نموذج للحياة المسيحية الأصيلة** حسب الوصية تماماً،

ليست نموذجاً أعلى وإنما نموذجاً صادقاً"(١).

ألوهية الله، ببساطة وعلى المستوى العملي، تعني بالنسبة للإنسان العادي: ملكوت ومملكة؛ ملكوت يملك عليه الله، ومملكة رعاياها هم بنو البشر. ففي القرن الأول المسيحي استُعلِن هذا الملكوت في التلاميذ والرسل بالاستجابة السريعة لدعوة المسيح التي نطق بها القديس بطرس الرسول: «هوذا قد تركنا كل شيء وتبعناك» (مت ١٩:٢٧)(٢). وكان هذا أول إعلان من إنسان يحيا على الأرض ويُعلن انعتاقه من عبودية اللحم والدم والأسرة والتراب والممتلكات لكي يصير تابعاً لله. ربما ظهرت في العهد القديم دعوات فردية وانطلاقات محدودة لشخصيات فريدة نادرة مثل ملكيصادق وإبراهيم أبي الآباء. لكن العالم والمسكونة بأسرها كانت تحت عبودية الخطية، وبالتالي مستعبدة لرئيس هذا العالم وسلطان الظلمة.

ما قاله القديس بطرس باسم التلاميذ للمسيح بدأ تحقيقه بصورة إعجازية بعد حلول الروح القدس، ليرسم في القلوب صورة هذا الملكوت وهذه الاستجابة الواعية في ترك كل شيء والتبعية للرب، والانتباه للمشيئة الإلهية والسير بمقتضاها بملء الفكر والقلب والقدرة والقوة. وهكذا تكوَّنت في كنيسة القرن الأول النواة البدائية لملكوت الله، ووُلِدَت الكنيسة حاملةً صورة هذا الملكوت. ولا ننسى أنه دخل ضمناً في تأسيسها نظام العذارى المتبتلات والأرامل المكرَّسات.

النور الذي أضاء في الظلمة:

معروف بحسب تعليم الإنجيل والعهد الجديد أن الخطية تدخل الإنسان من خلال العقل "νοῦς" في المفهوم اليوناني، ويقابله "القلب" في المفهوم الشرقي اليهودي(٣): «إله هذا الدهر أعمى أذهان τὰ νοήματα غير المؤمنين» (٢كو ٤:٣). لذلك كانت "إنارة" هذه الظلمة في

---

(١) الأب متى المسكين، "القديس أنطونيوس ناسك إنجيلي"، ص ١٩، ٢٠.

(٢) يُلاحظ القارئ الواعي أن تعقيب القديس بطرس هنا جاء بعد جواب المسيح على سؤال الشاب الغني عن الحياة الأبدية أي عن ملكوت السموات (قارن مت ١٩:١٦-٢٢؛ مر ١٠:١٧-٢٨).

(٣) وحتى خطية حواء جاءت في السبعينية هكذا: «فرأت المرأة أن الشجرة... شهية للنظر (العقلي) κατανοῆσαι = contemplation» (تك ٣:٧). وكل هذه المصطلحات اليونانية مشتقة من الأصل νοῦς = العقل أو الذهن.

الإنسان المقبل إلى المسيحية تتم في المعمودية بواسطة الروح القدس: «الله الذي قال أن **يُشرق نور** من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا **لإنارة** معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح» (٢كو ٤:٦). فمنذ عصر الرسل كانت المعمودية تُدعى "استنارة"(٤). وتكونت الكنيسة من أعضاء باعوا الأملاك والمقتنيات: «ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له» (أع ٢:٤٥؛ ٤:٣٢).

وعلى الجانب الآخر؛ كانت الهرطقات عبارة عن محاولات من رئيس سلطان الظلمة أن يحتفظ لنفسه بجحور يختبئ فيها ليُوجِّه منها ضرباته ضد الكنيسة المستنيرة بالروح. فكان عمل الآباء في القرون التالية هو كشف هذه الجحور وتعريتها للنور حتى تهرب منها الذئاب والشياطين(٥).

والخطوة الأخيرة هي: الخروج من العالم، بمعنى الخروج من مملكة الظلمة وطرح نير رئيس هذا العالم. فالمعمودية هي: "موت عن العالم والخطية بالدفن مع المسيح؛ والخروج من ماء المعمودية هو القيامة للحياة الأبدية"، «أم تجهلون أننا كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح، اعتمدنا لموته، فدُفِنَّا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أُقيم المسيح من الأموات، بمجد الآب، هكذا نسلك نحن أيضاً في جِدَّة الحياة» (رو ٦:٣،٤). وهذا الموضوع بالنسبة للمؤمنين لم يكن مجازاً ولا رمزاً لشيء، بل حقيقة واقعة يحياها المعمَّد بصدق، حتى أن الذين كانوا يتقدَّمون للاستشهاد، في القرنين الثالث والرابع من التاريخ الكنسي، كانوا في الحقيقة يفرحون بتكميل معموديتهم وتحقيقها على مستوى الواقع المحسوس والملموس. لذلك اعتبر آباء الكنيسة أن الجرأة في مواجهة الموت حبّاً في الله، هي علامة لا تحتاج لبرهان على وجود روح القيامة الكامنة في الساعين إلى الاستشهاد. روح القيامة هي معجزة المسيحية الأولى: «إن كان الموتى لا يقومون، فلا يكون المسيح قد قام. وإن لم يكن المسيح قد قام، فباطل إيمانكم. أنتم بعد في خطاياكم (ما زلتم تحت سلطان الظلمة)... إني بافتخاركم الذي لي في يسوع المسيح ربنا، **أموت كل يوم**» (١كو ١٥:١٦،١٧،٣١). "فالاستشهاد صار إنجيلاً مقروءاً في صميم الطبيعة البشرية كفعل إلهي بشري فوق الطبيعة البشرية، لكن متحد بها".

---

(٤) قارن مثلاً: عب ٦:٤؛ ١٠:٣٢.

(٥) «لا تشتركوا في أعمال الظلمة غير المثمرة، بل بالحرى وبِّخوها... لكن الكل إذا توبِّخ يُظهَرُ بالنور. لأن كل ما أُظهِرَ فهو نور» (أف ٥:١١،١٣).

عصر السلام ومرسوم قسطنطين:

بحلول عصر السلام واعتناق الدولة الرومانية للمسيحية، صارت الكنيسة موضع الترحاب في الدولة. فبدأت تحس بالراحة والاسترخاء في كنف السلطة الحاكمة. ولم تعدم الكنيسة مَنْ تقدَّم من رجالها لينضم إلى الحاشية الملكية والبلاط الإمبراطوري؛ فانبهروا بالإكرام المقدَّم لهم من الحُكّام والولاة. وكان ردُّ الفعل التلقائي هو محاولة بعض رجال الكنيسة أن يُضفوا على الدولة والحضارة الرومانية المعاصرة بعد قبولها الديانة المسيحية، أُبَّهة أورشليم السمائية، ويُلبسوها بهاء صهيون الإسخاتولوجي (الأُخروي) بعد فيضان التنعُّم والرفاهية. وهكذا هدأت الأعصاب المتوترة والمشدودة نحو الكمال المسيحي.

تحت مظلة هذه الظروف الجديدة يمكننا إدراك معنى الهروب من العالم الذي يقصده القديس يوحنا الإنجيلي: «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم... **كل ما في العالم**: شهوة الجسد، وشهوة العيون، وتعظُّم المعيشة... **العالم كله** قد وُضِعَ في الشرير» (١يو ٢: ١٥، ١٦؛ ٥: ١٩).

كانت هذه هي نقطة الانطلاق الصحيحة التي وضعها الروح القدس في قلب ابن كنيسة مصر القديس أنطونيوس، حيث: "قدَّم نفسه كل يوم شهيداً إزاء ضميره، محارِباً في معارك الإيمان الخفية، إذ **كان يُمارس النسك بغيرة فائقة**"[٦].

الوحدة (أي الاعتزال عن العالم)، **والنسك** (عدم التلذُّذ بالمآكل والمشارب)، **ومطالعة الكتب المقدسة** (بمعنى الهذيذ، الصلاة، التسبيح بالمزامير)، هي علامات تضمن للسالك في طريق الرهبنة بلوغ الكمال المسيحي. وكلها أمور ليست غريبة عن طبيعتنا بل مغروسة في خلقتنا الأولى قبل السقوط واستَعَدْناها مضاعفة بعد المعمودية:

> [... إذا أدَّت النفس وظيفتها الروحية في حالة طبيعية، نشأت الفضيلة (أي الكمال المسيحي)، لأن تقويم النفس يتضمن جعل العقل (أو القلب بالمفهوم الشرقي) في حالته الطبيعية كما خُلق... فإننا إن لبثنا كما خُلقنا صرنا في حالة الفضيلة... وكما أننا قَبِلنا النفس وديعة (أي أمانة)، فلنحفظها للرب لكي يُدرك أن عمله هو باقٍ بعينه كما خلقه][٧].

---

(٦) الأب متى المسكين، "القديس أنطونيوس ناسك إنجيلي"، ص ١٩؛ البابا أثناسيوس، "حياة القديس أنطونيوس"، فصل ٤٧.

(٧) البابا أثناسيوس، "حياة القديس أنطونيوس"، فصل ٢٠.

قد توجد نماذج تتشابه مع الرهبنة المسيحية، سواء في الهند أو التبت (في أواسط آسيا) أو الصين؛ بل وربما بين السكان الأصليين في الأمريكتين (الهنود الحمر). لكن الملفت للنظر أنها كانت غائبة تماماً عن شعوب وحضارات منطقة البحر الأبيض. وحاول بعض النُّقَّاد والدارسين إيجاد صلة بين الرهبنة والأسينيين من سكان يهود فلسطين، والثيرابيوطا في مستعمراتهم حول بحيرة مريوط جنوب الإسكندرية؛ لكن هذه وتلك كانت حركات محدودة للغاية منعدمة الانتشار والشعبية التي ميَّزت الحركة الرهبانية المصرية التي ظهرت في صعيد مصر، وفي وقت وجيز للغاية امتدت إلى أقاليم ومدن كاملة. كما يذكر المؤرخ روفينوس أن أسقف مدينة أُكسيرنخوس (البهنسا) كان يقول إن عشرة آلاف راهب كانوا تحت رعايته[٨]. ومن مصر انتشرت الرهبنة بسرعة مذهلة إلى أقطار العالم المتمدن في القرنين الخامس والسادس.

وقد يرى البعض في الرهبنة هروباً من المجتمع، وسُكنى البراري والصحاري كأمرٍ مضادٍّ للطبيعة البشرية التي لها الصفة الاجتماعية بحكم تكوينها؛ لكن لا ننسى أن اختيار الراهب للعزلة له أسبابه الروحية والتقليدية الصرفة، وعزوفه عن المجتمعات له خلفياته الإنجيلية الصادقة كما شرحنا في بداية الفصل.

الخطوط الرئيسية لحياة القديس أنطونيوس:

١ - نعلم من التاريخ أن هناك اضطهادين مروِّعين[٩] ثارا في النصف الثاني من القرن الثالث: الأول بين سنتي ٢٥٣،٢٤٨ في عصر داكيوس[١٠]؛ والثاني في عصر فاليريان بين سنتي ٢٦٠،٢٥٧[١١]. وبعد ذلك تمتَّعت الكنيسة بالسلام حتى سنة ٣٠٠م حينما بدأ دقلديانوس مراسيمه ضد الكنائس والعبادة[١٢]. وقد وُلِد القديس أنطونيوس سنة ٢٥١م في عصر البابا ديونيسيوس الكبير البطريرك الـ ١٤، في قرية كوما (حالياً قمن العروس) على الشاطئ الغربي للنيل في منتصف المسافة بين الجيزة وبني سويف.

---

(8) Historia Monachorum in Aegypto: on Oxyrhinchus.

(٩) راجع مجلة مرقس، عدد سبتمبر ١٩٩٥، ص ٢١.

(١٠) يذكر يوسابيوس القيصري أن كثيرين هربوا من هذا الاضطهاد إلى الصحراء ولم يعودوا منها (*H.E.* VI, 24).

(١١) راجع مجلة مرقس، عدد نوفمبر ١٩٩٥، ص ٢١.

(١٢) راجع مجلة مرقس، عدد يناير ١٩٩٦، ص ٣٥.

كانت أسرته تملك ٣٠٠ فدان من أجود الأراضي الزراعية في مصر الوسطى، وكانت له أخت أصغر منه، أما هو فكان يُصاحب والديه في ترددهما على كنيسة قريته. وعلى القارئ أن يتصوَّر أننا في سنة ٢٦٠م تقريباً، وفي قرية صغيرة فيها كنيسة يُقرأ فيها الإنجيل باللغة القبطية؛ وهذا يعني مدى انتشار المسيحية وبلوغها أعماق ريف مصر، وليس فقط في المدن اليونانية الكبرى في الصعيد، كما يبدو لبعض المؤرخين الأجانب.

كذلك نستنتج أن القديس أنطونيوس تعلَّم القراءة والكتابة بلغته الوطنية أي القبطية، لأنه كان دائماً يوصي تلاميذه ورهبانه بمطالعة الأسفار الإلهية؛ إذ من غير المعقول أن يوصي بهذه الوصية دون أن يعرف هو شخصياً قراءة الكتب المقدسة. وهذه النقطة تُصحِّح مفهوم المؤرخين عن حياته أنه كان أُميّاً أو ساذجاً. لكن الحقيقة أنه لم يكن يعرف اللغة اليونانية ولا آدابها أو فنونها حيث أن قريته (كوما) كانت بعيدة عن أية مدينة يونانية كبيرة[١٣] تُمكِّنه من دراسة وإتقان اللغة اليونانية وآدابها.

٢ - توفِّي والد أنطونيوس عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره (حوالي سنة ٢٦٩م). وبعد ستة أشهر سمع في الكنيسة الدعوة الأولى: «إن أردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبِعْ أملاكك وأعطِ الفقراء... وتعالَ اتبعني» (مت ١٩:٢١). فباع أنطونيوس كل ما له وأبقى القليل لمعيشة أخته الصغيرة.

٣ - الدعوة الثانية أتته أيضاً في الكنيسة: «لا تهتموا للغد» (مت ٦:٣٤). فقام أنطونيوس ووزَّع القليل الباقي، وأودع أخته بيتاً للعذارى سنة ٢٧٠م، وتتلمذ لأحد الشيوخ المتوحدين. وكان الاعتزال على حدود القرى للتعبُّد أمراً معروفاً منذ اضطهاد داكيوس سنة ٢٤٨م. وهنا نرى الروح القدس يضع العلامة الثانية للحركة الجديدة: الرهبنة. فهي لا تؤخذ بالدراسة ومطالعة الأسفار المقدسة فقط؛ بل هي حياة تُختبر وتُعاش وتُسلَّم بالتقليد على يد الشيوخ.

---

(١٣) كانت المدن اليونانية في مصر الوسطى هي: ''أرسينو'' (الفيوم) تبعد عن ''كوما'' ٦٠ كيلو متراً، ''هيراكليوبوليس'' (إهناسية المدينة) على مسافة ٥٠ كيلومتراً، ''أُكسيرنخوس'' (البهنسا - محافظة المنيا) على مسافة ١٤٠ كيلو متراً، ''هرموبوليس ماجنا'' (الأشمونين - المنيا) تبعد ٢٥٠ كيلو متراً، ''أنتينوبوليس'' (أنصنا - محافظة المنيا) وكانت وثنية حتى القرن الخامس. فكيف يتعلَّم القديس أنطونيوس اللغة اليونانية؟

٤ ـ وهكذا قضى القديس أنطونيوس خمس عشرة سنة يتعلَّم ويتتلمذ للنسَّاك والمتوحدين. ثم اعتزل في مدافن قديمة في الطرف الغربي لقريته حيث كان موضع التقاء المساحات الخضراء مع الصحراء؛ وهناك كان يخدمه صديق علماني. في هذه الصومعة صارع الشياطين والأرواح الشريرة حسب ما روى القديس أثناسيوس في "سيرة أنطونيوس". ولا ننسى أن الطرف الغربي للقرية كان يُعتبر منذ العصور القديمة مسكناً للأرواح الشريرة[١٤]، والفراعنة اعتبروه مدينة الأموات، فكانت مدافنهم في الجبل الغربي في الأقصر مثلاً: وادي الملوك ووادي الملكات.

٥ ـ لقد اتخذت محاربات الأرواح الشريرة ضد طالبي ملكوت الله مع القديس أنطونيوس نفس الخط العام: أفكار وخيالات وشهوات وإغراءات. وعندما ينتصر عليها تبدأ في ظهورها العلني بالضربات والجلدات والحيوانات المفترسة والوحوش المخيفة لأجل الترويع والإرهاب، حتى أنها انهالت على القديس أنطونيوس بالضرب الموجع وتركته على باب المقبرة بين حيٍّ وميت. هكذا عثر عليه خادمه حينما جاء لافتقاده، **فحمله إلى الكنيسة**، واجتمع حوله أقاربه وأهل قريته. وفي نصف الليل أفاق وطلب من تلميذه أن يُعيده إلى حيث كان، فلما حاول الوقوف لم يستطع الانتصاب. فرقد على الأرض وهو يصيح بالشيطان: "ضرباتك لن تفصلني عن محبة المسيح".

واضح أن مهاجمة الأرواح الشريرة وضرباتهم كانت بقصد إرجاعه إلى بلدته ليكون بين أهله وأقاربه، وهذا ما يتعارض مع النسك بحسب رواية القديس أثناسيوس. فالنسك والعزلة في الحياة الرهبانية هما المقابل **لمحبة المسيح**. ويتضح ذلك في تعاليم القديس أنطونيوس المحفوظة لنا في بستان الرهبان.

ورغم ضعف جسده وما ناله من الشياطين، إلا أنه كان يُعيِّرهم أنه ليس لهم عليه سلطان، إذ أن أصغرهم يستطيع أن يمزِّقه[١٥].

وانتهى هذا الصراع، أو هذه المرحلة، بالنور من السماء الذي عزَّاه وشدَّده بأن الله سيجعل اسمه مشهوراً.

---

(١٤) يذكر بستان الرهبان أن القديس موسى الأسود قوتل بشيطان الزنا قتالاً شديداً، فمضى إلى معلِّمه القس إيسيذوروس، فأخذه وصعد به على سطح الكنيسة وأراه **ناحية الغرب الشياطين الكثيرة** التي تُحارِب السالكين في طريق الملكوت، وناحية الشرق الملائكة والقديسين المحاربين عنهم.

(١٥) القديس أثناسيوس، "حياة القديس أنطونيوس"، ف ٨ ـ ١١.

٢. أنبا أنطونيوس في الجبل الشرقي

بانتهاء مرحلة الترويع والإرهاب التي قادتها الأرواح الشريرة ضد القديس أنطونيوس، ظهر له النور السمائي الذي عزَّاه به الله، وأنبأه بأنه سيجعل اسمه مشهوراً في المسكونة كلها، ثم عَبَر القديس أنطونيوس النيل شرقاً إلى منطقة دير الميمون الحالية. وهناك سكن أحد الحصون الرومانية القديمة التي كانت تُقام لصد غارات البدو والبربر على البلاد حيث كانت فيه بئر مياه(١). واستمر في هذا الحصن متوحداً مدة عشرين سنة حتى عام ٣٠٦م. فاجتمع حوله كثيرون متمثِّلين بسيرته، لكنه لم يهتم بهم في بادئ الأمر، فاقتحموا عليه وحدته في النهاية، وارتضى أن يكون لهم مرشداً وأباً روحياً، وكان عمره حينذاك خمس وخمسين سنة. ومن ثمَّ بدأت الأديرة تنتشر تحت رعايته من بسبير – دير الميمون – حتى أرسينو في الفيوم.

ويعطينا البابا أثناسيوس الرسولي في السيرة التي كتبها عن القديس أنطونيوس عظة تستغرق ربع السيرة، من ف ١٦ – ٢١، تلخِّص المبادئ الرهبانية التي عاش بها القديس وخبراته الروحية؛ تكاد هذه العظة أن تغطِّي كل ما يريد الراهب الساعي للكمال المسيحي أن يعرفه: دعوته، إغراءات الأعداء الأشرار لتحييده عن الطريق، ضعف الشياطين أمام قوة الصلاة والصليب المقدس، كيفية تمييز الأرواح أي موهبة الإفراز.

فالراهب هو الوارث الحقيقي لمرتبة الشهداء في الكنيسة. والكنيسة تمجِّد الشهيد بسبب انتصاره على إبليس وأعوانه من خلال الآلام والإغراءات التي يعرضونها عليه للتخلِّي عن المسيح مقابل الانعتاق من عذابات المضطهدين(٢). أما الراهب فعليه أن يموت كل يوم في معركة طويلة تستغرق الحياة بأكملها. هكذا عاش القديس أنطونيوس عندما لم يَنَلْ بُغْيته في الاستشهاد: ”فعاد إلى صومعته مرتدياً لباس النسك أو الاستشهاد اليومي“(٣). فالحياة الرهبانية ميدان صراع، والخصوم الأساسيون فيها هم إبليس والأرواح الشريرة، لذلك يحذِّر القديس أنطونيوس في عظته هذه:

---

(١) نفس هذه المواصفات تنطبق على حصن دير القديس أنبا مقار الحالي.

(٢) انظر قصة الشهيدة بربتوا: ”قصص مسيحية للحياة“، للأب متى المسكين.

(٣) الأب متى المسكين، ”القديس أنطونيوس ناسك إنجيلي“، ص ١٩؛ القديس أثناسيوس، ”حياة القديس أنطونيوس“ ف ٤٧.

[... إذ نعيش هكذا، فلنأخذ حذرنا كما هو مكتوب: "لنحفظ قلوبنا بكل حرص" (أم ٤:٢٣)، لأن لنا أعداء مروِّعين في غاية الدهاء وهم الأرواح الشريرة، ومصارعتنا هي معهم كقول الرسول] (ف ٢١).

ثم يستطرد في شرح دور الشياطين ضد السالكين في طريق الكمال فيقول: إن الله لم يخلقهم هكذا أشراراً، بل كانوا ملائكة خيِّرين ثم أخطأوا فسقطوا وطُردوا من السماء. لذلك يحسدون كل مَنْ يرونه سالكاً وراء الغبطة والسعادة المذخرة للمؤمنين والتي كانت أصلاً من نصيبهم. ولأجل هذه الغاية يجتهدون في تضليلهم لئلا يصعدوا إلى المراتب التي سقطوا منها[٤]. وهجماتهم تبدأ بالتصورات الشريرة والأفكار، ثم التخويف والإرهاب[٥]، وأخيراً بالمناظر البهية المزيَّفة[٦].

ووسيلة الغلبة عليهم بسيطة وسهلة للغاية: **الصلاة والتمسُّك بالصليب:**

[... ارشموا ذواتكم وبيوتكم (أي قلاليكم)، وصلُّوا، فيختفون (أي تختفي الشياطين)؛ لأنهم جبناء ويخشون علامة صليب ربنا حيث جرَّدهم عليه وفضحهم جهاراً (كو ٢:١٥)][٧].

كذلك من وسائل الغلبة على الشياطين الصوم والمثابرة على الحياة النقية العفيفة:

[... إذ أنها تخشى الصوم والسهر والصلوات، والوداعة، وسكون الراهب، واحتقاره للمال والمجد الباطل، والتواضع، ومحبة المساكين... وفوق كل شيء: التكريس الكامل للمسيح][٨].

هكذا نرى تعاليم القديس أنطونيوس قابلة للتطبيق العملي في الحياة اليومية، مملوءة حكمة وفطنة، تخلو من المبالغات والتهاويل التي تندفع إليها المشاعر الذاتية عن جهالة متخفية في زيٍّ البساطة والسذاجة. وفي تعقيب لأحد المعلِّقين الأجانب الأتقياء الذي لم يستطع أن يخفي إعجابه:

(٤) "حياة القديس أنطونيوس"، ف ٢٢.

(٥) المرجع السابق، ف ٢٣.

(٦) المرجع السابق، ف ٣٩.

(٧) المرجع السابق، ف ٣٥.

(٨) المرجع السابق، ف ٣٠.

[... تعاليمه (أي تعاليم القديس أنطونيوس) بلا شك نقية وبلا لوم، تكشف عن طبيعة سامية سمائية، بلا وَجَل ولا كآبة، بلا روتينية ولا مجاملة ذاتية. الأسطورة عنده مذمومة متقوقعة، ومشحونة بالشعور بالذنب، تخلو من الثقة بالله وترتعب من قوات الشر. كان أنطونيوس بلا ريب خالياً منها، مملوءاً ثقة مقدسة في السلام الإلهي، منشرح الوجه، جسوراً غير هيَّاب][٩].

نزوله الأول إلى الإسكندرية بين سنتي ٣١١، ٣١٣م:

بعدما تخلَّى الإمبراطور جاليريان عن الحكم لابن أخته مكسيمين دايا في نهاية حياته، حاول هذا الأخير تجديد الاضطهاد بصورة أشد وأعنف ضد المصريين[١٠]. فتوجَّه القديس أنطونيوس مع بعض تلاميذه إلى الإسكندرية للاستشهاد، أو على الأقل لتشجيع المعترفين وتعزيتهم. ويا للعجب، كان عمره قد تجاوز الستين سنة!!

ولكن خلال هذه الفترة تعرَّف عليه في الإسكندرية الفتى الغض أثناسيوس الذي كان وقتذاك تلميذاً للبابا ألكسندروس البطريرك الـ ١٩، وكان لا زال ابن خمسة عشر عاماً. لكن السيرة التي دبَّجها عن القديس أنطونيوس تعكس مدى الاندهاش والإعجاب الذي أحس به تجاه هذه الشخصية الروحية المهيبة الممتلئة جسارة. ولا ننسى أن القديس أثناسيوس كتب أولى نشاطاته الأدبية اللاهوتية: "الرسالة إلى الوثنيين" و"تجسُّد الكلمة" سنة ٣١٨م. هل كان ذلك نتيجة رد فعل اللقاء الذي تمَّ بين هذين القطبين العظيمين؟ ربما! لكن الذي لا شكَّ فيه أن شخصية القديس أنطونيوس بقيت منطبعة على قلب البابا أثناسيوس أكثر من ٤٠ سنة إلى أن استودعها كتابه عن سيرته عام ٣٥٧م.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن القديس أنطونيوس نزل ثانية إلى الإسكندرية عام ٣٣٨م لمؤازرة البابا أثناسيوس في كفاحه ضد الآريوسية وكان قد تجاوز الخامسة والثمانين عاماً من عمره.

---

(9) Cardinal Newman, Historical Sketches 2:11.

(١٠) أمر يثير التساؤل: لماذا الاضطهاد ضد المصريين بالذات دون سائر الإمبراطورية الرومانية باتساعها؟؟

عودته للوحدة وذيوع شهرته:

بعد انتهاء الاضطهاد سنة ٣١٣م، عاد القديس أنطونيوس لوحدته وأديرته؛ فقد صار معلِّماً لأديرة بسبير والفيوم، وامتدت شهرته إلى وادي النطرون تحقيقاً للرؤيا التي ظهرت له قبل انتقاله للجبل الشرقي. فيذكر كتاب: "أقوال الآباء" (الأبوفثجماتا باترم): "... حدث مرة أن أنبا أنطونيوس جاء إلى **جبل نتريا** ليفتقد أنبا آمون (أب رهبان نتريا)". وهذا يُظهر مدى التفاهم والمشورة والطاعة الكائنة بين القديس آمون تجاه أب الرهبان أنبا أنطونيوس: "... وبهذه الروح نمت الرهبنة، وتقوَّت الوحدة، وعمرت القفار والجبال، وصارت كجنة الله"[١١]. وكانت هذه الزيارة حوالي سنة ٣٣٥م.

وعن علاقة القديس أنطونيوس أيضاً برهبنة شيهيت، جاء عن القديس مقاريوس في المخطوطة المعروفة عن سيرته:

[حدث أنه بعد ثلاث سنوات (من دخول القديس مقاريوس إلى شيهيت)، فكَّر في نفسه قائلاً: "ها أني قد جئتُ إلى هذا الموضع، **وليس لي أحد يرشدني** إلى سيرة سكان البرية. أقوم الآن وأمضي إلى **الأب أنطونيوس**"، **لأنه كان قد سمع به وهو بعد في مصر**... فلما اجتمع بالشيخ (أنبا أنطونيوس) قَبِلَه بفرح وكشف له أفكاره **كابن لأبيه**... وأن الشيخ وعظه وأيَّده بكلام كثير يليق بزيِّ الرهبنة المقدس، وعرَّفه بقتالات العدو].

وهذه الزيارة حدثت عام ٣٤٣م، وأعقبتها زيارة ثانية بعد عشر سنوات - وكان القديس أنطونيوس قد تعدَّى المائة عام - وكانت لأخذ نصائح للرعاية وقيادة النفوس التي تكاثرت حول القديس مقاريوس، خاصة أن القديس أنطونيوس هو الذي تنبَّأ له بهذه الموهبة. وأيضاً كانت الزيارة للمشورة من أجل بناء بيعة في وسط شيهيت، وسلَّمه في هذه الزيارة الثانية عصا الأُبوَّة والرعاية رمزاً للتدبير الرهباني[١٢]. كما كانت هناك علاقة محبة بين القديس أنطونيوس **والقديس باخوميوس**، واستمرت هذه العلاقة بين القديس أنطونيوس ورهبان الشركة الباخومية في المراسلات

(١١) الأب متى المسكين، "الرهبنة القبطية في عصر أنبا مقار"، الطبعة الثالثة: ١٩٩٥، ص ٤٩، ٥٠.
(١٢) المرجع السابق، ص ٧٠، ٧١.

التي جرت عقب نياحة القديس باخوميوس(١٣).

وهكذا اعتبرت أديرة العالم بأسره أن القديس أنطونيوس هو أب الرهبان على مستوى العالم.

تعمُّقه في البرية الداخلية:

رغم عِظَم المسئوليات - كأب ومرشد لجماعات من الرهبان هذا عددها ومدى اتساعها - فقد تزاحمت على القديس أنطونيوس أيضاً زيارات المرضى والذين بهم أرواح شريرة، بل وزيارات ومراسلات من الحكام والولاة وأصحاب المناصب طالبين المشورة لأجل مشاكل العمل والحكم والسلطان؛ بالإضافة لشكاوى المظلومين والمتضررين ضد أصحاب السلطة، فصارت الضرورة ملحَّة للابتعاد عن الناس والمشاكل والقضايا؛ فأرشده الله إلى البرية الداخلية بأن صاحَبَ إحدى قوافل الجمال، التي كانت وسيلة نقل البضائع بين وادي النيل والبحر الأحمر، في رحلة تستغرق ثلاثة أيام. وعند التقاء جبل القلزم الممتد من جنوبي السويس مع جبال القلالة أو الجلالة، وجد القديس أنطونيوس "وادي العربة" طوله تسعون كيلومتراً وعرضه ثلاثون كيلومتراً، وينتهي عند ساحل البحر الأحمر، فيه نبعان للمياه العذبة: الأول، "عين العرايضة" في منتصف الوادي؛ والثاني، "العين الباردة" بعدها بمقدار عشرين كيلومتراً. وقد كشفت الآثار والتنقيبات الحديثة عن مغارة تعلو "عين العرايضة" في سفح جبل الجلالة، تستغرق ثلثي ساعة مشياً على الأقدام، لكنها تُخفي قاطنها عن أعين المترددين مع القوافل. والمرجَّح أنها هي المغارة التي سكنها القديس أنطونيوس لما تعمَّق في البرية الداخلية(١٤).

أما تاريخ هذا الانتقال، فأنسب الظروف المواتية له هي انتهاء موسم الاضطهادات وتعاطُف الإمبراطور قسطنطين الكبير مع المسيحية عقب انتصاره على زوج شقيقته، أي حوالي عام ٣٢٠م؛ إذ أنه في ظل هذه الظروف الجديدة صار من المتيسر تردُّد الولاة وأصحاب السلطة على القديس أنطونيوس، مما دفعه إلى الانتقال إلى البرية الداخلية.

---

(١٣) "حياة الشركة الباخومية"، تعريب القمص إشعياء ميخائيل، ص ١٢٥-١٢٨.

(١٤) مجلة: "معهد الدراسات القبطية"، عام ١٩٥٨.

نيـــاحتـــه:

لما أعلم الله القديس أنطونيوس بقرب نياحته، وكان قد بلغ من العمر ١٠٥ أعوام، نزل القديس إلى جبل بسبير قرب النيل - حيث ما زالت في دير الميمون كنيسة أثرية تحمل اسمه - وودَّع الإخوة ورجع ثانية إلى البرية الداخلية. ولم يُبقِ معه سوى تلميذيه مكاريوس وأماثاس، وأوصاهما:

١. أن يُدفَن جسده بدون تحنيط كما هي عادة الفراعنة واليونانيين الوثنيين، وعلى أن لا يعرف أحد مكان دفنه.
٢. يُعطَى رداؤه الجلدي والعباءة للقديس أثناسيوس الرسولي، والجلد الثاني لتلميذه سيرابيون أسقف تميّ وصاحب الليتورجية المعروفة باسمه.
٣. المسوح الليف التي كان يرتديها بصفة دائمة، تركها لتلميذيه.

وكان ذلك في ٢٢ طوبة عام ٧٢ للشهداء الموافق ١٧ يناير ٣٥٦م.

مكانة القديس أنطونيوس في الكنيسة:

إن مكانة القديس أنطونيوس ليست في أعماله ومعجزاته بقدر ما هي في تواضعه وبساطته وحكمته، ثم احتقاره لأباطيل العالم كما يظهر من مراسلاته القليلة مع الملوك والرؤساء في هذا العالم رغم شهرته التي ذاعت إلى أقاصي المسكونة وهو بعد ما زال موجوداً.

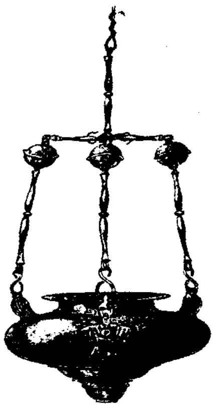
فحينما اتجه إلى البراري كان سعيه منحصراً في شيء واحد: "الكمال المسيحي"، أي القداسة التي تتعلق بحياته الشخصية دون أية أهداف أخرى فرعية خارج هذا النطاق، كأن يكون - مثلاً - قدوة أو مدبِّراً أو معلِّماً. ورغم ذلك كانت القداسة التي منحها الله له من القوة والتأثير حتى صارت مجال جذب شديد وخميرة مقدسة لا زالت تخمِّر عجين العالم:

[وأُعطيت لأنطونيوس نعمة حتى أنه عزَّى كثيرين من الحزانى، وصالح المتخاصمين، حاثّاً الجميع على تفضيل محبة المسيح عن كل ما في العالم. إذ كان يعظهم وينصحهم أن يذكروا الخيرات العتيدة ورحمة الله... وهكذا عمرت البرية بالرهبان الذين خرجوا من شعبهم

وسجَّلوا أنفسهم مواطنين للسماء][١٥].

وهكذا رسم القديس أنطونيوس لأي راهب نقي السريرة أن يخرج من العالم مبتعداً عن الناس، فتجتذب سيرته كثيرين طالبين مؤازرة صلواته، وشفاءً لأمراضهم الروحية والجسدية. وبذلك تعود الرهبنة الصحيحة بالخير على العالم والكنيسة.

هذه النوعية الجديدة من القداسة المسيحية لم تكن معروفة كنموذج في الكنيسة قبل حياة القديس أنطونيوس. أما بعد ذلك، فقد صار هذا النمط الجديد غنىً وذُخراً للعالم وللكنيسة، ولا زالت تنهل من نبعه الكنيسة حتى الآن.



(١٥) القديس أثناسيوس، "حياة القديس أنطونيوس" ف ٤١.

٣ . القديس مقاريوس الكبير
أب برية شيهيت

نشأة القديس مقاريوس:

يؤكِّد المؤرِّخ ''رينيه باسيه'' أن بلدة القديس مقاريوس الكبير هي ''منف''، اعتماداً على اللقب الذي اشتُهِرَ به منذ البدء: ''المصري''. وكان أبوه قدِّيساً، يُدعى إبراهيم، كاهناً على كنيسة ''منف''. وكانت أُمه امرأة قدِّيسة تُدعَى سارة. وكانا عاقرَيْن، وقد حدثت في زمانهما حوادث شغب ونهب وسَلْب، اضطرتهما للهجرة إلى بلدة ''ششوير'' أو ''شبشير'' بالمنوفية. والمعروف أن مقاره وُلد سنة ٣٠٠م، أي بعد نزوح الأسرة إلى ''شبشير'' بسنتين أو ثلاثة.

وتُشير (المخطوطة ١٨ س بمكتبة دير أنبا مقار)، أنَّ الطفل مقاره كان يتربَّى وينمو في مخافة الله على يد أبويه الصالحين. ولَمَّا شبَّ عن الطوق، بدأ يذهب مع أبيه إلى المزارع. وقليلاً قليلاً بدأ يُساعد أباه في فلاحة الأرض، وكان أنَّ الله وسَّع رزقهما جداً من مواشي وأملاك. وبَدَت النعمة على الشاب مقاره، فكانوا يُلقِّبونه بـ ''الشاب الحكيم''. ومِن فرط حُب كهنة القريه له أخذوه إلى أسقف الناحية بدون علم أبيه ورسموه ''أناغنوستيس''.

زواج القديس مع بقائه بتولاً:

وكان أبواه يُدبِّران له، حسب نيتهم، لكي يُزوِّجوه ويرسموه كاهناً. وهكذا أيضاً بدأ الضغط من الكهنة، بالإضافة إلى أبويه، حتى رضخ لهم بدون نيَّة منه. ولكنه حفظ بتوليته باتفاق مع الفتاة التي اختاروها له.

ولكي يُكمِل الكهنة نيَّتهم فيه؛ أخذوه ورسموه شماساً (كخطوة لازمة قبل رسامته قسّاً). ولكي يبتعد مقاره عن الفتاة أطول مدة ممكنة، كان يذهب مع الجمَّالين الأُجراء عند أبيه لجلب النطرون من جبل النطرون! وهكذا أتقن خدمة الإبل والجمال، لذلك كان يُدعى ''مقاره الجمَّال''.

ظهور الشاروبيم له على صورة إنسان مهيب منير:

في إحدى الأسفار، وهو نازلٌ مع الجمَّالين إلى وادي النطرون، وقد صار بالقُرب من الجبل

المطل على البحيرات (أسفل الجبل الذي فوق البحيرة)، وكان الكل نياماً من التعب ومقاره أيضاً نائم؛ إذ به يرى في نومه إنساناً نورانياً متَّشحاً باسطوانة كالبرق الساطع، وهذه الاسطوانة مُكلَّلة بالجواهر (عيون الشاروبيم), وكلَّمه قائلاً: ''انظر حولك وتأمَّل أعماق الجبل''. فأجابه مقاره: ''إني، يا سيدي، لا أرى شيئاً سوى رأس البهلس (بحيرات النطرون)، والغابة (أعشاب البردي والنخيل المتكاثف بالقرب من الماء)، وعن يمينه البقعة (المستنقعات)، والجبل المحيط''. فقال له الرجل النوراني: ''إن الله يقول لك إني أُعطيك هذا الجبل ميراثاً لك ولأولادك، يتفرَّغون فيه للصلاة، ويخرج منك رؤوس ومُقدِّمون، من هذه البرية. والآن انهض من نومك وتذكَّر جيداً جميع ما قلته لك، وإذا صرتَ كاملاً أعود فأظهر لك، وأُكلِّمك بما يجب من فم الله''.

وكان هذا هو أول ظهور الشاروبيم للقديس مقاره، الذي صار رفيقاً ومُرشداً له طول أيام حياته حتى يوم نياحته.

وعندما رجع مقاره إلى بلده، وجد أن فتاته البتول مريضة بالحُمَّى، التي اشتدَّت عليها حتى فارقت الحياة. فما كان من الشاب مقاره إلاَّ أن تنبَّه لنفسه قائلاً: ''يا مقاره، احرصْ الآن على اغتنام هذه الفرصة لنفسك لمداواتها، لأنك حتماً ستؤخذ مثل أُختك التي سبقتك''.

وظل مقاره في البيت يخدم أباه الشيخ إلى أن أسلم روحه الطاهرة. وبموت أبيه، أبتدأ يُفرِّق مقتنياته كلها التي ورثها عن أبيه. ولما بدأت أُمه تُعنِّفه على مسلكه، كان يحتملها بصبر، إلى أن تنيَّحت هي الأخرى بعد ستة أشهر من نياحة زوجها.

اعتزال القديس:

انطلق مقاره بعيداً عن القرية وسكن وحده، كما فعل القديس أنطونيوس من قبل، وذلك حسب وصية راهب متوحِّد كان يسكن في ظاهر القرية. هذا هو الاعتزال الأول الذي دام عشر سنوات، والذي قُرب نهايته احتال عليه أهل القرية وما زالوا يتوسَّلون إليه حتى رسموه قسّاً. ويقول المؤرِّخ سوزومين: إنَّ القديس مقاره رُسِمَ قسّاً وهو في سنِّ الأربعين سنة ٣٤٠م.

تجربة قاسية تعرَّض لها:

يقول القديس سيرابيون تلميذ القديس أنطونيوس، أنَّ تجربة قاسية امتحن بها الرب القديس مقاره، ليُزكِّي بها سيرته الطاهرة ويدفعه إلى داخل البرية، أتت عليه بعد رسامته قسّاً أثناء وجوده



المجمع المسكونى الثانى بالقسطنطينية (سنة ٣٨١م)
ويُرى فى مقدمة الأيقونة على اليسار البطريرك مقدونيوس بطريرك القسطنطينية
المُدَّعى عليه بالهرطقة ضد أقنومية الروح القدس بينما الآباء الأساقفة يناقشونه
لكنه لم يعترف بالإيمان الصحيح



القديس انطونيوس الكبير (٢٥١- ٣٥٦م)
وفى يده رسائله التى كان يرسلها للرهبان



القديس مقاريوس الكبير وبجانبه الشاروبيم الذي كان يرافقه (٣٠٠- ٣٩٠م))



القديس باخوميوس أب الشركة (٢٩٢-٣٤٦م)

بالقرب من القرية. وهذه القصة كانت شائعة جداً بين الرهبان أثناء حياة القديس.

فقد حدث أن بتولاً في ذلك المكان سقطت في الخطيئة وحملت في بطنها. ولما أُشهِرَت، سُئِلَت عمَّن فعل معها هذا الفعل، فقالت: ''المتوحِّد''! ولما عَلِمَ أهل القرية، أخذوا القديس باستهزاء مريع إلى الضيعة، وشهَّروا به في كل شوارعها، وهم يصرخون: ''إن هذا الراهب أفسد عفة ابنتنا البتول وفضحها، اخزوه''. وضربوه ضرباً مُوجعاً، قَرُب بسببه إلى الموت. وكانوا يصرخون قائلين إنهم لن يسكتوا عن ذلك حتى يأتيهم بضامن يتكفَّل بالقيام بإطعام الفتاة وتربية ولدها، حتى ضمنه خادمه الذي كان يأخذ منه شغل يديه ويبيعه ليسد احتياجاته.

وكان القديس مقاره يكدُّ ويتعب ليلاً ونهاراً مُخاطباً نفسه: ''كِدَّ، يا مقاره، ها قد صارت لك امرأة''. فلما حان وقت ولادة الفتاة، مكثت أياماً كثيرة وهي مُعذَّبة وما استطاعت أن تلد، حتى اعترفت قائلة: ''إن كل ما أصابني كان بسبب أني ظلمتُ المتوحِّد، وهو بريء، لأنه ما فعل بي شيئاً قط. لكن فلان الشاب هو الذي فعل بي هذا''. فجاء خادم القديس يُخبره باعتراف الفتاة، وأنَّ أهل القرية كلهم عازمون على الحضور إليه، وهم يريدون أن يتوبوا إليه ويسألوه الصفح والغفران. فلما سمع القديس هذا الكلام من خادمه، أسرع هارباً إلى الإسقيط. وهذا هو السبب الذي لأجله جاء إلى جبل النطرون.

انطلاق القديس إلى جبل النطرون:

بقيادة الشاروبيم، سار مقاره وحيداً متَّجهاً إلى جبل النطرون، يومين كاملين. ووصل إلى الموضع الذي يُدعَى ''بهلس''، وحفر في ذلك الجبل وعمل له مغارة وسكنها أياماً قليلة، ثم خرج يطوف البرية. وجاء إلى يمين ذلك الموضع وحفر سرداباً وسكن فيه. وبسبب القوم الذين كانوا يطرقون باب مغارته، انتقل جنوباً نحو الصخرة (صخرة شيهيت الأولى)، وحفر مغارتين بينهما سرداب. وتجمَّع حوله التلاميذ الذين صاروا باكورة شيهيت المقدسة، وأول دير في الإسقيط.

زيارته للقديس العظيم أنبا أنطونيوس:

بعد وصول القديس مقاره إلى برية شيهيت بثلاث سنوات، قام بزيارته الأولى للقديس أنبا أنطونيوس سنة ٣٤٣م، وفيها أصبح مقاره تلميذاً للأب الكبير أنبا أنطونيوس؛ إذ تسلَّم منه ''وصايا ورسوم خدمته'' وكل ''ما يليق بزيِّ الرهبنة المقدس''.

وقد قام القديس مقاريوس بزيارة أخرى للأنبا أنطونيوس بعد زمان طويل من زيارته الأولى، وذلك بسبب ازدياد حروب العدو عليه، ولأخذ نصائح للرعاية وقيادة النفوس التي تكاثرت حوله، وللاستشارة بخصوص بناء كنيسة مستقلة عن نتريا تكون في وسط شيهيت. وقد سلَّم القديس أنطونيوس لأنبا مقاريوس، في زيارته الثانية، عصاته العتيقة، تعبيراً عن تسلُّمه أمانة التدبير الرهباني من بعده.

القديس مقاريوس أب برية شيهيت:

لقد نزح بعض الآباء من نتريا والقلالي، وأقاموا في شيهيت، بمجرد أن اشتهر اسم القديس مقاريوس، ومنهم: الأب "أموي" وهو الأب الروحي للأنبا يوحنا القصير وأنبا بيشوي؛ والأب إيسيذوروس وهو أصلاً من متوحِّدي نتريا وكاهن القلالي؛ والأب شيشوي الذي نزح بعد ذلك إلى جبل العربة وسكن في قلاية أنبا أنطونيوس بعد نياحته؛ والقديس مقاريوس الإسكندري؛ وغيرهم من الآباء القديسين. كما كان القديس مقاريوس أباً روحياً للقدِّيسَيْن الروميَّيْن مكسيموس ودوماديوس.

زيارة القديس مقاريوس للقديس باخوميوس أب الشركة:

زار القديس أنبا مقار الأب باخوميوس، وفيما هما يتفاوضان في أقوال الله، شاور الأب باخوميوس القديس مقاريوس قائلاً: "أيها الأب عندي ههنا إخوة سيرتهم على غير نظام، فتأديبهم جيد هو أم لا!".

فأجابه الأب مقاريوس: "أدِّب واحْكُم حُكْماً عادلاً في الذين تحت يدك، فأما على غير هؤلاء فلا؛ لأنه كُتِبَ: احكموا على الذين من داخل، وأما الذين هم من خارج فالرب يحكم عليهم".

نياحة القديس العظيم أنبا مقاريوس:

وكان كل الرهبان يحبُّونه ويخافونه كما يخافون الله، لأنه كان بينهم كقائد الجيش الذي يُقوِّي ويُعزِّي جنوده. وفي أحد الأيام أدخله تلميذه إلى مغارته، فاضطجع. وفي نحو الساعة السابعة، ظهر شخصان قدِّيسان مُضيئان، وكل منهما يبتسم إلى الآخر. وتكلَّم أحدهما معه قائلاً: "أَما

تعرف هذا الآخر؟". أما القديس أنبا مقار فسكت كعادته، فقال له هذا القديس: "إنه الأب باخوم أب رهبان دوناسة، وقد أرسلنا الرب إليك لندعوك، فاهتمَّ الآن بما تريده، فإنك بعد تسعة أيام ستخلع عنك هذا الجسد، وتأتي لتسكن معنا"، ثم غابا عنه.

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر برمهات ظهر له الشاروبيم، الذي كان معه منذ الابتداء، ومعه جمعٌ كثيرٌ من الروحانيين، وقال له: "أسرِع وتعالَ، فإنَّ هؤلاء كلهم ينتظرونك". فصاح أنبا مقار بصوتٍ خافت قائلاً: "يا سيدي يسوع المسيح حبيب نفسي، اقْبَل روحي إليك"، ثم أسلم روحه الطاهرة[1].

ورد في سيرة أنبا مقاريوس بقلم أنبا سيرابيون، مخطوطة رقم ١٨ س بمكتبة دير أنبا مقار، أنَّ القديس تقدَّم في الأيام وشاخ جداً، حتى بلغ سنُّه تسعين سنة، وكان أولاده يحملونه ويُجلسونه في حوش قلايته، وما كفَّ عن صراع الشياطين، وما كفَّت الشياطين عن الصراع معه، حتى في هذه السنِّ. وإلى وفاته كان متحفِّظاً جداً من المجد الباطل، كما أُمِرَ من الشاروبيم. ونقص أيضاً ضوء بصره من كثرة السهر والتعب وطول السنين، حتى بدأ يرقد على الأرض من كثرة ضعفه.

(١) عن كتاب: "الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار"، للأب متى المسكين، الطبعة الثالثة: ١٩٩٥.

٤ . القديس آمون ـــــ مؤسس رهبنة نتريا

نشأة القديس آمون:

وُلد القديس آمون سنة ٢٧٥م، وكان شاباً يتيماً حينما أصرَّ عمه على زواجه وهو ابن ٢٢ سنة. ولكن الشاب كان قد أصرَّ في قلبه أن يبقى بتولاً لإلهه. فما كان منه إلاَّ أن أقنع عروسه أن يظلاَّ عروسَيْن بِكْرَيْن للمسيح مدى الحياة. فبدآ معاً منذ أول لحظة حياة الصلاة والفضيلة.

وبعد ١٨ سنة من هذه الحياة المقدسة، افترقا. فانطلق آمون إلى عمق نتريا حوالي سنة ٣١٥م، واتَّخذ لنفسه مكاناً بعيداً عن الأنظار، لأنه لم يكن بعد في ذلك الوقت أديرة أو رهبان. وهناك بنى لنفسه قلاية ذات غرفتين، عاش فيها ولم يغادرها طيلة ٢٢ سنة، حتى وقت نياحته.

تأسيس القديس آمون لرهبنة نتريا:

وعندما ذاع صيت فضائل ونسك القديس آمون، تجمَّع حوله الكثيرون، وابتدأت جموع النُّسَّاك يَفِدون إليه للاقتداء بحياته، وكان من أوائل تلاميذ أنبا آمون القديس بامو. وبالتدريج ابتدأ جبل نتريا يمتلئ بجماعات الرهبان. وكان القديس آمون محل احترام الجميع، ومن ضمنهم القديس أنطونيوس نفسه الذي كان يُبجِّله غاية التبجيل من أجل استقامة روحه وفضائله.

وهكذا أصبح القديس آمون هو رأس أول جماعة ديرية في نتريا. وفي خطاب مُرسل من القديس أثناسيوس إلى القديس آمون عن موضوع أقلق الرهبان، بخصوص مقدار طهارة الرهبان بالنسبة للتناول من الأسرار المقدسة، تتضح المكانة العالية التي كانت للقديس آمون في نتريا في نظر القديس أثناسيوس.

زيارة القديس أنطونيوس لجبل نتريا:

حدث مرة أنَّ أنبا أنطونيوس جاء إلى جبل نتريا، ليفتقد أنبا آمون. فبعد أن تلاقيا معاً، سأله أنبا آمون: ”إذ قد تكاثر عدد الإخوة بصلاتك، وبعضهم يشتاق أن يبني قلالي بعيدة، حتى يكونوا في هدوء؛ فماذا تنصح بأن تكون المسافة التي تفصل بين هذه القلالي وبين الإخوة الساكنين هنا؟“. أجاب القديس أنطونيوس: ”حينما نتناول طعامنا الساعة التاسعة (أي الساعة الثالثة بعد الظهر)، حينئذ نذهب نحو الصحراء“.

فلما بدأوا المسير (من الساعة التاسعة)، ظلوا سائرَيْن حتى غروب الشمس (حوالي ثلاث ساعات)؛ حينئذ التفت القديس أنطونيوس إلى أنبا آمون وقال له: "هيَّا نُصلِّي ونرفع الصليب هنا، حتى أنَّ كل مَن أراد أن يعيش ويبني هنا يعمل مثلنا (أي يُصلِّي ويرفع الصليب). فإذا أراد الإخوة أن يزوروهم فيما بعد، يمكنهم بعد أن يأكلوا لُقمتهم الساعة التاسعة، أن يقوموا ويزوروهم؛ والذين من هنا كذلك إذا رغبوا في زيارة إخوتهم (وقاموا من هنا الساعة التاسعة)، يبلغونهم في الغروب، فلا يحدث لأحد أي ضيق أو تشتُّت إذا زار أي أحد منهم الآخر. والآن المسافة هي اثنا عشر ميلاً".

ولكن لأن القديس آمون كان منعزلاً بطبعه، لذلك لم يكن صيته ذائعاً بين الناس مثل القديس أنطونيوس. وكان يشعر بذلك، حتى أنه سأل القديس أنطونيوس: "أنا تعبتُ أكثر منك، فلماذا ارتفع اسمك أنت بين الناس أكثر مني؟" . فأجابه القديس أنطونيوس: "لأني أحب الله أكثر منك!".

ومن المعروف أيضاً أن القديس آمون زار القديس أنطونيوس عدة مرات.

فضائل القديس آمون ونياحته:

كان القديس آمون خجولاً بطبعه، حتى أنه لم يَطِق أن يخلع ملابسه ليعبُر النهر على مرأى من تلميذه ثيئوذور. كما كان يُشهَد له بالفطنة والذكاء. ومِن سماته أنه كان يُخفي ذاته كثيراً، فقد كان يمتنع نهائياً عن ممارسة الصلاة على المرضى بحجة أنه لا يملك موهبة الشفاء.

وفي رسالة من الأسقف أمونيوس إلى البابا أثناسيوس الرسولي يقول: "إنه يعتقد أن كثيرين مِمَّن يرضون الرب بأعمالهم من الرهبان يُجاهدون لكي يحفظوا أنفسهم غير ظاهرين... هؤلاء كانوا غير معروفين مثل المطوَّب الذِّكْر آمون والقديس ثيئوذور الذي من نتريا".

ومن حياة القديس آمون وفضائله ونسكه، أصبح يُمثِّل مرحلة متوسطة بين الديرية المشتركة وبين النُّسك التوحُّدي.

ويقصُّ علينا القديس أثناسيوس في روايته عن حياة القديس أنطونيوس، أنَّ القديس أنطونيوس رأى روح أنبا آمون مُضيئة وصاعدة إلى السماء بيد ملائكة. وبذلك يكون القديس آمون قد رقد في الرب قبل نياحة القديس أنطونيوس، أي حوالي سنة ٣٣٧م[١].

(١) عن كتاب: "الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار"، للأب متى المسكين، الطبعة الثالثة: ١٩٩٥.

٥- رهبنة الشركة "الكينونيا"

القديس باخوميوس

كانت الشخصية الفذَّة التي طبَّقت قداستها وعبقريتها أرجاء القرن الرابع الميلادي - العصر الذهبي للكنيسة - هو القديس أثناسيوس الرسولي، البطريرك الـ ٢٠ لكنيسة الإسكندرية. هنا يتبادر إلى الذهن هذا التساؤل: هل كان هذا القديس إفرازاً فريداً في التاريخ الكنسي؟ إطلاقاً!! لأن بزوغ هذه الشخصية كان يواكبها حركة قداسة شعبية تجلَّت على سطح التاريخ متجسِّمة في القديس أنطونيوس الذي سلَّم الكنيسة نموذجاً أعلى للقداسة الفردية المجرَّدة من أسلحة العقل واستخدام القوى الذهنية لخدمة قضية الخلاص الشخصي. ورأينا كيف كان سعيه لإدراك "الكمال المسيحي" قد أدَّى، دون قصدٍ منه، إلى اجتذاب جموع وجماهير وولاة وأصحاب سلطان، فارتدَّت عزلته ونسكياته خيراً على العالم المسيحي والكنيسة لتصير معياراً صادقاً للرهبنة الصحيحة فيما بعد.

في نفس هذا العصر أيضاً، لمع القديس باخوميوس كنموذج آخر لحركة قداسة شعبية ذات نمط مختلف تماماً عن الرهبنة الأنطونية؛ هي تكريس كامل لله في حياة الشركة الجماعية، ولكن على مستوى الواقع اليومي بما يتضمنه من احتكاك وعراك مع الحياة الإنسانية بكل نقائصها وضعفاتها داخل "رهبنة الشركة"، للارتفاع والتسامي به ليكون عملاً إلهياً **يتوازى مع الصلاة**، ولكن **ليس بديلاً عنها**.

الخطوط العامة لحياة القديس باخوميوس:

١. وُلِد سنة ٢٩٢م، من أبوين وثنيَّين في طيبة العُليا، منطقة الأقصر الحالية[1].

٢. وتمدُّنا السيرة العربية لهذا القديس ببعض التفاصيل عن طفولته وصبوته؛ وكيف حاول أبواه إرغامه على عبادة الأوثان وعلى شرب الخمر فتقيَّأها. ثم عاش فترة في أحد هياكل سيرابيس

(١) للمقارنة، كان القديس أنطونيوس ابناً لأبوين مسيحيَّين من مصر الوسطى.

القديمة في هذه المنطقة[٢].

٣. وفي سنِّ العشرين، أُخِذ للتجنيد في الجيش سنة ٣١٢م ضمن الآلاف من شباب الأقباط، وذلك للاشتراك في الحملات الحربية التي قامت بين مكسيمين الطاغية حاكم الشرق ضد قسطنطين الكبير وشريكه في الحكم - وقتئذ - ليسينيوس زوج شقيقته.

٤. وأثناء نقلهم بالمراكب النيلية في جنوب مصر، تأثَّر باخوميوس بالمعاملة المسيحية التي صادفته من ساكني منطقة ديوسبوليس (إدفو). وكان هذا التأثُّر بالغاً حتى أنه بمجرد تسريحه من الجيش سنة ٣١٣م، اتَّجه إلى شِنيسِتْ - قصر الصياد بمحافظة قنا الحالية - وانضم إلى الموعوظين ليتقبَّل الإيمان والمعمودية من الكنيسة.

٥. وكان تقليد كنيسة الإسكندرية منذ عهد أوريجانوس في بداية القرن الثالث، يوصي بأن تكون فترة الموعوظين ثلاث سنوات. لذلك نال القديس باخوميوس معموديته سنة ٣١٦م. ومنذ ذلك الوقت اجتهد أن يتجاوب مع النعمة التي نالها. وكان قد سمع عن الناسك بلامون المتوحد في نفس البلد التي تعمَّد فيها - شِنيسِت - فقصده وتوسل إليه أن يقبله تلميذاً. فشرح له المتوحد مصاعب الحياة النسكية، وكيف أن كثيرين ابتدأوا ولم يكمِّلوا مسيرتهم. ومع هذا لم يتراجع باخوميوس، بل قطع عهد الطاعة مع معلِّمه. فعاشا معاً على أكلة واحدة كل يوم صيفاً، وكل يومين شتاءً. واقتصر غذاؤهما على الخبز والملح والماء دون أن يتذوَّقا الزيت أو الخمر. وكانا يقضيان أكثر من نصف الليل ساهرَيْن في المزامير والتسابيح والصلوات وقراءة الكتاب المقدس؛ وأحياناً كان ينقضي الليل بأكمله دون أن يناما. أما النهار فكان لعمل اليدين والصلاة القلبية.

٦. بينما كان باخوميوس يجمع الحطب في إحدى القرى الفرعونية المهجورة المسمَّاة "طبانيسي"[٣]، ظهر له ملاك الرب طالباً منه أن يؤسِّس ديراً، وسلَّمه قوانين هذه الحياة وأهمها:

+ دَعْ الراهب يتناول من المآكل والمشارب ما يشاء، ولا تنهه عن أي طعام، بل اترك ذلك لحكمته. ألزمه فقط **بالعمل بمقدار ما يأكل.** أما الضعفاء (بسبب مرض أو علَّة) والصوَّامون فكلِّفهم بأعمال غير مضنية.

---

(٢) بينما كان القديس أنطونيوس في طفولته يُصاحب والديه إلى كنيسة قريتهم "كوما"، يسمع فيها الإنجيل والقراءات الكنسية، ويشترك في الأسرار الإلهية.

(٣) أصل الكلمة "طبانيزيس"، أي "نخلات إيزيس".

+ كل ثلاثة رهبان يقيمون في قلاية واحدة، ولا ينامون على فراش، بل على مقاعد حجرية حتى لا تسترخي أجسادهم عن الجهاد والعمل.

+ تناول الطعام يكون في قاعة واحدة (مائدة).

+ يلبسون جلباباً بغير أكمام. ويشدُّون أوساطهم بمنطقة (حزام جلدي)، ويغطي كل واحد منهم رأسه بقلنسوة مرسوم على مقدمتها صليب أرجواني.

+ قسِّم الرهبان إلى مجموعات، وأطلق على كل مجموعة حروف الأبجدية القبطية (التي هي نفس الحروف اليونانية).

٧. بعد الرؤيا، توجَّه باخوميوس إلى معلِّمه القديس بلامون وعرَّفه بها. فعاد الاثنان معاً إلى طبانيسي سنة ٣٢٣م، وكان القديس باخوميوس قد تجاوز الثلاثين من عمره، وقاما ببناء أول قلاية وقضيا معاً بعض الوقت حتى اطمأن القديس بلامون على باخوميوس، ثم تركه عائداً إلى وحدته في شِنيسِت. وبذلك يكون القديس باخوميوس قد تتلمذ سبع سنوات، يقابله القديس أنطونيوس الذي صرف خمس عشرة سنة في تلمذته.

٨. أول مَنْ تقبَّل الشكل الرهباني على يديه كان أخوه الأكبر "يوحنا". وفي وقت وجيز تجمَّع حولهما أكثر من مائة شخص، فكان يقودهم ويرشدهم في طريق الكمال **بحرارة روحه وقدوته المثالية**. وتحكي سيرته أنه أمضى خمس عشرة سنة لم يرخِ جسده على فراش، بل كان رقاده جالساً على كرسي أو قطعة حجر. كما أن معدته لم تمتلئ بالطعام منذ أن نال معموديته.

٩. بنى القديس باخوميوس ديراً ثانياً في فابو (فاو الحالية). وتوالى بعد ذلك بناء الأديرة حتى بلغت في حياته: تسعة أديرة للرجال؛ واثنان للراهبات، وقد تولَّت أخته "مريم" رئاسة أحدهما سنة ٣٤٠م. وقد استقر القديس باخوميوس في دير فابو سنة ٣٣٦م، وجعله مركزاً لرئاسة أديرة الشركة.

وبسبب بساطة قوانينه واتساعها، صارت تتمشَّى مع كل المستويات، حتى أنه لم يرفض أي شخص بسبب ضعف بنيته أو كبر سنِّه.

استقامة قصده:

في إحدى جولات القديس أثناسيوس الرسولي، بين سنتي ٣٢٩ و٣٣٠م، لافتقاد الرعية في طيبة العليا، أقنعه سيرابيون أسقف دندرة الذي كانت أديرة الشركة - وقتئذ - تحت رعايته، أن

يرسم باخوميوس كاهناً. فلما أحس باخوميوس بذلك اختفى تماماً. فما كان من البطريرك إلاَّ أن قال لأبنائه: "عظيم هو أبوكم... لكن قولوا له: إنك **اخترت لنفسك ما هو أفضل، أي الاحتماء في الرب يسوع**... لكن أرجو، إذا مررتُ ثانية، أن تسمح محبتك بأن أرى وجهك".

لكن هروب القديس باخوميوس من الكرامة الكهنوتية لم يمنعه من توصيل رسالة الخلاص لكل نفس، حتى أنه أقام كنيسة لرعاة الغنم في هذه المنطقة كان يخدم فيها كقارئ، أي مساعد شماس.

ورغم أنه لم يكن كاهناً إلاَّ أنه كان يُلبِس الشكل الرهباني للكهنة الذين اشتهوا الانضمام لرهبنة الشركة. وبذلك أدخل في التقليد الرهباني المصري أن مرتبة الرهبان ليست من رُتب الطقس الكنسي التي تستلزم وضع يد الأسقف، بل هي نوعية خصوصية من رتبة العلمانيين(٤). ولا زالت آثار هذا التقليد باقية في الليتورجيا القبطية، حيث نسمع الشماس - مثلاً - في أوشية الراقدين، يطلب الصلاة من أجل المنتقلين ويُعدِّد رُتب المؤمنين من القمة إلى القاعدة، وقبيل نهايتها يقول: "... آبائنا الرهبان، وإخوتنا العلمانيين...".

ولا ينبغي علينا أن نظن أن هروب القديس باخوميوس من القديس أثناسيوس كان يعني انعزال رهبنة الشركة عن أحداث الكنيسة المعاصرة وقتئذ، إذ كان يُشدِّد على الرهبان بنبذ الهرطقات والوقوف مع رأس الكنيسة بالصلاة لأجل سلامة الكنيسة الجامعة التي كانت وقتها في محنة البدعة الآريوسية.

هذه الاستقامة الشخصية كان لها ثمنها، إذ استدعاه مجمع أساقفة إسنا سنة ٣٤٥م ليُجاوب على بعض الاتهامات المغرضة. فكان **اتضاعه وصبره** أمام الأساقفة سبباً في أن يمدحوه ويصرفوه مكرَّماً.

امتداد رهبنة الشركة:

عاش القديس باخوميوس حتى شهد ازدهار أديرته التسعة التي كانت تضم أكثر من ثلاثة

---

(٤) طقس تكريس الرهبان والراهبات الساري الآن، متطور قليلاً عن الأصل القديم؛ إذ يمارسه إيغومانس الدير بصلوات يظهر من نصوصها أن الرهبنة هي امتداد لموهبة المعمودية، وليست عطية جديدة للروح القدس تستلزم وضع يد الأسقف باعتباره المؤتمن على عطايا ومواهب الروح القدس.

آلاف راهب. ويرجع السبب في ذلك إلى **التدقيق الشديد في النظام**. فالجميع كانوا يطيعون الأب المدبِّر المعيَّن من قِبَل الرئيس العام. وكان العمل اليدوي مطلوباً من كل راهب. فقُسِّمت الأديرة إلى جماعات بحسب المهن والحِرَف التي تتقنها كل جماعة: زراعة الحقول والبساتين، بناء السفن والمراكب، صناعة السلال واللبَّاد من ليف النخيل الشائع في أعالي الصعيد؛ بالإضافة إلى المهن الأخرى المألوفة: كالنجارة، والحدادة، وسبك المعادن، وصباغة الأقمشة... إلخ.

وبعد نياحة القديس باخوميوس بقرن من الزمان، كان عدد رهبان أديرة الشركة في مصر حوالي خمسة آلاف راهب، وامتدت أديرة الشركة حتى مشارف الإسكندرية. فنسمع عن دير "الميطانيا" حوالي سنة ٣٩٠م في كانوب (أبو قير الحالية)، حيث عثر القديس جيروم على سيرة وقوانين رهبنة الشركة، فترجمها إلى اللاتينية سنة ٤٠٢م، وكانت بمثابة مرجع في بلاد الغرب لجميع الرهبانات التي نشأت هناك بعد ذلك، بل وحتى زماننا الحاضر.

نيـاحته:

في إحدى موجات وباء الطاعون الذي كان يجتاح البلاد، انتشر هذا المرض الوبيل في أديرة الشركة حتى أنه في دير فابو - مقر إقامة القديس باخوميوس - تنيح مائة أخ في وقت قصير خلال الصوم الأربعيني سنة ٣٤٦م. وكان القديس نفسه قدوة مثالية في خدمة المرضى حتى وقع أسيراً للمرض. وحين أعلمه الله بقرب انتقاله عيَّن بترونيوس خلفاً له، وسلَّم تلميذه الخصوصي (تادرس) وصيته الأخيرة، ثم انتقل بسلام في ١٤ بشنس الموافق ٢٢ مايو سنة ٣٤٦م عن أربعة وخمسين عاماً.

تلاميذه:

بَقِيَ بترونيوس رئيساً عاماً لأديرة الشركة مدة شهرين فقط، وتنيح في ٢٥ أبيب، فتولَّى بعده أورسيزيوس كتوصية سابقة من معلمهم قبيل نياحته، واستمر حتى عام ٣٨٥م بالتناوب مع تادرس التلميذ الخاص للقديس باخوميوس. وقد نمت الأديرة في عهدهما نمواً كبيراً، كما ترك لنا أورسيزيوس مقالة في: "**تعاليم ودستور الرهبنة**"، تشهد لمستواه الرهباني الروحي العالي. تتكون هذه المقالة من ٦٤ مادة، وتحوز تقديراً فائقاً لدى علماء الغرب باعتبارها تعكس نظرة عميقة لروح رهبنة الشركة أكثر من القواعد التي سنَّها القديس باخوميوس.

كما يحتفظ لنا التاريخ برسالة أرسلها البابا ثاوفيلس البطريرك الـ ٢٣ إلى أورسيزيوس، تحوي تفاصيل كثيرة عن ليتورجيا وطقس أسبوع الآلام - البصخة - في الإسكندرية متضمنة أيضاً مشاركة أورسيزيوس في احتفالاتها في تلك السنة.

أما القديس ثيئودورس - تادرس - التلميذ الأمين والمطيع لمعلمه باخوميوس، فتاريخ رهبنة الشركة يحفظ له تقديراً خاصاً بسبب وداعته واتضاعه مع معلِّمه. وبعد نياحة القديس باخوميوس كان هو اليد اليمنى لأورسيزيوس، فنجح في تهدئة الاضطرابات والمعارضات التي قامت في أديرة الشركة سنة ٣٥٠م بسبب محاولة بعض رؤساء الأديرة الاستقلال الذاتي والمالي عن الرئاسة العامة في فابو.

وقد تنيح القديس تادرس في ٢٧ أبريل سنة ٣٦٨م بعدما تعاون مع أورسيزيوس ما يقرب من ثماني عشرة سنة. وبسبب شهرته في أديرة الشركة، كتب البابا أثناسيوس الرسولي رسالة عزاء لأورسيزيوس الرئيس العام، يشدِّده ويشجِّعه على حمل المسئولية واستئناف المسيرة، قائلاً:

[... لا نبكي على مَنْ بلغ في رحلته إلى السماء، حيث السلام والفرح والطمأنينة. يا ليت كل واحد منَّا يعدُّ نفسه لهذه الرحلة. تادرس **لم يمُتْ، بل هو قائم في موضع الراحة في حضرة الرب.** أنا أكتب إلى إخوة الشركة جميعاً، ولا سيما إليك أيها العزيز أورسيزيوس، لتأخذ مكانه وسط الإخوة. لأنه قبل انتقال تادرس **كنتما كشخصٍ واحدٍ.** وحين كان يذهب أحدكما خارجاً **كان الآخر يُتمِّم كل الواجبات.** وحين كان كلاكما بالدير كنتما كشخصٍ واحدٍ، كإخوة، بكل ما هو نافع... وعليك بالاستمرار في ذلك][٥].

وقد تنيَّح أنبا تادرس عن ثلاثة وخمسين عاماً.

(٥) "حياة الشركة الباخومية"، تعريب القمص إشعياء ميخائيل، ص ١٨٠.

٦. رهبنة الشركة "الكينونيا"
في الإطار الكنسي العام

مِنْ نِعَم الله على الكنيسة، أن سيرة مؤسس "رهبنة الشركة" أو "الكينونيا" ما زالت محفوظة، ولا زال العالم ينهل منها حتى الآن. هذا الحَدَث العظيم - تأسيس رهبنة الشركة - تمَّ في صعيد مصر، وبطله شاب قبطي من أسرة وثنية، انضم إلى المسيحية في سنِّ العشرين، لا يعرف اليونانية ولا اللاتينية؛ أي أنه عاش بعيداً عن مصادر الثقافة العالمية وعلى هامش الحياة الدينية في الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف.

ورغم ذلك، امتدت "الكينونيا" بسرعة أدهشت كل مَنْ يتابع الأحداث الكبرى للتاريخ الكنسي حتى بلغ عدد أديرة الشركة: تسعة أديرة للرهبان، واثنان للراهبات، تضم آلافاً من الجنسين. وبعد نياحة مؤسسها، وعند كتابة سيرته، كان عدد الأديرة قد تعدَّى اثني عشر ديراً للرجال جمعت عدداً ضخماً. وبنوع من التلقائية الفائقة لمنطق الأحداث، تبعتها أديرة متفرقة في فلسطين وسوريا وكبادوكية وبنطس، ثم في إيطاليا وبلاد الغال وأسبانيا!!

نظرة عامة على الرهبنات المعاصرة لرهبنة الشركة:

ظاهرة "الكينونيا" لم تكن فريدة من نوعها في ذلك الزمان. فالمعروف تاريخياً أن القديس باسيليوس أسَّس أديرة تشابهها في آسيا الصغرى، والقديس أغسطينوس أيضاً في شمال أفريقيا، والقديس مارتن بالمثل في بلاد الغال. فما الذي جعل نظام "الكينونيا" الذي أسَّسه القديس باخوميوس يتصدَّر أحداث القرن الرابع الميلادي وما بعده؟ هل هو ذلك الكمّ الهائل الذي كانت تضمه أديرة الشركة في مصر؛ بينما لم يتجاوز عدد الرهبان المائة في أيِّ دير من الأديرة الأخرى المشابهة والمعاصرة في بلدان العالم الأخرى؟ أبداً! بل إن مؤسسي هذه الأديرة تركوا لنا تراثاً أدبياً معروفاً بروحانيته وعمقه يمكن للقارئ أن يستمتع بروحانيته السامية مثل كتابات القديس باسيليوس شرقاً، والقديس أغسطينوس غرباً، وذلك بالمقارنة مع بساطة المجموع الأدبي الباخومي الذي خلَّفه لنا تلاميذ القديس باخوميوس مؤسِّس رهبنة الشركة.

لكن، الذي يميِّز تراث رهبنة الشركة الباخومية عن كل المصنَّفات الأدبية الأخرى، هو **التكريم الفائق** الذي نلمحه في كل صفحة من صفحاتها تجاه مؤسسها، والذي تُجسِّمه هذه العبارة: "**أبونا**

الصدِّيق أنبا باخوميوس رجل الله"، التي تتردد كثيراً في كتابات تادرس وأورسيزيوس وسيرة حياة القديس باخوميوس لكاتبها القبطي المجهول الاسم. فهي تعكس إحساساً تلقائياً من كل الجماعة تجاه هذا القديس الذي عايشوه، وبنفس الدرجة والقوة لديهم جميعاً.

قداسة أنبا باخوميوس من وجهة نظر تلاميذه:

صورة القداسة التي تعكسها صفحات سيرة القديس باخوميوس ليست مصطنعة، ولا هي طفرة شعبية أشعلها تلميذاه تادرس وأورسيزيوس وسجَّلها الكاتب المجهول؛ لكنها الأحداث التي أعقبت نياحة مؤسس رهبنة الشركة: التذمر، الطموح وراء الرئاسات والكرامات، الاستغراق في الهموم الإدارية والمادية؛ التي كانت كلها مجتمعة بمثابة المحكِّ الذي فجَّر ما كان مضمراً في قلوب تلاميذه وكاتب سيرته. فالإحساس بخطورة التفكُّك، ورفض الخضوع والطاعة، ورذل القوانين والقواعد، والدعوة إلى الانفصالية؛ كلها عوامل احتكَّت مع صورة القداسة والتقوى الكامنتين في القلوب، فأثارت الضمائر بخطورة هدم ما تعب فيه وعانى وتألم من أجله مؤسس الكينونيا "أبونا الصدِّيق أنبا باخوميوس رجل الله".

هذا التكريم الفائق لم تعرفه الرهبنات الأخرى تجاه مؤسِّسيها، فلم يُذكر في أية رهبنة أخرى أن مؤسسها "رجل الله ملهم من الله..."، أو مثل هذه العبارات التكريمية المماثلة. والسبب في ذلك أن **القديس باخوميوس قد تخصص لخدمة هذه "الكينونيا"**[١]. هذه القناعة الداخلية لدى تلاميذه تسامت إلى "**إيمان بأن أنبا باخوم هو رجل الله**"، فكان هذا الاجتهاد والسعي للحفاظ على القواعد والأنظمة التي وضعها "رجل الله" لأنها "بإلهام من الله"!! وهذا فيه كل الكفاية، ولولا ذلك ما كانت هناك معاناة ولا صعوبات ولا محن عقب نياحة مؤسسها، ولا كانت سيرته قد رأت النور.

(١) للمقارنة، نقول إن مؤسِّسي الرهبنات الأخرى المشابهة لنظام "الشركة الباخومية"، كانت رعايتهم للأديرة التي أسَّسوها تمثِّل جزءاً من مسئولياتهم الكنسية. فالقديس باسيليوس كان رئيس أساقفة كبادوكية في آسيا الصغرى، والقديس أغسطينوس كان أسقف مدينة هيبو في شمال أفريقيا، والقديس مارتن كان أسقفاً لمدينة تور بفرنسا، وكان يُرسل بعثات تبشيرية إلى أطراف أوروبا وإلى المناطق التي لم تدخلها المسيحية بعد؛ أما القديس باخوميوس فقد تخصص لرعاية الكينونيا!!

القديس باخوميوس كأب وسط أبنائه:

كانت الجماعة التي تتلمذت للمؤسس متيقنة تماماً أنها مدينة له بكل شيء بعد الله. ومن هنا يحِقُّ لتلميذه تادرس أن يقول إن ما قدَّمته حياة ''الكينونيا'' للعالم الرهباني قد استمدته بالكلِّية من القديس باخوميوس. من هذا الوعي العميق نشأ إحساس بالوفاء والإخلاص، فاشتهرت الأديرة الباخومية - رغم ضخامة أعدادها - بالرباط الأبوي البنوي الذي تتمركز حوله كل الأعمال والمسئوليات. فالأبوّة تشعُّ على كل مَنْ فوَّضهم الرئيس العام في كل دير وعلى كل جماعة وبيت. هذه الأُبوَّة بمفهومها الروحي والإنساني العالي، في دفئها وحرارتها، لم تأخذ هذا الدور الأساسي في الرهبنة من قبل على الإطلاق.

ولكي يُعطي القارئ هذه الأُبوَّة تقييمها الصحيح، نقارنها مع نسكيات القديس باسيليوس، أقرب الرهبنات المعاصرة للكينونيا الباخومية. فنسكيات القديس باسيليوس تستند في مبادئها على الكتاب المقدس، لذلك تتواتر فيها الشواهد من الأسفار الإلهية. ومع ذلك لم يَرِدْ فيها أبداً أنها ''مُلهَمة من الله''، كما قال تلاميذ القديس باخوميوس عن أقواله وتعاليمه وقواعده. وليس لهم ما يعضدهم سوى أن واضعها أو قائلها هو: "**رجل الله أنبا باخوميوس الصدِّيق**".

ولكن، لا نفهم من هذا أن هذه التعاليم منافية للكتاب المقدس، أو أن ليس لها سند كتابي؛ بل إن تلاميذه وكاتب سيرته لم يعتنوا في كل مرَّة أن يلتمسوا أو يفتشوا في الكتاب المقدس عن سند يؤازر هذا المبدأ أو القانون. يكفي أن يعرف الجميع أن "**أنبا باخوم رجل الله**" هو الذي قال، وهو الذي عمل. فالأمر، بالتالي، لا يحتاج لأي برهان يُلزِم التمسُّك به.

"الكينونيا" وكنيسة الرسل:

رأينا ''رد الفعل'' الذي انطلق من مشاعر تلاميذ القديس باخوميوس في إطلاق اللقب التكريمي على القديس ''الأب... أبونا أنبا باخوم رجل الله''، وذلك بسبب أُبوَّته المقتدرة بين مجتمعات أديرة الشركة التي جعلت من هذه الأديرة عائلة واحدة أكثر منها مجتمعات متفرقة أو أفراداً متبايني الأهوية والطباع.

فهل هناك ''نموذج'' أو ''نمط'' معين، اجتهد القديس في إقامته وسنَّ له القوانين والمبادئ لدوام استمراره وديناميكية عمله في أديرة الشركة؟

بلا ريب، فإن القديس باخوميوس كان يعمل بإلهام من الله، كما تكشف لنا سيرته، لأجل إنشاء "شركة" شبيهة بما جاء ذكره في سفر أعمال الرسل: «وكانوا يواظبون على تعليم الرسل، **والشركة** (الكينونيا)... وجميع الذين آمنوا كانوا معاً، وكان عندهم كل شيء **مُشتركاً**... وكان لجمهور الذين آمنوا **قلبٌ واحد ونفسٌ واحدة**. ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له، بل كان عندهم كل شيء **مشتركاً**» (أع ٢:٤٢-٤٤؛ ٤:٣٢). هذه هي الأيديولوجية التي يودُّ كاتب سيرته أن نلمحها من خلال تسجيله. فالجماعات الرهبانية الباخومية كانت تؤمن أنها تعيش كنيسة الرسل بعد ثلاثة قرون من الزمان، وعلى يد "رجل الله". فتعاليم القديس باخوميوس، إذن، ميراث مقدَّس؛ وقوانينه وتدقيقاته التي تبدو أمام القارئ الساذج أنها تافهة عديمة الروح، إنما هي موضوعة بطريقة عملية تحقِّق إنكار الذات والانتماء لكنيسة الرسل. وبالتالي، فهي تبلور المشيئة الإلهية المنقولة بإلهام بواسطة "رجل الله"، وهدفها أن تحفظ للجماعات الرهبانية القلب الواحد والفكر الواحد.

"التعليم" في رهبنة الشركة:

من الآية التي تُجْمِل حياة الكنيسة الأولى في (أع ٢:٤٢)، نرى أن "**التعليم**" يُلازم "**الشركة**". وهكذا أراد القديس باخوميوس أن يكون "التعليم" هو الوسيلة التي تنصهر فيها الجماعات ليكون لها الفكر الواحد والقلب الواحد. ولأنهم مثل المؤمنين الجُدُد في كنيسة أورشليم الأولى، فقد كان القديس باخوميوس يوحِّدهم بقوة "كلمة الله"، فكان التعليم وظيفة أساسية يمارسها بصفة متواترة، وكذلك تلاميذه من بعده. وبرهاناً على ذلك، ما رواه تادرس - أقرب تلاميذ القديس باخوميوس إلى قلبه - أن ما اجتذبه من بلدته لاتوبوليس - إسنا - إلى طبانيسي، لم تكن أيديولوجية الكينونيا، ولا شهرة وفضائل مؤسسها؛ بل كانت إحدى الشروحات التي اعتاد القديس باخوميوس تقديمها في الاجتماعات المسائية، وكانت بالتحديد عن فصل من رسالة العبرانيين يتحدث عن المسيح الذي صار إنساناً، وكيف أن المؤمنين هم "قدس أقداس" العهد الجديد. ولأن الموضوع كان جديداً وشيِّقاً بالنسبة لتادرس، لذلك ترك بلدته للالتحاق بالدروس التي كان يلقيها هذا المفسِّر "رجل الله".

وبعدما عيَّنه القديس باخوميوس على دير طبانيسي، كان تادرس يمشي مساء كل يوم إلى دير فابو ليستمع إلى تعاليم المؤسِّس، ثم يستعيدها ثانيةً على إخوته رهبان دير طبانيسي. ولم يكن في

ذلك يتملَّق الرئيس العام، ولا استعمل الضغط الأدبي على رهبان ديره؛ بل كان هذا واقع إيمانه وحياته من جراء النعمة التي تفيض من شفتيّ المعلِّم. أليس هذا هو ما اجتذبه فعلاً منذ أول يوم سمع فيه كلمات "أبينا باخوم رجل الله"! وبعد نياحة معلِّمه، استمر تادرس على هذا المنوال، يستعيد على إخوته ما وعته ذاكرته من تعاليم القديس باخوميوس.

لأجل ذلك، كان على الرئيس العام للجماعات أن يُلقي كلمة روحية ثلاث مرات أسبوعياً: مرة يوم السبت، ومرتان يوم الأحد. كما كان المسئول عن كل جماعة أو بيت أو مهنة يتكلَّم مرتين كل أسبوع: الأربعاء والجمعة، وقد كان القديس أورسيزيوس يشغل هذه المهمة بعد نياحة القديس باخوميوس مستعيناً بما استوعبه من المعلِّم الأول، وكانت له نعمة في هذا المجال بشهادة تادرس التلميذ المقرَّب لأنبا باخوميوس. وبعدما تنحَّى أورسيزيوس عن الرئاسة وتعيَّن تادرس معاونه لرئاسة الأديرة الباخومية، استمر في هذه المهمة أيضاً.

ولا ننسى أن أديرة الكينونيا لم تكن منعزلة في الصحاري أو البراري كأديرة وادي النطرون؛ بل كانت داخل القرى أو على أطرافها، مما هيَّأ للكثيرين من الوثنيين الانتظام في اجتماعات التعليم هذه، وبواسطتها انضموا للإيمان ونالوا المعمودية ليلة عيد القيامة، حسب طقس الكنيسة القديم.

٧. بين التوحُّد الأنطوني والكينونيا الباخومية

قد يبدو لأول وهلة أمام القارئ أن التوحُّد الأنطوني والكينونيا الباخومية قد سارا في طريقَيْن متعارضَيْن: حيث إن الأول يركِّز بشدة على الاعتزال عن العالم وقطع كل الرُّبُط والعلاقات بين المتوحد والمجتمع المحيط به؛ بينما الآخر نشأت أديرته داخل الكور والبلدان أو على أطرافها، مع اهتمامها بتبشير القرى والكرازة للوثنيين لاقتبال الإيمان وتعميدهم ليلة عيد القيامة.

لذلك علينا أن نرجع إلى الواقع التاريخي، فنجد أن القديس باخوميوس قد تتلمذ سبع سنوات للمتوحد بلامون، حيث إنه لم يكن معروفاً حينذاك سوى نظام التوحُّد في الرهبنة. هذه الحقيقة ينبِّر عليها القديس أنطونيوس عندما امتدح حياة الشركة في حواره مع زكَّاوس عضو الوفد الباخومي الذي زار القديس أنطونيوس لأخذ بركته في طريق سفره إلى الإسكندرية، إذ قال القديس أنطونيوس:

[... حينما دخلتُ حياة الرهبنة لم تكن قد بدأتْ حياة الشركة بعد حتى يتسنَّى لي أن أحيا فيها... وهذا هو السبب في اختياري **حياة الوحدة**. ثم بعد ذلك بدأتْ **حياة الشركة** التي هي امتداد لحياة الرسل، والتي مارسها القديس باخوم حتى أصبحت ملجأً لكل مَنْ يرغب في حياة التوبة... أما الآن فليس في وسعي أن أجمع معي آخرين وأعيش معهم في حياة الشركة... وإن حاولتُ ذلك فلن أقدر بسبب تقدُّمي في السن وشيخوختي. لذلك فضَّلتُ أن أستمر في حياة الوحدة](١).

وهذا يعني أن التوحُّد الأنطوني كان المظلَّة المتسعة التي امتدت تحت كنفها ”الكينونيا الباخومية“. وبعبارة أدقّ، فإنه في ضوء خبرة المتوحد الأنطوني انبثقت المهمة التي نفَّذها بإتقان القديس باخوميوس. ولا نبعد عن الحقيقة إن قلنا إن سيرة حياة القديس أنطونيوس التي كتبها القديس أثناسيوس الرسولي سنة ٣٥٧م، هي التي ألهمت تلاميذ القديس باخوميوس بتسجيل حياته بتوجيه من تلميذه الوفي تادرس.

---

(١) عن مخطوطة م ٢٣ ”ميامر القديس أنطونيوس وآخرين“ (منقَّحة)، بمكتبة دير القديس أنبا مقار.

فدعوة القديس أنطونيوس للاعتزال عن العالم جاءته من الآية القائلة: «اذهب وبِعْ أملاكك...» (مت ١٩: ٢١). ومضمون حياة الشركة وجوهرها الحقيقي هو ترك المقتنيات وجحد العالم دخولاً إلى شركة الكنيسة الأولى كما فعل تلاميذ القديس باخوميوس ورهبان الكينونيا. إذن، الدوافع وراء التوحُّد الأنطوني والشركة الباخومية واحدة.

الفترة الإعدادية في حياة القديس باخوميوس:

في محاولة الغوص إلى الأعماق التي كان القديس باخوميوس يتحرك على هُداها، تبرز أمامنا رغبته التلقائية في خدمة الإنسانية، التي تعارف الناس على تسميتها باسم "فيلانثروبيا" أي "محبة البشر" كثمرة التعليم الذي تلقَّاه خلال السنوات الثلاث التي انتظم فيها في سلك الموعوظين. إذ كان في تعليم الكنيسة للموعوظين، كما سجلته قوانين أبوليدس (القديس هيبوليتس) الخاصة بكنيسة الإسكندرية، تلك التزكية التي تؤهِّل الموعوظ لتقبُّل سر المعمودية بعد قضاء فترة التعليم في صفوف الموعوظين ثلاث سنوات، أنه: "... قد سعى في عمل الوصايا في الزمن الذي وُعِظَ فيه، وأنه عاد (أي افتقد) المرضى، ودفع للعاجزين، وحفظ نفسه من الكلام الرديء، وأبغض المجد الباطل، وازدرى بالكبرياء، واصطفى له التواضع، واهتم بالفقراء القريبين منه"[٢].

وفي ليلة عماد القديس باخوميوس رأى في رؤيا ندى الليل نازلاً على رأسه ثم تجمع في يده اليُمنى وتحول إلى شهد عسل. وفيما هو متفكِّر في ذلك، إذ بهذا العسل ينزل ويمتد على وجه الأرض. وفي حيرته جاءه صوت من السماء يقول: "افهم هذا يا باخوميوس، لأن ذلك سيحدث معك بعد وقت قصير". وهكذا بدأ باخوميوس من منطلق تعاليم الكنيسة للموعوظين ومن تأثُّره بهذه الرؤيا في ممارسة **عمل الرحمة مع كل إنسان**، نامياً في قامته الروحية. وكان يطيِّب قلب كل مَنْ يأتي إليه. وحدث أن تفشَّى وباء الطاعون في تلك القرية (شِنيسِت) مما أدَّى إلى وفاة كثيرين. فذهب القديس باخوميوس لكي يخدم المرضى، ويُعِدَّ لهم كميات من خشب السنط - للاستدفاء - كان يجمعها من الأحراش القريبة، ويقضي أيامه في خدمة هؤلاء المرضى إلى أن يشفوا.

ومع أننا نمتدح بلا شك هذه "الفيلانثروبيا" أي "المحبة للبشر" التي أظهرها نحو المرضى

---

(٢) قانون ١٧ و١٩ من قوانين أبوليدس.

والمساكين، إلاَّ أنه لم يقتنع بها؛ إذ تحكي سيرته أنه راجع نفسه قائلاً: ''إن هذا العمل الخاص **بخدمة المرضى ليس هو عمل الراهب**، بل عمل الشيوخ الأتقياء (أراخنة الشعب) والكهنة[٣]. ومنذ الآن لن أقوم به حتى لا يسير خلفي كثيرون ويعثرون''.

إذن، يمكن القول إن المحبة التي أظهرها مسيحيو طيبة وترحيبهم بالغرباء والأعداء (وكان من بينهم المجنَّد باخوميوس قبل إيمانه حينذاك)، ثم الكنيسة التي انتظم فيها القديس باخوميوس، بتعاليمها وتقاليدها، كانت جميعها بمثابة تدريب على المحبة الإنسانية: ''الفيلانثروبيا'' قبلما ينتقل إلى المرحلة التالية تحت تدبير القديس بلامون، لاستكمال مسيرته في النسك وجحد الذات والخروج من العالم. فالأولى، كانت المحرك الأول للنمو الروحي؛ والثانية، امتداداً واستطراداً إلى القمة العُليا وخدمة الروح بالروح. لذلك تتلمذ باخوميوس للقديس بلامون في أصوام وأسهار، في قراءة وهذيذ الكتب المقدسة، في صلاة وتسبيح، في تواضع وطاعة للشيخ المعلِّم. كلها عناصر نسكية متآزرة مارسها تحت كنف الشيخ المتوحد بلامون الناسك، فصاغت شخصيته وروحانيته لتتأهَّل للمهمة التي سيُكلَّف بها من قِبَل الروح القدس. فكل قصة وواقعة حدثت له مع أنبا بلامون معلِّمه، كان لها صداها وما يوازيها في سيرة وتعاليم القديس باخوميوس مؤسس الكينونيا.

النسك عند القديس باخوميوس:

هناك دلائل كثيرة في سيرته تُفصِح عن استمراره في حرارة نسكه طيلة حياته، بل وتحفل أيضاً بالكثير من الإنذارات والتحذيرات ضد النُّسَّاك المزيَّفين الذين تكبروا وانتفخوا نتيجة تطرفهم، سواء كانوا متوحدين منعزلين أو رهبان الكينونيا. ولا يغيب عن بالنا أن الالتزامات النسكية التي وضعها على رهبانه كانت في غاية الاعتدال حتى تتناسب مع كل القامات للأعداد الكبيرة التي جاءته. أما ما نراه من تقشُّف صارم شديد في حياته الشخصية فهو صدى لعظاته وتوجيهاته عن ''الصليب'' و''الاستشهاد''. فهو يشهد عن معلمه القديس بلامون: ''كان في جسده كل حين سمات صليب الرب يسوع''، والآلام التي عانى منها شخصياً خلال حياته المتقشفة هي: ''... المسامير التي دُقَّت في جسد الرب على الصليب''.

---

(٣) كانت قوانين الرسل وقوانين أبوليدس السارية في كنيسة الإسكندرية توصي الأسقف والكهنة وصية خاصة برعاية وعلاج المرضى.

فالنسك عنده هو التطبيق المباشر لحياة الرب يسوع ليكون هو قدوة مثالية للآلاف من تلاميذه ورهبانه. وهذه شهادة حيَّة على سمو أعماقه الروحية ومدى إنكاره لذاته.

ومن هذا المنطلق ندرك العلَّة وراء إحساسه بالأسى والألم نتيجة ضياع الهدف من إماتة الذات من بعض تلاميذه. فليس النسك هو إماتات جسدية وحسب، بل لابد أن ترافقه حراسة الأفكار لمقاومة إيحاءات العدو، مع هذيذ دائم وترديد آيات الكتاب المقدس عن ظهر قلب والتأمُّل فيها، ثم صلاة بلا فتور ولا انقطاع، كلها أساسيات النسك في ''الكينونيا الباخومية''، تسلَّمها القديس باخوميوس من القديس بلامون، فصارت حجر الزاوية عنده. ومنها امتد وتطور الدور الذي على الأب الروحي للجماعة أن يكونه، لأن التواضع والطاعة اللذين عاش بهما القديس باخوميوس سبع سنوات مع معلِّمه، صارا النموذج الذي صاغ على مثاله التلمذة الرهبانية لدى الجميع، وبصورة ممتازة في تلميذه المحبوب تادرس.

الأُبوَّة الروحية ذات الإيمان القويم:

إلى جوار العناصر النسكية السليمة التي اتخذت مكانها الصحيح في أساسيات ''الكينونيا الباخومية''، تسلَّم أيضاً القديس باخوميوس من معلِّمه إيماناً قويماً وشركة كنسية متكاملة صحيحة، لتصير قِيَماً ثمينة للغاية في حياة الشركة. ولولاها ما استطاعت ''الكينونيا'' أن تجد مكانها في الكنيسة الجامعة الرسولية.

فالإيمان لم يكن سهلاً في الوقت الذي نال فيه القديس باخوميوس معموديته، إذ كان العصر مضطرباً بتيارات من البدع والهرطقات، بدءاً من انشقاق ملاتيوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط) وأتباعه ضد البابا ألكسندروس بطريرك الإسكندرية الـ ١٩، وانضمامهم بعد ذلك للآريوسيين المقاومين للبابا أثناسيوس الرسولي، ثم هرطقات الماركيونيين والغنوسيين بتفرُّعاتهم المتشعبة، والذين اكتُشفت مخطوطاتهم منذ أكثر من خمسين سنة في إحدى المناطق المتاخمة لدير شينوبسكيون قرب نجع حمادي. كل هذا كان أمام القديس باخوميوس كبحر تتصارع فيه التيارات الشديدة الجذب حتى يعسر اختيار الإيمان الكنسي الصحيح الذي سيتعمَّد على اسمه، فيقول في اعترافه لتلميذه تادرس:

[... حين بدأتُ في ممارسة النسك، حاولوا أن يُسقطوني في هرطقة ملاتيوس، وأحياناً تعاليم ماركيون لأنضم إلى هرطقاتهم. وكنتُ أعلم أنه توجد هرطقات أخرى يدَّعي

أصحابها أنهم يملكون الحق في حياتهم. ولما وجدتُ نفسي مضطرباً بكيت بدموع أمام الله لكي يكشف لي الحق، لأنني **في حيرة من هذه الأمور**. ثم اختُطفت... وسمعتُ صوتاً **من كل اتجاه** يقول: هنا الحق! ورأيت كثيرين يجرون في **كل اتجاه** نحو هذا الصوت ويتبعون الصوت في الظلام، وواحد يقود الآخر... ثم سمعتُ صوتاً يقول لي: لا تنخدع وراء الذين ساروا في الظلام؛ بل اتبع النور، لأن هذا هو الحق. وكان هذا الصوت هو صوت المسيح في شخص ألكسندروس البابا على كنيسة الإسكندرية (عام ٣١٢- ٣٢٨م). أما بقية الأصوات الأخرى التي كانت في الظلام فهي أصوات الهراطقة، وفي كلٍّ منها كان الشيطان هو الذي يتحدث ويقودهم إلى الانحراف... ثم ذهبتُ وعشتُ مع رجل الله بلامون (عام ٣١٦م) الذي كان يسير على خُطى القديسين].

فكان اختيار الفتى باخوميوس للقديس بلامون الناسك ابن الكنيسة المستقيمة الإيمان، الصحيحة المعتقد، هو الذي جعل أديرة الشركة فيما بعد عوناً لبطاركة الإسكندرية ضد الهرطقات؛ ليس بالمساجلات والمجادلات، ولكن بالاعتقاد القويم والحياة الطاهرة والعبادة الحارة والصلاة.

لقد كانوا يقتاتون على العطاء المزدوج الذي تقدِّمه لهم الكنيسة، أعني ''كلمة الله'' المدونة في الأسفار الإلهية، ثم ''الإفخارستيا''. فكانوا يسمعون ''كلمة الله'' بصفة منتظمة خلال القراءات الكنسية وخدمة الليتورجيا وباقي الطقوس على يد الكهنة المستقيمي المعتقد الذين كان أسقف المنطقة يرسلهم للأديرة الباخومية؛ ومن خلال زيارات الأساقفة وافتقاد البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندرية لهم. ثم كانت ''كلمة الله'' أيضاً تُشرح لهم خلال الاجتماعات الأسبوعية التي يعقدها رؤساء البيوت والجماعات يومَي الأربعاء والجمعة، والتي يعقدها رؤساء الأديرة يومَي السبت والأحد. وفي غير هذه الأوقات كانت كلمة الله هي هذيذهم الدائم بقية الأسبوع، يردِّدونها غيباً خلال أعمالهم أو في قلاليهم(٤)، وكلها مختومة بخاتم السلطان الكنسي.

---

(٤) كانت قوانين القديس باخوميوس التي ترجمها القديس جيروم إلى اللاتينية، توصي بتعليم القراءة والكتابة إجباراً للمبتدئ في الرهبنة حتى يمكنه حفظ صلوات الساعات (الأجبية المقدسة) عن ظهر قلب. كما توصي أيضاً بحفظ العهد الجديد كله، أو على الأقل الأناجيل. كذلك نرى صدى هذه التوصيات في قوانين أورسيزيوس حيث كان مطلوباً ترديد آيات الكتاب المقدس بعد صلوات المجمع أو عقب الأعمال المجمعية.

ومن الناحية الأخرى، كان تناولهم من الجسد والدم الأقدسين يوحِّدهم بجسم الكنيسة الجامعة الرسولية من أقاصي المسكونة إلى أقاصيها. ورهبان الكينونيا - كأبناء أوفياء لهذه الكنيسة - كانوا يترقَّبون هذا القوت الروحي من أساقفة الكنيسة وكهنتها. وبذلك لم تكن "الكينونيا الباخومية" فرعاً مستقلاً داخل الكنيسة، ولا قامت لتزيد التعددية في الكنيسة؛ بل هي إحدى الثمار المشتهاة لكنيسة الإسكندرية.

كلمة ختامية:

كان إيمان أبناء القديس باخوميوس أن "حياة الكينونيا" هي بعينها كنيسة الرسل التي قامت من ثلاثة قرون في أورشليم كما يشهد القديس تادرس:

+ "اجتمعنا هنا في هذه الشركة بترتيب إلهي وليس بترتيب بشري... إنها أماكن القديسين التي يسكن فيها الله" (أقوال القديس تادرس).
+ "الرسل هم الذين وضعوا حياة الشركة، ثم جاء أنبا باخوميوس بعدهم وأكملها" (تعاليم القديس تادرس).
+ "نسلك في حياة الشركة كأننا مواطنو السماء، ونحيا كأننا ملائكة".

(وصايا القديس تادرس)

وقد يتبادر إلى ذهن القارئ - في الختام - هذا التساؤل: هل توقَّفت وانقطعت هذه المؤسسة الضخمة البهية التي اجتذبت وما زالت تجتذب أنظار العالم المسيحي بقوة شهادتها المذهلة وتجديدها لكنيسة الرسل؟ إطلاقاً! فالوعد الذي أعطاه الرب يسوع وعلى رأسه إكليل الشوك للقديس باخوميوس ما زال موجوداً: إنَّ "... البذرة التي زرعتها لن تنتهي أبداً، بل ستُحفظ في العالم حتى نهاية الأزمنة". لأنه طالما يجتمع إخوة في محبة المسيح ليعيشوا في شركة كاملة في المقتنيات وفي المحبة الأخوية وإنكار المشيئة الذاتية تحت قانون روحي وأب معلِّم، ستبقى "الكينونيا" قائمة حيَّة.

الثقافة المسيحية في عصرها الذهبي

بإعلان مراسيم التسامح الديني التي أصدرها الإمبراطور قسطنطين الكبير عام ٣١٣م بعد انتصاره في معركة قنطرة ملفيان قرب روما، بدأ الانهيار الرسمي للوثنية بتحوُّل الدولة - أباطرة وأمراء وحكَّام - إلى المسيحية. فكان على الكنيسة أن تجيب على هذا التساؤل الصعب، بعدما صار لها المكانة المرموقة - إن لم تكن الأولى - في الدولة: كيف يمكنها أن تتعامل مع الأيديولوجيات والثقافات الوثنية التي تشرَّب بها المجتمع والحضارة الرومانية؟ ثم ما هي نظرتها إلى التربية العائلية والبيت المسيحي والأسرة؟

لقد كان معروفاً منذ بداية الكنيسة، مدى التعارُض بين الحضارة والثقافة اليونانيتين المعاصرتين، وبين "الكمال المسيحي" الذي تدعو إليه الكنيسة في كرازتها وخدماتها. والكنيسة لم تسعَ لتُقيم ثقافة مقابلة أو بديلة، لأن هذا ليس عملها. لذلك كان الروح القدس الذي يقودها منذ العصر الرسولي الأول يعمل في رتابة وهدوء، وخلف الصفوف، لهذا التغيير المرتقب. فكانت أول مواجهة بين الكنيسة والثقافة المعاصرة في مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، حيث استطاع كليمندس الإسكندري، وتلميذه أوريجانوس من بعده، اقتحام هذا الصنم المزيف الذي هو "الثقافة اليونانية". وفي الحقيقة، كانت "الثقافة اليونانية" صنماً معبوداً أحاطته المدارس الفلسفية اليونانية المتأخرة بهالة من التكريم والتقديس؛ بل من الرهبة والتخويف، حتى يتهيَّب أي شخص من محاولة الولوج إليها أو التعرُّض لها بالفحص أو النقد.

وكان اقتحام آباء الإسكندرية اللاهوتيون لهذه الثقافة بتؤدة وبحذر، لكن عن يقين كامل. فلم يتطرَّقوا في إبداء الإعجاب بالقيم الإنسانية المدَّخرة في هذه الآداب الكلاسيكية، كما فعل الفلاسفة والشعراء الهللينيون الذين كالوا لها التمجيد والإعجاب لدرجة تأليه أعمال أفلاطون وأرسطو ومن شابههما. ولكن - في نفس الوقت - كان آباء الكنيسة واعين لِمَا فيها من قِيَم إنسانية لا ينبغي الاستهانة بها أو الحطّ من قدرها. فكانت أعمال آباء مدرسة الإسكندرية تشهد

على مدى الاتزان والتحفُّظ تجاهها بالمقارنة مع المعاصرين لهم.

هذه النظرة المتوازنة التي بلغتها كنيسة القرن الثالث الميلادي، جعلت التعارُض بين الإيمان المسيحي والعلوم الراقية يتناقص جداً في القرون التالية. فكان من السهل على النبلاء والعظماء والأُسرات الحاكمة والغنية التي آمنت بالمسيح أن يستمروا في تربية أولادهم في المدارس الوثنية دون خوف أو جزع؛ إذ كان الأساتذة والمعلِّمون المسيحيون في هذه المدارس ليسوا أقل ثقافة ولا كفاءة من نظرائهم الوثنيين.

ملامح مشتركة بين آباء الكنيسة الكبار:

وهكذا بدخول الدولة الرومانية إلى المسيحية، لم تجد الكنيسة غضاضة في استعمال القواعد التقنية الكلاسيكية لصياغة التربية والأدب المسيحيَّيْن. ومع تدهور وانحطاط الثقافة الوثنية، كانت الثقافة المسيحية تنمو وتزدهر. فدراسة أسفار الكتاب المقدس والتأمل فيه صارتا بديلاً عن هوميروس وفرجيل كأساس للتربية العائلية. كما استخدم الآباء نفس الوسائل الفنية التي ابتدعها علماء اللغة اليونانية والأجروميات، لشرح وتفسير الكتاب المقدس. وكذلك "العظة" ـ كصيغة أدبية لمخاطبة الجماهير واستثارة حماسهم ـ استخدمت أيضاً أساليب البلاغة والفصاحة والحوار الجدلي المنطقي في الإقناع مثل الخطباء القدامى. وأيضاً "علم اللاهوت" استعار الأساليب الفلسفية والمنطقية. وهكذا في سائر فنون وعلوم الثقافة المعاصرة.

وبذلك استطاعت الكنيسة أن تقوم بدور الريادة لثقافة العصر، فكانت النتيجة أنْ أخرجت الثقافة المسيحية مجموعة من أرقى وأذكى الذهنيات والعقليات الكنسية، اشتهر بها النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الأول من القرن التالي له، وصارت هذه الحقبة معروفة باسم "العصر الذهبي لآباء الكنيسة"، وهو العصر الذي عاش فيه أعاظم الكتَّاب الكنسيون شرقاً وغرباً. ومن أمثلة ذلك: **في الشرق**: القديسون أثناسيوس الرسولي، باسيليوس الكبير، غريغوريوس اللاهوتي، غريغوريوس النيسي، يوحنا ذهبي الفم، كيرلس الكبير؛ **وفي الغرب**: القديسون أمبروسيوس، جيروم، أغسطينوس.

ويُلاحَظ أن **أغلب** أولئك الآباء وُلِدوا ما بين سنتي ٣٣٠ و٣٥٠م، من والدين تزوَّجا في عصر السلام القسطنطيني؛ لذا كانوا من نفس العصر، وكان يربط معظمهم علاقة قوية بالبعض الآخر، مما أدَّى إلى تأثير شخصيات وكتابات بعضهم على شخصيات وكتابات البعض الآخر.

هذا العصر الذهبي هو إحدى الومضات التاريخية التي تمتَّعت بها الكنيسة؛ حيث إن آباء الكنيسة نهلوا كل ما كان جيداً في الثقافة الوثنية المتداعية، في نفس الوقت الذي بلغ فيه الإلهام المسيحي الأدبي غاية النضج. فكانوا جميعاً شخصيات عظيمة قوية، ولكل منهم طابعه المتميز. وهذا لا يمنع من وجود سمات مشتركة وعناصر متشابهة بينهم يمكننا استخلاصها حتى نخرج بصورة عامة لأب أو معلِّم الكنيسة بالمعنى المثالي الكامل. هذه السمات هي:

١ - أغلب الآباء كانوا من العائلات الراقية في المجتمع الروماني. فالقديس أمبروسيوس ابن لأحد حكَّام الولايات في الغرب؛ والقديس يوحنا ذهبي الفم ابن لأحد القواد العسكريين، هذا بلا شك هيَّأ لهم تفرُّغاً كاملاً للتحصيل والدراسة سنين طويلة. والقديس أثناسيوس الرسولي، رغم أنه كان من أسرة فقيرة في صعيد مصر، إلاَّ أن احتضان البابا ألكسندروس بطريرك الإسكندرية وقتئذ له جعله يهتم بتحصيل العلوم ودراسة الفلسفة والبلاغة والشعر لهوميروس وأفلاطون وأرسطو في مدارس الإسكندرية[1]. والقديس باسيليوس الكبير رحل مع صديقه غريغوريوس اللاهوتي من كبادوكية في آسيا الصغرى للدراسة في أرقى جامعات أثينا تحت أيدي أساتذة مشهورين في الأدب اليوناني القديم. القديس جيروم درس في روما على يدي أحد أساتذة النقد الأدبي، رغم أن وطنه الأصلي كان دلماطية (يوغوسلافيا قبل تفكُّكها إلى عدة دول). والقديس يوحنا ذهبي الفم تتلمذ لليبانيوس أشهر أساتذة الخطابة في أنطاكية - وكان وثنياً - وكما ذكرنا من قبل، فإن الهيبة والتخوُّف من دراسة الأدب الوثني كان قد ضعف نتيجة لقدرة المسيحية على مواجهة التحدِّي، وانتصارها بمؤازرة الروح القدس في كل المحاورات التي دخلتها ضد المبادئ الوثنية المزيفة.

هذه الدراسات استغرقت سنين طويلة من الدارس حتى يتقنها. وقد استطاع آباء الكنيسة في عصرها الذهبي أن يستخدموا قوة اللغة وفنونها لخدمة الكرازة ومبادئ الإنجيل، فصاروا من أعاظم الكتَّاب بالمقارنة مع معاصريهم الوثنيين، حتى أن ليبانيوس أستاذ الخطابة المعروف في أنطاكية، حينما سُئل عمَّنْ يرشِّحه خليفة له في وظيفته؟ كان جوابه: يوحنا (ذهبي الفم) لو لم يخطفه المسيحيون!

---

(١) الأب متى المسكين، "القديس أثناسيوس الرسولي"، مطبعة دير القديس أنبا مقار، الطبعة الثالثة: ٢٠٠٨، ص ٤٨-٥٢؛ عن: Greg. Nez. *Orat.* 21.6.

٢ - كثيرون منهم رضعوا الإيمان وهم ما زالوا بعد في أقماط طفوليتهم، لأنهم كانوا من عائلات وبيوت آمنت بالمسيح في أجيال سابقة، فيرجَّح أن القديس أثناسيوس كان ابناً لكاهن قبطي استقى منه كل تهذيبه الروحي في طفولته المبكِّرة(٢). ولأن أمهاتهم كنَّ مسيحيات، لذلك برز دور المرأة كأم مثالية في التربية بمقتضى الإيمان.

فجميعنا يعلم مقدار الأثر الكبير للقديسة "مونيكا" في اهتداء ابنها القديس أغسطينوس حتى اعترفت الكنيسة الغربية بها فأدخلتها ضمن مجمع قديسيها وقديساتها اعترافاً بفضلها. وأيضاً "أنثوسا" والدة القديس يوحنا ذهبي الفم التي ترمَّلت وهي ما زالت في سن العشرين، ورفضت الزواج الثاني رغم رفاهية الحياة التي كانت تعيشها، مفضِّلة بالحري تكريس حياتها لتربية ابنها الوحيد. وانعكس هذا الوضع المثالي على أعمال القديس يوحنا ابنها، فكان يمدح دائماً البتولية والترمُّل، كما كان لا يحبِّذ الزواج الثاني؛ حتى أن ليبانيوس أستاذ الخطابة في مدينته لم يقدر أن يُخفي إعجابه بدور المرأة في الأسرة، فصاح: "ما أعظم النساء لدى المسيحيين"!! والقديسة "ماكرينا" الأخت الكبرى للقديس باسيليوس الكبير كرَّست حياتها لشقيقها غريغوريوس النيسي، ثم ختمتها في دير للعذارى.

هذه السمات الخلقية المسيحية لم تعرفها الوثنية في حياتها الطويلة، وسنتعرض لها بالتفصيل في فصول مقبلة.

٣ - بعدما ختم هؤلاء الآباء العِظام دراساتهم، بدأوا حياتهم العملية في معترك الحياة كمعلِّمين أو محامين أو أساتذة فصاحة وأدب وفلسفة. واختلاطهم بالعالم هيَّأ لهم فرصة اختبار مشاكل الحياة العامة في احتكاكهم اليومي. ومن هنا تربَّت فيهم القدرة على المشاركة في العناء والمجاهدة التي يتعرَّض لها المجتمع، فكانت أحاسيسهم الإنسانية في غاية القوة والعمق، ومن ثمَّ استطاعوا أن يقدِّموا في عظاتهم وكتاباتهم الحلول المسيحية الإنجيلية لمشاكل الحياة من واقع عملي وليس عن تأمُّل نظري تجريدي أو أيديولوجيا تصوُّرية. ويضيق بنا المقام عن حصر كلمات التوبيخ والتقريع العنيف ضد الأغنياء والقادرين، ومدى تسلُّطهم على المساكين والمظلومين، في عظات ذهبي الفم، حيث بلغ تعداد المحتاجين والمساكين في أنطاكية، المدينة التي صار عليها كاهناً وواعظاً، نصف تعداد سكانها!!

(٢) المرجع السابق.

٤ – حياة الكمال حسب "المثال المسيحي" التي رسمها الروح القدس لكنيسة القرن الرابع وما يليه، كانت معيشة الصحراء. لذلك كانوا جميعاً بلا استثناء رهباناً لفترة من الزمان، طالت أو قصرت، قبل دخولهم خدمة الكنيسة كمعلِّمين أو أساقفة أو بطاركة. وهكذا اعتنقوا النسك الشديد كتلاميذ لإحدى الشخصيات القائدة في الحياة الرهبانية، فتدرَّبوا على الزهد في العالم والمقتنيات، وعلى التكريس القلبي لله داخلاً وخارجاً، وعلى العفة جسداً ونفساً وروحاً. فالقديس أثناسيوس الرسولي تتلمذ لأب الرهبان القديس أنطونيوس. والقديس كيرلس عمود الدين تربَّى في برية شيهيت على أيدي آباء عِظام في أديرة أنبا مقار(٣).

وبعدما عاش أولئك الآباء في البراري فترة من الزمان، دعتهم الكنيسة لخدمتها فأطاعوها وكرَّسوا حياتهم لها بالكامل. ولا يعني هذا أنهم جميعاً قد صاروا أساقفة وبطاركة، بل منهم مَنْ خدموها كمتوحدين مثل القديسين أنطونيوس ومقاريوس وباخوميوس، أو كمعلِّمين مثل العلاَّمة ديديموس الضرير والقديس جيروم. لكن الذين صاروا أساقفة أو بطاركة بَقِيَ حنينهم للرهبنة حيّاً في أعماقهم، وكثيراً ما نضح على كتاباتهم وأقوالهم. فتلمذة القديس أثناسيوس لأب الرهبان أنبا أنطونيوس صاغت لاهوته، فجعلته نوعاً من الجهاد النسكي على مستوى الحب الإلهي الذي هوَّن عليه العذاب والنفي والتشريد؛ ودفاعه عن الإيمان هو رسالة حب أكثر منها رسالة تعليم، وعَمَلَ فداءٍ أكثر منه عمل واجب، حتى صار النسك إحدى المواهب التي زكَّته لاعتلاء كرسي البطريركية بشهادة أساقفة مصر في حفل رسامته(٤). وذهبي الفم لم يكفَّ عن التغنِّي بأمجاد الحياة الرهبانية مستخدماً فصاحته التي حباه بها الله ليسبي قلوب سامعيه ويلهبها. فيا لغيرة قلبه وهو يحاول أن يستنهض قلوب سامعيه ليتركوا حياة التبذُّل والانحلال والرفاهية ليتمثَّلوا بسكان القفار والبراري(٥).

٥ – رغم صعوبة المهمة التي كانت تواجه هؤلاء الآباء العِظام، إلاَّ أنهم بجانب قداستهم الشخصية كانوا عظماء أيضاً في ذهنياتهم. فقارئ تفاسير وشروحات ذهبي الفم يتعجَّب من قدرته الذهنية في استيعاب آيات الكتاب المقدس واستخدامها في الموضع الصحيح، في وقت لم تكن

---

(٣) الأب متى المسكين، "الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار"، الطبعة الثالثة: ١٩٩٥، ص ٦٨٠.

(٤) المرجع السابق.

(٥) راجع مقالات: "القديس يوحنا ذهبي الفم والحياة الرهبانية"، مجلة مرقس، أعداد: سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر ١٩٧٦.

تتوفر فيه المساعدات الكتابية التي نعرفها اليوم، مثل: قاموس الكتاب المقدس، فهرس الكتاب المقدس، وما شابه. كذلك أيضاً قدراتهم الخطابية والبلاغية في وقت كانت فيه الكلمة المسموعة لها من الأهمية الأولى ما يفوق الكلمة المكتوبة، بسبب غلو أعمال النساخة وارتفاع أجور المختزلين الذين عليهم تسجيل العظات والأقوال حالما ينطق بها الواعظ.

ولكن على كل حال، جاءت تعاليمهم غنية بالعقيدة والطقس واللاهوت إلى جانب الشرح والتفسير بحسب معناه العلمي الدقيق. أي أنها كانت "تفسيراً علمياً" داخل الشرح الروحي. وعلينا ألاَّ ننسى أنه في هذا العصر كانت الكنيسة تتعرَّض لعواصف متباينة من البدع والهرطقات. فكان لابد أن يأخذ اللاهوت والشرح الصيغة الجدلية المنطقية بحسب أصولها اليونانية القديمة. لكن هذا لا يمنع وجود مقالات لم تُكتب للرد على شيء أو على شخص محدَّد.

٦ - كما تركوا لنا رسائل متنوعة غنية بالتوجيه الروحي. فالرسائل الفصحية والشخصية للقديس أثناسيوس تقدِّم كنزاً سخياً لتاريخ الكنيسة المصرية المعاصر؛ وأيضاً: المحاورات حول الثالوث القدوس، والرد على الهرطقة الآريوسية، وبداية العصر الرهباني في مصر. كما أن رسائل القديس باسيليوس هي لآلئ في الأدب المسيحي للمراسلات، بأسلوب ولغة لا تُجارى في العمق ودفء المشاعر الإنسانية. وهناك أيضاً رسائل القديس غريغوريوس اللاهوتي التي تخطف الأبصار بأسلوبها الأتِّيكي[٦] التقليدي. ثم رسائل القديس يوحنا ذهبي الفم الممتلئة عزاءً وتقوى للأرملة الشابة التي فقدت زوجها، أو لشمَّاسته المترمِّلة "أوليمبيا" التي بذلت أقصى جهدها في محاولات تحسين حالته المعيشية في منفاه الثاني في جبال القوقاز بأرمينيا[٧]، حتى كادت أن تيأس.

لذلك يمكن إيجاز القول: إن الثقافة المسيحية كانت "تعليماً مسيحياً"، ثقافة دينية منسَّقة حول "الإيمان" و"الحياة الروحية". هذا ما قدَّمه آباء الكنيسة للمؤمنين المثقفين، علمانيين كانوا أم كنسيين، رهباناً كانوا أم من عامة الشعب. ولا نخطئ التفكير فنظن أن هناك كانت توجد ثقافة خاصة لرجال الدين، أي الإكليروس، وأخرى للعلمانيين. فالقيم الدينية المدَّخرة في كتابات آباء

---

(٦) وهي لهجة أهل أثينا آنذاك.

(٧) راجع: "بين القديس يوحنا ذهبي الفم وبين الشماسة "أوليمبيا"" في مجلة مرقس، أعداد: فبراير ومايو ويوليو ١٩٧٧.

الكنيسة في عصرهم الذهبي قُصد بها الارتقاء بالمجتمع الإنساني المعاصر، وصالحة للتطبيق على كل المستويات ولكل الأزمنة. ولا نتخيل أن ما كتبوه كان لأجل الدراسة في "إكليريكية" يَدْرِس فيها المرشَّحون للوظائف الكهنوتية والرعائية، كما هو حادث الآن؛ بل كانت تعاليمهم ومبادئهم مقدَّمة لعامة الشعب، لجماهير المؤمنين، ثم آلت إلينا ككنز لا يمكن التفريط فيه.

ديديموس الضرير البصير

(٣١٢-٣٩٧م)

العلاَّمة ديديموس الضرير هو شخصية فذَّة من الشخصيات التي تولَّت إدارة مدرسة الإسكندرية اللاهوتية في القرن الرابع الميلادي، وآخر العبقريات التي تمخَّض بها الزمن لهذه المدرسة.

حياته:

ما نعرفه عن سيرته يرجع أساساً إلى الشهادات التي كتبها عنه الذين عاصروه شخصياً: القديس جيروم، وروفينوس، ثم بالليديوس؛ بالإضافة إلى ما رواه المؤرِّخون المتأخِّرون عنه: سقراط، وسوزومين، وثيئودوريت.

وُلِد ديديموس بالإسكندرية حوالي سنة ٣١٢م. وفي سنِّ الرابعة من عمره فَقَدَ بصره إثر مرض أصاب عينيه. وبالرغم من ذلك استطاع أن يعلِّم نفسه كل العلوم المألوفة في زمانه كالرياضة والحساب والهندسة والموسيقى، بالإضافة إلى حصيلة هائلة من المعارف اللاهوتية لجميع الأعمال الأدبية لِمَنْ سبقوه. وينعكس أثر هذه العبقرية على الذين تتلمذوا له وعاينوه مثل: جيروم وروفينوس؛ إذ اعتُبِر في أعينهم أعجوبة زمانه. فكيف يتيسر لِمَنْ فَقَدَ النظر أن يُحصِّل العلوم الرياضية مثلاً؟ وقدرته على التحصيل بلغتْ إلى حدِّ التعبير المصطلَح عليه في زمانا ''دائرة معارف encyclopaedia''؛ فهي ليست أصالة في التفكير وعمقه بقدر ما هي تجميع وتصنيف وتبويب نابع من طاقة هائلة من الذاكرة والاستيعاب.

لذلك، أمام هذه القدرة الفذَّة، لم يتردد القديس أثناسيوس الرسولي أن يضعه في مركز المسئولية في مدرسة الإسكندرية اللاهوتية سنة ٣٤٠م[1]، وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره! والقديس

---

(1) Rufinus, Hist. Eccl. 2:7.

جيروم يلقِّبه باسم ''المعلِّم'' في مؤلَّفه ''مشاهير الرجال''[٢] مادحاً سيرته وعلمه شاهداً بقوة تأثيره على معاصريه من كبار اللاهوتيين والروحانيين في الغرب: القديس أمبروسيوس، والقديس أغسطينوس؛ ويسميه روفينوس: ''النبي والرجل الرسولي''.

ليست ذهنية ديديموس وعبقريته وحدهما سبب شهرته؛ بل وأيضاً حياته النسكية والتزامه بنذر الفقر والمسكنة مما جعل القديس أنطونيوس أب الرهبان ينزل عنده حينما غادر الجبل الشرقي ومغارته إلى الإسكندرية لتشديد المؤمنين والبابا أثناسيوس الرسولي في الكفاح ضد الآريوسية[٣]. ويُحكى أن القديس أنطونيوس قال له: ''لا تكتئب يا صديقي، ولا يغمرك الأسى والحزن بسبب حرمانك من العينين اللتين بهما تُبصر الحشرات والبعوض؛ بل بالحري افرح وتهلل! لأن الله منحك البصيرة التي بها تُشارِك الملائكة في رؤية الله وتُدرِك بها بهاء نوره''[٤].

وقد صار من المعروف أن ديديموس هو أول مَنْ ابتكر الكتابة المعروفة بالحروف البارزة أو المحفورة لتعليم المكفوفين، ليستطيع أن يعلِّم نفسه العلوم وآداب السابقين له، وهي نفس الفكرة التي طبَّقها ''برايل'' في القرن التاسع عشر لتعليم المكفوفين بواسطة اللمس بالأصابع.

وقد تنيَّح ديديموس عام ٣٩٧م عن ٨٥ سنة في عصر البابا ثاوفيلس البطريرك الـ ٢٣ بعد أن عاصر القديس أثناسيوس وخليفته البابا بطرس الثاني ثم البابا تيموثاوس.

مصنَّفاته الأدبية:

معرفتنا بهذا العالِم اللاهوتي مستمدة من كتاباته أكثر مما نعرف عن تفاصيل سيرة حياته. ويقول معاصروه إنه ترك كمّاً هائلاً من الأدب التفسيري الكتابي، وكذلك كتابات في علم اللاهوت المسيحي، بسبب قدرته الفذَّة على استيعاب كتابات السابقين ثم إعادة تنسيقها وشرحها. فيشهد بالليديوس أنه كَتَبَ تفاسير على كل أسفار العهد القديم كلمة كلمة. وبنفس الاهتمام اتَّجه إلى شرح العقائد اللاهوتية بمهارة فاقت الأقدمين.

---

(2) Jerome, De Vir. Ill. 109.

(٣) ارجع إلى فصل: "أنبا أنطونيوس في الجبل الشرقي" من هذا الكتاب.

(4) Socrates, Hist. Eccl. 25.

ويؤكِّد القديس جيروم هذه الشهادة بقوله إن مجرد حصر تعليقاته على عدد كبير من أسفار الكتاب المقدس، ومقالاته عن الروح القدس والثالوث، وكتاباته ضد الآريوسية، بالإضافة إلى أعماله الأخرى: ''... يحتاج إلى جهد قائم بذاته''(٥).

وللأسف، ضاعت معظم مؤلفاته ضحية لطغيان التسلُّط البيزنطي على الفكر الإنساني، وذلك بسبب الجدل الأوريجاني الذي ثار في القرون التالية. وما نعرفه - أو على وجه الدقة ''ما نكتشفه'' - من آثاره يتركَّز معظمه في النتاج الأدبي الآبائي المعروف باسم ''السلاسل Florilegia Catena''، أو ما هو متداول تحت أسماء مستعارة لقديسين معروفين، وهو يستغرق جهداً علمياً هائلاً للوصول إلى نتائج حاسمة بالنسبة إلى تحقيقه والتأكُّد من نسبته إليه. وبعد سنين طويلة من المثابرة على تحليلها ونقدها الأدبي، جاءت اكتشافات ''محاجر طُرة'' بالقاهرة سنة ١٩٤٢م لتقلب النتائج الختامية التي أوشك أن يصل إليها علماء الأدب المسيحي قبيل الحرب العالمية الثانية، وتثير من جديد عديداً من القضايا.

١ - كتاباته التفسير ية:

الكتاب المقدس يشغل المكانة الأولى والعُظمى لدى ديديموس(٦)، فهو الذي يُلهم فكره بالحركة ليستمد من آياته البراهين الكتابية التي تسند دفاعه اللاهوتي. لذلك وضع الكثير من الشروحات والتفاسير التي لم يتبقَ منها سوى شذرات قليلة جاءت في ''السلاسل'' التي جمَّعها آباء القرون التالية.

العهد القديم:

من هذه ''السلاسل'' عرفنا أن ديديموس شَرَح سفر التكوين، كما أكَّدت ذلك اكتشافات ''محاجر طرة''، ثم وضع شرحاً على أسفار الخروج وصموئيل الثاني والملوك الأول والمزامير.

(5) Jerome, De Vir. Ill. 109.

(٦) تقول دائرة المعارف الكاثوليكية الحديثة عنه إنه يؤمن بـ ''السرّ الكائن في كلمة الله Mystique in the Word of God''. لذلك، فديديموس يعتقد أن قراءة الكتاب المقدس تطهِّر النفس وتقودها للالتصاق السرائـري بالكلمة اللوغوس. لذلك ينبغي على المسيحي نشر ''كلمة الله'' بين معاصريـه (*NCE* Vol. 4, p. 861).

ويضيف القديس جيروم أن ديديموس وضع ثماني وعشرين مقالة على نبوة إشعياء من أصحاح ٤٠ حتى أصحاح ٦٦، وأيضاً وضع شرحاً على نبوَّتَي إرميا ودانيال.

ويتفق القديس جيروم مع روفينوس أن ديديموس وضع شرحاً لنبوة هوشع في ثلاثة كتب موجَّهة للقديس جيروم شخصياً حينما زاره في الإسكندرية حوالي سنة ٣٩٦م. وتحت نفس الظروف كتب ديديموس للقديس جيروم شرحاً لنبوة زكريا في خمس مقالات. وبشهادة القديس جيروم، فإن هذه المقالات جميعها تتميز بالنمط الأدبي الرمزي allegory الذي تشتهر به مدرسة الإسكندرية اللاهوتية. وهذه التفاسير هي التي أوحت للقديس جيروم بكتابة شرحه على نبوة هوشع وزكريا.

ومن هذه "السلاسل" نعلم أن ديديموس شرح أسفار أيوب والمزامير والأمثال حسب شهادة القديس جيروم. وقد عُثِر على بعض هذه الشروحات منسوبة لاسم مستعار وهو "ديودورس أسقف طرسوس"(٧). كذلك وُجِدَت أيضاً بعض الشذرات لشرح "نشيد الأنشاد" و"الجامعة" أيدتها اكتشافات "محاجر طرة".

العهد الجديد:

يقول القديس جيروم إن ديديموس شرح إنجيلَي القديسَيْن متى ويوحنا، وإن لم يتبقَ منهما سوى شذرات قليلة. أما إنجيلا القديسَيْن مرقس ولوقا فلم تظهر له تعليقات عليهما. وكذلك الحواشي الكثيرة لسفر أعمال الرسل، والمنسوبة لديديموس، هي من الكثرة حتى يمكن القول بيقين إنه وضع مؤلَّفاً كاملاً عن هذا السفر الذي لم يتبقَ منه سوى القليل. كما أنه لا يوجد شكٌ في أنه شرح كل رسائل القديس بولس كما يظهر من كتابات ورسائل القديس جيروم. أما "الرسائل الجامعة" فقد عُثر له على حواشٍ في ترجمات لاتينية، ولكن الاعتراضات القائمة ضد نسبتها لديديموس جعلت الحصيلة النهائية مشكوكاً فيها.

والملاحَظ أن ديديموس يتبع الخط التفسيري الرمزي الذي اشتهر به معلِّمه أوريجانوس. فهو يميِّز بين ثلاثة مستويات لفهم الكتاب المقدس: الأول، بسيط ظاهري؛ الثاني، تاريخي روائي؛ الثالث، روحي يُقدِّس النفس. وهذا ما طبَّقه في كل شروحاته على العهد القديم.

---

(٧) وهو الذي تتلمذ له القديس يوحنا ذهبي الفم.

ورغم ذلك، فإنه ينبغي الانتباه إلى سمة خاصة بهذا الكاتب الضليع، أنه في مجادلاته مع الهراطقة كان يلتزم دائماً **بالتفسير الحرفي للمعنى** دون الدخول في الأنماط الرمزية.

ولأن ديديموس لم يكن يعرف اللغة العبرية كمعلِّمه أوريجانوس، لذلك استخدم الترجمة السبعينية المنقَّحة بواسطة الأسقف المصري حزقيوس(٨)، والتي ذاعت بين آباء كنيسة الإسكندرية منذ القرن الرابع الميلادي. وكان ديديموس يهتم للغاية بالوصول إلى النص الصحيح الدقيق مهما كلَّفه ذلك من جهد؛ لذلك كان يلجأ إلى المقارنات بين النسخ المصحَّحة للترجمة السبعينية ولا يأنف من الالتجاء إلى ترجمة ''أكيلا'' الدخيل اليهودي، أو ترجمة ''سيماخوس'' السامري اليهودي، أو ترجمة ''ثيئودوسيون''(٩) الدخيل اليهودي في القرن الثاني، ويتناقش مع الهراطقة حول النص الصحيح الدقيق بعقلية علمية مستنيرة.

٢ ـ أعماله اللاهوتية:

١. ''على الروح القدس'':

ليس هناك أي شك في صحة نسبة هذا المؤلَّف لديديموس، والذي قام بترجمته إلى اللاتينية القديس جيروم تحت إلحاح البابا داماسوس أسقف روما، وبدأ الترجمة سنة ٣٨٤م وانتهى منها بعد سنة ٣٨٦م. وقد كتب ديديموس هذا المؤلَّف تحت إلحاح أصدقائه للردِّ على محاربي الروح القدس وأتباع مقدونيوس الذي اشتهر في التاريخ الكنسي باسم ''عدو الروح القدس''، إلاَّ أنه لم يتطرَّق مطلقاً إلى ذِكر اسمهم في كتابه.

لكن متى بدأ ديديموس في كتابته باليونانية؟ بلا شكّ كان هذا قبل عام ٣٨١م، حيث كان قد استعان بترجمته اللاتينية القديس أمبروسيوس أسقف ميلان عند كتابة مؤلَّفه عن الروح القدس أيضاً. لذلك فمن المرجَّح أن تكون كتابته معاصرة لكتابة نظيره القديس باسيليوس رئيس أساقفة قيصرية كبادوكية في النصف الثاني من عام ٣٧٥م.

(٨) كتاب: ''العهد القديم كما عرفته كنيسة الإسكندرية''، إصدار دار مجلة مرقس، ص ٥٣.

(٩) المرجع السابق، ص ٤٨ـ٥٠.

وقد ذاع هذا الكتاب بسرعة في الشرق، وانتشر أيضاً في الغرب حيث كانت الحساسية ضد أوريجانوس أقل بكثير مما كانت في الشرق، وكان هذا الكتاب في متناول يد كل من القديسين أمبروسيوس وجيروم وأغسطينوس. ولسوء الحظ لا نعرف لهذا الكتاب سوى ترجمته اللاتينية الوحيدة التي قام بها القديس جيروم.

٢. "على الثالوث القدوس":

وهو في ثلاثة كتب، ويُعتبر هذا العمل - بصفة عامة - الأثر الأدبي الخالد لهذا الكاتب، وقد ذاع وانتشر بشهادة سقراط في مؤلَّفه عن تاريخ الكنيسة[10]. ولكنه بَقِيَ مفقوداً حتى القرن الثامن عشر حيث اكتُشِف في مكتبة الكاردينال دومينيك. ولأن الصفحات الأولى لهذا المخطوط - وكان على رِقّ غزال - ضائعة، لذلك أصبح تحديد زمن تأليفه يعتمد على البراهين الداخلية للمؤلَّف نفسه. وقد استقرت أبحاث العلماء على أنه يرجع إلى ما بعد مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١م، بل وبعد تواجُد القديس جيروم في الإسكندرية عام ٣٨٦م.

٣. أعمال أخرى:

ذكر بعض المؤلِّفين الكنسيين اللاحقين للعلاَّمة ديديموس أن له أعمالاً أخرى بخلاف ما قد نوَّهنا عنها. فيقول يوحنا الدمشقي - من الكُتَّاب البيزنطيين في القرن الثامن - إن ديديموس وضع كتباً ضد أتباع ماني، واستشهد ببعض الاقتباسات منها. وكذلك القديس جيروم يذكر له كتاباً بعنوان "ضد الآريوسيين" في مجلدين، ومقالة عن "موت الأطفال" بناء على طلب روفينوس؛ كما أن ديديموس قد فسَّر كتاب "المبادئ" لأوريجانوس.

علاقة ديديموس بمبادئ أوريجانوس:

قبل أن نختم هذا الفصل عن ديديموس، لابد من الإجابة على هذا السؤال: هل سقط في أخطاء معلِّمه أوريجانوس؟ يجيب القديس جيروم عن هذا التساؤل أنه لم يتبع خط معلِّمه. والذين يحاولون تخطئة ديديموس يعتمدون على مقالة غير أصيلة له، وهي "ضد الآريوسية والسابيلية"، أو

(10) Socrates, Hist. Eccl. 4:25.

بسبب سوء فهمهم لبعض العبارات في مقالته ''على الثالوث القدوس''. وكل محاولات النقَّاد لإثبات أنه يقول بسبق وجود النفس - كمعلِّمه أوريجانوس - ليس مقنعاً بدرجة كافية، لأنها تعتمد على نصوص مُصحَّحة بواسطة علماء محدثين. كذلك لم ينجحوا أيضاً في إيجاد نص صريح مؤكَّد على أن ديديموس يقول بالعودة الكاملة للخليقة بجملتها إلى الله، بما فيها من الأرواح الشريرة الساقطة، وهو المأخذ الصعب المتَّهم به أوريجانوس.

قصة تحريم كتاباته:

تبدأ هذه القصة من القديس إبيفانيوس أسقف سلاميس بقبرص، عندما بدأ مهاجمة أوريجانوس باعتباره مبتدعاً؛ فطالَب جيروم وروفينوس بمهاجمته أيضاً، فوافق جيروم ورفض روفينوس. وتحوَّلت مهاجمة جيروم إلى روفينوس نفسه بالإضافة إلى مهاجمته لأوريجانوس وديديموس. وبعد فترة هدأت ثورة جيروم، وترجم كتاب ديديموس ''على الروح القدس'' إلى اللاتينية، وانتشرت هذه الترجمة سريعاً حتى قرأها في الغرب القديس أمبروسيوس وتلميذه أغسطينوس.

ولكن سنة ٥٥٣م، تجدَّدت الثورة على أوريجانوس وتلميذه ديديموس مرة أخرى بسبب أن ناسكاً قديساً - هو مار سابا - في جبل الزيتون حول أورشليم، وكان أباً روحياً لعشرة آلاف راهب؛ كان قد امتلأ حماساً مع تلاميذه لتعاليم أوريجانوس وديديموس، فاشتطُّوا بغير حذرٍ ولا تعقُّلٍ في تأييد تعاليمهما، الأمر الذي أدَّى إلى تدخُّل السلطات المدنية وقمع ثورتهم بحدِّ السيف. ولذلك انعقد مجمع القسطنطينية الثاني - الذي لم تحضره الكنيسة القبطية - وقرر تحريم كتابات أوريجانوس وديديموس، تخلُّصاً من هذا الجانب المناوئ.

اكتشافات محاجر طُرة:

كانت عادة بعض الآباء تلخيص الكتب وتقديمها لتلاميذهم في صورة مختصرة وافية، وهي عادة بدأها القديس كيرلس الكبير (القرن الخامس) على أغلب الظن، فيما يعرف باسم ''سلاسل Catena''. ففي القرن الثامن، نقرأ أن راهباً حديثاً من الدير المعروف باسم ''دير البغل'' على حافة جبل المقطم في مصر القديمة؛ ذهب ليسأل أب ديره عن أحد آباء الكنيسة الذي كان يقرأ له دون أن يفهمه، وكان ما يقرأه هو بعض كتابات أوريجانوس وديديموس في إحدى هذه السلاسل. وقد نُقلت هذه الكتابات بعد ذلك من دير البغل إلى مغارة في منطقة محاجر جبل

طرة، ولا نعلم سبب نقلها إلى هناك، وبقيت مطمورة إلى أن بدأ جيش الاحتلال الإنجليزي في إعداد مغارات في جبل طرة لتخزين الذخائر في الحرب العالمية الثانية، فاكتُشفت هذه الكتابات سنة ١٩٤٢م، وتم دراستها ونشرها في المجموعة الآبائية المعروفة باسم: Sources Chrétiennes، تحت أرقام ٨٣ـ٨٥ في عام ١٩٥٧م.

ذيول الاضطرابات الآريوسية

كانت السنوات الأخيرة من بطريركية القديس أثناسيوس الرسولي، هادئة في الإسكندرية، إلاَّ أنها لم تكن كذلك في باقي أسقفيات الشرق المسيحي، بسبب الانقسامات والمنازعات التي خلَّفتها بدعة آريوس. فقد توالى على كرسي القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، بطاركة وأساقفة آريوسيون مدة أربعين سنة؛ حيث كان أباطرتها يتدخَّلون دائماً لاختيار الشخصيات المماثلة لعقيدتهم الآريوسية. ومع هذا لم تُعدَم الكنيسة الأرثوذكسية فيها قيام جماعات أمينة للإيمان التقليدي الرسولي الذي ثبَّته مجمع نيقية. فصار الحوار اللاهوتي في العاصمة يدور على مستوى الشارع ومحلات البيع والشراء، وحتى بين الفلاحين والأُجراء في الحقول والمزارع! ويقدِّم لنا القديس غريغوريوس النيسي - الأخ الأصغر للقديس باسيليوس رئيس أساقفة قيصرية كبادوكية في آسيا الصغرى - صورة لهذا الجدال الشائع في الحياة اليومية قائلاً:

[في هذه المدينة (القسطنطينية)، إن طلبتَ تغيير عملتك، سيتباحثون معك عن الابن: هل هو مولود أم مخلوق؟ وإذا سألتَ عن نوع معيَّن من الخبز، يكون الجواب الذي نتلقَّاه: الآب هو الأعظم، والابن أقل! ولو حاولتَ الاستدلال على موضع الحمَّامات العامة، فسيُقال لك: لم تكن هناك خليقة أخرى قبل الابن، فهو بكر كل خليقة (والمقصود من ذلك أن الابن مخلوق بحسب العقيدة الآريوسية)][1].

وكان هذا هو معيار انتصار المسيحية الذي نجح الأباطرة الآريوسيون، بالتعاون مع بطاركة العاصمة، في جعله موضع جذب الرأي العام وقتئذ.

وإذا اتجهنا جنوباً بشرق إلى أنطاكية، حيث الكرسي البطريركي الثالث في الكنيسة الجامعة بعد روما والإسكندرية، والمعتَبَر أن القديس بطرس الرسول هو أول أسقف على هذا الكرسي الأنطاكي؛ فسنرى أربع جبهات متعارضة، يرأس كل منها أسقف أو شخصية كنسية متعصِّبة لها:

(1) De deitate Filii et Spiritu. Sanct.

١ . **الجبهة الآريوسية:** وكان أسقفها هو يوزوئيوس Euzoïus، وخليفته دوروثيئوس، وهما صنيعة أباطرة القسطنطينية.

٢ . **الجبهة المناصرة لمجمع نيقية، ومصطلح "الأوموؤوسيون"**: وكان أسقفها يوستاثيوس، وبعد عزله ونفيه حلَّ محله الكاهن "باولينوس". وقد زار هذه الجماعة القديس أثناسيوس الرسولي عند عودته إلى الإسكندرية عام ٣٤٦م، وأقام معهم الشركة وصلَّى معهم في منزل خاص[٢]. وقد تسرَّع لوسيفر أسقف كلاريس في جزيرة سردينيا - بالرغم من نصيحة القديس أثناسيوس له بعدم التدخُّل - ورسم باولينوس أسقفاً على أنطاكية، بسبب حماسه للجبهة الأرثوذكسية. وقد كانت لتلك الرسامة المتسرعة عواقب وخيمة في تعقيد الأمور وتأخير المصالحة في أنطاكية عشرات السنين.

٣ . **جبهة القديس ملاتيوس:** وقد بدأ حياته الكنسية أسقفاً على سبسطية في بلاد أرمينيا، ثم انتقل أسقفاً على حلب المسمَّاة قديماً Beraea في سوريا (وذلك عندما وافق على قرارات أكاكيوس الآريوسي بطريرك القسطنطينية). وعندما انتقل يودوكيوس أسقف أنطاكية إلى القسطنطينية طمعاً في كرسيها بعد نياحة بطريركها، اختار شعب أنطاكية ملاتيوس بطريركاً لهم. وكانت شخصيته المتزنة، وأخلاقياته العالية، وبُعْد نظره؛ سبباً في حصر نشاطه ووعظه في الروحيات والأخلاقيات والآداب المسيحية، متفادياً المعضلات اللاهوتية التي عقَّدت الأمور في أنطاكية ومزَّقت رعيتها. وبعد قليل عُقد مجمعٌ من ٢٥ أسقفاً أعلنوا قبولهم لقرارات مجمع نيقية المسكوني، مع إضافة العبارة التالية: "(الابن) مولود من جوهر الآب، ومُشابه له بحسب الجوهر"، وذلك بدلاً من: "مساوٍ للآب في الجوهر" أو "الهوموؤوسيون" التي كانت تستفز الجناح المعتدل. ونحن نعلم أن القديس أثناسيوس لم يكن يرفض مثل هذه الإيضاحات طالما أنها تعترف بلاهوت المسيح بصفته ابن الله الكلمة، ولا تقلل من كمال وتمام الناسوت الذي اتخذه المسيح[٣].

وبهذا التدرُّج اللاهوتي الحكيم سارت جهود التقارُب بين الفئات المتنازعة.

---

(2) Sozomen, E. H. III:20.

(٣) انظر: الأب متى المسكين، "القديس أثناسيوس الرسولي، حقبة مضيئة في تاريخ مصر"، مطبعة دير القديس أنبا مقار، الطبعة الثالثة: ٢٠٠٨، ص ٣١٨-٣٢٣.

٤. **جبهة "فيتاليوس"**: كان أحد كهنة ملاتيوس بطريرك أنطاكية، لكنه انشق عليه وتبع بدعة "أبوليناريوس" القائلة بعدم وجود نفس بشرية في ناسوت الرب يسوع، حيث حلَّ "اللاهوت" محلَّها. وبسبب شهرته في النسك[٤] وموهبته في الشعر التي استخدمها في نظْم الترانيم والأناشيد، استطاعت هذه البدعة تحت رعاية فيتاليوس أن تنتشر بين الشعب الذي كان يتغنَّى بها في الحقول والبيوت أثناء أعمالهم اليومية.

وعلينا ألاَّ ننسى أنه كان لأنطاكية ارتباطات عقائدية ودِّية مع الإسكندرية، ومع القديس أثناسيوس بالذات. فهو المحارب الذي يمهِّد الحقل للانتصار ليزرع فيه الوفاق والسلام. لذلك أصبح من الضروري إعطاء النصائح لباولينوس ورعيته في أنطاكية بالانسجام مع ملاتيوس بطريركها بعد عودته من المنفى. ومن جهة أخرى، منذ اختيار القديس باسيليوس أسقفاً على قيصرية كبادوكية، لم يكفَّ عن مراسلة القديس أثناسيوس. والقديس باسيليوس تتلمذ بحماس في شبابه – منذ أن كان شماساً – على كتابات القديس أثناسيوس، بل كان يقتبس نفس ألفاظه[٥]. وفي رسائله للقديس أثناسيوس، يلحُّ عليه أن يستخدم نفوذه على باولينوس وجماعته ليأمرهم بالتراجع؛ لأن القديس ملاتيوس يشعر بالمرارة بسبب مناصرة القديس أثناسيوس لخصمه. وللأسف كان باولينوس ضعيف الاستجابة[٦]! أما القديس باسيليوس فقد كان يُكرِّم القديس أثناسيوس كمعلِّم له، ويظهر صدى ذلك في مراسلاته، كما تبدو في هذه العبارات:

[أسقف الأساقفة، له الاحترام الكلِّي والمديح بلا حدود، صاحب الوعي العميق والمبادرة العملية والرقَّة الإنجيلية؛ رأس الكنيسة، الرجل صاحب النفس الكبيرة الرسولية، الأب الرحوم].

وجواب القديس أثناسيوس رغم إيجازه، يحمل الدفء الأبوي والتقدير البنوي:

[أسقف تتمنَّى كل كنيسة أن يكون هو أسقفها]!

---

(٤) كان المعيار الشعبي للقداسة، للأسف، هو النسك والصوم، دون النظر إلى صحة المعتقد والسلوك المسيحيَّيْن. فبمقدار التطرُّف في النسك بمقدار ارتفاع معيار القداسة في نظر الشعب. ولا زالت هذه المعايير المغلوطة سائدة حتى الآن.

(٥) الأب متى المسكين، "القديس أثناسيوس الرسولي"، الطبعة الثالثة: ٢٠٠٨، ص ٣٤٢،٣٤٣.

(٦) Theod., *E. H.* V:23.

البابا أثناسيوس الرسولي
البطريرك العشرون
في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري

(٣٢٨-٣٧٣م)

نشأته:

سنكتفي بنبذة قصيرة عن حياة القديس أثناسيوس. فقد عاش وتربَّى طيلة فترة صباه في صعيد مصر، كما جاء على لسانه شخصياً، وبالذات في مدينة أخميم، وذلك كما ثبت في مخطوطة اكتُشفت في دير أنبا مقار. وقد توفِّي والده ودُفن بالإسكندرية بعد سنة ٣٥٨م.

وقد وردت قصة عن أيام صبوة أثناسيوس، بقلم المؤرِّخ روفينوس، يقول فيها إن ألكسندروس بابا الإسكندرية التاسع عشر كان في يوم من الأيام مُطلاً من نافذة البيت الذي يقطنه على البحر، فرأى صبية يلعبون على الشاطئ، فلما تحقَّق من حركاتهم، وجدهم يُمثِّلون طقس العماد الذي تُجريه الكنيسة؛ فأخذ يُراقبهم بشغف وابتدأ يحس أنَّ عملهم هذا أصبح له وضعه السرائري. فاستدعاهم، ولما استجوبهم عَلِمَ أن الصبي أثناسيوس كان هو الذي يقوم بدور الأسقف في العماد، وقام فعلاً بعماد بعض الأولاد رفقائه عن قصد وبكل مستلزمات الطقس، وهؤلاء لم يكونوا مسيحيين بعد. أما البابا ألكسندروس فلم يأخذ الموضوع ببساطة. وبعد مُداولات مع الإكليروس، اعتبر أن هذا العماد ساري المفعول، وامتدح أثناسيوس واحتفظ به عنده، وأَمَرَ أن تُجرى لبقية الأولاد ما يلزمهم من الطقوس والتعاليم اللازمة لتكميل الطقس.

أثناسيوس سكرتير البابا ألكسندروس:

ومنذ دخول الشاب أثناسيوس في خدمة البابا ألكسندروس، كابن له وسكرتير، يبدأ تاريخ

أثناسيوس الكنسي. فوظيفة سكرتير البابا الإسكندري كانت بحدِّ ذاتها عملاً ضخماً متشعِّب المسئوليات. وكانت هذه الأيام من أحلى ذكريات القديس أثناسيوس، خصوصاً في أيامه العصيبة إزاء المحن المتواترة التي عاناها.

دراسات أثناسيوس المدنية والروحية:

نحن نعلم من كتابات القديس أثناسيوس مقدار تحصيله العلوم ودراسة الفلسفة والبلاغة والشعر، واستخدامها في شرح وتوضيح أعماق الإنجيل، وخصوصاً في مواقف الدفاع والمحاجاة ضد الفلاسفة.

أما كل هذه الدراسات التي تلقَّاها أثناسيوس، سواء بجهاده الخاص أو على أيدي مُعلِّمين خصوصيين أو في مدرسة الإسكندرية، لم تكن إلاَّ أمراً ثانوياً تماماً بالنسبة لشغف أثناسيوس أن يكون كاتباً متعلِّماً في ملكوت السموات. وتظهر غيرته النارية في حبِّه للكتاب المقدس وتوقيره المطلق لسلطانه في جميع كتاباته. ولذلك نجد أن جميع كتابات القديس أثناسيوس مزدحمة بالآيات من العهد القديم والعهد الجديد؛ إما بنصِّها الكتابي المحدَّد، أو بروحها دون الالتزام بالحرف، بحيث لا يمكن أن يخلو سطر من سند كتابي.

تتلمُذ القديس أثناسيوس للقديس أنطونيوس الكبير:

لقد تربَّى أثناسيوس، وهو بعد شاب، على يدي القديس أنطونيوس الكبير. فقد لازمه زمناً طويلاً، وتعلَّم منه، وسكب ماءً على يديه.

وهكذا كان تأثير الرهبنة، وبالذات القديس أنطونيوس على نفسية القديس أثناسيوس، عميقاً غاية العمق؛ إذ ظل وجه أنطونيوس بوداعته وحركاته الهادئة وسلامة نفسه وهدوئه منطبعاً على ذهن أثناسيوس لا يُفارقه. مما جعل حياة القديس أنطونيوس أحد المصادر الهامة جداً التي ظلَّت تنضح على أفكار وسلوك أثناسيوس كل أيام حياته.

مؤلَّفات القديس أثناسيوس قبل رسامته أسقفاً:

بدأ النضوج الفكري والخصب الروحي مُبكِّراً جداً في حياة أثناسيوس. فقد أكمل كتابين من كتبه وهما: "ضد الوثنيين" و"تجسُّد الكلمة" في سنٍّ مبكرة حوالي سنة ٣١٨م. فقد كتبهما، لا

كلاهوتي يشرح عقيدة، بل كمؤمن يشهد لمخلِّصه، وكتبهما لمنفعة أحد الوثنيين بعد دخوله الإيمان المسيحي، لذلك نجد الكتابين يُكمِّل أحدهما الآخر. فالأول يدحض آراء الوثنيين، والثاني يُثبِّت الإيمان المسيحي. ويتضح فيهما الفكر اللاهوتي الخاص بمدرسة الإسكندرية الذي ورثه أثناسيوس عن أسلافه، ثم عمَّقه وأفاض عليه من روحه ومن تجربته الإيمانية.

القديس أثناسيوس في مواجهة الملاتيين والآريوسيين:

إنَّ تحالُف الآريوسيين مع الملاتيين، جعل من جماعتهم المتحالفة ثقلاً كبيراً جداً على الكنيسة في مصر:

فالملاتيون هم أتباع ملاتيوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط الآن)، وهذا لم يكن له بدعة أو هرطقة لاهوتية مُعيَّنة، ولكنه كان ثائراً على الكنيسة أيام البابا بطرس خاتم الشهداء بسبب عدم قبوله في شركتها، بعد أن سقط مع جماعة كبيرة في التبخير للأوثان في وقت الاضطهاد الذي أثاره دقلديانوس على الكنيسة سنة ٣٠٣م. فلما قطعته الكنيسة من شركتها في مجمع خاص برئاسة البابا بطرس، أثار قلقاً عظيماً فيها وتزعَّم جماعة إكليروس، منهم أساقفة وكهنة كثيرون، وقام هو برسامات متعددة من أساقفة وكهنة ورهبان حتى زادت شيعته جداً.

أما **الآريوسيون** هم أتباع آريوس الليبي الذي رسمه البابا بطرس شماساً، ولكنه عاد بسرعة وأسقطه من رتبته؛ ثم جاء البابا أرشيلاوس وأعاده إلى الشركة ورسمه قسّاً. وكان آريوس يطمع في أسقفية الإسكندرية، فلما رُسم ألكسندروس بطريركاً، بدأ آريوس ينفث حقده وانتقامه علناً في الكنيسة.

انحرف آريوس في تيار الأسلوب العقلي وأخضع الإنجيل لفكره، وأراد أن يُحدِّد صفات المسيح الجوهرية بنفس الأسلوب المنطقي الذي يُحدِّد به الأمور المنظورة الأخرى: "إن كان هناك آب وابن، فالآب يلزَم أن يكون سابقاً للابن... والنهاية، فالابن منفصل عن جوهر الآب". ثم من جهة أزلية الابن، فإن آريوس يجحدها، لأنها تقف حجر عثرة أمام الأسلوب العقلي المغلق الذي يريد أن يُحدِّد بنفسه البدايات والنهايات لكل ما يدخل تحت الفحص العقلي: "الآب خلق لنفسه ابناً من لا شيء كأداة يخلق بواسطتها العالم".

وبدأ القديس أثناسيوس يردُّ على هذا الأسلوب العقلي المغلق بأسلوب عقلي منفتح على الله. وبهذه الروح الواعية، وبإحساس أثناسيوس المتكامل العميق بحقيقة المسيح ووجوده الأزلي مع الآب؛ رافق أثناسيوس مُعلِّمه البابا ألكسندروس إلى مدينة نيقية سنة ٣٢٥م للدفاع ضد آريوس عن يقين الإيمان بالفادي الذي أحبه. وكان أثناسيوس في التاسعة والعشرين من عمره وقتئذ.

القديس أثناسيوس في مجمع نيقية ٣٢٥م:

كان سر نصرة أثناسيوس في مجمع نيقية يكمن، بصورة أساسية، في ثقته بالمسيح الفادي الذي كان يُدافع عنه. فكان أثناسيوس يملك الحقيقة، لا في عقله ولا في لسانه فحسب؛ بل في قلبه، في شخص الرب يسوع الذي كان يتكلَّم فيه بروحه القدوس عند افتتاح فمه.

كانت سرعة أثناسيوس في كشف نقط الخبث عند الآريوسيين يُقابلها سرعة الرد وشدَّة الحجة واقتباس الآية. فكانت قوة عظيمة لائقة بهذه المحنة العظيمة. ولم يكن أثناسيوس مجرد مُحاجج بل كان يستطيع في نهاية كل محاجاة أن يضع المبادئ التي كانت موضع المناظرة في صورة قانون واجب القبول والنفاذ. ولذلك انتهت جميع المباحث والحجج والمناظرات في مجمع نيقية إلى مبادئ إيجابية غاية في الرصانة اللاهوتية، تنبع من الإنجيل وتصب فيه. أي أنها تأخذ قوتها من الآيات ثم تعود على الآيات نفسها بالتوضيح والتطبيق. فمثلاً:

١. تأكَّد لدى الكنيسة، بصورة واضحة، لاهوت المسيح في مواضع كثيرة من الأسفار المقدسة.

٢. تأكَّد لدى الكنيسة لاهوت المسيح، بصورة واضحة، في معنى كلمة "الابن الوحيد" (مونوجينيس).

٣. تأكَّد لدى الكنيسة أنَّ لاهوت المسيح ضرورة جوهرية لتكميل عمل الفداء بالتدبير الإلهي.

٤. تأكَّد لدى الكنيسة لاهوت المسيح، بشهادة التقليد، كحقٍّ قائم ثابت محفور في وعي الكنيسة منذ البدء وعلى ممر العصور لا يمكن أن يُزعزعه مبتدع.

اصطلاح "هوموؤوسيون" أي "مساوٍ في الجوهر":

إنَّ هذا الاصطلاح "هوموؤوسيون" homoousion قد استُخدِم سابقاً لكي يُعبِّر عن الإيمان الصحيح بالمسيح كونه "ابن الله الحقيقي"، ولكنه اختير في مجمع نيقية ليكون محكّاً دقيقاً لمدى التزام الآباء بالآيات التي توضِّح لاهوت المسيح.

لقد كان خصوم القديس أثناسيوس في مجمع نيقية وبعده مماحكين إلى أقصى حدٍّ حتى في استخدامهم الآيات؛ أما القديس أثناسيوس فكان دائماً، ومنذ شبابه، يتكلَّم ويُدافع ويُبرهن ويستخدم الآيات بدافع واحد يملك عليه كل تفكيره وشعوره وحماسه، وهو إخلاصه الشديد للمسيح الذي يحبه، وغيرته الملتهبة في تكريمه وتعظيمه تعظيماً لائقاً بلاهوته. فكل عبارات القديس أثناسيوس اللاهوتية، وبالأخص homoousion أي "مساوٍ (للآب) في الجوهر"، تتعدَّى الوضع النظري أو التحديد القانوني، لتُعبِّر عن حقيقة يراها أثناسيوس ويوقِن بها ويُجاهد حتى يراها الكل أيضاً ويوقنون بها.

لم يكن شيء في ذهن القديس أثناسيوس، وهو في طريقه إلى نيقية، أقوى يقيناً من أنَّ يسوع المسيح هو ابن الله مُتجسِّداً بكل معنى الكلمة وقوَّتها! وبالتالي لم يكن في ذهنه، وهو عائد من نيقية، أقوى تعبيراً عن لاهوت المسيح من اصطلاح الـ homoousion ، أي أنَّ المسيح مساوٍ للآب في الجوهر؛ إذ كان يعتبره القديس أثناسيوس أنه هو الاصطلاح المركَّز والمختصر الذي يضعنا في حالة الالتزام بعبادة المسيح عن استحقاقٍ كُلِّي وبكل تقوى ووقار!

نياحة البابا ألكسندروس، ورسامة القديس أثناسيوس بطريركاً:

عندما كان البابا ألكسندروس في النزع الأخير، وكل الإكليروس مجتمعون حوله يتباركون منه، بدأ يُنادي بإلحاح: "أثناسيوس! أثناسيوس!". ولكن لأن القديس أثناسيوس كان يخشى هذه اللحظة وما يمكن أن يكون وراءها من مسئولية، هرب. فلما كرَّر البابا نداءه: "أثناسيوس! أثناسيوس!"، ردَّ عليه أحد الإكليروس من الواقفين، وكان يُدعى أثناسيوس أيضاً، فاستنكر البابا رد هذا المدَّعي، وبدأ يُنادي أثناسيوس أيضاً. ولكن عندما تحقَّق من عدم وجوده، قال: "وهل تظن أنَّ بهروبك يمكنك أن تفلت؟... لا يمكن!".

وفي يوم ٢٢ برمودة الموافق ١٧ أبريل سنة ٣٢٨م تنيَّح البابا ألكسندروس. وكانت تزكية جميع أساقفة الإسكندرية ومصر وطيبة وليبيا والخمس المدن للقديس أثناسيوس ليكون أسقفاً على كرسي الإسكندرية بعدما يقرب من شهرين من نياحة البابا ألكسندروس.

جهاد القديس أثناسيوس وصراعه ونفيه:

لقد انقسمت حياة القديس أثناسيوس، بصورة واضحة جداً، إلى فترات هدوء واستقرار، وفترات عنف وصراع. فكانت بداية أسقفية القديس أثناسيوس فترة هدوء واستقرار استمرت من ٨ يونية سنة ٣٢٨م إلى ١١ يوليو سنة ٣٣٥م. وفي هذه الفترة الهادئة قام القديس أثناسيوس برسامة فرومنتيوس أسقفاً على كرسي أكسوم في الحبشة أي إثيوبيا. وفي هذه الفترة أيضاً قام بجولة رعائية كبيرة سنة ٣٢٩م وصل فيها إلى حدود أسوان.

وفي هذه الأثناء لم يقبل آريوس ولا الآريوسيون هزيمة نيقية الماحقة، ولا ملاتيوس المتروبوليت المصري المنشق ارتضى بالحل الذي قرَّره مجمع نيقية. ولكن ليس الجانب الكنسي فقط بزعامة الآريوسيين والملاتيين هو الذي كان موضع خطر ومصدر الصراع بالنسبة للقديس أثناسيوس، وبالتالي للأرثوذكسية كلها؛ بل الإمبراطور قسطنطين نفسه الذي لم يستطع أن يحفظ حزمه ويحترم كلمته في ضبط الخارجين على قوانين مجمع نيقية. ففي ظرف ثلاث سنين كان قد بدأ يتذبذب هو نفسه بين الآريوسية والمسيحية الحقَّة، وبدأ يُسهِّل للآريوسيين استعادة كراسيهم وسلطانهم، مشدوداً بفكرة وحدة الكنيسة، وبالتالي وحدة الإمبراطورية وسلامتها، بالإضافة إلى شعور دفين بالحقد على البابا أثناسيوس بسبب بروز شخصيته.

وبدأ الآريوسيون والملاتيون يكيلون الاتهامات الباطلة ضد القديس أثناسيوس، وكانت كلها خارجة عن مضمون الإيمان والعقيدة والمسيح نهائياً. فعقدوا مجامع زائفة لمحاكمة القديس أثناسيوس؛ ولكنه، بنعمة المسيح، خرج منها سالماً. ولكنهم اخترعوا اتهاماً آخر يهم الإمبراطور نفسه، فأعلنوا أن أثناسيوس هدَّد أنه يستطيع أن يمنع القمح الذي يُرسَل من الإسكندرية إلى القسطنطينية، مما أغضب الإمبراطور، وبدلاً من أن يُعطي فرصة للقديس أثناسيوس ليُدافع عن نفسه، إذا به ينفيه بعيداً إلى مدينة تريف التي كانت عاصمة بلاد الغال (فرنسا) في ٥ فبراير سنة ٣٣٦م. وبعد موت الإمبراطور قسطنطين، عاد القديس أثناسيوس إلى الإسكندرية سنة ٣٣٧م.

وهكذا تأرجحت حياة القديس أثناسيوس ما بين نفي وعودة إلى كرسيه عدة مرات، حتى أنه نُفِيَ ٥ مرات. وكانت المدة التي قضاها في المنفى بعيداً عن كرسيه حوالي ١٧ سنة؛ أما إجمالي المدة التي قضاها في الكرسي المرقسي حوالي ٢٧ سنة.

نياحة القديس أثناسيوس الرسولي:

في سنة ٣٧٢م، كتب القديس أثناسيوس كتابين ضد أخطاء أبوليناريوس. ولكنه تحاشى أن يذكر اسم أبوليناريوس، لأنه كان صديقاً قديماً له، بل وكان ممثِّلاً مع القديس أثناسيوس في مجمع عُقد في الإسكندرية سنة ٣٦٢م بواسطة وفد رسمي مِن قِبله، ولكن للأسف زاغت روح أبوليناريوس بعيداً عن روح الإنجيل. وللقديس أثناسيوس عبارات لاهوتية عميقة وشاملة وقاطعة في هذين الكتابين ضد أخطاء أبوليناريوس: أنَّ المسيح "**إله حقيقي في الجسد، وجسد حقيقي في الكلمة**".

وظل القديس أثناسيوس يكتب ويشرح ويرد على رسائل، ويتصرَّف كمستشار لكافة كنائس العالم، وكعَون لكل أسقف مضطهَد. وكانت رسائله وتوسُّطاته ذات احترام بالغ لدى كافة أساقفة العالم.

وظل البابا أثناسيوس بكل صحته، لم تكلَّ عيناه، ولا شاخ عقله قط، حتى ناهز الخامسة والسبعين من عمره، قضى منها ٤٥ سنة في خدمة أسقفيته، بل والعالم المسيحي كله، إلى أن أسلم روحه الطاهرة في يدي الرب الذي أحبه سنة ٣٧٣م.

لقد تداعى البابا أثناسيوس تحت ثِقل السنين، لتتلألأ عقيدة نيقية على ممر الدهور. لقد تنيَّح البابا أثناسيوس، وبقيت الـ "هوموؤوسيون" حيَّة إلى الأبد[1].

---

(١) عن كتاب: "القديس أثناسيوس الرسولي، حقبة مضيئة في تاريخ مصر"، للأب متى المسكين، مطبعة دير القديس أنبا مقار، الطبعة الثالثة: ٢٠٠٨.

البابا بطرس الثاني

البطريرك الحادي والعشرون

في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري

(٣٧٣-٣٨٠م)

من المعروف عن القديس أثناسيوس الرسولي أنه كان يفرِّق بين متطلبات زمان الحرب ومتطلبات زمان السِّلْم؛ لذلك عندما كتب إليه القديس باسيليوس مستغيثاً من الآريوسية المتفشية في مقاطعته بآسيا الصغرى، أرسل له القديس أثناسيوس تلميذه بطرس سنة ٣٧١م. وبعد عودته تنيَّح البابا أثناسيوس، فاختير بطرس هذا خلفاً له على كرسي الإسكندرية باسم البابا بطرس الثاني عام ٣٧٣م.

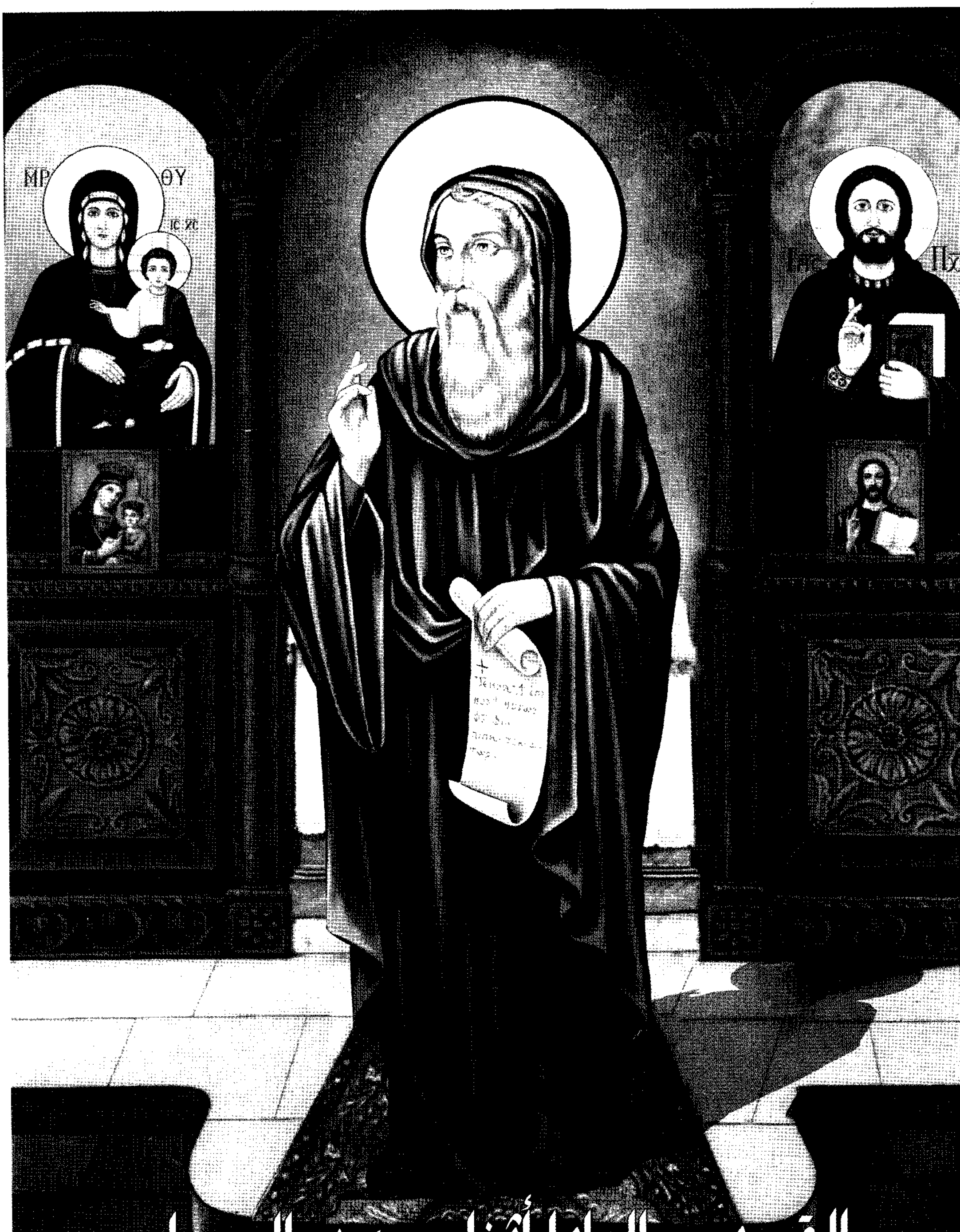
ويذكر سنكسار الكنيسة القبطية عن هذا البطريرك، الذي تنيح في ٢٠ أمشير (٢٧ فبراير)، أنه عاين شدائد وأهوالاً كثيرة خلال بطريركيته القصيرة الأمد. فالإمبراطور فالنس الذي تولَّى حكم الشرق الروماني منذ عام ٣٦٤م، كان آريوسياً متحمساً، وقد عيَّن "لوكيوس" ليكون أسقفاً على الإسكندرية، وفعلاً تمَّت رسامته في أنطاكية وقَصَدَ الإسكندرية ليتولَّى بطريركيتها. ففي الوقت المناسب اختفى القديس أثناسيوس قبل القبض عليه ونفيه. لكن شعب الإسكندرية صاحب المزاج الانفعالي الحار، هبَّ غاضباً في ثورة عارمة لم تستطع قوات الإمبراطورية التصدِّي لها، فأضحت المدينة في حالة من الخطر، الأمر الذي اضطر الإمبراطور لسحب قراره. وعاود "لوكيوس" الآريوسي الكرَّة مرَّة ثانية سنة ٣٦٦م بالدخول متخفياً ليلاً إلى الإسكندرية، فهيَّأ الشعب أنفسهم للانتقام منه كما فعلوا قبل ذلك بقليل مع جورج الكبادوكي الآريوسي الدخيل، لولا أن القوة الحربية المرابطة استطاعت بكامل استعداداتها أن تطوِّق مكانه وتنتشله من هذا المشهد الخطير ووضعته في سفينة رحلت بعيداً عن البلاد.

ولما علم فالنس الآريوسي بنياحة القديس أثناسيوس وانتخاب الشعب لتلميذه القديس بطرس، عاود الكرَّة وأرسل صنيعته "لوكيوس" هذا مؤيَّداً بقوة عسكرية إضافية مع الأمر بنفي القديس بطرس، الأمر الذي اضطر البابا بطرس للاختفاء في قصر مهجور على شاطئ البحر. وفي هذه



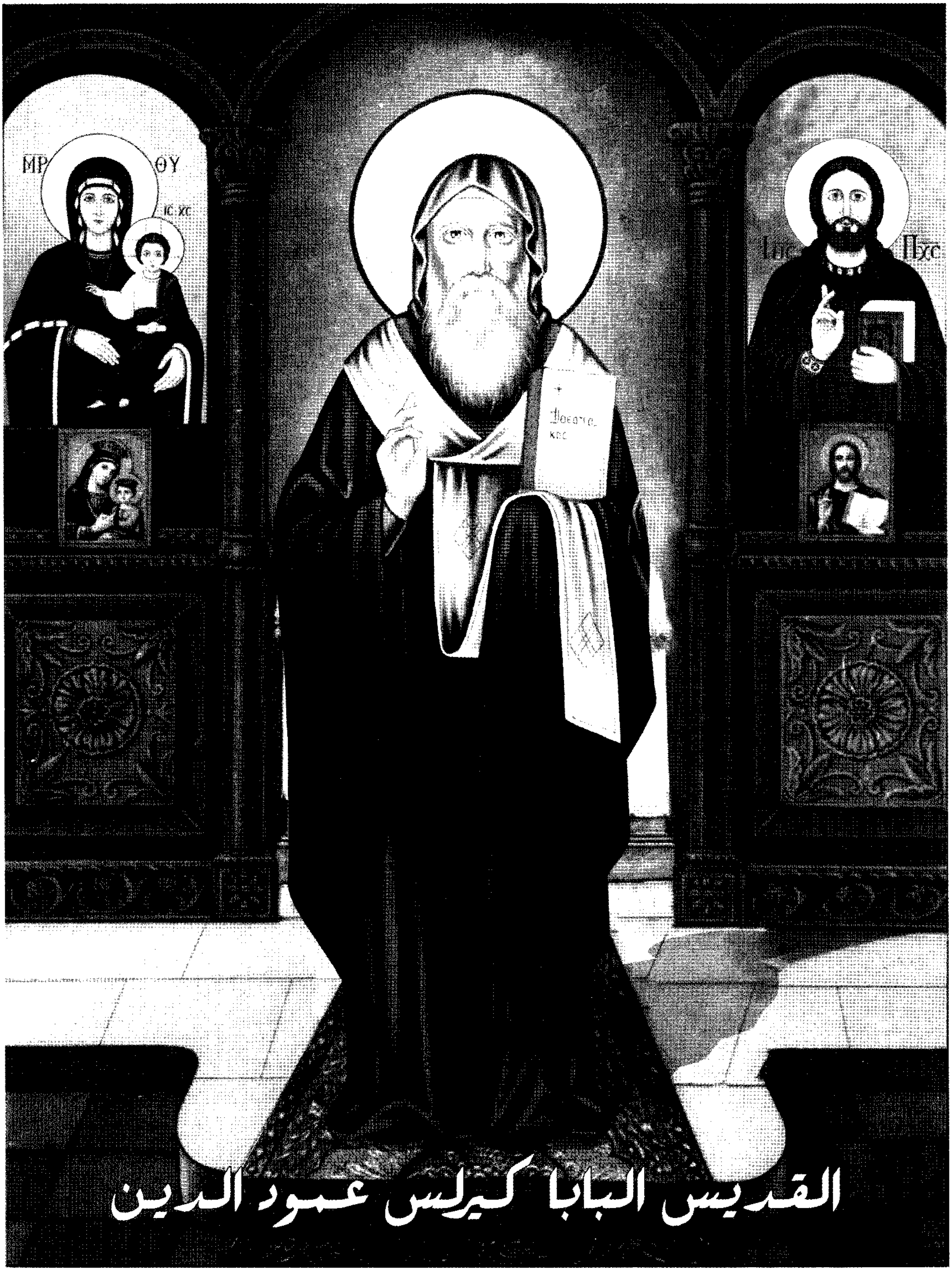
العلاَّمة ديديموس الضرير البصير (٣١٢- ٣٩٧م)

عميد مدرسة الإسكندرية اللاهوتية



أيقونة القديس البابا أثناسيوس الرسولي أمام الهيكل

(٣٢٨- ٣٧٣م)



أيقونة القديس البابا كيرلس الإسكندري أمام الهيكل

(٤١٢- ٤٤٤م)



المجمع المسكوني الثالث فى أفسس (سنة ٤٣١م)
ويُرى هنا آباء الكنائس المسيحية المجتمعون وعددهم ٢٠٠ أسقفاً وأمامهم بطريرك القسطنطينية نسطور المُدَّعى عليه بالهرطقة يناقشونه فى هرطقته ضد الأرثوذكسية. وبحسب تقليد الكنيسة لابد من مناقشة المُدَّعى عليه بالهرطقة قبل الحكم عليه.

الأثناء أرسل "داماسوس" أسقف روما الرسالة السينوديسية المعتاد تبادُلها بين أساقفة الكراسي الرسولية عند تولِّي أحدهم الكرسي الرسولي جديداً. فقبض الآريوسيون على الرسول حامل الرسالة وطرحوه في أحد المناجم، الأمر الذي جعل البطريرك الإسكندري يرحل من مخبئه إلى روما اختفاءً من وجه الشر لأجل الكنيسة. وهناك - تحت تأثير أنبا بطرس - جمع الأسقف الروماني مجمعاً سنة ٣٧٧م، شجب فيه البدع المتفرعة من الآريوسية: بدعة أبوليناريوس، ومارسيللوس، ومقدونيوس. وفي نفس الوقت سعى أيضاً لاستكمال مسيرة سلفه القديس أثناسيوس لمصالحة الأطراف المتنازعة في أنطاكية، فأرسل بالاشتراك مع داماسوس قرارات مجمع روما إلى القديس ملاتيوس بطريرك أنطاكية. وكانت هذه الرسالة بمثابة اعتراف بقانونية بطريركية ملاتيوس ودعوة للقوى المتصارعة هناك للانضواء تحت لوائه. وبذلك حقَّق أمنية القديس أثناسيوس التي تمنَّاها للكنيسة هناك.

وأثناء انشغال فالنس في الحروب ضد القبائل الجرمانية المغيرة على الحدود الشمالية للإمبراطورية، أرسل الشعب الإسكندري سرّاً رسالة لبطريركهم أنبا بطرس للعودة إلى كرسيه. وفعلاً غادر روما عائداً إلى الإسكندرية، مما جعل الأسقف الدخيل "لوكيوس" يهرب منها ملتجئاً إلى الإمبراطور الذي لم يكن متفرِّغاً له بسبب الحروب. وهكذا اختفى لوكيوس واختفت معه فلول الآريوسية من كرسي الإسكندرية.

لكن التغيُّرات السياسية التي جازتها الإمبراطورية في ذاك الوقت، وضعت ثقلاً جديداً على بطريرك الإسكندرية، بالإضافة إلى كبر سنِّه وشيخوخته. وباغتيال فالنس الآريوسي في الحرب، جاء بعده ثيئودوسيوس القائد الأسباني - من أقصى الغرب - ليتولَّى إمبراطورية الشرق. وكان هذا القائد من المؤمنين بعقيدة نيقية، لذلك طلب من البابا بطرس محاولة تنظيم بطريركية القسطنطينية وردِّها إلى إيمان نيقية، حتى يصير الإيمان واحداً شرقاً وغرباً. وكان القديس بطرس خلال تواجده في قيصرية كبادوكية لمؤازرة القديس باسيليوس، على اتصال بصديقه القديس غريغوريوس اللاهوتي الذي اختير أسقفاً على سازيما ولم يستطع أن يتسلَّمها لوجود أسقف آريوسي عليها. فبدأ القديس بطرس مساعيه لتكليف القديس غريغوريوس بالخدمة والوعظ في القسطنطينية؛ إذ كان قد نجح بتأثير نسكه وبساطته الرهبانية في تحويل البيت الذي كان يعظ فيه إلى كنيسة كبرى تتَّسع للآلاف الذين تحوَّلوا إلى إيمان نيقية، ودعا هذا البيت: كنيسة "الأنستاسيا".

ولكن بسبب الفوضى الحادثة بعد الاضطرابات الآريوسية، استطاع أحد الفلاسفة المشعوذين،

ويُسمَّى مكسيموس الكَلْبي[1]، أن يكتسب ثقة القديس غريغوريوس نفسه؛ وحوَّل مكسيموس هذا وجهه شطر الإسكندرية، ونجح أيضاً في أن يحظى بثقة البطريرك الإسكندري الذي أعاده إلى القسطنطينية مع وفد من أساقفة مصر ليرسموه أسقفاً على القسطنطينية. وفعلاً بدأتْ مراسيم الرسامة ليلاً في الكنيسة الكبرى هناك، إلاَّ أن شعب القسطنطينية أحس بما يجري في كنيسته في فجر اليوم، فاقتحم الكنيسة وأوقف الرسامة، مما دعا مكسيموس هذا للهرب عائداً إلى الإسكندرية في محاولة جديدة للحصول على تأييد أنبا بطرس. لكن هذا الأخير لم يُعْطِه وجهاً بسبب فضيحة أعماله الاحتيالية، فاختفى وانقطعت أخباره.

ومما لا شكَّ فيه، فإن شيخوخة القديس بطرس، مع محاولاته الدؤوبة لإزالة العثرات الناجمة عن خديعة مكسيموس هذا، قد عجَّلت بنياحته، فانتقل إلى الأمجاد السمائية عام ٣٨٠م.

---

(١) كان ينتسب إلى مذهب فلسفي يُسمَّى "الكَلْبي κυνικός" أطلقه عليهم بلوتارك، لأنهم يتفاخرون باحتقار الغِنَى والفنون والموسيقى والعلوم، ودُعوا بهذا اللقب بسبب خشونتهم وازدرائهم بكل القيم الإنسانية ومزاجهم التشاؤمي.

البابا تيموثاوس الأول
البطريرك الثاني والعشرون
في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري

(٣٨٠-٣٨٥م)

هذا القديس هو أيضاً من تلاميذ القديس أثناسيوس الرسولي، وشقيق البطريرك المتنيِّح البابا بطرس الثاني[1]، وهو الذي رافق معلِّمه القديس أثناسيوس إلى مجمع صور الآريوسي سنة ٣٣٥م، حيث حوَّل أساقفة هذا المجمع قضية الخلافات اللاهوتية إلى قضية أخلاقية ضد القديس أثناسيوس. ويذكر المؤرِّخون أن تيموثاوس هو الذي فضح المؤامرة الدنيئة التي حُبكت ضد القديس أثناسيوس متَّهمة إيَّاه بأنه زنا مع عذراء نذرت بتوليتها أثناء اختفائه من مطاردة الآريوسيين[2]. كما كان ضمن الوفد الكنسي الذي أرسله البابا بطرس إلى كنيسة القسطنطينية لتنظيمها، وعاون القديس غريغوريوس في إعادتها إلى حظيرة الإيمان الأرثوذكسي.

وبعد سيامة البابا تيموثاوس بطريركاً على كرسي كنيسة الإسكندرية، احتكم إليه أساقفة شمال أفريقيا في خلافهم مع أسقف روما داماسوس في محاولته أن يجعل قوانين مجمع سرديكا المحلي في مرتبة مساوية لمرتبة قوانين مجمع نيقية المسكوني الأول. فأرسل إليهم القديس تيموثاوس نسخة أصلية من النسخة المحفوظة في كنيسة الإسكندرية مما دعاهم إلى الإقرار بأنْ تُعطى الأولوية للمجمع المسكوني فوق المجامع المحلية.

وكعادة الأباطرة أن يسعوا لتوحيد الشعوب الخاضعة لهم تحت عقيدة وعبادة واحدة، اجتهد الإمبراطور ثيئودوسيوس في عقد مجمع مسكوني يستقطب كل البدع والهرطقات التي تمزِّق الشعوب الخاضعة له، وذلك لضمان ولائهم تحت سلطانه. وكان أخطر هذه البدع ما أذاعه مقدونيوس أحد أساقفة القسطنطينية نفسها من إنكاره للاهوت الروح القدس، وهو موضوع لم يتعرَّض له

---

(1) Socrates, E. H. IV:37.

(2) Sozomen, E. H. II:25; Ruf., E. H. I:27.

مجمع نيقية، وحيث كان الاعتراف بلاهوت الروح القدس أمراً مسلَّماً به لدى جميع الكنائس كتقليد رسولي راسخ. وكانت الفرصة مواتية بسبب وجود ملاتيوس أسقف أنطاكية في القسطنطينية لرسامة القديس غريغوريوس أسقفاً على عاصمة الدولة الرومانية الشرقية. فلما جاء وفد الكنيسة المصرية برئاسة البابا تيموثاوس، اعترض على هذه الرسامة باعتبارها تتعارض مع قوانين الرسل التي لا تبيح انتقال الأسقف من مدينته التي رُسِم عليها إلى مدينة أخرى؛ وكان القديس غريغوريوس أسقفاً على سازيما رغم أنه لم يتسلَّمها بسبب وجود أسقف آريوسي عليها. وقد وافق الأساقفة المجتمعون في القسطنطينية على رأي بطريرك الإسكندرية ونتج عن ذلك انسحاب القديس غريغوريوس حفاظاً على السلام بين المجتمعين.

أما بخصوص بدعة إنكار الروح القدس، فقد قرر المجمع إضافة التعريف التالي لقانون نيقية: "نؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب... إلخ". ثم تطورت المحاورات اللاهوتية إلى مجاملات شخصية وتملُّقٍ لأصحاب السلطات القديمة، فقرر المجتمعون رفع مدينة القسطنطينية لتكون الثانية بعد روما القديمة، مع أنها لم تكن كرسيّاً رسولياً. وهذا القرار حفَّز البابا تيموثاوس على الانصراف من المجمع قبل انتهاء جلساته، لأنه قرار يتناقض مع الترتيب المقرر من قِبَل الـ ٣١٨ أسقفاً المجتمعين في نيقية.

وهكذا يرى القارئ أن ذيول البدعة الآريوسية كانت وراء اضطراب كنائس أنطاكية والقسطنطينية، وكان على كنيسة الإسكندرية، باعتبارها أقدم وأرسخ كنائس الشرق المسيحي - خاصة بعد الكفاح المرير والمضني للقديس أثناسيوس الرسولي بطريركها العظيم - أن تُعاوِن في تثبيت العقيدة الرسولية في هذه الكنائس المزعزعة.

وليس ذلك فقط، فمن واقع شهرة كنيسة الإسكندرية في التمسُّك بالقوانين الكنسية التقليدية، صار حكمها هو المعيار الأرثوذكسي الصحيح الذي يعلو فوق كل اعتبارات شخصية. فقد اعترض البابا تيموثاوس الأول في مجمع القسطنطينية المسكوني سنة ٣٨١م على ترشيح القديس غريغوريوس اللاهوتي - رغم قداسته - لبطريركية القسطنطينية، متمسِّكاً بالقانون الخامس عشر من قوانين مجمع نيقية العشرين الذي يمنع انتقال أسقف من إيبارشيته إلى إيبارشية أخرى؛ مما أظهر بالأكثر عظمة البابا تيموثاوس دون أن تخسر الكنيسة، في وقت بدأت فيه الكنائس الأخرى تُمالئ أصحاب السلطان المدني وتتملقهم لتعاظُم نفوذ كنيسة القسطنطينية فوق الكنائس الرسولية مع

أنها لم تكن كرسيّاً رسولياً. وقد تنازَل القديس غريغوريوس اللاهوتي عن وضعه كبطريرك للقسطنطينية وانسحب، ورُسم عِوَضاً عنه بطريرك آخر للقسطنطينية.

البابا ثاوفيلس

البطريرك الثالث والعشرون

في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري

(٣٨٥-٤١٢م)

ينتمي البابا ثاوفيلس إلى الجيل الثاني الذي تتلمذ للقديس أثناسيوس الرسولي، باعتبار أن البابا بطرس الثاني البطريرك الـ ٢١ وخليفته البابا تيموثاوس البطريرك الـ ٢٢ ينتميان إلى الجيل الأول.

طفولة البابا ثاوفيلس:

يُرجَّح أنه من مواليد عام ٣٥٠م تقريباً. ويمدُّنا المؤرخ الأسقف يوحنا النقيوسي المعاصر لدخول العرب إلى مصر، في مؤلَّفه التاريخي، بتفاصيل عن طفولة أنبا ثاوفيلس لم تذكرها المصادر التاريخية الأخرى. فقد وُلِد في ''ممفيس'' أعرق المدن الفرعونية القديمة. وبالتالي، فقد تشبَّعت عيناه وذاكرته بمناظر الهياكل والمعابد الوثنية ومواكب واحتفالات العبادات القديمة، كما عايش في طفولته عائلات الكهنة وخدَّام هذه الهياكل التي كانت الدولة لا زالت تتكفَّل بالإنفاق عليهم من الأراضي والإقطاعيات الموقوفة على هذه الهياكل. فالدولة حتى ذلك الوقت كانت ملتزمة بمرسوم قسطنطين الكبير بالتسامح الديني والحرية العقيدية كخطوة أولى خرجت بعدها الكنيسة من الكهوف والسراديب المظلمة إلى سطح الحياة اليومية في العالم.

وقد توفِّي والداه في طفولته تاركَيْن له أختاً أصغر منه. وقد تولَّت جارية حبشية تربيتهما، مما يدل على أن ثاوفيلس كان من أسرة ثريَّة. وربما خشيت هذه المربِّية على الطفلين من البقاء في المدينة الوثنية، لذلك رحلت بهما عام ٣٥٦م إلى الإسكندرية ودخلت بهما إلى كنيسة العذراء التي بناها القديس ثاؤنا بطريرك الإسكندرية الـ ١٦، حيث كان القديس أثناسيوس - آنئذٍ - يُصلِّي فيها. وبعد انتهاء الصلاة عرف القديس أثناسيوس من الجارية الحبشية قصة الغلامين اليتيمين

اللذين برفقتها، فأبقاهما عنده وتربيا في الكنيسة[١]. فلما كبرا، تزوجت الابنة في المحلة الكبرى، وولدتْ ابناً سنة ٣٧٥م، صار فيما بعد البابا كيرلس عامود الدين. أما ثاوفيلس، فانضم إلى سكرتارية البابا أثناسيوس، أي أنه درس في المدرسة اللاهوتية وتتلمذ لمعلميها وعاصر آخر عظمائها العلاَّمة ديديموس الضرير، كما أتاح له الوجود في السكرتارية معاينة تطوُّر العلاقات بين الإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية.

بطريركيته:

من أهم الإيجابيات التي حفظها التاريخ لهذا البطريرك: رغبته الحارة لبناء وتعمير الكنائس، ومقاومته للعبادة الوثنية. وقد ساعده على ذلك ما عاينه في طفولته التي قضاها في ممفيس من مباذل العبادات الوثنية، فأضمرت فيه بغضة تلقائية تجاهها.

ومن جانب آخر، كان وجود إمبراطور قوي وهو ثيئودوسيوس الكبير، الذي تبنَّى سياسة حكيمة لربط طرفَي محور الحكم في إمبراطوريته: الدولة والكنيسة؛ سبباً في تمتُّع الشعوب بالأمن والاستقرار. كما أن التأييد الشعبي لهذه السياسة جعلها تنجح في أقصر وقت. فالكراهية الشعبية ضد الوثنية المنحطَّة سهَّلت عليه إصدار أول مرسوم بإعلان المسيحية ديناً رسمياً للدولة. وهذا يعني سحب كل الرواتب والأوقاف التي تتكفَّل بها الدولة تجاه المعابد والهياكل الوثنية، وبالتالي تجاه كهنتها وخدَّامها. والخطوة التالية الحتمية هي احتضان الدولة للكنيسة والوقوف معها ضد البدع والهرطقات التي تُشتِّت رعيتها.

ومن هنا برزت كنيسة الإسكندرية لتتصدَّر كنائس الشرق المسيحي[٢]، وكذلك برزت شخصية أنبا ثاوفيلس ليقوم بدور هام سواء في الكنيسة أو في الدولة.

---

(١) يُلاحِظ القارئ أن احتفاظ القديس أثناسيوس بالغلام اليتيم ثاوفيلس وأخته، كان حفاظاً لتقليد كنسي متواتر في عصره؛ لأن القديس ألكسندروس بطريرك الإسكندرية الـ ١٩، احتفظ بالصبي أثناسيوس عنده عندما رآه من نافذة مقره المُطلِّ على البحر وهو يلعب مع رفقائه، وصار فيما بعد شماسه الخاص (انظر كتاب: "القديس أثناسيوس الرسولي البابا العشرون"، للأب متى المسكين، الطبعة الثالثة: ٢٠٠٨، ص ٤٧).

(٢) معروف بحسب التقليد مركز ومكانة كنيسة الإسكندرية بين كنائس العالم، وذلك منذ القرون المسيحية الأولى. ولكن في عهد البابا ثاوفيلس صارت لكنيسة الإسكندرية مكانة رسمية لدى الدولة، بعد أن كانت تُجابَه من الدولة في عصر الأباطرة السابقين لثيئودوسيوس.

فأُولى المهام التي أُلقيت على عاتق البابا ثاوفيلس سنة ٣٨٨م، كانت إعادة تنظيم حسابات أعياد الفصح، حيث بلغ الفارق بين كنيسة روما غرباً، وكنيسة الإسكندرية وباقي الكنائس التي تدور في فلكها شرقاً؛ خمسة أسابيع. وصار البابا ثاوفيلس صاحب القاعدة التي ما زالت سارية حتى الآن، وهي: أن يكون عيد الفصح في الأحد التالي لعيد الفصح اليهودي وهو اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبري – وقت اكتمال القمر عقب الاعتدال الربيعي – **وإذا وافق الرابع عشر من نيسان يوم أحد، يؤجَّل الاحتفال بالفصح للأحد التالي** – لئلا يكون احتفال المؤمنين واليهود في يوم واحد. وقد وضع أنبا ثاوفيلس الجداول الفصحية لمدة مائة سنة تالية.

البابا ثاوفيلس بنَّاء حكيم:

لم ينسَ البابا ثاوفيلس – بلا شك – ما رآه أثناء سكرتاريته للبابا أثناسيوس، وما عاناه شعب الإسكندرية أثناء الصلاة في كنيسة لم يتم تشييدها بعد، بسبب ضيق أماكن العبادة. لذلك كان غيوراً نشيطاً في هذا المضمار.

وفيما يلي نُقدِّم سرداً لبعض أعمال هذا البطريرك، ليس على سبيل الحصر، ولكن ما أمكن العثور عليه في مختلف المصادر والترجمات التي تحدثت عنه:

١. **كنيسة القديس أول الشهداء**: يقول السنكسار القبطي الذي نشره المستشرق الفرنسي رينيه باسيه في سيرة القديسة أكساني تحت يوم ٢٩ طوبة، أنها كانت أرملة غنية من روما، وجاءت إلى الإسكندرية مع ابنيها. فلما سمعت عن رغبة البابا ثاوفيلس في تنظيف المنطقة الأثرية المعروفة حالياً باسم "كوم الدكة" لاستغلالها في بناء الكنائس؛ قدَّمت أموالها للبطريرك، فاستخدمها لتنظيف المكان وبناء كنيسة على اسم القديس ، وألحق بها ديراً للعذارى والمكرَّسات قضتْ فيه هذه السيدة الكريمة بقية حياتها. وصارت قديسة معروفة في الكنيسة، كما رسم ابنيها أسقفين.

٢. أثناء عملية التنظيف، عُثِرَ على كنز يرجع إلى عصر الإسكندر الأكبر، وعليه ثلاثة حروف ثيطا (θ) اليونانية. وفسَّرها المعاصرون أنها تشير إلى الله Θεός، وثيئودوسيوس الإمبراطور، وثاوفيلس البطريرك. وابتدأ البابا ثاوفيلس في تحويل معبد باكوس[٣] إلى كنيسة.

(٣) وهو الإله اليوناني ديونيسيوس إله الخمر.

٣. ويذكر السنكسار أيضاً أن يوم ٣ نسئ هو تذكار بناء بيعة على اسم "الملاك روفائيل" في الإسكندرية أيام البطريرك ثاوفيلس.

٤. وتقليد دير المحرق الحالي، يقول إن الذي أنشأه هو أنبا ثاوفيلس[٤].

٥. كما بدأ أيضاً في بناء كنيسة مار مينا بصحراء مريوط، واكتمل بناء الكنيسة في عهد أنبا تيموثاوس الثاني البطريرك الـ ,٢٦

٦. وجاء في مخطوطات دير أنبا مقار[٥] أن هذا البطريرك قد أوفد بعثة من رهبان شيهيت تحت قيادة أنبا يوحنا القصير إلى بابل لإحضار أجساد الثلاثة الفتية القديسين الذين ألقاهم نبوخذنصَّر في أتون النار؛ حيث إن البطريرك قد أقام لهم كنيسة تذكاراً لهم. وبعد وصول البعثة إلى مكان دفن الثلاثة الفتية، ظهروا لهم ليلاً طالبين ألاَّ يفصلوهم عن دانيال النبي المدفون إلى جوارهم هناك، ووعدوا أنهم سيحضرون أثناء تكريس كنيستهم في الإسكندرية. وتحكي المخطوطة أن الثلاثة الفتية ظهروا أثناء التكريس في الكنيسة التي أُقيمت في بيت الشهيد أبا قير[٦]، وخصَّص لهم البابا ثاوفيلس عيداً يوم ١٠ بشنس كتذكار لهذا الظهور.

تحويل المعابد الوثنية إلى كنائس:

تكشف شخصية البابا ثاوفيلس، وخليفته البابا كيرلس؛ عن مدى توثُّق العلاقات بين الكنيسة والدولة. فنجاح الدولة في تجميع الشعوب المتفرقة حول عقيدة صحيحة واحدة، وسَّع من سلطان الكنيسة ودخولها في مجالات لم تطرقها من قبل.

وقد استثمر البابا ثاوفيلس هذا التعاون في الاستفادة بكل المعابد الوثنية المهجورة لتحويلها إلى كنائس. ويُقال إن الإمبراطور سلَّم له مفاتيح هذه المعابد من الإسكندرية إلى أسوان. وكان أشهرها في الشرق الأوسط هو معبد السرابيوم في الإسكندرية، الذي حوَّله إلى كنيسة على اسم

---

(٤) "الدير المحرق - تاريخه ووصفه وكل مشتملاته"، نيافة الأنبا غريغوريوس أسقف عام الدراسات اللاهوتية العليا والثقافة القبطية والبحث العلمي (تنيح في ٢٠٠١/١٠/٢٢).

(٥) مخطوطات س ٣٧، س ٤٢، س ٤٤ "ميمر على الثلاثة فتية".

(٦) ربما يكون موضع هذه الكنيسة هو جامع النبي دانيال الحالي في الإسكندرية، حيث إنه لا ذِكْر لهذا النبي في تاريخ الإسلام.

القديس يوحنا المعمدان وأليشع النبي، اللذين أحضر الرهبان رفاتهما منذ أيام القديس أثناسيوس الذي لم تسنح له الفرصة لبناء كنيسة لهما. وحقّق البابا ثاوفيلس رغبة معلّمه ببنائها، واستمرت محتفظة بالرفات حتى القرن العاشر(٧).

أما معبد السرابيوم فقد أُقيم في عهد ملوك البطالمة، لما نجح علماء الديانتين الفرعونية واليونانية في تخليق عبادة جديدة تجمع الشعبين المصري واليوناني. هذه العبادة الجديدة كان يُمثّلها العجل أبيس المصري وأوزيريس الإله الفرعوني الذي أخذ صبغة إغريقية نتيجة تزاوج المصريين واليونانيين(٨). ويجسِّم هذه العبادة كهلٌ جالسٌ على كرسي هو الإله سيرابيس، ممسكاً بيده اليُمنى صوجاناً، ويضع اليُسرى على كلب ذي ثلاثة رؤوس يمثّل الإله الحارس على عالم الأموات في العبادة اليونانية.

وبسبب سرعة انتشار عبادة سيرابيس تطوّر تمثاله إلى جسم إنساني ضخم تمتد يداه من المحرس الداخلي المعتم (قدس الأقداس أو الناووس) إلى الطرف الآخر. ثم دخلت إليه عناصر فارسية من عبادة مثرا، وهي عبارة عن تقديم ذبائح بشرية دموية(٩).

وكان من الطقوس الأساسية التي تجري في السرابيوم، أنه عند بدء فيضان النيل تؤخذ كمية من مياهه وتُقدَّم للإله سيرابيس لكي يُبارِك الفيضان الذي يغمر مصر بالخيرات. لذلك كان يوجد فيه مقياس للنيل. على أنه في عصر الإمبراطور قسطنطين الكبير طلب منع هذا الاحتفال، وأرسل للبابا ألكسندروس البطريرك الـ ١٩ أن تُقدَّم المياه في الكنيسة وليس في المعبد الوثني. لذلك نُقل مقياس النيل إلى كنيسة القيصاريون، كنيسة حيِّ القصور الملكية (كامب شيزار حالياً). ومن هذا الوقت دخلت **أوشية المياه** إلى الليتورجيا المصرية.

وهكذا تحوّلت العبادة الوثنية في هذا المعبد إلى عبادة الله الحي، وشُيِّدت في نفس المكان

(٧) انظر: "الكشف الأثري في دير القديس أنبا مقار عن رفات القدّيسَيْن يوحنا المعمدان وأليشع النبي"، مطبعة دير القديس أنبا مقار.

(٨) "تاريخ الحضارة المصرية في العصر اليوناني والروماني"، دكتور إبراهيم نصحي، صفحة ٢٦.

(٩) هذا ما أكّدته الحفريات الأثرية في منطقة عامود السواري في كرموز؛ حيث عُثِر فيها على دهاليز مؤدِّية إلى قاعات فيها كوى ضيقة تتسع لبقايا الضحايا الآدمية.

كاتدرائية عظيمة وُضِعَ فيها رفات يوحنا المعمدان وأليشع النبي، وصارت فيما بعد مدفناً لبطاركة وأساقفة الكنيسة. وقد تثبَّت يوم ٢ بؤونة الموافق ٩ يونية عيداً لتكريس هذه الكاتدرائية(١٠).

أعماله الأدبية:

الإنتاج الأدبي للبابا ثاوفيلس يشهد أنه كان كاتباً كنسياً قديراً(١١)، وللأسف لم يتبقَّ منه سوى القليل. وما نذكره هنا هو البعض من هذا القليل:

١ - **الجداول الفصحية:** وقد سبق الإشارة إليها سابقاً في سيرته، وما نعرفه عنها هو مقدِّمتها باللاتينية.

٢ - **مراسلاته:** وهي كَمٌّ ضخم، ترجم العلاَّمة جيروم بعضها إلى اللاتينية ضمن مجموعة رسائله. فالرسالة ٩٢ هي رسالة مجمعية أرسلها أنبا ثاوفيلس في سبتمبر عام ٤٠٠م إلى القديس إبيفانيوس أسقف قبرص ضمن رسائل أخرى إلى أساقفة مصر وفلسطين يعرِّفهم بقرارات المجمع المحلِّي الذي انعقد في الإسكندرية ضد المعجبين بأوريجانوس ومبادئه. وقد أرسل رسالتين للعلاَّمة جيروم نفسه في صيف عام ٤٠٠م يحرِّضه في الأولى ضد الأوريجانيين، والثانية للتعريف بالأب الراهب ثيئودورس الذي كان في طريقه إلى روما. وآخر هذه المجموعة كانت رسالة للقديس إبيفانيوس يوصيه فيها بعقد مجمع لتحريم الأوريجانية، ويقترح أيضاً على رؤساء أساقفة آسيا الصغرى السير في نفس هذه الخطوات.

وهناك أيضاً مجموعة رسائل متبادلة بينه وبين أورسيزيوس ورهبان الأديرة الباخومية في فابو (قرية فاو حالياً) محفوظة في ترجمتها القبطية من القرن السادس/ السابع، نشرها عالم القبطيات الألماني كروم Crum.

ويذكر سقراط في تاريخه الكنسي(١٢) أن البابا ثاوفيلس أرسل خطابين إلى إمبراطورَي الدولة الرومانية ثيئودوسيوس ومكسيموس عام ٣٨٨م، على يد الأب إيسيذورس، ورسائل أخرى كتبها

---

(10) Theod., *H.E.* V, 22; Socr., *H.E.* V, 16,17: Soz., *H.E.* VII: 15.

(11) Theodoret, Ep. 83.

(12) Socrates, Hist. Eccles. 6:2,6.

حوالي عام ٣٩٥م وذلك في أعقاب الخلاف الذي نشب بين العلاَّمة جيروم ورفيقه روفينوس، يُظهر فيها تعاطفه مع روفينوس. وفي عام ٣٩٠م أرسل خطاباً إلى أنبا يوحنا بطريرك أورشليم يعرِّفه أنه قد قَبِلَ اعتذاره عن اتهاماته ضد العلاَّمة جيروم. وبعد فترة وجيزة كتب إليه بخصوص رسامة أخيه باولينوس، فردَّ عليه العلاَّمة جيروم في رسالتيه رقم ٦٣،٨٢. وفي عام ٤٠٢م تراسَل مع القديس يوحنا ذهبي الفم بخصوص "الإخوة الطوال"، وهي القضية التي سنتناولها بعد قليل.

كما توجد أيضاً إشارات وتلميحات في أعمال أدبية أخرى تفيد مراسلاته مع باباوات روما أنستاسيوس عام ٣٩٩/ ٤٠٠م، وإنوسنت الأول في يوليو عام ٤٠٤م؛ ومع البطريرك فلابيانوس الأنطاكي عام ٤٠١م وخليفته بورفيريوس عام ٤٠٤م.

٣ ـ **رسائل فصحية:** خلال بطريركيته التي امتدت حوالي ٢٨ عاماً، كان أنبا ثاوفيلس مواظباً على تقليد كرسي الإسكندرية. ومعروف من رسائله الفصحية ٢٦ رسالة على الأقل. فالرسائل التي صدرت أعوام ٤٠١،٤٠٢،٤٠٤ حفظها القديس جيروم في ترجمة لاتينية، ويظهر فيها اتجاه أنبا ثاوفيلس المناهض للأوريجانية. كما أن التاريخ لا يزال يحفظ نصوصاً من رسالتين أُخريين تزخران بالمضمون اللاهوتي الغني في لغتهما اليونانية الأصلية مع ترجمة قبطية أيضاً.

ولا نعرف عن بقية رسائله الفصحية سوى شذرات متفرقة في أعمال أخرى، مثل: الطبوغرافيا المسيحية للرحَّالة قزمان إنديكوبلوستس Cosma Indicopleustes، وفي ردِّ البابا تيموثاوس الثاني بطريرك الإسكندرية الـ ٢٦ على عقيدة الخلقيدونيين، وفي كتابات يوحنا كاسيان، وسينسيوس أسقف الخمس المدن الغربية، وجنَّاديوس المؤرخ اللاتيني، وفي بستان الرهبان، وغيرها.

٤ ـ **مواعظه:** ما نعرفه منها:

+ عن الدينونة، محفوظة باليونانية في الأبوفثجماتا باترم؛ ونُشرت ترجمتها السريانية عام ١٩١٣م.

+ عن التعفف والندامة؛ وقد نشرها عالم القبطيات كروم Crum عن بردية في المتحف البريطاني.

+ عن الصليب واللص؛ نُشرت بالقبطية في تورينو بإيطاليا.

+ عن الإفخارستيا، وكانت منسوبة للقديس كيرلس الكبير في الباترولوجيا اليونانية، وأعاد

تصحيح نسبتها إلى أنبا ثاوفيلس العالم الفرنسي Richard الذي تخصص في الأعمال الأدبية للأنبا ثاوفيلس.

+ وتوجد مقالة على رؤيا إشعياء النبي ٦: ١-٧ كانت محفوظة تحت اسم العلاَّمة جيروم. لكن الدراسات الحديثة رجَّحت نسبتها للبابا ثاوفيلس(١٣).

ولا يزال الكثير من أعماله الأدبية في القبطية والحبشية لم تتم دراستها أو نشرها حتى الآن.

مؤلَّفاته المنحولة (أي المنسوبة إليه):

هناك أعمال أدبية نُسبت خطأً إلى أنبا ثاوفيلس؛ أهمها ما نشره المستشرق الإنجليزي Mingana في القرن الماضي، واشتهرت بعنوان "**رؤيا ثاوفيلس**" وهي قصة هروب العائلة المقدسة إلى مصر، ترويها العذراء مريم شخصياً في رؤيا للبطريرك. ورغم أن النص الوحيد كان بالسريانية، إلا أنه مترجم عن القبطية. ويختتم الراوي حديثه بالتعريف بشخصيته أنه ''كيرلس'' وقد سمعها من فم أبيه البطريرك ثاوفيلس. وتنتهي الدراسة التي جرت على المخطوطة أن كيرلس وثاوفيلس شخصيتان منحولتان في عظة كان يلقيها أسقف قبطي في عيد للعذراء بالعربية، ثم تُرجمت إلى السريانية على يد أحد السريان اليعاقبة المقيمين في مصر.

وتوجد أيضاً مخطوطة إثيوبية من المتحف البريطاني تحكي عظة للبابا ثاوفيلس على طريقة السؤال والجواب؛ ويقدِّم البطريرك سؤاله للعذراء فتُجيب عليه في رؤيا. هذا النمط الأدبي معروف لدى علماء القبطيات، إذ يستخدمه الوعَّاظ في الكنائس منتحلين أسماء لشخصيات كنسية عظيمة تضمن لعظاتهم القوة والتأثير المرغوب فيهما.

هذا التنوُّع الكبير للإنتاج الأدبي، سواء الأصيل أو المنحول، يكشف عن المكانة العظيمة التي احتلها هذا البطريرك على مسرح التاريخ الكنسي في القرن الرابع/ الخامس؛ حتى أنه أثناء وجوده في القسطنطينية عام ٣٩٤م لتكريس كنيسة ''الأبوستوليكن apostolikon'' المقامة على اسمَيْ الرسولَيْن بطرس وبولس، دُعِيَ إلى مجمع لحسم الخلاف بين اثنين من الأساقفة على كرسي بُصرى

(13) B. Altaner, Theologische Revue. (1934).

(Bostra) الذي يرأس أسقفيات منطقة "العربية"(١٤)، وقدَّم رأيه الذي وافق عليه المجتمعون بلا استثناء وهو: إنه وإن كان يحق لثلاثة أساقفة أن يكرِّسوا مطراناً (أي رئيس أساقفة) أو أسقفاً، إلا أن عزل الأسقف أو المطران لا يكون بواسطة ثلاثة أساقفة بل بواسطة مجمع محلِّي.

هذه المكانة الفائقة لكنيسة الإسكندرية أكَّدها فيما بعد خليفته القديس كيرلس عمود الدين.

تقييم واقعي لشخصية البابا ثاوفيلس:

تعتبر كنيسة الإسكندرية - وتشاركها كنيسة روما - أن البابا ثاوفيلس من قديسيها الذين تُذكر أسماؤهم في مجمع القدَّاس الإلهي متشفعة بصلواتهم، كما تعيِّد له في ١٨ بابة من كل عام. بينما المؤرِّخون المعاصرون يؤاخذونه بسبب موقفه من الأوريجانية ودوره في محاكمة ونفي القديس يوحنا ذهبي الفم أفصح وأحبّ قديسي الكنيسة الشرقية قاطبة. والحقيقة أنها قضية واحدة متداخلة، وخفاياها وخلفياتها متشابكة؛ ولابد من التقييم التاريخي الواقعي لرفع اللَّبس والغموض المحيط بإدخال هذا البطريرك في شركة قديسي الكنيستين الشرقية والغربية معاً.

بادئ ذي بدء، جميع المؤاخذات التي قيلت ضد البابا ثاوفيلس صدرت عن أقلام متعاطفة مع القديس يوحنا ذهبي الفم ومتهجِّمة على البطريرك في عصرٍ هيَّأت ظروفه السياسية أن يشغل أنبا ثاوفيلس مكانة عُليا بسبب ضعف إمبراطور القسطنطينية أركاديوس، وحياة البذخ التي كانت تحياها الإمبراطورة أودكسيا؛ إلى جانب حدَّة ذكاء البطريرك وموهبته في الاستفادة من كل الظروف والإمكانيات لمجد الكنيسة. فالتهجُّم على الشخصيات البارزة، بصفة عامة، سمة طبيعية في كل المجتمعات البشرية.

قضية القديس يوحنا ذهبي الفم:

كان من المعروف لدى آباء كنيسة الإسكندرية أن الذين درسوا في مدرسة أنطاكية اللاهوتية، وهي التي تخرَّج منها ذهبي الفم، ميَّالون إلى المنطق والعقلانية؛ الأمر الذي تجزع له كنيسة الإسكندرية بسبب بدعة آريوس الذي تتلمذ لمؤسس هذه المدرسة اللاهوتية لوسيان الشهيد

---

(١٤) وهي المنطقة التي مكث فيها القديس بولس ثلاث سنوات (راجع: غل ١:١٧، وكتاب: "القديس بولس الرسول: حياته، لاهوته، أعماله"، للأب متى المسكين، الطبعة الأولى: ١٩٩٢، ص ٧٦).

الأنطاكي. لذلك فإنه وقت ترشيح ذهبي الفم لبطريركية القسطنطينية عام ٣٩٩م، لم يكن لدى أنبا ثاوفيلس أي ضمان لعدم انزلاق أنطاكية ثانية للآريوسية وتفرُّعاتها العديدة التي تمّ إخماد أوارها منذ وقت قصير للغاية عقب المجمع المسكوني الثاني عام ٣٨١م.

ومخاوف الإسكندرية من اللاهوت الأنطاكي أكَّدتها الأحداث التالية. فديودورس المعلِّم اللاهوتي لذهبي الفم، وثيئودورس زميل دراسته والذي صار أسقفاً فيما بعد على المصِّيصة بآسيا الصغرى، حرمهما مجمع القسطنطينية الثاني عام ٤٩٩م والذي لم تحضره كنيسة الإسكندرية. الأول بسبب أنه هو معلم نسطور المبتدع؛ والثاني بسبب انحيازه للأوريجانية. ونسطور نفسه، الذي صار بطريركاً على القسطنطينية عام ٤٢٨م، هو أحد خريجي مدرسة أنطاكية اللاهوتية. لذلك رأى أنبا ثاوفيلس، أقوى شخصيات العصر، أن يختار لكرسي القسطنطينية شخصاً يطمئن إلى إيمانه، وهو إيسيذورس أحد تلاميذ القديس أثناسيوس ورفيق منفاه في تريف. في الوقت الذي رشح فيه فلابيانوس بطريرك أنطاكية كاهنه يوحنا ذهبي الفم. وأرثوذكسية فلابيانوس هذا لم تكن واضحة[١٥]، إذ انشغل في جمع الأحزاب المتنازعة في بطريركيته وضمّ الشعب الأنطاكي المبدد. فكان من الطبيعي نشوء معارضة بين الطرفين.

وبدأت القضية تتعقَّد بدخول عنصر جديد، وهو المجادلات الأوريجانية. فرغم انحصارها في براري نتريا والإسقيط، إلا أن رهبان نتريا، لقُربهم من الإسكندرية ومدارسها اليونانية، كانوا متعاطفين مع كتابات أوريجانوس ومبادئه، ويدرسون في مناهجه. بينما رهبان الإسقيط، بسبب بعدهم عن المناطق المأهولة وبساطتهم وسعيهم المستمر وراء القداسة وتفضيلها على الدراسة، ظهرت بينهم بدعة جديدة اشتهرت باسم ''أنثروبومورفيزم anthropomorphism'' أي ''الصورة الآدمية للاَّهوت غير المتجسِّم''، وهي مضادة تماماً لمبادئ أوريجانوس وما أعطاه للاَّهوت والروح من علوٍّ وتسامٍ فوق التجسيم والمادة.

وسط هذه المجاذبات، كان الرهبان عوناً للبابا ثاوفيلس في أعماله التعميرية. فكان يستدعيهم لتطهير المعابد الوثنية وتحويلها إلى كنائس. وفي رسالته الفصحية لعام ٤٠١م، انتهز الفرصة للردِّ على بدعة ''الصورة الآدمية للاَّهوت غير المتجسِّم''، فاحتج رهبان الإسقيط وطالبوا بتحريم

---

(١٥) راجع فصل: "ذيول الاضطرابات الأريوسية" المنشور في هذا الكتاب.

الأوريجانية. وكانت كنيسة روما قد سبقت واتخذت هذا القرار، مما سهَّل على البابا ثاوفيلس أن ينزل على رغبتهم لأجل سلام الكنيسة. ونظراً للتوافق الكبير بين الإسكندرية وروما، عقد البطريرك مجمعاً محلياً وأعلن هذا الحرم، وإن كنَّا لا نجد له صدى إلا في الترجمة اللاتينية للقديس جيروم.

وازدادت المشكلة تعقيداً بالتجاء بعض الرهبان المعروفين بـ "الإخوة الطوال" من نتريا إلى القديس يوحنا ذهبي الفم هرباً من البابا ثاوفيلس، وكانوا مشهورين بالتقوى والعلم. فكتب القديس يوحنا ذهبي الفم إلى زميله بطريرك الإسكندرية لمصالحتهم، فلم يلقَ استجابة. لذلك ترك لهم حرية العبادة والصلاة دون أن يُشركهم معه في الخدمة أو التناول.

وسط هذا الجو المشحون بالتوتر، أحسَّت الإمبراطورة مع وصيفاتها من سيدات القصر بالتهجُّم اللاذع الذي يشنُّه بطريرك القسطنطينية ضد البذخ والتنعُّم في القصور. فلجأ الإمبراطور الضعيف أركاديوس إلى البابا ثاوفيلس لعقد مجمع ضد القديس ذهبي الفم. وفعلاً عُقِد المجمع في خلقيدونية وحضره ٤٥ أسقفاً منهم ٣٦ أسقفاً مصرياً، وعزلوا ذهبي الفم وحكموا بنفيه.

لكن السماء تدخلت لإنقاذ الكنيسة، سواء كنيسة القسطنطينية أو كنيسة الإسكندرية. فبعد أن صعد القديس يوحنا إلى السفينة التي ستحمله إلى المنفى ودخلت إلى عمق البحار، حدث زلزال هائل رهيب ألقى بالإمبراطورة من فراشها إلى الأرض وهي حامل في ولي العهد، فخافت وارتعبت طالبة سرعة عودة ذهبي الفم؛ في الوقت الذي ارتجَّت فيه المدينة بالمظاهرات التي تندد بقرار نفي القديس يوحنا ذهبي الفم، وهتاف الجماهير بأن الزلزال الذي وقع كان انتقاماً إلهياً منادية بعودة البطريرك إلى كرسيه.

كان البابا ثاوفيلس في القسطنطينية مُعايناً لهذه الأحداث، **فتصالح** مع مَنْ تبقَّى من "الإخوة الطوال"، **ووعى وأدرك الدرس الإلهي** الذي من السماء؛ فقفل راجعاً إلى الإسكندرية عام ٤٠٣م قبل بدء موسم العواصف والنوَّات.

نهاية حياته:

تشهد التسع سنوات الباقية من حياة البابا ثاوفيلس كيف أنه انتفع روحياً من هذه المجاذبات التي خاضها على المسرح السياسي للأحداث العالمية، وربما يكون هو أول بطريرك على كرسي

الإسكندرية حاول الاستفادة بكل الفرص والإمكانيات التي سنحت له. فكانت الدروس التي تلقَّنها بمثابة حدود إلهية بين السياسة والدين. فقد كرر الإمبراطور الاستعانة به مرة ثانية لعزل ونفي القديس يوحنا ذهبي الفم، وهو النفي الذي قضى فيه نحبه؛ ولكن أنبا ثاوفيلس تجاهل هذه الدعوة، وعاش بقية حياته في توبة وندامة، كما يشهد بذلك كتاب بستان الرهبان، إذ يذكر أنه عند نياحته طوَّب القديس أرسانيوس لأنه جعل هذه الساعة ـ ساعة الانتقال ـ أمامه كل حين. وهذا ما جعل سنكسار كنيسة الإسكندرية، ومعها كنيسة روما، تتغاضى عن أخطائه وتُركِّز على أعماله الصالحة مثل: التوسُّع في إنشاء الكنائس والبيَع، وميامره ومواعظه الغزيرة؛ فدخل إلى مجمع القديسين.

الحياة الكنسية في القرن الرابع

إكرام الشهداء ورفات القديسين

يرى بعض المؤرِّخين أن هذا القرن يمثِّل بالنسبة للكنيسة تطوُّراً في نظام عبادتها بسبب التغيير الشامل الذي جازته بعدما صارت ديانة مُعترَفاً بها لدى الدولة الرومانية في بداية القرن، ثم أصبحت الديانة الرسمية للدولة في الربع الأخير منه. فاعتراف الدولة بحق المسيحيين في حرية العبادة كان بلا شك **ذا تأثير عميق على شكل العبادة** ذاتها، دون جوهرها.

قبل ذلك كان الجزء الأكبر من الملتئمين حول المذبح والإفخارستيا ينتمي للطبقة البسيطة والمتوسطة[1]؛ فكانت اجتماعاتها تتم ليلاً في السراديب والمغائر خارج المدن[2]. في القرن الرابع خرجت الكنيسة إلى وضح النهار تحت سمع وبصر - بل وتشجيع - الدولة. فالأرستقراطية الحاكمة والطبقات الغنية، ذات التقاليد الراقية والمواكب الحافلة التي تتحرَّك أمامها وخلفها، اقتحمت كنيسة الفقراء والمتواضعين ودفعتها للتطور السريع لمواكبة التغيير الحادث.

واحتضان الدولة للكنيسة أدخل إليها الفنون الراقية من نحت ورسم وتصوير وزخرفة، ثم الموسيقى والألحان والترنيم مع ما يتبعها من خوارس وجوقات، لخدمة الهيكل والمذبح؛ فقد صارت الكنيسة الآن تحت رعاية الدولة، وكل كرامة تُقدَّم للكنيسة، بالمفهوم العلماني، هي للمسيح ولشهدائه ومعترفيه وقدِّيسيه. واستتبع هذا بالتالي تضخُّم عدد الإكليروس، وتعدَّدت وتنوَّعت المهام الكنسية بالمقارنة مع كنيسة الرسل والقرون الأولى. وقتذاك لم يكن هناك فارق واضح بين اسم الأسقف واسم القس[3]، فتحتَّم تنظيم وتحديد رتب الكهنوت ابتداء من الشماس القارئ حتى المطران.

---

(١) لا ننسى في هذا المجال كيف دخلت المسيحية بيوت العظماء، كقول بولس الرسول: «يُسلِّم عليكم... الذين من بيت قيصر» (في ٤:٢١).

(٢) اقرأ مثلاً قصة: "شهيد السراديب" - إصدار مجلة مرقس.

(٣) يقول الإبركسيس، إن القديس بولس استدعى **"قسوس الكنيسة"** ليُودِّعهم ويوصيهم: «... احترزوا ←

ونتيجة أخرى لتحرُّر الكنيسة من قيود العبادة ودخولها مجال الكرازة الجهارية عقب عصور السراديب والمغائر، هي أن تتسلَّح بوسائل وفنون مخاطبة الجماهير. فالتعليم كان في الكنيسة الأولى بسيطاً ويعتمد كليّاً على الروح القدس كقول المسيح في إنجيل القديس يوحنا: «وأما المعزِّي، الروح القدس، الذي سيُرسِله الآب باسمي، فهو يُعلِّمكم كل شيء، ويُذكِّركم بكل ما قلته لكم» (يو ١٤: ٢٦)، وكتقرير القديس يوحنا الرسول عن الواقع الذي عاصره في نهاية القرن الأول: «وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم، ولا حاجة بكم إلى أنْ يُعلِّمكم أحد، بل كما تُعلِّمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء، وهي حق وليست كذباً. كما علَّمتكم تثبتون فيه» (١يو ٢: ٢٧). ولكن في مواجهة الجماهير يلزم إجادة فن الخطابة واستخدام الفصاحة وأساليب التأثير على الجموع؛ وهي فنون يستخدمها الروح القدس لاستثارة انتباه السامعين حتى يعدَّهم للتغيير من حياة عتيقة وعبادة أوثان واستباحة شهوات، إلى حياة العفة والطهارة والقداسة اللائقة بالإيمان المسيحي.

وهكذا بدأ "الطقس" بمفهومه التربوي كوسيلة للتعبير عن العبادة المنظَّمة التي تستقطب آلافاً من الجماهير مختلفي الثقافة والمستوى الاجتماعي، والحاملة لتقاليد وثنية متدنِّية وتراث اجتماعي منحلّ غريب عن المسيحية؛ لكي يغرس المبادئ المسيحية في نفس تلك الجموع التي جاءت تطلب المعمودية. وهنا يتجلَّى دور آباء الكنيسة العظام في تعميد التراث الشعبي ليخدم قضية خلاص الإنسان. وصار مَثَل المسيح عن الزوان والحنطة، وكيف زرع العدو زواناً وسط الزرع الجيد، علامة إنذار وبوق تحذير حتى تتعرَّف الكنيسة على كيفية التمييز بين الزوان والحنطة. لكن آباء الكنيسة كانوا يُجاهدون لتعميد العادات والتقاليد المتوارثة بصبغة الروح القدس حتى يتحوَّل المجتمع الوثني إلى مجتمع مسيحي، فأفلحوا في ذلك أغلب الأحيان وعجزوا في أحيان أخرى؛ مما أدَّى إلى تسرُّب بعض العادات الوثنية في المجتمع المسيحي، الأمر الذي اهتمَّت الكنيسة المقدسة بمقاومته وتحذير المؤمنين منه على مدى العصور.

إذاً لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها **أساقفة**، لترعوا كنيسة الله» (أع ٢٠: ٢٨،١٧).

إكرام الشهداء:

هو سمة مميِّزة للحركة الكنسية في القرن الرابع نتيجة دخول رجال الحُكْم والشعوب إلى الإيمان. فالكنيسة المجاهدة بنوع من الاعتراف بالجميل والتكريم اللائقين، وأيضاً كتعبير حيٍّ عن الشركة في الجسد الواحد؛ كانت تستشهد بالشهداء وتذكُر أسماءهم حتى يكونوا قدوة حيَّة تُلهِب بها الغيرة المقدسة بين أبنائها. وهي ضرورة روحية حتَّمها تغيير الظروف العالمية لتوقُّف الاضطهادات وحلول السلام والهدوء والاستكانة، ولو أنها كانت عوامل لها نتائجها السلبية؛ أخطرها ضياع الحرارة والغيرة في العبادة الذي هو سمة كنيسة عصور الشهداء من قبل.

بدأ احتفال الكنيسة بشهدائها في مقابرهم الواقعة خارج المدن والكور، حيث كانت القوانين وقتئذ تمنع الدفن داخلها. وخلال الاحتفال تُفصِح الكنيسة عن عقيدتها في هذا المجال، أنها "تعبد ابن الله، وتحب تلاميذ الرب وتكرِّمهم، مقابل محبتهم الفائقة لربهم وملكهم. وبهذا الاحتفال نعبِّر عن رغبتنا أن نكون شركاءهم وتلاميذ تابعين للرب"(٤). وهكذا كانت عقيدة الكنيسة الكامنة وراء إكرام الشهداء في غاية البساطة الروحية.

لكن القرن الرابع شهد تحوُّلاً شعبياً ضخماً من الوثنية إلى المسيحية. فالاحتفالات الدينية الوثنية كانت تُصاحبها مواكب واستعراضات تفرضها المشاعر الشعبية التي يصعب السيطرة عليها، لأنها اتَّخذت وضعاً ثابتاً على مدى الأجيال. فلما آمنت هذه الجموع حملت معها هذا التراث التقليدي والمطالب النفسية والاجتماعية المشبِعة للاحتياجات الغريزية الكامنة في الإنسان. فالمعروف لدى علماء الاجتماع والأنثروبولوجي(٥)، أن إكرام الأجداد والأسلاف قد يصل إلى حدِّ العبادة كما وُجِد لدى القبائل المتخلِّفة في أواسط أفريقيا، وهو غريزة طبيعية في تكريم الموتى من الأسلاف وعظماء القبيلة أو الدولة. لأجل هذا كانت تُقام الأضرحة الفخمة للعظماء كتعبير عن مشاعر الاحترام والتوقير الذي بلغ فعلاً حدَّ العبادة كما نراها في الأضرحة الأثرية والمباني التذكارية في الحضارات الفرعونية واليونانية والرومانية. وقد تمادى الحماس الشعبي لبعض الأباطرة الرومانيين إلى درجة التأليه فصارت أرواحهم لا يطالها الموت ولا الفناء.

---

(٤) رسالة كنيسة سميرنا عن استشهاد القديس بوليكاربوس - ف ١٧، كُتِبَت حوالي عام ١٦٥م.

(٥) هو علم يبحث في أصل الجنس البشري وعاداته ومعتقداته.

وكنيسة القرن الرابع كانت واعية بالروح القدس الساكن فيها كوعد المخلِّص، إلى المضمون الديني الكامن وراء الدوافع والمشاعر الدينية المحرِّكة للمواكب الاستعراضية والاحتفالات الشعبية. فاستطاعت بالتطبيقات المدروسة على أمثلة مشابهة من الكتاب المقدس أن تستخلص عقيدتها عن ''الشفاعة'' وقوَّتها المقتدرة. فما أن توقَّف الاستشهاد ودخل عصر السلام، حتى برزت المشاعر والأحاسيس الدينية الحماسية في إكرام الشهداء، باعتبارهم ''أبطال الإيمان'' أو أبطال الديانة التي يؤمنون بها الآن بدلاً من الأوثان أو عبادة الأسلاف والعظماء السابقة. ومن هنا بدأ دور الكنيسة في تصحيح المسار الشعبي إلى توجيه المشاعر في طلب المعونة والمؤازرة، التي هي ''الشفاعة'' في المفهوم الكنسي، لأجل شفاء الأمراض أو الخروج من الضيقات، سواء الروحية أو النفسية أو العائلية أو المالية. وكثيراً ما يغيب عن المستوى الشعبي المغزى الروحي الحقيقي للشفاعة؛ فتتواتر الأحاديث عن الأشفية والعجائب الدَّالة على قدرة الشهداء والقديسين الفائقة لنجدة المتضايقين والمتعبين والمرضى.

وقد نشأ نوع جديد في الأدب الديني الروائي فرضَته احتفالات الشهداء والقديسين، هو ''سيرة الشهداء acta martyrum''. فكان الاحتفال الشعبي بالشهيد فرصة لأساقفة ووعَّاظ الكنيسة المحلية أن يُقدِّموا **نموذجاً مثالياً** بنوع من القدوة العالية المثال بهدف استثارة الانتباه الشعبي، دون اهتمام بالتفاصيل أو الوقائع التاريخية في دقتها العلمية المعروفة لدينا الآن. فلا يتعجَّب قارئ على مشارف القرن الحادي والعشرين لكثرة الأساطير التي تسرَّبت لهذه السِّيَر، مما جعل بعضها يخرج قليلاً عن الأمانة العلمية أو الذوق العام.

وكما كانت احتفالات العظماء تتم عند أضرحتهم ومدافنهم وتُمدُّ الموائد في تذكاراتهم السنوية، صار أيضاً التذكار السنوي للشهيد يسبقه قدَّاس الترحيم وتعقبه المائدة، رمزاً للمائدة السمائية التي تجمع الكنيسة المجاهدة مع المنتصرة.

رفات القدِّيسين:

من الأمور ذات المغزى في كيفية تأثير المسيحية على العادات الشعبية الوثنية هو ما حدث من تغيير على أنظمة الدفن في العصور الرومانية؛ إذ كانت أجساد الموتى، حتى لو كانوا من العظماء، تُحرَق ويُحفَظ رمادها في قنِّينة وتُدفن في قبو تحت الأرض. والاستثناء الوحيد من هذه العادة كان الفراعنة والشعب اليهودي. فالفراعنة كانوا يُحنِّطون أجساد عظمائهم، بينما اليهود يُكفِّنون موتاهم

كما نعرف من معجزة إقامة لعازر ومن قيامة الرب يسوع من بين الأموات.

أما المسيحيون فكانوا يدفنون الموتى دون حرق أجسادهم كعادة أهل زمانهم، على اعتبار أن هذا الجسد عينه سيتقبَّل وعد القيامة رجوعاً إلى قول القديس بولس في هذا الصدد: «الجسد... للرب، والرب للجسد... ألستم تعلمون أن أجسادكم هي أعضاء المسيح؟... ألستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم، الذي لكم من الله؟» (١كو ٦:١٣-١٩). ولو أن القديس بولس لا يتكلَّم هنا عن قيامة الأجساد، إلاَّ أن الكنيسة طبقته على الجسد بنوع من التوقير اللائق لأنه "هيكل الروح القدس". فإن كان هذا الفاسد يقبل الزرع المقدس، أي المعمودية، ليصير هيكلاً للروح القدس؛ فسيُقام في عدم فساد، في مجد وقوة (راجع ١كو ١٥: ٤٢-٥٤).

استطراداً من هذه المعاني، بدأ التيار الشعبي يجِدُّ في طلب رفات الشهداء والقديسين، إذ هي نقطة التلامس معهم. فكان المؤمنون يطلبون مواضع لمدافنهم قريبة من بقايا أجساد الشهداء، تحت إحساس العاطفة البشرية أن الشهيد سيُرحِّب بجيرانه يوم القيامة. فعندما أُقيمت كنيسة القديس يوحنا المعمدان عند عمود السواري في الإسكندرية حوالي عام ٤٠٠م، والتي ضمَّت رفات القديس يوحنا المعمدان وأليشع النبي، صارت مدفناً لبطاركة وأساقفة كنيسة الإسكندرية. وتحكي لنا سيرة القديس أنبا مقاره أسقف إدكاو، الذي استُشهِد في الإسكندرية بيد الخلقيدونيين عام ٤٥٢م، أن جسده وُضِعَ إلى جوار رفات القديس يوحنا المعمدان وأليشع النبي امتداداً للتاريخ المقدس الذي يقول إن عظام أليشع النبي قد أقامت ميِّتاً (٢مل ١٣:٢١). كذلك أيضاً منطقة أنصنا التي صارت أكبر مقبرة للشهداء الذين استُشهِدوا على يد واليها أريانوس الوثني في عصر دقلديانوس، تحوَّلت إلى مدافن امتدَّت كيلومترات في بطن الجبل المتاخم للبرشا ودير أبي حنِّس الحالي.

لكن التيار الشعبي في اندفاعه لا يعرف حدوداً يتوقَّف عندها. فنتيجة الإفراط في تكريم الشهداء حدث أن بعض البلاد لم تحظَ بكرامة وجود مثل هذه الأجساد فيها، فصارت تسعى لإحضارها بشتَّى الوسائل. فإلى القسطنطينية نُقلت عظام القديس تيموثاوس عام ٣٥٦م، وفي العام التالي عظام القديس لوقا الإنجيلي وأندراوس الرسول. كما اجتهد أسقف بلاد الغال في فرنسا في نقل بعض رفات الشهداء من روما إلى كاتدرائية الرون. والقديس أمبروسيوس أسقف

ميلانو، في قمة صراعه مع الإمبراطورة يوستينا الآريوسية، اكتشف أجساد قدِّيسَيْن معروفَيْن هناك: جرفاس Gervase وبروتاس Protase.

ثم بدأ عنصر جديد يدخل على سِيَر الشهداء والقديسين؛ وهو ظهوراتهم في رؤى أو أحلام لشخصيات ذات أهمية في الكنيسة: بطريرك أو أسقف، أو ربما لعلمانيين اشتهروا بالتقوى، يُعلنون لهم أماكن رفاتهم. فقصة ظهور رأس القديس يوحنا المعمدان ترجع إلى راهب خلقيدوني معروف بقداسته، كان يعيش في آسيا الصغرى أو شمال سوريا مع ابنته العذراء مطرونة. فأخذها هذا الراهب وحفظها عنده في قرية قرب خلقيدونية، وتسلمتها ابنته العذراء بعد نياحته. ولما شاع الخبر ووصل إلى القسطنطينية نُقِلَت رأس يوحنا المعمدان إلى كنيسة "الأبوستليكي" أي كنيسة الرسل.

وهكذا تطوَّر إكرام الشهداء والقديسين من "الشفاعة" الروحية إلى السعي الحثيث وراء الاستحواذ على رفاتهم، حتى اضطر الأمر إلى تدخُّل السلطات واستصدار الأوامر الإمبراطورية المتعددة لوقف هذه الأعمال التي تكشف عن "ذهنية أسطورية" كامنة وراء المعتقد الشعبي السائد.

ونودُّ في الختام أن نلفت نظر القارئ أن الرهبان والأديرة كانوا بعيدين تماماً عن هذا التيار، بسبب انهماكهم في عبادتهم الروحية الخالصة، غير منشغلين بالمظاهر والتفاخُر بالأجساد. يتضح ذلك من قصة مواراة القديس أنطونيوس لجسد أنبا بولا أول السوَّاح، ومن وصية أنبا أرسانيوس لأولاده بأن يطرحوا جسده في الصحراء لتنتفع به طيور السماء ووحوش البرية، وغيرها.

قوافل الحُجَّاج والزيارات المقدسة

كانت قوافل الحُجّاج لزيارة الأماكن المقدسة هي إحدى سمات الحياة الدينية كنتيجة للحماس الشعبي وتدفُّق الجموع – بسماح من الحكومات – للاشتراك في الحياة الكنسية.

وقد بدأت الزيارات المقدسة بقوافل الحجّاج التي تتحرَّك من كل حدب وصوب في الإمبراطورية الرومانية متَّجهة إلى فلسطين لزيارة المواضع التي وطأتها أقدام المسيح، وبالأخص عندما شيَّد الإمبراطور قسطنطين الكبير وأُمه الملكة هيلانة كنيسة القيامة في أورشليم وكنيسة المهد في بيت لحم. ثم توالت أعمال الإنشاء ببناء الكنائس فوق الأماكن التي وَرَدَ ذِكرها في الأناجيل؛ أو التي ذُكِرَت في العهد القديم، مثل: جبل سيناء، الجبل الذي تسلَّم عليه موسى لوحَي الشريعة المكتوبَيْن بإصبع الله؛ بل وحتى موضع شجرة العُلَّيقة التي خاطب الله موسى النبي من وسطها، فقد بنى الإمبراطور جوستنيان في هذا الموضع كنيسة العلَّيقة في القرن السادس الميلادي.

وزيارة الأراضي المقدسة كانت ذات تأثير روحي ومعنوي عالٍ على جموع الحجّاج؛ إذ كانوا يعودون إلى أوطانهم في غاية التأثُّر. فكان هذا الانفعال عاملاً هاماً في نقل طقوس احتفالات أورشليم وكنيسة القيامة إلى سائر الكنائس الأخرى. فما يلفت نَظَر قارئ مذكرات السائحة الأسبانية "إيثيريا"[١] – وهي أكمل مثال لهذه النوعية من الأدب المسيحي – ذلك التقارُب الشديد بين ما جاء في وصف صلوات كنيسة القيامة في أورشليم وما يجري حالياً في الكنيسة القبطية أثناء أسبوع الآلام واحتفالات القيامة المجيدة، الأمر الذي يقطع بأن كنيسة الإسكندرية كانت من أوائل الكنائس التي نقلت الملامح الرئيسية لطقس أسبوع الآلام عَبْرَ قوافل الحُجّاج المصريين إلى الأراضي المقدسة. ولا يغيب عن ذهن القارئ أنه كان من ضمن أفواج الحجّاج أساقفة وكهنة وشخصيات أخرى منوط بها مسئولية وضع الترتيب الكنسي والطقسي لكل الكنائس المحلية.

---

(١) راجع: "مجلة مرقس"، عدد سبتمبر ١٩٩١.

ومن جهة أخرى، كانت هذه الزيارات ذات إغراء شعبي كبير، حتى أن التاريخ الرهباني يحكي لنا عن راهب تقي قوتل بهذا الإغراء بأن يترك حياة السكون في البرية التي كان يتعبَّد بها ليزور هذه الأماكن المقدسة؛ ولكنه كان يردع أفكاره وهو يتجوَّل في قلايته قائلاً لنفسه: ''هنا بيت لحم حيث وُلِد المسيح''، ثم يتحوَّل إلى الجهة الأخرى ويقول: ''وهذه أورشليم حيث صُلِبَ ربنا...''، وهكذا.

ولم تنحصر هذه الزيارات في الحج إلى بيت المقدس (أورشليم) وفلسطين؛ بل كانت تجري أيضاً احتفالات شعبية حول مدافن الشهداء. فالقديس يوحنا ذهبي الفم ترك لنا مجموعة عظات عن الشهيد بابيلاَّس والشهيد إغناطيوس الأنطاكي وغيرهم، ألقاها خلال الاحتفالات السنوية التي أُقيمت في كنائس أنطاكية(٢). ويحكي القديس أغسطينوس(٣) ما سمعه من الحُجَّاج العائدين من مدينة أفسس بآسيا الصغرى، الذين زاروا مدفن القديس يوحنا الرسول ''التلميذ الذي كان يسوع يحبُّه''.

وعلى هذا النمط كانت تتم أيضاً زيارات الآباء القديسين المعروفين حتى في أيام حياتهم؛ مثل: القديس سمعان العمودي قرب أنطاكية، والقديس أنطونيوس أبو الرهبان في جبل العربة في صعيد مصر، وزيارة السائحة الأسبانية ميلانيا الكبيرة وحفيدتها لبريَّة شيهيت ونتريا(٤). ولا يمكن تجاهُل التأثير الروحي العميق الذي كان يغمر زائري هؤلاء القدِّيسين؛ كما يشهد بذلك القديس أثناسيوس الرسولي الذي أرَّخ لحياة أنبا أنطونيوس(٥). ولأجل ذلك ترك القديس يوحنا ذهبي الفم وصايا لِمَنْ يرغب في مثل هذه الزيارات تشرح كيفية الانتفاع الروحي منها.

مثال تطبيقي: ''مزار بومينا'':

كان القديس مينا من أسرة مصرية مسيحية موسرة تقيم في فريجية بآسيا الصغرى. وفي بكور حياته توفي والده الذي كان قائداً لفصيلة مصرية في الجيش الروماني؛ فانضم الفتى مينا إلى الجيش ولقي اهتماماً وعناية من الضباط أصدقاء أبيه. ولكن بصدور مرسوم الإمبراطور دقلديانوس في

---

(2) NPNF, 2nd series, Vol. IX.

(3) NPNF, 1st. series, Vol. VII, *Tract on St. Jn. Gospel,* p. 448.

(٤) الأب متى المسكين، كتاب: ''الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار''، مطبعة دير القديس أنبا مقار، الطبعة الثالثة: ١٩٩٥، ص ١٨٤-١٨٦، ٢٧٨.

(٥) ''حياة أنطونيوس''، ف ٦٩.

٢٣ فبراير عام ٣٠٣م الذي يأمر فيه باضطهاد المسيحيين، هرب مينا من الجندية. ثم عاد بعد فترة وسلَّم نفسه لفصيلته مُعلناً مسيحيته. فبدأت حينئذ محاولات إغرائه لتقديم القرابين للأوثان بغية إعفائه من عقوبة فراره من الجندية؛ فلم تفلح. وأعقبتها حملات التعذيب التي انتهت أخيراً بقطع رأسه. وكان من المقرر حرق جسده، كعادة ذلك الزمان، إلاَّ أن أصدقاء أبيه نجحوا في إنقاذ الجسد، وحملته الفصيلة التي كان ينتمي إليها معها إلى مصر حيث كانت قد صدرت لها الأوامر بالرحيل إلى صحراء مريوط لصدِّ غارات البربر، إلاَّ أن الجمل الحامل لتابوت الشهيد توقَّف عن المسير، فاستبدلوه بآخر دون فائدة[٦]. فاضطرت القوة العسكرية إلى دفنه هناك قرب قرية قديمة تُدعى "إست Est"، وعادت أدراجها إلى فريجية.

وبعد عدة سنوات اكتشف سكان القرية معجزات شفاء تتم عند قبر الشهيد مار مينا، فقاموا ببناء مزار صغير فوقه على أربعة أعمدة يعلوها قبة. وفي زمن قصير ذاع صيت المكان والمعجزات التي تتم عند مدفن "مار مينا العجائبي"، واتَّسع نطاقها مما دعا القديس أثناسيوس الرسولي لبناء أول كنيسة في ذلك المكان، ونَقَلَ إلى سردابها جسد القديس. ومع اضطراد حركة الزيارات ضاقت الكنيسة عن استيعاب سيل الحجَّاج الوافدين وطالبي الشفاء. وبتشجيع الإمبراطور أركاديوس (٣٩٥-٤٠٨م)، شرع أنبا ثاوفيلس بطريرك الإسكندرية الثالث والعشرون[٧] في بناء البازيليكا (أي الكنيسة الملكية) الكبرى وتم تدشينها في عهد أنبا تيموثاوس الثاني البطريرك الـ ٢٦.

وهكذا بدأ عصر ازدهار **"مزار بومينا"**، إذ توافدت عليه قوافل الحُجَّاج من بلاد بعيدة، من ألمانيا وفرنسا شمالاً حتى دُنقلة في السودان جنوباً، وإلى أورشليم شرقاً؛ حيث عُثِرَ في هذه المواضع على قوارير حاملة المياه الشافية أو الزيت المقدس الذي كان الحُجَّاج يحملونه معهم كتذكار وبركة. والوفود الآتية من الغرب متَّجهة نحو فلسطين والأراضي المقدسة كانوا يعبرون على منطقة مريوط في ذهابهم أو عودتهم؛ وكثيرون من المرضى ومرافقيهم في هذه القوافل يُمنُّون أنفسهم بالشفاء عند ملامستهم لمدفنه المقدس. فلهذا أُقيمت مساكن خاصة معدَّة لاستقبالهم هناك. وتبع ذلك اتِّساع المنطقة وبلوغ أقصى ازدهارها في النصف الثاني من القرن الخامس نتيجة العطايا التي قدَّمها الحُجَّاج وطالبو الشفاء. واتَّخذت البازيليكا الكبرى شكلها النهائي حتى صارت أضخم كنائس

(٦) لعل هذا كان السبب وراء تصوير القديس مار مينا واقفاً بين جملَيْن راكعَيْن.

(٧) راجع ما جاء عن شهرة هذا البطريرك في بناء الكنائس فيما ورد عن سيرته في هذا الكتاب.

مصر قاطبة؛ فالرواق الأوسط بلغ اتساعه ١٤ متراً ويحمله ٥٦ عموداً من رخام المرمر المستورد من القسطنطينية، وكل من الرواق البحري والقبلي اتساعه ٦ أمتار؛ أي أن جملة عرض البازيليكا الكبرى ٢٦ متراً وطولها ٤٢ متراً!!

وما استطاع أن يكشف عنه الأثريون من هذا المزار، أو بالأحرى المدينة، كان عبارة عن مجموعة متكاملة من المباني الدينية والسكنية؛ يتوسطها ميدان فسيح هو مركز تجمُّع الحُجَّاج، ومُحاط من جميع جوانبه بعدة مبانٍ. في الجهة البحرية دور الضيافة المخصصة لاستقبال الوافدين؛ وفي الجنوب مجموعة الكنائس أهمها كنيسة المدفن التي تضم رفات الشهيد في سرداب تحت أرضيتها. والمدخل الرئيسي المؤدِّي لهذا الميدان طريق رحب كان مخصَّصاً للمواكب الاحتفالية، يبتدئ من قوس نصر على شكل بوابة ضخمة ذات ثلاثة أجنحة وعلى جانبيها أروقة ذات أعمدة.

وحول العمائر الخاصة بالحُجَّاج كانت تمتد قرية سكنية فيها حوانيت وورش.

كما اكتُشف أيضاً حمَّامان كبيران (للجنسين، كل جنس على حِدة) مزوَّدان بالمياه الساخنة لراحة الوافدين، وخاصة الذين ينتظرون المعمودية في كنيسة المعمودية، إحدى عناصر العمائر الدينية، والتي كانت تجرى ليلة عيد القيامة. ويصطف على جوانب كل شوارع المنطقة صفَّان من الأعمدة، الذي هو أسلوب العمارة الشرقية في عصر القياصرة.

وجود هذه المجموعات من العمائر المتشابكة: كنائس للصلاة وللمعمودية وللمدفن، حمَّامات مياه ساخنة، قرية سكنية كاملة المرافق للعاملين في خدمة الحُجَّاج، أماكن الضيافة والاستقبال؛ يُشكِّل أمامنا صورة حيَّة لمدينة حُجَّاج ضخمة يتم فيها الاستشفاء والتعميد على مدى السنة، وليس فقط في أعياد مار مينا العجائبي؛ وربما يُماثلها في العصر الحديث مدينة "لورد Lourdes" بفرنسا[٨].

(٨) "لورد" مدينة صغيرة في جنوب غربي فرنسا، ظهرت فيها العذراء مريم لفتاة قروية تُدعى "برناديت" عام ١٨٥٨م، وأخبرتها أنها ستُفجِّر عين ماء في مغارة بالجبل المُتاخم للمدينة. ومنذ ذلك الوقت لا زالت تتم معجزات شفاء المرضى.

أساليب العبادة

العبادة الجماعية:

حافظت الكنيسة على القاعدة العامة منذ القديم، وهي: انتظام المؤمنين يوم الأحد حول المذبح للعبادة الإلهية، أي القداس؛ ويُسمَّى باليونانية σύναξις[١]، وينتهي بالتناول لكل الحاضرين. في العصور الأولى كانت الحرارة الروحية تطفر بالمصلِّين، فكانوا يستجلون وجه الرب حاضراً بينهم استجابة لطلبة الكاهن: "... أظْهِر وجهك على هذا الخبز"[٢]. لكن اتجاه الأعداد الكبيرة من الجموع إلى الكنائس، كعادة روتينية تحقيقاً لوظيفة اجتماعية؛ أدَّى إلى فتور الحرارة الروحية، وإلى اتِّخاذ الجماعة المصلِّية موقفاً سلبياً تجاه التناول، حتى أن الغالبية اقتصرت على التناول في الأعياد الكبرى، بل وعلى مرة واحدة في السنة.

من جهة الشكل، كانت مباني الكنيسة تشبه إلى حدٍّ بعيد مباني "البازيليكا" الحكومية[٣]. وساعد هذا على إظهار التمايُز بين الطقس الشرقي اليوناني والطقس الغربي اللاتيني.

في الطقس اللاتيني كان الكاهن يواجه الشعب، فكان المذبح بالتالي على مستوى أرضية الكنيسة، وخلفه منصَّة مرتفعة للأسقف مُحاطاً بالإكليروس على شكل نصف دائرة في حنية الحائط المقابل، مواجهاً أيضاً للشعب. بينما في الشرق، كان المذبح في نهاية حنية الحائط الشرقي[٤]؛ فكان الكاهن يُصلِّي مُخاطباً الله بفم الجماعة المصلِّية، يحيط به الإكليروس قياماً على منصَّة شبه حدوة الحصان تتوسَّط الرواق الأوسط في الكنيسة، وترتفع قليلاً عن أرضيتها؛ وعليها أيضاً المنبر المستخدم للوعظ والقراءات.

---

(١) لا يزال هذا الاسم σύναξις سارياً في القطمارس القبطي للقراءات في كنيستنا.

(٢) صلاة تقدمة الخبز والكأس التي تُقال سرّاً للابن عقب رفع الحَمَل في بدء القدَّاس.

(٣) وقد صار اسم "بازيليكا" (وتعني ما يختص بالملك أو القيصر)، يُطلق على الشكل الهندسي لمبنى الكنيسة.

(٤) وهي التي عُرفت باسم "الشرقية".

ونظراً للعلاقات الوثيقة بين كرسي روما والإسكندرية، خاصة أيام القديس أثناسيوس الرسولي، أخذت كنيسة الإسكندرية عن روما وقوف الإكليروس داخل الهيكل في الحنية الشرقية وراء المذبح، وبَقِيَ المرتِّلون والقارئون على المنصَّة الخارجية. وشاع هذا التنظيم في كل كنائس مصر حينذاك، كما يراه الزائر حالياً في كنائس مصر القديمة.

ورغم الأعداد الكبيرة التي تغصُّ بها الكاتدرائيات في المدن العظمى، لا يزال القداس "احتفالاً سرائرياً"، بمعنى أن بعض أجزائه تتم خلف ستور مُسدلة؛ وليس للجميع استحقاق حضوره. ففي كل الليتورجيات يوجد جزء إعدادي للقدَّاس يُسمَح فيه بالحضور للجميع، سواء الموعوظين أو التائبين بدرجاتهم المتنوعة (مستمعين، راكعين، باكين)، وحتى الذين بهم أرواح نجسة. وعُرِف هذا الجزء من القداس باسم "قدَّاس الكلمة"، إذ أنه يعتمد أساساً على الكلمة المقروءة من الكتاب المقدس مع الشروحات اللازمة. وبانتهاء هذا الجزء يُنادي الشماس على الجميع بالخروج ما عدا المعمَّدين المؤمنين المستأهلين لاستكمال الإفخارستيا وللتناول من الذبيحة الطاهرة. هذه هي الإفخارستيا الفعلية التي يبدأها الكاهن بحوار مع الجماعة المصلِّية عن القلب المستعد لله؛ فيُنادي بصوتٍ جهوري: "أين هي قلوبكم"؟ فيجيبون عليه: "هي عند الرب". وهكذا تستمر إلى أن تنتهي بالتناول.

العبادة الشخصية:

بلا شك كانت العبادة الشخصية متأثِّرة بالرهبنة. فالعلماني العادي، متى أراد السلوك في حياة الكمال، يلتمس المشورة من الرهبان ليُعرِّفوه كيفية الحياة التي ينبغي أن يتمثَّل بها. فكانت "الحياة النسكية" هي المثالية الأيديولوجية التي تبنَّتها الكنيسة لأولادها وبناتها من الشعب العابد بصفة عامة: صلاة، صوم، نسك، مطانيات، وأعمال الرحمة والصدقة التي تُقدَّم خلال فترة التوبة.

وهذا الترتيب قديم في الكنيسة، كما تشرحه مذكِّرات السائحة الأسبانية "إيثيريا" أثناء زيارتها لأورشليم في أواخر القرن الرابع الميلادي. فشاهدت الأتقياء من الرجال والسيدات يحضرون الصلوات مع الرهبان الساهرين في كنيسة "الأناستاسيا" أي كنيسة القيامة، تحت قيادة الأسقف. وأما الصوم فيكون عادة مصحوباً بنسك شديد وزهد في مظاهر الحياة المعتادة: النوم، الملبس، ترفيه الجسد، والممتلكات؛ حتى صارت قاعدة عامة لدى المؤمنين في فترات الصوم: الامتناع عن التردُّد على الحمَّامات الساخنة، تلك التي كانت تُعتبر فخر الحضارة الرومانية المترفِّهة.

القرن الخامس

تأثير الأخلاقيات المسيحية[1]
على مجتمع القرنين الرابع والخامس

(١) كلمة "أخلاقيات" morality هنا تعني المبادئ الأدبية والأخلاقية التي تسود المجتمع.

١ . مظاهر الحضارة الرومانية

مظهر برّاق للحضارة الوثنية:

جاءت المسيحية إلى العالم في عصر بلغت فيه الحضارة الرومانية أوج اكتمالها. فخلفاء أُوغسطس قيصر أضافوا للإمبراطورية الرومانية: بريطانيا، واسكتلندا، فصارت أوروبا مع أجزاء من آسيا وأفريقيا تحت الحكم الروماني، مما جعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية مغلقة؛ فانعدمت القرصنة البحرية. كما أن امتداد الطرق العسكرية بطول البلاد وعرضها، مع كفاءة الأباطرة والقوّاد في تحريك الكتائب والجنود للضرب على كل مَنْ تسوِّل له نفسه العبث بالأمن، جعل السلام والطمأنينة يعم أرجاء المسكونة. وصاحَبَ ذلك نشاط في شقِّ القنوات والترع وتطهير وسائل الريِّ، فنجحت الزراعات والمحاصيل، وازدهرت الصناعات والحِرَف اليدوية.

يتجلّى انتشار الرخاء بهذه الصورة البهيَّة بصفة خاصة في وجود نوعيات من المباني الضخمة لا تزال حتى الآن تناطح الزمن؛ مثل: قنوات نقل المياه العذبة على بواكي aqueducts عبر السهول والوديان في أوروبا، والحمَّامات الفاخرة المزوَّدة بالتدفئة والمياه الساخنة، والاستاد الضخم والمدرَّجات وحلبات السباق التي انتشرت في المدن الكبرى. فكان استاد فسبسيان في روما يتَّسع لحوالي ٨٠ ألف متفرِّج، حيث كانت تجري فيه احتفالات الانتصارات التي تخوضها الجيوش الرومانية ضد القبائل والشعوب التي تحاول غزو الحدود أو تثور على الحكم الروماني. فتُستعرض فيه مواكب الأسرى والعبيد معلنةً عظمة النسر الروماني وبطشه على كل مَنْ تسوِّل له نفسه الخروج على طاعة الأباطرة.

إلى جانب هذه الرفاهية في المعيشة، انتشرت معاهد التعليم لتدريس الثقافة الإغريقية في الشرق، والثقافة اللاتينية في الغرب. فامتدت المكتبات العامة ومخازن بيع الكتب، وشملت أغلب الشوارع الرئيسية في المدن الكبرى، ليلجأ إليها هواة القراءة والمطالعة؛ حتى أن روما كان فيها ٢٨ مكتبة للمطالعة. وتبع ذلك رواج صناعة الكتاب وإنتاج وتصنيع الورق، فكانت مدينة أوكسرِنخوس (البهنسا) في مصر أشهر مدن الشرق في تصنيع وتمويل الحركة الثقافية بالورق الخام.

هذه المظاهر الفاخرة للحضارة الرومانية جعلت المؤرخ جيبون يقرر أن الثمانين سنة الواقعة منذ بداية القرن الثاني الميلادي وحتى نهاية الإمبراطورية الرومانية، تُعتبر من أسعد وأنجح العصور التي

مرَّت على العالم؛ وتبعه في ذلك المؤرِّخون المحدثون[1].

واقع إنساني بائس:

لو تعمَّقنا هذه المظاهر الأخَّاذة وصولاً إلى النسيج البشري الذي يمثِّل المجتمع، نجده متناقضاً مع أحكام المؤرِّخين. فالجزء الأكبر من الشعوب التي دخلت تحت جناح النسر الروماني كانت تئن من ثقل نير العبودية والفقر.

١. التبذير والبذخ:

ثروات الشعوب المغلوبة كانت تضيع هدراً على موائد الأُسرات الحاكمة في روما، هذه الموائد التي كان عليها الطاؤوس المستورد من ساموس إحدى جزر بحر إيجة في اليونان، والبلح والعجوة من مصر، والمكسَّرات من أسبانيا. وعلى القارئ أن يتخيل أن كل طبق من الأطباق الموضوعة على المائدة الملكية كان يأتي من أماكن متفرقة من العالم ليملأ بطوناً شبعت وأتخمت؛ لا تأكل إلاَّ لتتقيَّأ ما أكلته حتى تستمتع بكل الأطايب والأطباق الموضوعة. ويحكي الفيلسوف الروماني الوثني سينيكا أن أحد رجال حاشية طيباريوس قيصر كان يُذيب اللآلئ في النبيذ ثم يشربه! وبعد هذا التلذُّذ بالمآكل والمشارب، انتحر متضجِّراً من الحياة لعدم قدرته على المعيشة في ظل عشر ملايين وزنة من الذهب بعدما بدد ستين أو مائة مليون وزنة ذهب!

وكان للأثرياء مجموعات متخصِّصة من الخَدَم والعبيد والجواري؛ كانت خدمة بعضهم في التزيين والروائح، والبعض الآخر في الملابس والأُبهة، ومجموعة ثالثة كانت خدمتهم تجميل الوجه والعينين؛ ثم فئات خاصة تتقدَّم المواكب لأجل التهليل والتصفيق... وهكذا.

كل مظاهر البذخ والإسراف هذه كان الإنفاق عليها يتم من واقع الضرائب الباهظة التي تثقِّل كاهل الشعوب المحكومة، والتي تطحنها الحروب والمجاعات والأوبئة. والنتيجة الحتمية هي انعزال الطبقة الحاكمة عن المجتمع الإنساني البائس.

---

(١) قارن مثلاً:

W.H. Frend, *The Rise of Christianity* (1984) pp. 164-166.

وعندما نهبط إلى الطبقة الثانية في المجتمع الروماني، وهم الأحرار، نراهم قد فقدوا الدوافع الطبيعية التي تحفِّز الإنسان على الجهاد من أجل تحسين مستوى المعيشة؛ فرسبوا في قاع المجتمع، أو التحقوا بخدمة حاشية إحدى الأسرات الحاكمة.

وأخيراً، القاعدة العريضة التي تشكِّل غالبية المجتمع الروماني، أي العبيد؛ وعلى أكتافهم وقع نير كل الأنشطة البدنية والميكانيكية في التعمير والإنشاء؛ كإقامة الكباري ومباني البازيليكات البلدية الضخمة التي صارت مفخرة الحضارة الرومانية. ويا للأسى والحزن! كانوا يعاملون أقل من دواب الحكَّام الجائرين؛ فسرعان ما كانوا ينضمون في الحروب إلى الأعداء يسلبون وينهبون لعلَّهم يعوِّضون ما ضاع من حقوقهم كبشر.

كان المسيحيون، كفئة ثالثة ضعيفة، يعيشون في كنف هذه الطبقة تحت تهديد الإلقاء للوحوش دون أية علَّة سوى ''العقيدة''؛ لأنهم كانوا أكثر الناس حبّاً في السلام والفضيلة.

٢. الاحتفالات والمهرجانات:

مباهج التسليات الوثنية، مثل المهرجانات الشعبية والمسارح وحلبات الرياضة في الاستاد، نشأت أصلاً في ظل الاحتفالات الدينية. إلاَّ أنها فقدت مغزاها الأدبي منذ زمن طويل. فالمسرح اليوناني كان مدرسة تعليم الفضائل والآداب في عصر الإغريق الذهبي، فتحوَّل في العصر الروماني إلى استعراض للكوميديا المنحطَّة أو المآسي غير الطبيعية التي تصيب المتفرجين بالكآبة والحسرة، أو مشهد للرقصات المبتذلة؛ وباختصار انتهى إلى موضع تفريخ للرذائل.

أما حلبات السباق التي احتضنها الأباطرة لتنمية روح الفروسية والشجاعة لدى الجماهير، فقد أحدثت نوعاً من الإدمان جعلت المتفرِّجين يقضون الليالي تحت الأفنية والبواكي في الاستاد حتى يمكنهم الحصول على أماكن متقدِّمة في المدرجات؛ دون اعتبار لحرارة الشمس والقيظ، أو برودة الجو وسقوط الأمطار والثلوج والعواصف. وللقارئ أن يتخيل ٤٠٠ ألف متفرِّج ومشجِّع قد ثبَّتوا أعينهم في قلق مفرط وتوتُّر عصبي على المركبات المتسابقة التي تراهنوا عليها. فصارت البهجة والسعادة بين قاطني روما، أو أية مدينة كبرى في الإمبراطورية، وفقاً على نتيجة تلك المباراة أو المسابقة!

٣. حلبات المصارعة والمجالدون Gladiators:

أنجح الاستعراضات شعبية كانت حلبات المصارعة، رغم أنها أكثرها وحشية وانعدام إنسانية. هذه الجرائم كانت تُدعى فناً رياضياً تتم ممارسته من مشرق الشمس إلى مغربها، ويتم فيه تقديم الضحايا بالمئات من الحيوان والإنسان إشباعاً لغريزة التعطُّش إلى الدماء. ويُحكى أن ملاعب فلافيانوس قد دُشِّنت بخمسة إلى عشرة آلاف حيوان أُجْهِز عليهم في يوم واحد! واحتفالات الإمبراطور تراجان بغزواته وانتصاراته في داسيا (المجر حالياً) استمرت أربعة أشهر في عام ١٠٧م، تبارَى فيها ما لا يقل عن ١٠ آلاف مصارع، قُتل منهم ألوف. وفي أحد أيام عام ٢٨١م قُدِّم في المهرجان: مائة أسد، ومائة لبؤة، ومائتي فهد، وثلثمائة دب، بالإضافة إلى ألوف أخرى من حيوانات متنوعة متوحِّشة.

والعبيد والأسرى الذين يحترفون مهنة المصارعة وعُرفوا باسم "المجالدين"، كانوا من المجرمين أو المحكوم عليهم، وأحياناً من أسرى الحروب أو العبيد من القبائل الجرمانية في بريطانيا، أو من الراين والدانوب في شمال وشرق أوروبا، وأحياناً أخرى من زنوج أفريقيا، وبإيجاز من مختلف أنحاء العالم بلا تمييز. فكانوا فرائس سهلة للأسود والنمور وكل الوحوش. ويتعجَّب الإنسان حين يعلم أن دوميتيان، أعظم قياصرة روما في أواخر القرن الأول الميلادي، كان أول مَنْ قدَّم **"الأقزام والنساء"** إلى حلبات المصارعة؛ لا لشيء إلاَّ لإشباع حب الظهور والزهو والافتخار لدى الإمبراطور.

والواقع أن نجاح المهرجانات والاستعراضات في اكتساب رضا الجماهير، جعل الأباطرة والحكام ينفقون عليها بسخاء من الخزانة العامة. وإذا أضفنا أيضاً استمتاع الشعوب بهذه المسليات صار من المستحيل أن توجد فرصة لأحد العقلاء أو الفلاسفة في تلك العصور ليرفع صوته بالاحتجاج؛ بل كالوا لها المديح والتقريظ. فهوذا شيشرون، أحد عظماء مفكِّري الدولة الرومانية الوثنية، يزكِّيها باعتبارها وسيلة نافعة لتربية المرء على الشجاعة والاستهانة بالموت، دون أن يتنبَّه إلى خطورتها في تنمية روح العنف وقساوة القلب في الإنسان، أو على الأقل "اللامبالاة". فكانت النتيجة: انعدام الولاء للوطن والأرض والأسرة، وانتشار الجشع والشك والحسد والرشوة في كل مكان. وما يتبع ذلك من مسلسل الرذائل الذي يصعب حصره.

فالمجتمع الوثني - بإيجاز - كان يحمل في ذاته بوادر الانهيار والانحطاط نتيجة تشبُّع الجماهير برؤية الدماء المراقة من الحيوان والإنسان؛ وكان تدهور الأخلاقيات والأدبيات يبدو كما لو كان

يسير حسب خطة منسَّقة، ابتداء من الأوساط العُليا نزولاً إلى عامة الشعب. حتى وإن شهد التاريخ لاثنين أو ثلاثة أباطرة خرجوا عن هذه القاعدة العامة، إلا أنهم لم يستطيعوا وقف التدهور الاجتماعي الأدبي؛ بل كل ما استطاعوه هو إخفاء القروح أو تأجيل التدهور قليلاً. لكن الطبقات الحاكمة كانت بلا استثناء مستودعاً للشر والإثم والانحطاط، ونماذج مجسَّمة لحضارة سائرة نحو الانهيار.

يعكس هذه الصورة قلم أحد المدافعين عن المسيحية:

[أنتم - بمقتضى التشريع والقانون - تحرِّمون الزنا؛ وتمارسونه خفية. تعاقبون على ارتكاب الشرور العلنية، ونحن (المسيحيين) ندينها وهي ما زالت بعد في الفكر. أنتم تخشون عيون المتطفِّلين، أما نحن فنستحي من الضمير اللائق بنا كمسيحيين. السجون والمطابق امتلأت بالمجرمين، وجميعهم وثنيون؛ ليس فيهم مسيحي واحد إلا إذا كان مرتدّاً] (مينوتيوس فيلكس).

خميرة صغيرة تعمل لتخمير العجين كله:

في الوقت الذي دخل فيه العالم الوثني عتبة الانحلال، كانت هناك جماعات صغيرة متفرِّقة استبدلت السيف والكيس والمزوَد ببذور ملكوت السموات. كانت في فقرها وبساطتها مؤمنة بقول مؤسِّسها ومعلِّمها الإلهي: «طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض» (مت ٥:٥). فالطهارة والعفة وأعمال الخير، مع السلام واللطف والوداعة، كانت تنضح على كل عمل تقوم به هذه الجماعات المسالمة.

والغريب أن التاريخ المعاصر في القرون الأولى لم يذكر شيئاً عنهم، إذا تغاضينا عن الإشارة العابرة التي جاءت في رسالة بليني Pliny الصغير إلى الإمبراطور تراجان عام ١١٢م. وهذا تحقيق واقعي لقول المعلِّم الإلهي: «لا يأتي ملكوت الله بمراقبة» (لو ١٧:٢٠)، وأيضاً: «كأن إنساناً يُلقي البذار على الأرض، وينام ويقوم ليلاً ونهاراً، والبذار يطلع وينمو، وهو لا يعلم كيف؟» (مر ٤: ٢٦،٢٧)

مَن ذا الذي يستطيع أن يحصي الصلوات والتضرعات التي ارتفعت من آلاف المصلِّين المجهولين والرُّكب المنحنية في الكهوف والمغاير والسراديب! في القفار والبراري والقبور! في صمت الليل وسكونه، لأجل الأحباء والأعداء، ولأجل جميع الناس، ولأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب (١تي ٢:١)؟!

فالكنيسة الأولى، لأنها كانت تحت الاضطهاد، انتفى منها الرياء الذي يتفشَّى في أزمنة السلام والرخاء. بماذا يفتخر المسيحيون أمام جنود الدولة وفرسانها في استعراضاتهم وملابسهم البهية؟ إنهم جنود المسيح المنضوون تحت لواء الصليب الغالب للعالم والخطية والموت. وبمقدار ما تشبع النفس من دسم النعمة تقلُّ متعتها بمناظر الأرض ومباهجها. إن قبول المعمودية الذي تطلبه الكنيسة من كل مَنْ يرغب الانضمام إليها، كان يعني جحد الشيطان وكل حيله ومباهجه وتسلياته، وهذا هو دستور حياة المسيحي. ووَسْم الصليب غير المنظور على الجبهة، يعني أن المسيحي مفروز خفية عن أعين العالم لهذه الجندية الفريدة، وبالتالي أمدَّ هؤلاء الجنود بالاحتمال والشجاعة حتى الموت. فهل هناك حاجة بعد لتلقين الشجاعة من مشاهدة حلبات المصارعة وعمليات قتل الحيوان والإنسان ومباريات المجالدين؟ «يا ابني، إن تقدمتَ لخدمة الرب فأعدد نفسك للتجارب» (ابن سيراخ ٢:١)، هذا هو شعار مسيحيِّي القرون الأولى. فكان مجتمع الكنيسة في تدريب مستمر لمواجهة الصعاب والمحن كل يوم، بل طيلة الحياة. وأصبحت الحرية الشخصية تحت طاعة الله الذي يخدمونه. والمسيحي، كمنتصر، يعلو فوق القاضي الذي يحكم عليه بالنفي أو بالتعذيب والموت. وهكذا كان المسيحي يتقدَّم إلى حلبة المصارعة وسط استهزاء الجلاَّدين والمتفرجين وسخرية الجموع، ولكن في جرأة مذهلة تبكِّت الجميع.

هذه هي الشجاعة الحقيقية التي بدأت الكنيسة تصبغ بها المجتمع الروماني المنهار.

٢. الكنيسة والحياة المدنية المعاصرة

رأينا أن الحضارة الرومانية لم تكن تعرف "قداسة الحياة البشرية". فالذين لهم حق التمتُّع بالحياة هم الأثرياء والأحرار ذوو الرعوية الرومانية فقط؛ بينما العبيد وأسرى الحروب والفقراء والعجزة والمعوَّقون[1] الذين يشكِّلون القاعدة العريضة لشعوب الإمبراطورية، ليس لهم أي حقوق مقابل الواجبات الشاقة التي أثقلت كاهلهم، وينبغي التخلُّص منهم لأنهم عالة على الدولة. فكانوا بالتالي هم الضحايا المقدَّمة في حفلات مصارعة الوحوش والألعاب والمباريات.

مقابل الانحلال والتدهور الذي حبلت وتمخَّضت به الحضارة الرومانية، قامت جماعات فقيرة متفرقة يجمعها الروح الواحد والهدف الواحد. هذه هي "الكنيسة"، التي بسبب نشأتها المتواضعة، والروح القدس الذي يهيمن عليها؛ انتفى منها الكبرياء والافتخار الذي يتفشَّى بين أوساط المشتهين للمال والجاه والسلطان الزمني. يتعلَّم المسيحي من داخل الكنيسة إنكار الذات واستنكار الخطية وأعمالها، ويتذوَّق الحياة الجديدة التي أصولها في السماء وأغصانها وقضبانها ممتدة على الأرض. وبذلك يتربَّى الوجدان المسيحي على نوعية مختلفة تماماً عمَّا تُنادي به الحضارة الرومانية.

وأعجب ما في الأمر، أن الحياة اليومية المألوفة حينذاك لم تشعر بهذه الجماعات المتفرقة إلاَّ بعد زمن ليس بقليل. وقد أبدع كاتب "**الرسالة إلى ديوجنيتس**" في بكور القرن الثاني في إعطاء صورة واقعية لهذه الحياة الخفية وسط المجتمع الروماني:

[لا يتميَّز المسيحيون عن باقي الناس، سواء في وطنهم أو لغتهم أو مؤسساتهم المدنية. لا يقيمون في أحياء[2] أو مدن مستقلة بهم، ولا يتكلَّمون لهجة قاصرة عليهم، ولا يسلكون في الحياة على نمط معين يتعلَّق بهم وحدهم، بل يقطنون المدن المتحضرة أو

(١) كانت قوانين الرسل تحْرِم كل مَنْ كان في رتبة كهنوتية أو العلماني إذا هزأ بالأصم أو الأعرج أو المعوَّق بأية عاهة (راجع: القانون ٣٨).

(٢) مثل اليهود الذين بعد تشتُّتهم من فلسطين، صارت لهم أحياء خاصة بهم داخل المدن اشتهرت منذ القرون الوسطى باسم الـ "جيتو ghetto" أو حارة اليهود.

البدائية كسائر الناس بحسب مقتضى الحال، ويتبعون نفس أسلوب الحياة في الأقطار التي يستوطنونها، في الطعام والملبس وكل أمور الحياة. ورغم ذلك، يقدِّمون منهجاً يتضادّ تماماً مع المألوف. يسكنون الإقطاعيات التي يملكونها، لكن **كغرباء**. يشتركون في كل واجبات الحياة الحضارية كمواطنين، لكن يتألمون **كأجنبيِّين**. كل أرض غريبة تصير لهم وطناً، وكل وطن يحتسبونه أرضَ غربةٍ. يتزاوجون كسائر الناس ويلدون بنين وبنات، لكن لا يهملونهم ولا يطرحونهم بعيداً... يعيشون في الجسد، **لكن ليس حسب الجسد**. يعيشون على الأرض مع أن **وطنهم في السماء**. يخضعون للشرائع القائمة، لكن بسلوكهم (الأدبي) يتفوَّقون ويتسامون عليها. يحبون الجميع، ومن الجميع **يُضطهدون**. يعيشون **فقراء**، ولكنهم يُغنون كثيرين. في كل شيء معتازون، ومع هذا **متفاضلون** في كل شيء. يُلعَنون، **فيبارِكون**. يُحتقرون، فيُكرِمون مَنْ يحتقرهم. **يفعلون الخير**، فيُجازون كفاعلي شرٍّ... وبإيجاز، كنسبة الروح للجسد، هكذا المسيحيون في العالم. الروح تتخلل كل أعضاء الجسد، هكذا المسيحيون ينتشرون في أنحاء المسكونة. الروح تسكن الجسد، لكنها ليست من الجسد؛ هكذا المسيحيون يقطنون العالم، **لكنهم ليسوا من العالم**. الروح تعطف على الجسد لأنها تسكن فيه، لكن الجسد يبغض الروح لأنها تُقاوِم شهواته؛ هكذا (المسيحيون) يحبون العالم الذي يسكنون فيه، ولكن العالم يبغضهم... هذا هو النصيب الذي جعله الله من حظ المسيحيين في العالم، ولا تستطيع أية قوة أن تسلبه منهم][٣].

النتيجة الحتمية المنتظرة لتربية الكنيسة للمؤمنين هي **تحرير الضمير وتساميه** بدرجة لا تُقارَن مع كل الفلسفات والمذاهب والشرائع المعاصرة.

الأعمال والخدمات العامة والخاصة في الدولة:

الآية التي قالها بولس الرسول في رسالته الأولى إلى كورنثوس: «الدعوة التي دُعِيَ فيها كل واحد فليلبث فيها» (١كو ٧: ٢٠)، هي النبراس الذي كان يهدي مسيحيِّي القرون الأولى لمواجهة متطلبات الحياة. فكانوا يمارسون كل عمل أو وظيفة، إنما بروح جديدة تنطق بالضمير المتسامي الذي تربَّى فيهم. والغاية التي يلتمسونها هي **تمجيد الله ومنفعة الجار والقريب** دون النظر لأية

(٣) ف ٦،٥ من الرسالة.

اعتبارات أخرى. فاقتحموا كل الأعمال دون تهيُّب، مقدِّمين البرهان الساطع على قوة الحياة الجديدة المنسكبة فيهم بالمعمودية. إلاَّ أنهم ابتعدوا عن بعض الصنائع والمهن التي تتنافى مع الضمير الذي تربَّى على تعاليم الإنجيل، إذ أنها تخدم أغراضاً سيئة أو شريرة، مثل: الرقص والتمثيل على المسارح، الأعمال المتعلِّقة بالأوثان كصناعة التماثيل، الزينات ورسومات أساطير الآلهة الوثنية في هياكل الأصنام ومحاريب القصور والعمائر، ثم أيضاً ما يتعلَّق بالتنجيم والسحر والعرافة ومخاطبة أرواح الموتى... وما إلى ذلك. أما الكنيسة فكانت قاطعة وواضحة في التصدِّي لهذه الممارسات:

- كل صانع فليُعرَّف ألاَّ يعمل شيئاً من الأصنام ولا يشتغل في صياغتها بالفضة أو بالذهب، أو تصويرها؛ وإلاَّ فليُمنَع من تعاليم الموعوظين(٤).

- كل متصارع أو متسابق أو معلِّم ملاهٍ أو مهرِّج في الاستعراضات(٥) أو مدرِّب أو مصارع وحوش(٦)، فليمتنعوا عن هذه الأفعال ويُحرَموا من دروس الموعوظين ٤٠ يوماً قبل أن يُسمَح لهم بالعودة(٧).

- معلِّمو الأحداث في المدارس (وكانوا على نفقة الدولة) عليهم أن يمتنعوا(٨)، إلاَّ إذا كان هذا العمل مصدر رزقهم الوحيد(٩). وعلى الوالِدِين أن يقوموا بعملية فرز لهذه المعلومات في البيت، وتعويض الطفل بدروس من الكتاب المقدس.

وفي المقابل، كانت هناك أعمال محتقرة أو مرذولة عند الوثنيين، بسبب ما يحيط بها من أمور الغش والاحتيال، مثل الفندقة وإضافة الغرباء. هذه عندما دخلها المسيحيون صارت مُثُلاً عُليا

(٤) القوانين ٩،٦٢،٦٣ من قوانين الرسل، القانون ١٢ من قوانين أبوليدس (هيبوليتس).

(٥) بنوع من الكوميديا اللاأخلاقية.

(٦) الذين عُرفوا باسم: "المصارعون" أو "المجالدون".

(٧) القانون ٢٧ من قوانين الرسل، القانون ١٢ من قوانين أبوليدس.

(٨) لأن مناهج التعليم التي يلتزم بها كل معلِّم حينذاك كانت تروي أساطير الآلهة الوثنية mythology وأعمالهم المنافية للآداب المسيحية.

(٩) القانون ٢٧ من قوانين الرسل، القوانين ١١،١٢،١٥ من قوانين أبوليدس. ويشترط قانون أبوليدس على المدرِّس في هذه الحالة أن يقول لتلاميذه أن الآلهة الوثنية هي شياطين.

بسبب ممارستها بروح الإنجيل[١٠]. فكم من البيوت وأماكن الإيواء تحوَّلت إلى دور ضيافة وملاجئ للهاربين من الاضطهادات ومطاردات السلطات الحاكمة ظلماً من أجل الضرائب والخراج التي يئن من ثقلها الفلاحون وصغار المُلاَّك. وتاريخ الكنيسة والشهداء حافل بأمثلة رائعة لهذه النوعية.

ولكن الكنيسة لم تكن ضد المسليات والمباهج على إطلاقها. فالقديس كليمندس الإسكندري لا يُمانع في التردُّد على الحمَّامات وممارسة الألعاب الرياضية مؤكِّداً أهميتها لصحة الجسم، ويشجِّع الشباب على ممارستها باستثناء المصارعة وسباق الماراثون (الجري) بالنسبة للبنات الصغار. أما للرجال، فألعاب الكرة والمشي وزراعة الحدائق وصيد الأسماك كلها مرغوب فيها طالما خلت من روح الغيرة[١١].

وظائف القيادة العامة في الجيش والحكم:

هناك بعض الخدمات التي تستحق التوقُّف عندها وإعادة التفكير فيها مرة ومرَّات؛ مثل القيادة العسكرية في جيوش الإمبراطورية. فبعض المسيحيين، بناء على ما جاء في (مت ٥:٣٩؛ ٢٦:٥٢)، كانوا ينفرون من الحرب وحمْل السلاح، باعتبارها أعمالاً تتنافى مع روح الإنجيل ومتناقضة مع الضمير المسيحي[١٢]. بينما يرى آخرون في قائد المائة في كفرناحوم (مت ٨:٥-١٣)، والآخر الذي كان تحت الصليب (مر ١٥:٣٩)، وكورنيليوس في قيصرية (أع ١٠:١-٤٨)؛ أمثلة صالحة للمؤمنين في العسكرية. والتاريخ يشهد، على كل حال، بوجود قادة وجنود مسيحيين أمناء في الجيوش الرومانية، مثل: الكتيبة الطيبية - من صعيد مصر - التي رحلت إلى سويسرا لتأمين حدود الإمبراطورية ضد القبائل الجرمانية، واستُشهدت هناك مع قائدها المصري القديس موريس في Agaunum "أجونم" أثناء اضطهادات دقلديانوس[١٣].

وموقف آخر شبيه بهذا أيضاً، هو مدى إقبال المسيحيين على وظائف الدولة الوثنية ذات

---

(١٠) القانون ٧٠ من قوانين الرسل.

(١١) *Paedag*. 3:7,8.

(١٢) لا زال هذا المنطق سارياً لدى بعض الطوائف البروتستانتية، مثل: الكويكرز Quakers في اسكتلندا، والطوائف التي تعترف بمعمودية البالغين فقط Ana-baptist في هولندا.

(١٣) راجع: مجلة مرقس، عدد سبتمبر ١٩٩٣، ص ٢٠.

طابع الولاية والحكم. فالقديس بولس يوصي تلميذه: «فأطلب أول كل شيء، أن تُقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكُّرات... لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب» (١تي ٢: ٢،١)، وكذلك القديس بطرس في رسالته الأولى يقول: «فاخضعوا لكل ترتيب بشري من أجل الرب. إن كان للملك فكمَنْ هو فوق الكل، أو للولاة فكمرسلين منه للانتقام من فاعلي الشر، وللمدح لفاعلي الخير... خافوا الله. أكرموا الملك» (١بط ٢:١٣-١٧). ووصلت إلينا أقدم صلاة لأجل الملوك والحُكَّام وضعتها الكنيسة بيد القديس كليمندس الروماني في نهاية القرن الأول:

[أعطيتَ أيها السيد لرؤسائنا وحكَّامنا السلطان بقدرتك التي لا يُعبَّر عنها، حتى إذا ما عرفنا المجد والشرف اللَّذَيْن أعطيتهما، أطعناهم؛ لئلا نُعارِض إرادتك. هب لهم الصحة والسلام والوئام والاستقرار ليسلكوا بلا محاباة في عملهم. نعم، أنت أيها الإله القوي وملك الدهور الذي يوزِّع على البشر المجد والشرف والقدرة. وجِّه أيها الرب مشورتهم وِفقاً لِمَا هو خيِّر ومحبوب من إرادتك، حتى يسلكوا بوداعة وسلام، ويحكموا بالسلطان الممنوح منك بعدل ورأفة. أنت الوحيد الذي يستطيع ذلك][١٤].

ولأن هذه الوظائف كانت تستلزم من شاغليها ممارسة طقوس معينة كتقديم البخور والذبائح للأوثان في الاحتفالات العامة، لذلك لم تكن مقبولة في أعين المؤمنين، ولم يكن ذلك تهرُّباً من المسئولية[١٥].

حسم كنسي لموضوع المصارعة والمجالدين:

منذ القرن الثالث الميلادي، جمعت الكنيسة المهرجانات والمسليات والمباريات الدموية التي تستنفد الحياة والطاقة البشرية، كمصارعة الوحوش، تحت شعار واحد: ''مباهج وحِيَل إبليس''. فكانت تطلب من المعمَّدين أن يجحدوها قبل نزولهم مياه المعمودية: ''أجحدك أيها الشيطان

(١٤) البطريرك إلياس معوض: "الآباء الرسوليون"، ص ٥١. ومثلها أيضاً في كنيستنا، أوشية الملك: "اذكر يا رب رئيس أرضنا عبدك..." التي تُقال في القدَّاسات الاحتفالية مثل: لقَّان الغطاس.

(١٥) يعتبر البعض - مثل المؤرِّخ "جيبون" - ابتعاد المسيحيين عن الوظائف القيادية أنها انتقاص للوطنية. لكن أمانتهم في تسديد الضرائب وطاعتهم لقوانين الدولة، ثم ابتهالاتهم وصلواتهم لنصرة الحكام في حروبهم، هي الرد الحاسم على هذا الادِّعاء.

وكل خدمتك وكل أعمالك"[١٦]. ويقول العلاَّمة ترتليانوس بصريح العبارة: "ما لا يليق أن يخرج من فم الإنسان (المسيحي)، فليحرص ألاَّ يسمعه بأذنيه ولا يراه بعينيه، لأنه سينجِّسه". الفم الذي هتف بحماس للمصارعين والمتسابقين، أيمكنه بعد ذلك أن ينطق بذُكصا التمجيد للثالوث القدوس؟

فكانت معارضة الكنيسة لحفلات المصارعة أدبية حتى القرن الرابع، حين تقاربت الدولة مع الكنيسة بدخول الملك قسطنطين المسيحية. وهو نفسه سلَّم آلافاً من أسرى الحروب إلى الوحوش عام ٣١٣م في استاد تريف Treves، واستحق بذلك ثناء خطباء الشعب. لكن عقب مجمع نيقية عام ٣٢٥م، صدر أول مرسوم بوقف هذه المصارعات الدموية وتحريم إقامتها في عاصمته الجديدة "القسطنطينية"، وحافظت على هذا الامتياز مدى العصور التالية.

ليس من السهل استئصال العادات الشعبية، والتي بلغت حدَّ الإدمان، بمجرد تشريع. فقد قاومت الشعوب هذه العادات في الغرب بوجه خاص لفترة طويلة. ولم تتوقف في روما إلا بعد عمل بطولي قام به راهب شرقي يسمَّى تليماخوس، سافر خصيصاً إليها ليُقدِّم احتجاجاً عملياً ضد هذه الممارسة الوحشية بأنْ ألقى بنفسه بين المتصارعين ليفصل الواحد عن الآخر. فهاجت عليه حشود المتحمسين ورجموه بالحجارة، فمات شهيداً للإنسانية[١٧]. فمِنْ ثمَّ تطورت المصارعة بين إنسان وآخر إلى نوع من المهارة الأكروباتية ووُضِعَت لها قواعد وأصول رياضية دقيقة حتى وصلت إلينا باسم: "المصارعة الرومانية". أما مصارعة الوحوش فقد توقَّفت في أوروبا تقريباً فيما عدا أسبانيا وبعض بلاد أمريكا اللاتينية، لأسباب سياحية ذات أثر على الدخل القومي.

---

(١٦) القانون ٣٧ من قوانين الرسل، القانون ١٩ من قوانين أبوليدس.

(17) Theod., Hist. Eccl. 5:26.

٣. الكنيسة والتشريعات المدنية والقضائية

لمسنا في البند السابق بدء نجاح الكنيسة في صبغ المجتمع الروماني بالروح المسيحية، الذي انتقل من الوثنية إلى المسيحية كنتيجة حتمية لاعتناق الإمبراطور قسطنطين للإيمان المسيحي. فنجحت الكنيسة في صبغ المجتمع بالموقف الإنساني تجاه البشرية بصفة عامة متمثِّلاً في وقف المصارعات الدموية في حلبات السباق والاستاد.

وفي الحقيقة، إنَّ تحوُّل الدولة إلى المسيحية، وما قدَّمته من احترام وتوقير لرجال الكنيسة وأساقفتها، لم يكن محاولة للبحث عن الذات؛ بل كانت صادقة في مسيحيتها، تفكِّر وتتصرَّف كأي شخص مسيحي. فمنذ اللحظة التي أعلن فيها الإمبراطور مسيحيته، انجذبت الدولة وراءه بحكم تركيب المجتمع العضوي المتساند بعضه على بعض. ودخلت الكنيسة حاملة قول القديس بولس كشعار منصوب: «لأن **كلّكم** الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح. ليس يهودي ولا يوناني. ليس عبد ولا حرٌّ. ليس ذكر وأُنثى، **لأنكم جميعاً واحدٌ في المسيح يسوع**» (غل ٣: ٢٧، ٢٨). فالمجتمع كان منقسماً إلى قوميات وثقافات وديانات وطبقات متعددة، تتصارع بعضها ضد بعض لكي يسود ويستعبد كل واحد الآخر. فقد كان المجتمع الروماني ينكر على كل مَنْ ليس رومانياً[١] من العبيد والأجانب والغرباء، حقوقهم الإنسانية.

ومقابل انحياز الدولة إلى المسيحية، أضفت الكنيسة على المجتمع الوثني القِيَم الإنسانية البالغة العمق والأثر، انطلاقاً من مفهومها للقاعدة الأساسية: إن البشرية في مجملها جاءت من أب واحد هو آدم الأول وأُم واحدة هي حواء. **فالأصل الواحد للجنس البشري يُترجم في المفهوم المسيحي العملي: محبة، عدالة، مساواة.** ولم تتوقف الكنيسة عند هذا الأساس، بل امتدت في كرازتها معلنةً أن الفداء الذي أكمله الرب يسوع، مؤسسها، لا ينحصر في معالجة خطيئة الإنسان الأول، بل يهدف إلى رفع البشرية إلى مستوى الشركة الكاملة مع الله. فأصبح كل مَنْ يولَد في الكنيسة بالمعمودية هو ابن الله بالتبنِّي في يسوع المسيح بواسطة الروح القدس.

---

(١) كان الجَلْد - مثلاً - غير جائز على أي شخص يحمل الرعوية الرومانية، والتي كانت تُقتَنَى بمبالغ طائلة للأفراد العاديين (راجع: أع ١٦:٣٧؛ ٢٢:٢٥-٢٩).

هكذا بدأت مسيرة الكنيسة مع الدولة في القرنين الرابع والخامس، بدون سيف ولا رمح، بدون مكائد ولا مؤامرات. وقد يتعجَّب القارئ إذ يرى الأسد الجائل ملتمساً مَنْ يبتلعه، قد خضع وانقاد مستسلماً يداً بيد مع الحَمَل الوديع! إنها إحدى لحظات تجلِّي الزمن على أرض شقاء الإنسان تطبيقاً لنبوة إشعياء النبي:

❖ «فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجَدْي، والعِجْل والشِّبل والمسَمَّن معاً، وصبي صغير يسوقها... ويلعب الرَّضيع على سَرَب الصِّل[٢]... لأن **الأرض تمتلئ من معرفة الرب**... ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسَّى (الرب يسوع) القائم راية للشعوب، إيَّاه تطلب الأمم، ويكون محله مجداً» (إش ١١:٦-١٠).

وقد ظهر صدق مشاعر الدولة تجاه المسيحية في:

+ استبدال الرموز الوثنية في العملات المتداولة بالرموز المسيحية، مثل: حرف X (خي)، وحرف P (رو): ☧؛ وهما أول حرفان يونانيان في اسم "المسيح".

+ إلغاء عقوبة الصَّلْب التي نقلها الرومان عن الفينيقيين، وكانوا يطبِّقونها فقط على العبيد وكل مَنْ لا يحمل الرعوية الرومانية من المجرمين.

+ انحازت القوانين بصفة عامة إلى المساكين والمشرَّدين والتعساء والعبيد. فمنعت تفرقة أسرة العبد، وسهَّلت عملية عتقهم اكتفاء بالإعلان عنها في الكنائس أيام الآحاد بحضرة الأساقفة، دون حاجة لإشهارها في محاكم الدولة. فيوم الأحد، كما يقول الإمبراطور قسطنطين، هو يوم العِتق والقيامة، فهو أكثر الأيام لياقة لتحرير العبيد متى شاء سادتهم ذلك.

+ طالَبَت السلطات الحاكمة الأساقفة والرعاة بافتقاد المسجونين والأشقياء الذين في المطابق والسجون يومَي الأربعاء والجمعة من كل أسبوع للهداية والوعظ. كما سنَّت القوانين بمنع تجويعهم وتعذيبهم، وأوصت بذهابهم إلى الحمَّامات أسبوعياً لتخفيف المعاناة عنهم كنوع من الترفيه الجسداني.

---

(٢) وهو جُحر أفعى صغيرة سامَّة.

+ أُعطِيَ للكنيسة حق قبول الهبات والميراث والأوقاف وامتلاك الأراضي والإقطاعيات، مع إعفائها من الضرائب. وهذا بدوره أتخم الكنيسة بالذهب والفضة التي إذا أُحسن استغلالها صارت نعمة وبركة للمعوزين والفقراء والمرضى. ولكن للأسف مثل هذه الهبات والأموال سببت عثرات لبعض رجال الكنيسة، مما جعل القديس يوحنا ذهبي الفم، تحت ثِقل الانشغال بالأمور المادية، يوبِّخ الشعب قائلاً: ''كان يجب أن تبقى خزانة الكنيسة معكم. ولكن قساوة القلب فرضت على الكنيسة أن تتعامل مع ممتلكات أرضية من عقارات وأراضٍ، لأنكم غير متمرِّسين في فعل الخير؛ مما اضطر خُدَّام الله أن يتدخلوا فيما لا يعنيهم من أمور غريبة على خدمتهم. في أيام الرسل قدَّم المؤمنون بيوتاً وأراضي؛ فلماذا فضَّلوا بيعها وإعطاء أثمانها للمحتاجين؟ لأن هذا هو الأسلوب الصحيح. آباؤكم كانوا يفضِّلون أن تصنعوا أنتم الرحمة من إيراداتكم، ولكن بسبب خشيتهم أن تستسلموا للجشع، وتتركوا عنكم الفقير والجائع؛ لذلك صنعوا ما ترونه الآن (أي قدَّموا الهبات والأوقاف للكنيسة للتصرُّف فيها بمعرفتها)''[٣]. ويكرر القديس أغسطينوس نفس المعنى قائلاً إنه يُفضِّل أن يسترد شعبه ممتلكات الكنيسة ليتولَّى الإنفاق بمعرفته على الإكليروس والفقراء[٤].

العطلة الأسبوعية والأجازات الرسمية:

لم يوجد قانون يفرض على الإنسان أن يُعطِّل أعماله في يوم معين أو موسم محدَّد. لكن هدف التشريعات الموضوعة كان منع المعوِّقات التي تشوِّش على المصلِّين، كما أنها تحمي المصلِّين لممارسة حقوقهم في العبادة الواجبة. فصدرت القوانين باعتبار يوم الأحد عطلة أسبوعية، وتحديد الأعياد المسيحية والكنسية التي تتوقف فيها المحاكم والقضايا وجباية الضرائب وجميع مؤسسات الدولة بصفة عامة، وأيضاً المسارح والمدارس والاستعراضات والتدريبات العسكرية، وكل الأعمال المدنية والحربية عموماً.

---

(٣) عظة ٨٥ على إنجيل متى، عظة ٢١ على ١كو ٧.

(4) Possidius, Vita Aug. Ch. 23.

وساطة رجال الكنيسة لدى السلطات:

التركيب العضوي المتكاتف للمجتمع في ظل الحكم الفردي المطلق، كان يقتضي أحياناً تحوُّل الدولة إلى مجموعة من الأجهزة البوليسية والمخابرات، حتى تتمكن من متابعة أعمال الخيانة ضد الدولة ومؤامرات الاغتيال والانقلابات؛ فسلامة الدولة واستقرارها من سلامة الإمبراطور الحاكم. وللأسف، ليس من السهل إثبات تهمة الخيانة والتآمر. لذلك كثيراً ما كان الضحايا من الأبرياء الذين ثبتت براءتهم بعد إعدامهم وتشتيت عائلاتهم وافتقارهم إلى رغيف خبز واحد. في مثل هذه الظروف، كانت شفاعة رجال الكنيسة ووساطتهم تعود بالخير والطمأنينة على شعوبهم.

في عام ٣٨٧م، قامت ثورة شعبية في مدينة أنطاكية، ثالثة المدن الكبرى في الإمبراطورية، نتيجة إشاعة كاذبة عن فرض ضرائب جديدة. وتحت تأثير المشاغبين والرعاع، انفعلت الجماهير الثائرة وحطَّمت تماثيل الإمبراطور ثيئودوسيوس والإمبراطورة زوجته التي كانت قد توفيت منذ عهد قريب. ووصلت الأخبار إلى الإمبراطور في القسطنطينية، فأعدَّ حملة عسكرية لتأديب المدينة والانتقام من المشاغبين. وما إن سمع سكان أنطاكية هذه الأنباء حتى أُصيبوا بالفزع والوجوم، لدرجة أن أصوات النائحين والمولولين كانت تتردد في شوارع المدينة وطرقاتها. واتَّجه الشعب بفئاته المختلفة إلى الكنائس، فازدحمت بالمصلِّين المتوسِّلين إلى الله أن يرحم مدينتهم من الانتقام الإمبراطوري[٥]. وتحامَل بطريرك أنطاكية، القديس فلابيانوس، على نفسه، رغم مرضه وشيخوخته، وسافر إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور شخصياً متشفِّعاً عن مدينته. وهناك تكلَّلت مساعيه بالنجاح، فعادت إلى الجماهير فرحتها وبهجتها.

وكثيراً ما كتب القديس أنطونيوس أبو الرهبان للولاة والحُكَّام، متشفِّعاً عن الفلاحين والأرامل والأيتام المظلومين من جور جُباة الضرائب وتعسُّفاتهم[٦]. كما كتب للإمبراطور قسطنطين يوصيه بالرحمة والعدالة نحو الشعوب الخاضعة له، وردَّ عليه الإمبراطور باعتباره ''كواحد من الأنبياء''[٧].

---

(٥) كانت فرصة ثمينة أمام القديس يوحنا ذهبي الفم كاهن المدينة، وقتئذاك، أن يحوِّل محنة الشعب إلى صلاة وتضرُّع في عشرين عظة من أثمن ما تركه لنا هذا القديس، حُفِظَت تحت عنوان: "على التماثيل"، وبسببها منحته الكنيسة لقب: "ذهبي الفم".

(6) Sozomen, Eccles. Hist. I:13,9.

(7) Rufinus, Eccles. Hist. I:8.

هذا بالطبع لم يمنع من وجود تصرفات خاطئة من جانب الأباطرة والحُكَّام. فرغم العلاقة الوثيقة بين القديس أمبروسيوس أسقف ميلان والإمبراطور ثيئودوسيوس، إلاَّ أنه لم يستطع أن يَحُول دون وقوع مذبحة تسالونيكي التي ذهب ضحيتها سبعة آلاف من شباب المدينة بنوع من التأديب الغادر. فلم يجد الأسقف بُدّاً من رفع الشريعة الإلهية فوق السلطان الزمني، وطالَب الإمبراطور بتوبة علنية حتى يسمح له بدخول الكنيسة. وخضع الإمبراطور معترفاً بخطئه ومُقرّاً بسمو الشريعة الإلهية على السلطان الزمني.

القانون الروماني:

قدَّمنا بعض اللمحات التي عكست فيها المسيحية مبادئها على القوانين الوضعية في المجتمع الروماني. ولم يكن في الكنيسة قانونيُّون أو مشرِّعون يقدِّمون اقتراحات إلى الدولة لتُدْرجها ضمن لائحتها التشريعية كما يحدث في زماننا الحاضر؛ بل هو الروح القدس الذي حرَّك عَجَلة التاريخ لتدور دورتها عَبْر الأزمنة والأجيال مهما اعترضتها العراقيل.

إذن، فالتعاليم التي وضعها الرب يسوع أثناء كرازته بين أقل وأحطِّ طبقات المجتمع اليهودي، بين صيَّادي السمك والعشَّارين، بين الفقراء والمساكين، بين المرضى والمعوَّقين، بين المنبوذين عموماً من المجتمع البشري؛ كان لها أكبر الأثر في رفع مستوى هذه الطبقات الدُّنيا، وذلك بإحساسهم العميق بإنسانيتهم التي ردَّها لهم الرب يسوع[٨].

وفي القرن الخامس بدأت أولى محاولات تجميع القوانين التي أصدرها الأباطرة المسيحيون، وبلغت غايتها تقريباً في عصر الإمبراطور جوستنيان في منتصف القرن السادس، واشتهرت باسم: "**القانون الروماني**"، الذي أخذت عنه جميع التشريعات في البلاد الراقية في أوروبا وأمريكا.

---

(٨) معجزة شفاء مجنون كورة الجدريين (لو ٨:٢٦-٣٩) شاهدة على ذلك. لقد كان هذا الشخص منذ زمان طويل «**لا يلبس ثوباً ولا يُقيم في بيت** بل في القبور». وقد ربطه أهل كورته بسلاسل وقيود فقطَّعها، وكان يُساق من الشياطين إلى البراري. فلما تقابل مع الرب يسوع، وأخرج منه الأرواح الشريرة؛ جاءت الجموع لتُعاين مَنْ كان مجنوناً، فوجدوه «**لابساً وعاقلاً، جالساً** عند قدمَي يسوع»، محاولاً أن يلتصق به. أما يسوع فصرفه قائلاً: «ارجع إلى بيتك وحدِّث بكَمْ صنع الله بك». والعبارات الدقيقة التي اختارها القديس لوقا في روايته عن هذه المعجزة كفيلة ببناء حضارة إنسانية مسيحية رفيعة المستوى.

وللحقيقة، لا ينبغي القول أن منشأها جميعاً كان مسيحياً؛ بل البعض منها من أصل وثني، لكن نضجت في بيئة مسيحية، ثم جاءت القريحة الرومانية الموهوبة في التنظيم والعدالة، فأعطتها صورتها المعروفة لدينا الآن.

لقد بدأت حركة الانطلاق ولم تتوقف حتى بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية. فلا تزال المسيحية تعزّي وتعصب وتشفي وتطيّب القلوب، لتُعيد للإنسانية صورتها الأولى التي شوّهتها الخطيئة.

٤ . الأسرة والمرأة

في العصر الوثني:

كانت الدولة في عُرف الحضارة اليونانية ووريثتها الرومانية هي أعظم ما في الوجود. فيقول أرسطو الفيلسوف اليوناني: إنها التنظيم الذي يجمع المواطنين الأحرار[1]، وهي التي لها الأولوية على الأسرة والبيت، بل وعلى الفرد نفسه. وفي ظل هذا التعريف يُعتبر الفرد أنه "حيوان سياسي"! ورفاهية الدولة في تقرير الفيلسوف أفلاطون هي كل شيء وتعلو فوق كل شيء. وعلى ذلك، تعتبر جميع الفضائل التي نادى بها فلاسفة اليونان هي "فضائل سياسية"، **وليست فضائل شخصية** كما يتصور البعض. فالحكمة، والشجاعة، والاعتدال، والعدالة - في حقيقتها - لا ترتقي بأخلاق الفرد بقدر ما تؤثِّر على الدولة وسياستها.

هذه الاستبدادية المطلقة للدولة كانت على حساب الشخصية الإنسانية وكرامة الفرد في المجتمع السياسي، إذ دمَّرت حقوقه وحقوق الأسرة التي هي الخلية الأولى الأساسية التي تكوِّن نسيج المجتمع والدولة. فالزواج والبيت لا غاية لهما سوى خدمة الدولة والحفاظ على رفاهيتها. وتحت هذه الغاية لم يكن للمرأة، بصفة خاصة، أية شخصية تتميز بها عن العبد المملوك في بيوت الأحرار الرومانيين. فيوصي سقراط ابنه أن اختيار الزوجة أو الزواج هو لغاية واحدة وهي إنجاب أطفالٍ أشدَّاء قادرين على خدمة الدولة والحفاظ على مجدها. وهذا انتهى بالمرأة في العصر الوثني إلى الاعتزال في "بيت الحريم" أو "الحرملك"، حيث تقضي سنيّ حياتها بين العبيد والخصيان والإماء.

ومن جهة أخرى، هل نتوقَّع شيئاً عن العفة والطهارة، إن كان آلهة اليونان وروما: جوبيتر ومارس وفينوس، واقعين في أحطِّ الرذائل والمجون التي تفيض بها أساطير الآلهة الإغريقية بدرجة يعفُّ القلم عن ذكرها؟!

ربما تتفاضل الحضارة الرومانية قليلاً عن اليونانية في تقديرها للأسرة والمرأة. ومع ذلك كانت

---

(١) وبالتالي، قد انتفى من هذه الدولة، بحسب تعريف الفيلسوف أرسطو، العبيد والأجانب، فصار لا موضع لهم فيها.

الشريعة الرومانية تحرِّم على الرجل الروماني أن يتزوَّج بامرأة أجنبية، لأن الأجانب في مرتبة العبيد! وبالنسبة للمهر الذي يدفعه طالب الزواج إلى والد الفتاة التي يريدها زوجة، فلم يكن في المفهوم الشرعي والقانوني سوى الثمن الذي يقبضه والد الفتاة نتيجة انتقال ملكيتها إلى زوجها! ومن هذا المفهوم القانوني كان يحق للرجل أن يؤجِّر زوجته لآخرين دون أن يكون في هذا التصرُّف الذي ارتُكِبَ أي عارٍ أو تعدٍّ على حقوق الزوجة كإنسانة!

وقد يتغنَّى البعض بالقول إن مبدأ الزوجة الواحدة لم يكن مقتصراً على المسيحية بل كان معروفاً في الحضارة الوثنية. لكن هذا لم يمنع قيام علاقات نسائية خارج الزيجة؛ فالتسري ونظام المحظيات كانت أنظمة معترفاً بها في العصر الوثني طالما كان نظام العبودية قائماً، إذ أنه حالة تتوسَّط بين الزيجة الثانية والزنا، ولها شرائع تنظمها شرقاً وغرباً منذ عصر أُوغسطس قيصر في القرن الأول قبل الميلاد.

أما الزنا، فكانت عقوبته ـ حسب الظاهر ـ قاسية؛ إذ يحق للزوج أن يقتل مَنْ يضبطه مع زوجته. لكن ليس حفاظاً على كرامة الأسرة والبيت والمرأة، بل لأنه تعدَّى على ممتلكات الزوج الشرعية. ومن جهة أخرى، لا حقَّ للمرأة أن تُراجع زوجها بشيء إن كانت له علاقات خارج الزيجة.

وباختصار، يمكن القول إن المرأة في العصر الوثني كانت ''شيئاً'' و''متاعاً''، وليست ''شخصاً'' أو ''شخصية إنسانية''!!

وإذا انتقلنا إلى العنصر الثالث المكوِّن للبيت، وهم الأطفال، فقد كان للأب سلطانٌ مطلقٌ على أطفاله؛ فمن حقه أن يقتل ابنه دون أن يُقدَّم للمحاكمة، وله أن يتخلَّص منه إن كان مولوداً بعاهة أو معوَّقاً. فلا غرابة أن نسمع بقيام أسواق لبيع الأطفال بسبب فقر الوالدين، أو إن كان الطفل عليلاً أو ذا عاهة. فالدولة بحاجة إلى الأطفال الأشدَّاء الأصحَّاء القادرين على الدفاع عنها، ولا مكان فيها للضعفاء والمساكين وذوي العاهات. وهذه صورة أخرى معيبة للمجتمع الروماني.

المرأة في المسيحية:

إن قوة التحوُّل الروحي التي جاءت بها المسيحية تُستعلن في الشخصية الإنسانية قبل كل شيء. وهذا واضح تماماً في الرسل والشخصيات التي آمنت بالرب يسوع والتصقت به خلال كرازته على أرض الشقاء. فالسمو الذي ارتفعت إليه هذه الشخصيات يعلو بما لا يُقاس على كل أبطال الفضائل في العصر الوثني، بل وحتى على قديسي العهد القديم. كما كان سلوكهم اليومي يُفصح عن مدى اتحادهم الشخصي بالرب، وقد ظهر في اقتنائهم الفضائل المسيحية التي لم تكن معروفة من قبل، مثل: محبة الأعداء، والتواضع... إلخ.

والاتحاد بالرب لا يلغي الضعفات الشخصية التي سجَّلها كتاب العهد الجديد لبعض التلاميذ والتلميذات. فالقديس بولس الرسول يعترف عن نفسه قائلاً: «صادقة هي الكلمة ومُستحِقَّة كل قبول: أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليُخلِّص **الخطاة الذين أولهم أنا**» (١تي ١:١٥)، «... ليس أني قد نِلْتُ أو صرتُ كاملاً، ولكني أسعى لعلِّي أُدرك الذي لأجله أدركني أيضاً المسيح يسوع[٢]» (في ٣:١٢). ففي المسيح تُصقل المواهب الشخصية وتتقدَّس حتى تبدو أمام العالم في أبهى وأكمل صورة لها، لتكون بحسب قصد الذي خلقها ووضعها في الإنسان قبل تأسيس العالم. فالحرارة النارية التي كانت في بطرس الرسول انتهت به إلى الصَّلب منكَّس الرأس تلبية لشهوة قلبه: "أتبعك يا سيد"، وكان ذلك نبوَّة من الرب له: «... حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعني، ولكنك ستتبعني أخيراً... قال هذا مشيراً إلى أية ميتة كان مُزمعاً أن يُمجِّد الله بها» (يو ١٣:٣٦؛ ٢١:١٩). والطابع التأمُّلي الذي جُبلت عليه نفس القديس يوحنا الإنجيلي، انتهى به إلى تدوين إنجيله الذي أغنى الكنيسة بكل غنى وملء اللاهوت الروحي والعقائدي والرعوي، الذي لم تستنفده الكنيسة حتى الآن رغم مرور عشرين قرناً على تدوينه.

وإذا اتجهنا إلى المرأة في الإنجيل سنندهش للسمو الذي بلغت إليه بعدما وصلت إلى حالة تقرب من العبودية في العصر الوثني. لقد صارت المرأة - في العهد الجديد - موازية تماماً للرجل من جهة الكرامة الأدبية والشخصية: «ليس ذكر وأُنثى، لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع» (غل ٣:٢٨)، ووارثة مثله تماماً لملكوت السموات: «... مُعْطِينَ إيَّاهُنَّ كرامة، **كالوارثات أيضاً**

---

(٢) أي: نلتُ بالموت موتَ الإنسان العتيق؛ وبالقيامة قيامةَ الخليقة الجديدة.

معكم نعمة الحياة» (١بط ٣:٧). وهذا لا يعني تجاهل الفروق الفسيولوجية الخِلْقية التي جُبلت عليها المرأة مقارنة بالرجل كما تنادي بها الفلسفات المعاصرة بالنسبة لقضيتها، إذ جرَّدتها من أنوثتها التي هي رأس مالها.

والحقيقة، أن نقطة التحوُّل العُظمى في تاريخ المرأة هي يوم تقبُّل "العذراء مريم" للبشارة بالتجسُّد الإلهي بقول الملاك لها: «**مباركة أنت في النساء**» (لو ١:٢٨). وكما كان الرب يسوع هو آدم الثاني، هكذا صارت العذراء مريم، في التقليد الإنجيلي التفسيري، هي "حواء الجديدة"[٣]، هي أُم كل حيٍّ. فتبارَك جنس المرأة في مجمله بالبركة التي قبلتها العذراء من فم الملاك. وهذا يعني ضمناً رفع اللعنة التي حلَّتْ عليها من جراء خطيئة أبوينا الأوَّلَيْن، الأمر الذي لم تنلْه أية امرأة من أعظم قديسات العهد القديم. وباشرت العذراء مهامها كـ "حواء الجديدة" منذ ولادة الرب يسوع؛ فقد اعتنت به كأُم أرضعته لبنها فكان «يتقدَّم في الحكمة والقامة...» (لو ٢:٥٢)، واهتمت بتربيته على آداب العهد القديم وشرائعه والوظيفة المسيَّانية التي كانت تنتظره، وكانت تصحبه معها إلى المجامع اليهودية لسماع تعاليم التوراة وآداب الربِّيين الكبار والعظام.

وهكذا جسَّمت العذراء مريم المبادئ الأولى لحواء الجديدة: **العفة**، التواضع، الوداعة، البساطة، التسليم الكامل والكُلِّي للمشيئة الإلهية في خضوعها الأخير والنهائي لتدبيره على الصليب: «يا امرأة، هوذا ابنُكِ»، وللتلميذ الذي كان يحبه: «هوذا أُمُّكَ» (يو ١٩: ٢٦،٢٧)، فصارت في التقليد الكنسي هي النموذج المجسَّم للكنيسة عروس المسيح. وهكذا رُفعت عن جنس المرأة المذلة الأدبية والمهانة الشخصية التي ألصقتها بها العصور الوثنية الظالمة والمظلمة، أنها موجودة لمتعة الرجل ولا أكثر من ذلك!

ويحفل الإنجيل بمجموعة من النساء الأخصاء اللواتي صرن من تلميذات المسيح المقرَّبات: مريم زوجة كلوبا؛ وسالومة أم يعقوب ويوحنا ابني زبدي، اللواتي وقفن إلى جوار العذراء تحت الصليب (يو ١٩:٢٥)؛ ومرثا ومريم أختا لعازر: الأولى مرثا صاحبة الضيافة التي كان الرب يسوع يجد راحته في بيتها، والثانية مريم التي اعتادت الجلوس تحت قدمَي الرب تستمع إليه وتنفتح روحها على كلماته المحيية؛ ثم مريم المجدلية التي يقول آباء الكنيسة إنها هي الخاطئة التي غسلت قدمَي

---

(٣) أول مَنْ صاغ هذا المفهوم كان القديس إيرينيئوس أبو التقليد الكنسي.

الرب يسوع بدموعها ومسحتهما بشعر رأسها[٤] (لو ٧:٣٧-٥٠)، والتي أخرج منها الرب سبعة شياطين، فكانت أول مَنْ استحق أن يحمل بشارة القيامة إلى التلاميذ والكنيسة (يو ٢٠:١٨)؛ وبعض النسوة اللواتي كُنَّ يخدمنه من أموالهن فصرن مثلاً لنساء شريفات؛ ثم امتداد هذه الخدمة متمثِّلة في النساء التقيّات نبيلات العائلات الغنية في القرون المسيحية التالية اللواتي قدَّمن أموالهن وثرواتهن في أعمال المحبة والرحمة الإنسانية.

البيت المسيحي:

بعدما كانت المرأة في العُرف الوثني الفاضل كقطعة من قماش فاخر أو نسيج حريري يُعلَّق على الحائط لتزيين القاعات والمجتمعات، رفعتها المسيحية إلى مستوى الكرامة اللائقة بها كزوجة شريكة لزوجها ومُعينة له في كل شيء بتقديس الزواج والعلاقات الزوجية، ولذلك نالت الحياة العائلية في المفهوم المسيحي بهاءها المجيد. فالزوجة الواحدة ومَنْع التسرِّي بكل صوره وأشكاله، أبعد النجاسة عن البيت المسيحي وعن أطفال العائلة. وصارت الزوجة بحق ''معينة لآدم''[٥]، و يعكس البيت صورة العلاقة المقدسة بين المسيح وعروسه الكنيسة: «لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح أيضاً رأس الكنيسة... أيها الرجال، أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها، لكي يقدِّسها... هذا السرُّ عظيمٌ» (أف ٥:٢٣-٣٢). فأصبح الأب هو رب الأسرة، هو الراعي الذي يقود خرافه، امرأته وبنيه، إلى مراعي الكلمة الإلهية؛ وهو الكاهن الذي يقدِّم ذبيحة التضرُّع والتسبيح والشكر عن شعبه أي أهل بيته.

والمبدأ الأساسي الذي تعامَل به الروح القدس مع الكنيسة لتصحيح مسار الأسرة والمرأة هو تحويل الاهتمام من البيئة والمحيط الخارجي إلى تقديس العاطفة الإنسانية في المرء. وهذا يعني تطبيقياً وعملياً جذب الشخصية الإنسانية من الطاحونة الضخمة التي تسحق كل شيء وتبتلع كل شخص، أي ''الدولة السياسية''، إلى ''قداسة البيت المسيحي''. ووسيلة الروح في ذلك هي تنمية الفضائل المسيحية لتقويم الأسرة والبيت باعتباره الخلية الأساسية المكوِّنة لنسيج المجتمع.

---

(٤) وبرهانهم على هذا الاستنتاج أنَّ ذِكْرها جاء في لو ٨:٢ عقب واقعة المرأة الخاطئة.

(٥) الهدف الأول الذي لأجله خرجت حواء إلى الوجود، هو ما جاء في سفر التكوين: «ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فأصنع له **معيناً نظيره**» (تك ٢:١٨).

(٥) انظر مثلاً:

دور المرأة في غلبة وسيادة المسيحية:

كان دور المرأة في الأسرة بلا شك من أقوى العوامل التي ساهمت في نقل الحضارة البشرية من تحالفها مع الوثنية إلى صبغها بالمبادئ المسيحية. والذي نودُّ أن نؤكِّد عليه، أن هذا الانتقال كان هادئاً ليِّناً، دون طفرات ولا ثورات ولا انقلابات، دون استغلال للقوة والتسلُّح، أو الاستناد إلى السلطان الزمني. إنه ''النجاح الذي يُولِّد الفَلاح''.

فعبور المسيحية عصور الضيق والمطاردات والاضطهادات وخروجها سالمة بل منتصرة، جعلها تتسيَّد على الحضارة البشرية وتصبغها بالروح المسيحية؛ الأمر الذي لا نجد له تعليلاً معقولاً ولا منطقياً لدى المؤرِّخين المعاصرين(٦).

لكن ما لاحظه المؤرِّخون أنه في القرن الرابع الميلادي كان الزواج المختلط بين المسيحيين والوثنيين يتَّجه اتجاهاً مسيحياً. فوالد القديس أغسطينوس، المعتَبَر ربّ الأسرة، وجد نفسه بلا حول ولا قوة ـ كسيِّد ـ فيما يختص بالشئون الدينية في بيته، لأن تقوى زوجته مونيكا ـ أُم القديس أغسطينوس ـ كانت غالبة. ويقول القديس أغسطينوس في اعترافاته: ''كنتُ مؤمناً عادياً كسائر أفراد البيت، فيما عدا والدي، الذي لم يستطع أن ينزع حقوق تقوى والدتي التي غرَستها فيَّ''(٧).

وعلى تابوت أعدَّه أحد الولاة الرومانيين في بداية القرن الرابع لزوجته المسيحية الراحلة: مارسيا رومانا، وُجِد نحت بارز لمعجزة إقامة لعازر من الموت. مع العلم أنه في بداية القرن الرابع لم يوجد أيُّ والٍ روماني يدين بالمسيحية.

من هذه الأمثلة وغيرها، يمكن القول إن المرأة كانت وراء غلبة المسيحية وسيادتها على الحضارة الإنسانية من القرن الرابع فصاعداً.

المرأة والتكريس:

حينما آمنت المرأة بالمسيح ابن الله، أخذت الخلقة الجديدة التي خلقها الله من طبيعة ابنه الرب

W. H. Frend, *The Rise of Christianity,* p. 561.

(7) Confessions, 1:10:17.

يسوع القائم من بين الأموات. وبهذا تحقَّق قوله تبارك اسمه: «مَنْ يصنع مشيئة الله هو أخي **وأختي وأمي**» (مر ٣:٣٥)، لأنه قال هذا بعد أن نظر حوله إلى الجالسين من السيدات والرجال.

وعلى المستوى الروحي بدأ تفجُّر طاقات وصفات جديدة لم تكن أصلاً في المرأة باعتبارها إنساناً عتيقاً تعيش تحت سلطان الخطيئة. أبرز هذه الصفات هو **التكريس لله**، حتى استطاعت أن تنافس الرجل في هذا الميدان منافسة بلغت أحياناً حدَّ التفوُّق. فالقديسة مريم المصرية الناسكة كانت تعيش في الإسكندرية في حياة بلغت قاع الانحلال، وكانت سبب عثرة للكثيرين. فلمّا تقبَّلت دعوة التوبة أثناء دخولها كنيسة القيامة في أورشليم، انطلقت وحيدة تعيش في بادية الشام في نسك رائع يعجز عن وصفه الخيال **ويخور من دونه الرجال.**

والقديس يوحنا ذهبي الفم، الذي كان معاصراً لحركة التكريس هذه، قال في عظاته على إنجيل متى: "... تَرَوْن هذه المبادئ (النسكية) ليست بين الرجال فقط، بل وأيضاً **في طبيعة المرأة.** بلى! هُنَّ لسن أقل من الرجال، بل يُمارِسن نفس الحكمة[٨]، ويَسعَيْن وراءها. لا يتحصَّنَّ بالدروع كما كان يُطالبهن فلاسفة الإغريق، بل الآن يجاهدن أشق أنواع الجهاد (النسكي). فالحرب ضد إبليس ليست وقفاً على الرجال. **ولم تقف طبيعة المرأة (وأنوثتها) عائقاً** ضد الجهادات، بل في أحوال كثيرة **تقدَّمن على الرجال ونلن أعلام التفوُّق**"[٩].

ودون أن نخوض في تفاصيل دور المرأة في الكنيسة، بل من أجل استكمال الصورة العامة لتأثير المسيحية على الجنس الأنثوي، لا يزال التكريس النسائي في قوته حتى وقتنا الحاضر. ففي إحصائية نشرتها الكنيسة الكاثوليكية التقليدية لعام ١٩٩٦ عن التكريس في العالم الكاثوليكي[١٠]:

كهنة	رهبان وإخوة مكرَّسون	راهبات وأخوات مكرَّسات
١٤٤ ألف	٧١ ألف	٨٥٧ ألف

(٨) كان آباء الكنيسة الكبار يسمُّون الحياة الرهبانية والنسك "الحكمة، الفلسفة الحقيقية".

(9) Homilies on St. Matthew, VII:6.

(10) عن مجلة: Catholic International, Vol. 7, p. 188.

وعبوراً إلى الكنائس غير التقليدية، أي الإنجيلية بطوائفها المتنوّعة، كانت حركة التكريس النسائي ضيِّقة في القرون الماضية بسبب سيطرة الرجل على مجالس إدارات البعثات التبشيرية. ولكن مع مطلع القرن العشرين نشأت جمعيات نسائية مستقلة لتعضيد وتمويل سيدات غير متزوِّجات (أي متبتِّلات) في البعثات التبشيرية.

ولأول مرة في تاريخ هذه البعثات يتفوَّق عدد النساء المكرَّسات على عدد الرجال. ففي عام ١٩١٠، كانت هناك - تحت رعاية الكنيستين المعمدانية والمشيخية - ٧٩ سيدة متبتِّلة تعمل في التبشير مقابل ٤٦ مُرسَلاً في مقاطعة شانتونج وحدها في بلاد الصين. وتزايدت النسبة حتى بلغت الضعف في بعض الأماكن والبلاد المتفرقة من العالم.

والسؤال الذي طَرَحته واحدة من عالمات الكتاب المقدس في إحدى المعاهد اللاهوتية الإنجيلية: لماذا تتخلَّى المرأة الغربية عن إحساسها الغريزي بالطمأنينة والأمان وسط العائلة والزوج والبنين والوطن، لتتغرَّب بعيداً وحيدة (بدون زوج) وسط مشقَّات وتضحيات في بلاد أجنبية متأخِّرة؟

والإجابة التي قدَّمتها هذه العالمة: علينا أن نفتِّش جيداً الكتاب المقدس، هل حقّاً يُطالبنا الله أن نطمر مواهبنا ومَلَكاتنا كما هو حادث الآن؟

وكان التكريس للمرأة في الكنائس الإنجيلية هو الباب الذي انفتح أمامها استجابة لنداء الخدمة[11]. وسبب تفوُّق أعدادهن على الرجال يرجع إلى مقدرتهن على اجتياز الحواجز التقليدية في البلاد المتخلِّفة، والتي تمنع المرأة من حضور الاجتماعات التبشيرية التي ينظِّمها المرسَلون؛ إذ تستطيع دخول البيوت وزيارة العائلات لتجلس مع السيدات والبنات والأطفال للكرازة بالإنجيل دون عائق، الأمر الذي لا يمكن للمُرسَل أن يعمله. هذا طبعاً بالإضافة إلى نجاحهن في الوظائف التعليمية كمدرِّسات، والخدمات الطبيَّة كممرضات، وذلك في المدارس والمستشفيات التي أقامتها البعثات التبشيرية، إلى جوار الهدف الأساسي الذي هو الكرازة بملكوت السموات.

---

(11) Ruth A. Tucker, From Jerusalem to Irian Jaya, pp. 232-33.

٥. المؤسسات الخيرية

امتداداً للتعاليم الأساسية في المسيحية أنَّ الإنسان على صورة الله قد خُلِق، هناك وحدة كيانية وجودية تجمع الجنس البشري بأسره. والمسيرة التي دشَّن بها الرب يسوع كرازته مبتدِئاً من الفئات التي رسبت في قاع المجتمع، مثل: الفقراء والغرباء والمرضى وذوي العاهات؛ استأنفتها الكنيسة من بعده. فالمجتمع الروماني في مواجهة الكنيسة كان مكشوف العوار، وكان على الكنيسة أن تعزِّي وتعصب وتطهِّر وتشفي. فالوثني لا تربطه بالآخرين أية مشاعر دينية، وبالأكثر لو كانوا من المساكين أو المهملين أو الذين أخنى عليهم الدهر بعد عزٍّ ورفاهية. بينما أفاضت الكنيسة على هؤلاء من محبتها دون النظر أبداً إلى إيمانهم أو تديُّنهم. هذا ما اصطلح على تسميته باسم: ''الفيلانثروبيا philanthropia'' أي ''محبة البشر''. إنها التعبير المسيحي تجاه الآخرين، وعلامة مميِّزة للمسيحية في العصور الوثنية. وقد بدأ هذا التعبير في العصر الرسولي في دائرة ضيِّقة، بين المؤمنين بعضهم مع بعض[١]، فكان القديس إغناطيوس الأنطاكي يدعو المؤمن باسم: ''خرستوفوروس'' أي ''حامل المسيح''، أو ''ثيئوفوروس'' أي ''حامل الإله''. كما كانت الاجتماعات، سواء الأغابي أو مائدة الرب (أي الإفخارستيا)[٢] تبدأ بالقبلة الأخوية[٣]. وما كانت أبداً هذه القبلة عملاً روتينياً ميِّتاً بل مدَّثراً بدفء المحبة الحقيقية التي تُعبِّر عن مضمون روحي عميق: إنه في أخيك سترى المسيح. لذلك امتدَّت هذه المحبة إلى ما بعد القبر، حيث اعتادت العائلات المسيحية أن تحتفل بذكرى انتقال أحبائهم، إلى الدرجة التي جعلت بعض المسئولين في الكنيسة ـ مثل العلاَّمة ترتليانوس ـ أن يُنادي بمنع الزيجة الثانية بعد موت الطرف الآخر، باعتبار أن الزيجة الأولى ما زالت قائمة أمام الله.

وفي عصور الاضطهاد امتدَّت ''الفيلانثروبيا'' إلى الذين فقدوا ثرواتهم ومصادر عيشهم وافتقروا، إلى الأرامل والأيتام الذين استشهد عائلهم، إلى المسجونين في المطابق والمناجم؛ مع

---

(١) رو ١٥: ٢٧،٢٦؛ ١كو ١٦: ٢،١؛ عب ١٣: ١٦،٢،١؛ يع ١: ٢٧.

(٢) لا يزال القداس الإلهي يبدأ بها، إذ يُنادي الشماسُ الشعبَ قائلاً: ''قبِّلوا بعضكم بعضاً بقبلة مقدسة''.

(٣) رو ١٦: ١٦؛ ١كو ١٦: ٢٠؛ ٢كو ١٣: ١٢؛ ١تس ٥: ٢٦؛ ١بط ٥: ١٤.

اعتبار أن المسيحيين كانوا لا يزالون من الطبقة الدُّنيا في المجتمع الروماني، وكان ضياع ممتلكاتهم القليلة يعني بلوغهم حدَّ الفقر المدقع. لذلك تكوَّنت في المجتمعات الكنسية جمعيات خيرية وظيفتها جمع الهبات وافتقاد الضحايا؛ كما أصبح العطاء عادة راسخة وشبه التزام كجزء من التنظيم العبادي. فنقرأ أنه كان تحت رعاية القديس كورنيليوس أسقف روما (٢٥١-٢٥٣م) ما يزيد على ٥٠٠ فرد من ضحايا اضطهاد الإمبراطور داكيوس. وعندما طلب والي روما من شماس كنيستها أن يأتيه بذخائرها، قدَّم الأرامل والأيتام والعُمي والعُرج والمرضى، باعتبارهم أثمن ما كانت تمتلكه كنيسة روما(٤). وكان الأساقفة أحياناً يفرضون على الشعب أصواماً بقصد التوفير مما يصرفه المرء على طعامه حتى يكون له ما يقدِّمه للمعوزين وللذين تعولهم الكنيسة. والقديس كبريانوس باع الإقطاعيات التي ورثها من أسرته الغنية في نوميديا (شمال أفريقيا) لكي يدفعها فدية لأسرى الحروب الذين سباهم البربر من القبائل المجاورة. ولما اكتسح الطاعون المدينة، أشاع الوثنيون أن المسيحيين وراء هذه المحنة. ومن هنا كانت وصايا وعظات القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة بشمال أفريقيا بتوسيع دائرة المحبة والعطاء حتى تُغطِّي أيضاً غير المؤمنين، فاستجاب الأثرياء بأموالهم والفقراء بسواعدهم: يحفرون القبور، ويدفنون الموتى، ويعتنون بالمرضى. وهكذا نجت المدينة من الخراب الذي كان عتيداً أن يقضي عليهم.

ويصف القديس ديونيسيوس الكبير بطريرك الإسكندرية الـ ١٤ الوباء الذي خيَّم عليها عام ٢٦٣م قائلاً:

[معظم إخوتنا لم يدَّخروا وسعاً في محبتهم الفائقة ومودَّتهم الأخوية. تمسَّكوا بعضهم ببعض بشدَّة، وافتقدوا المرضى بلا خوف، وخدموهم باستمرار في (اسم) المسيح... وماتوا معهم في فرح، حاملين أتعاب الآخرين في ذواتهم، مُجتذبين المرضى من أقربائهم إلى أنفسهم ومقتبلين آلامهم بمسرة. وكثيرون من الذين خدموا المرضى وشدَّدوا آخرين ماتوا. حقاً، لقد انتقل أفضل إخوتنا من الكهنة والشمامسة وأبناء الشعب ذوي السمعة الطيِّبة من الحياة على هذا المنوال. إن هذا المثال في الانتقال في تقوى وإيمان شديدَيْن لا يقلُّ عن الاستشهاد. لقد حملوا على أياديهم وفي أحضانهم أجساد المتنيِّحين وأغمضوا أعينهم، ثم

---

(4) Euseb., Hist. Eccles., VI:43.

على أكتافهم (حملوهم) إلى المدافن؛ وهناك هيَّأوهم بالغسل والملابس ليدفنوهم كما يليق. وبعد قليل، نالوا هم أنفسهم نفس النصيب الصالح. وجاء بعدهم مَن استكمل دورهم. أما الوثنيون فكانوا على النقيض، يتخلُّون عن أيِّ شخص بدأت تظهر عليه أعراض المرض، فيهربون حتى من أعز الأصدقاء، ويطرحونهم في الشوارع والميادين نصف أموات أو أمواتاً بدون دفن، إذ كانوا يفرُّون من أيِّ ملامسة مع الموتى. ورغم ذلك لحقهم ما أصاب غيرهم] (٥).

وبتحوُّل الدولة إلى المسيحية امتدت الـ ''فيلانثروبيا'' أي ''المحبة للبشر'' امتداداً يتناسب مع ثراء الأسرات الحاكمة. فعندما تنيَّحت باولينا تلميذة القديس جيروم وزوجة باماخيوس والي مدينة روما عام ٣٩٧م، دعا زوجها كل الفقراء والمساكين إلى وليمة أغابي عظيمة في كاتدرائية القديس بطرس على تلال الفاتيكان، فملأوا صحنها على اتساعه وفناءها الخارجي والميدان الرحب مقابلها. ويقول باولينوس أسقف نولا الذي سجَّل الواقعة ومعناها الروحي العميق: إن هؤلاء الشحَّاذين صاروا شفعاء النفس البشرية. أي أن الوضع انعكس، وأصبح الأثرياء يعتمدون على الشحَّاذين ليدخلوا بواسطتهم ملكوت السموات، مقابل اعتماد الفقراء عليهم في طعامهم وشرابهم.

ويوصي القديس باسيليوس الأغنياء أن يوقفوا جزءاً من أملاكهم على المحتاجين، قد يصل إلى الثُّلث، باعتبار أنهم ''توأم للابن الأكبر''. فالأبناء يمكنهم أن يستعيضوا عن الثروات الموقوفة بالعمل والكدِّ، أما إذا أهملوا الاعتناء بالنفس، فمَنْ ذا الذي يتراءف عليهم يوم الدينونة(٦)؟

ونما الدور الريادي للكنيسة بعد القرن الرابع ليغطِّي المجتمع البشري كله في شكل مؤسسات خيرية متنوعة الأسماء بحسب تعدُّد المهام التي تؤدِّيها. فنقرأ عن: nomoskion لخدمة المرضى، ptochotrophia لإيواء المساكين، xenodochia لإقامة الغرباء، orphanotrophia كملجأ للأيتام... وهكذا. ففي قيصرية الكبادوك أقام رئيس الأساقفة باسيليوس عام ٣٧٢م مباني ضخمة، تضم: كنيسة، ديراً، مأوى للغرباء، ومستشفى للمرضى والمجذومين (أي المصابين بالبَرَص) مع العمالة اللازمة من أطباء وممرِّضين ومشرفين وخدَّام؛ إذ كانت أسرته هي الحاكمة في هذا الجزء من آسيا الصغرى.

(5) Ibid., VII:22:7-10.

(6) PG 31:300 B.

وفي الإسكندرية قامت هذه المنشآت على مدى واسع، فالقديس أثناسيوس الرسولي أسقف الإسكندرية في القرن الرابع، أقام بيتاً للغرباء والمساكين، واستدعى له الكاهن إيسيذوروس ليشرف عليه(٧)، واستمر هذا الأخير حتى عصر البابا ثاوفيلس البطريرك الـ ٢٣. وتبعت مدينة روما الإسكندرية في هذا النشاط، فأقام واليها باماخيوس مأوى للغرباء على طريق أوستيا الواصل من روما إلى مينائها على البحر الأبيض لاستقبال الحجّاج والغرباء القادمين إليها بحراً. ولأول مرة في الغرب يُقام مستشفى أنفقت عليه واحدة من كبار سيِّدات روما التي تُدعى فابيولا.

فالحضارة البشرية عرفت هذه المؤسسات واستمرت فيها حتى الآن بعد أن تحوَّلت إلى تنظيم علماني تدين به للمسيحية، ولكن تحت مسمَّيات مختلفة مثل: "التكافُل" أو "الضمان الاجتماعي".

---

(7) Pallad.; Laus. Hist. I.

القديس كيرلس الكبير عمود الدين
وخاتم آباء الكنيسة العِظام
البطريرك الرابع والعشرون
في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري
(٤١٢-٤٤٤م)

حياته واختياره بطريركاً

حياتــه:

القليل المعروف عن حياته لا يتناسب مع شخصيته الكنسية التي ارتبطت بمقاومة البدعة النسطورية وبآخر المجامع المسكونية المعتَرَف بها في الكنيسة القبطية.

هو ابن شقيقة البابا ثاوفيلس البطريرك ال ٢٣[١]، والتي كانت تصغره سنّاً؛ وقد تزوَّجت وسكنت في مدينة المحلة الكبرى وأنجبت القديس كيرلس عام ٣٨٠م. ويبدو أنه تيتَّم صغيراً، مثل خاله، فنما وترعرع عنده حيث درس واستوعب كل معارف مدرسة الإسكندرية اللاهوتية التي كانت وقتذاك في أوج مجدها.

ولم يكتفِ بذلك، بل أرسله خاله إلى برية شيهيت حيث تتلمذ خمس سنوات للقديس سيرابيون المشهود له بالحكمة. والسنون التي قضاها في البراري تؤيِّدها رسائل الراهب القديس إيسيذوروس البيلوزي[٢] أرقام: ١، ٣١٠، ٣٧٠ التي أرسلها إلى البابا كيرلس.

---

(١) انظر سيرة "البابا ثاوفيلس البطريرك الـ ٢٣" الواردة في هذا الكتاب.

(٢) أو الفرمي، وقد عاش في برية بيلوزيوم على البحر الأبيض المتوسط قرب حدود مصر الشرقية، وعُرفت فيما بعد باسم "الفَرَما".

اجتمعت في القديس كيرلس المعارف الكتابية واللاهوتية مع الآداب الرهبانية والحياة النسكية، بالإضافة إلى ذكاء خارق وذهنية حاضرة واعية، جعلت شخصيته تتَّقد ناراً وغيرة على الكنيسة ورب الكنيسة، مما حدا بالمؤرِّخين المحدثين أن يصفوه بالتطرُّف والتحيُّز.

وبعدما استقر في الإسكندرية رسمه أنبا ثاوفيلس كاهناً. فكان إذا قرأ الإنجيل بترتيل من على إنبل الكنيسة، يسبي قلوب السامعين، ليس فقط لرخامة صوته، بل لروحانية ترتيله. ثم اصطحبه خاله إلى القسطنطينية حيث حضر معه مجمع البلُّوط قرب خلقيدونية، والذي حكم بعزل القديس يوحنا ذهبي الفم عن كرسي بطريركية العاصمة.

بطريركيته:

بعد نياحة أنبا ثاوفيلس عام ٤١٢م بثلاثة أيام، اختار الشعب القس كيرلس لكرسي الإسكندرية وتمت رسامته، وكان عمره ٣١ سنة؛ بينما حاول الوالي الإمبراطوري أورستس Orestes ترشيح شخص آخر وهو تيموثاوس. وهكذا منذ الأسبوع الأول من بطريركيته تشابكت واختلطت الأمور بين السلطتين الزمنية والدينية. ولكن شخصية البابا كيرلس فرضت نفسها على الأحداث دون استغلال للفرص كما يدَّعى النقَّاد(٣). وينبغي ألاَّ ننسى المبدأ العام الذي رأيناه سابقاً في سيرة أنبا ثاوفيلس، أن أية شخصية تتقدَّم الصفوف وتحتل المكانة الأولى يتركَّز عليها الذمّ والنميمة وتصير موضوع نقد مرير(٤).

ومِن تتابُع الأحداث يمكننا أن نرصد الآتي:

١. بدأ القديس كيرلس عهده بالتضييق على أتباع بدعة نوفاتيان التي تُنادي بعدم قبول توبة جاحدي الإيمان. وهكذا استمر تضييق الخناق عليهم حتى تركوا الإسكندرية مع أسقفهم ثيوبمبتوس، فوضع القديس كيرلس يده على كنائسهم وممتلكاتهم.

٢. كان في الإسكندرية جالية يهودية كبيرة تحتل أقساماً بأكملها في المدينة منذ أيام الإسكندر

(٣) راجع مثلاً:

Schaff, *Hist. of the Christian Church* III, pp. 942,943.

(٤) انظر سيرة "أنبا ثاوفيلس البطريرك الـ ٢٣" الواردة في هذا الكتاب.

الأكبر، وتعتمد في وجودها على رشوة الحُكّام وذوي السلطان في المدينة. وبسبب كراهيتهم المتوارثة ضد المسيحية والمسيحيين، أشاعوا في إحدى الليالي عام ٤١٥م أن كنيسة القيصاريون - التي اشتهرت باسم القديس ألكسندروس بابا الإسكندرية الـ ١٩ بطل مجمع نيقية - قد اشتعلت فيها النيران، فخرجت جموع المؤمنين تجاه الكنيسة حاملين وسائل الإطفاء البدائية التي كانت في متناول أيديهم، في الوقت الذي اختبأ فيه اليهود في أماكن معلومة لهم وانقضُّوا على المؤمنين المتلهفين سعياً وراء إطفاء النار المزعومة في كنيسة القيصاريون، وقتلوا منهم أعداداً كثيرة. ولم ينجلِ خبر الإشاعة الكاذبة ولا عدد الضحايا المغتالين إلا بعد شروق شمس اليوم التالي. وبانكشاف الخديعة لم تتمالك الجموع نفسها وهجموا على أحياء اليهود ومتاجرهم وبنوكهم ومجامعهم الدينية وخرَّبوها وطاردوهم حتى خارج المدينة. وتأثَّرت بلا شك الحركة التجارية في المدينة مخلِّفة وراءها آثاراً اقتصادية غير مرغوب فيها، الأمر الذي أقلق واليها أورستس؛ فما كان منه إلاَّ إلقاء اللوم على البطريرك البابا كيرلس(٥).

٣. هذه الأحداث مجتمعة جعلت المؤرِّخ سقراط يدين البابا كيرلس بأنه وراء الشغب الذي حدث في المدينة وأدَّى إلى مقتل الفيلسوفة الوثنية "هيباشيا" آخر فلاسفة مدرسة الإسكندرية الوثنية، وكانت تربطها صداقة مع الوالي أورستس. لكن لم يَقُمْ أي دليل على صحة هذا القول(٦).

٤. يؤاخِذ النُّقاد القديس كيرلس على تأخيره في إدراج اسم القديس يوحنا ذهبي الفم في مجمع الترحيم "الذبتيخا" في ليتورجية كنيسة الإسكندرية مدة خمس سنوات.

وأما ادِّعاء النُّقاد هنا فلا أساس له من الصحة، لأن القديس كيرلس رأى ندم خاله أنبا ثاوفيلس على قرار مجمع البلوط ضد ذهبي الفم، وتأكَّد هذا من الوثيقة القبطية التي كانت محفوظة في مكتبة البطريركية القبطية يوم أن كان مقرها في الأزبكية، وهي التي نشرها المستشرق الفرنسي "أميلينو" في مجموعته(٧).

وهذا هو ملخص الأحداث التي جرت في النصف الأول من بطريركية القديس كيرلس الكبير حتى اندلاع الجدال الساخن حول البدعة النسطورية عام ٤٢٨م.

(5) Socrates, Eccles. Hist. VII, 13.
(6) Quasten, Patrology III, p. 117.
(7) M.S.H.E.C.

البدعة النسطورية

الخلفيات المبكِّرة لبدعة ''نسطور'':

بدعة آريوس – بداءةً – كانت تفسيراً خاطئاً لمظاهر الضعف التي بَدَتْ من الرب يسوع باعتباره إلهاً متجسِّداً. وحيث إن هذه المظاهر لا تتوافق مع الطبيعة الإلهية المنزَّهة عن الضعف، فكان الجواب الذي قدَّمه آريوس هو أن الابن أقل من الآب. ولدحض هذا الجواب، اجتمع آباء الكنيسة الجامعة في المجمع المسكوني الأول عام ٣٢٥م بنيقية، ثم أعقب ذلك جهاد القديس أثناسيوس خمسين عاماً دفاعاً عن ألوهية الأقنوم الثاني ومساواته مع الآب جوهرياً.

وهنا يلزم التنويه إلى أن آريوس كان قد تتلمذ على يد الشهيد لوكيانوس الأنطاكي مؤسِّس مدرسة أنطاكية اللاهوتية. فالتساؤلات اللاهوتية التجريدية كانت سمة هذه المدرسة منذ نشأتها.

وشهد النصف الثاني من القرن الرابع وبداية القرن الخامس انتقال المشكلة اللاهوتية الخاصة بالعلاقة الداخلية بين الأقانيم الثلاثة إلى محاولة تحديد ما هو للاَّهوت وما هو للناسوت في الأقنوم الثاني ''الكلمة المتجسِّد''. فإنْ كان المسيح هو الله، فكيف نفسِّر أنه جاع وأنه تعب وجلس ليستريح على بئر يعقوب؟ وكذلك كيف نفسِّر بكاءه عند قبر لعازر وانزعاجه بالروح هناك؟ أو على وجه الدقة: كيف يلتقي الزمني مع الأزلي في الرب يسوع؟

كانت الإجابات على هذه التساؤلات آتية أيضاً من أنطاكية ومدرستها اللاهوتية، وتصدَّى لها أساقفة مشهورون بالعلم والتقوى والدفاع عن إيمان نيقية. ومع كل إجابة كانت تخرج مشكلة وتتولَّد بدعة جديدة. فالبدعة التي تخلَّفت عن الآريوسية صدرت عن أسقف معروف بحماسه للقديس أثناسيوس وبدفاعه الحار عن إيمان نيقية، وهو أبوليناريوس أسقف لاودكية (اللاذقية حالياً) بسوريا. وكان في دفاعه متأثِّراً دون أن يدري بالأساليب المنطقية الجدلية والحوار العقلي التجريدي الذي أفرخ قبلاً بدعة آريوس.

لذلك نادى أبوليناريوس بأنَّ ''الكلمة الأزلي''، وقد تأكَّدت ووضحت ألوهيته ومساواته الجوهرية مع الآب، قد اتَّخذ لنفسه جسداً بشرياً غير كامل؛ ولذلك فقد ادَّعى أنَّ اللاهوت الذي حلَّ في أحشاء العذراء ولَبِسَ منها جسده قد قام مقام النفس أو العقل الناطق في الإنسان

العادي. وهذه هي النتيجة المنطقية التي توصَّل إليها أبوليناريوس بعد بحثه في خطيئة الإنسان التي اثمرت ضعفاً وعبودية للشهوة والجسد.

ولذلك - بحسب رأي أبوليناريوس - فإنْ كان الرب يسوع قد شابهنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها، فليس ذلك إلاَّ لأن **اللاهوت قد حلَّ محل النفس الناطقة فيه** (وهذه هي البدعة التي سقط فيها أبوليناريوس)؛ وبذلك انعتق جسده الذي اتَّخذه من العذراء من عبودية الخطية. بهذا حاول أبوليناريوس أن يتفادى الثنائية التي يحيا فيها الإنسان العادي والتي تؤدِّي إلى الصراع بين الجسد والروح كشهادة القديس بولس الرسول: «الجسد يشتهي ضد الروح، والروح ضد الجسد» (غل ٥:١٧). وكان لأبوليناريوس مؤيِّدون كثيرون في أنطاكية، بل منهم مَنْ كان بطريركاً لأنطاكية وقت انشقاقها إلى أربعة أحزاب متنافسة[1].

ولم يسكت القديس أثناسيوس على هذه البدعة، بل عقد مجمعاً مكانياً عام ٣٦٢م في الإسكندرية دُعِيَ ''مجمع المعترفين''، دون أن يتعرَّض للتعبيرات الخاطئة لئلا يُصاب معسكر ''الهوموؤوسيوس'' (أي معسكر الذين يُنادون بمساواة الابن للآب في الجوهر) بنكسة جديدة تُبدِّد ما بلغ إليه كفاح القديس أثناسيوس. ولكنه قدَّم عبارته المشهورة: ''كل ما اتَّخذه المسيح من البشرية خَلَص، وما لم يتَّخذه منها لا يخلص''، والتي صارت إحدى المبادئ الأساسية في اللاهوت الخلاصي للقديس كيرلس الكبير.

ثم توالت بعد ذلك المجامع المكانية التي حرَّمت هذه البدعة: في روما عام ٣٧٧م، في الإسكندرية مرة أخرى عام ٣٧٨م، في أنطاكية عام ٣٧٩م، واختُتمت بالمجمع المسكوني الثاني بالقسطنطينية عام ٣٨١م.

مدرسة أنطاكية اللاهوتية:

كان على مدرسة أنطاكية اللاهوتية أن تدافع عن ''لاهوت الكلمة المتجسِّد'' ضد الآريوسية، وعن ''ناسوت الكلمة'' ضد أبوليناريوس. فابتدأ ظهور مصطلح جديد لأقنوم ''الكلمة'' هو ''الطبيعتان''، ولكن بطريقة مُبهمة غير محدَّدة المعالم. فأصبح محتَّماً وَضْع الملامح المميزة لـ ''ابن

(١) انظر فصل: "ذيول الاضطرابات الآريوسية"، المنشور في هذا الكتاب.

الله" الذي هو "ابن الإنسان" في آنٍ واحد؛ ولكن هذه الملامح لا تعني أبداً فصلهما عن بعض.

والذي قام بعملية الفصل هذه هو "ديودورس" أسقف طرسوس بولاية كيليكية بآسيا الصغرى؛ وكان قبلاً كاهناً في أنطاكية وتتلمذ له كل من القديس يوحنا ذهبي الفم ورفيقه "ثيئودور" الذي صار فيما بعد أسقفاً على المصيصة بولاية كيليكية أيضاً. والحقيقة أن ديودورس كان ناسكاً ومعلِّماً للنسك أكثر منه لاهوتياً قديراً. وقد استلم "ثيئودور"، بعد اختياره أسقفاً، ما انتهى إليه معلِّمه ديودورس؛ فكتب ميامر كثيرة في الأسرار والعقيدة والتفسير لا تزال موضع احترام العلماء حتى الآن رغم الجدل القائم حولها من جهة صحة العقيدة.

ولكن "ثيئودور" هذا، والذي تتلمذ له نسطور بطريرك القسطنطينية المبتدع، تُوفِّي قبل اشتعال الحوار الساخن حول البدعة النسطورية. وقد تعرَّض القديس كيرلس الكبير، وهو على فراش المرض، إلى ضغوط شديدة لتحريم كتابات ثيئودور، فرفض قائلاً إن هذا الإنسان قد تنيح وهو متصالح مع الكنيسة، فلا يصح اتهامه بالتجديف أو الهرطقة بعد انتقاله.

ومحاولات "ثيئودور"، كلاهوتي، للتغلُّب على صعوبة التساؤل: "كيف يمكن للاَّهوت والناسوت أن يتقابلا معاً ليُكوِّنا أقنوماً واحداً"، جعلته يقدِّم مصطلحاً جديداً يشرح هذا التقابُل الذي يؤدِّي إلى الوحدة. هذا المصطلح الجديد هو "**المشاركة** συνάφεια"، وأضاف عليه بعض المواصفات والعبارات التي تغطِّي النقص في التعبير الصحيح المحيط به؛ كأن يقول: مشاركة بطريقة إعجازية؛ أو: مشاركة غير قابلة للانحلال. لكن هذه الكلمة تفيد أيضاً المساكنة، كمشاركة الرجل للمرأة في مسكن واحد لكي يكونا جسداً واحداً. لكن يبقى الرجل كما هو، والمرأة أيضاً كذلك. لهذا رفض آباء الكنيسة هذا المصطلح. والحقيقة، أن انحصار ثيئودور في التأكيد على بشرية المسيح ليقبل كل آلامنا ويتَّخذها لنفسه خاصةً، جعلته يُشدِّد على الإخلاء والتواضع على حساب الرِّفعة التي نالها الإنسان بموت الرب وقيامته؛ بل والغاية العظمى التي ارتقى إليها الإنسان نتيجة هذا الإخلاء.

شخصية وتعاليم نسطور:

لم يكن على نسطور بطريرك القسطنطينية أن يخطو الخطوة الأخيرة التي أدخلته في عداد الهراطقة. كان قبلاً كاهناً وواعظاً قديراً في أنطاكية وتلميذاً لثيئودور قبل اختياره عام ٤٢٨م لبطريركية القسطنطينية، التي دُعيت روما الثانية عقب المجمع المسكوني الثاني. وبمجرد اختياره،

ظهرت طباعه الجافة وحماسه غير الواعي في اندفاع غير متعقِّل. ففي خطابه الأول عقب رسامته، يوجِّه الكلام للإمبراطور ثيئودوسيوس الثاني: أعطني ذراعك لأُطارِد به المبتدعين وأسحقهم، وأنا أضمن لك النصرة الكاملة على مملكة فارس (العدو التقليدي للإمبراطورية الرومانية)، وملكوت السموات بعد نياحتك! وفي رعونة متخبطة بدأ ممارسة وظيفته الرعوية ذات الوزن العالي في التوسُّط لدى القديس كالستوس أسقف روما والغرب للعفو عن أتباع بيلاجيوس الذين أزعجوا الكنيسة الغربية بهرطقتهم. وسبب هذه الوساطة كان تافهاً؛ إذ أن أحد المتحمسين له رُسم شماساً في كنيسة القسطنطينية وكان من أتباع هذه الهرطقة! كما شنَّ الحرب على مَنْ كان يظن أنهم هراطقة ومبتدعين مستعيناً بالسلطة المدنية حتى طردهم خارج مدينته. فكانت سياسته الجامحة سبباً في تكثيف العداوة ضده.

في وسط سياق هذه الأحداث ظهر عدم فهمه الصحيح وعجزه عن تفسير النتائج التي توصَّل إليها معلِّمه ثيئودور بخصوص اللاهوت والناسوت في الأقنوم الثاني ''كلمة الله المتجسِّد''. فاستنكر القول إنَّ اللوغوس قد تألَّم، واستكثر على العذراء مريم لقب **''ثيئوطوكس''**، فابتدع لها لقباً جديداً هو ''خرستوطوكس'' أي ''والدة المسيح''، وأحياناً ''أنثروبوطوكس'' أي ''والدة الإنسان''. وظهرت انحرافاته العقيدية في عظاته؛ كقوله مثلاً: كيف أسجد وأتعبَّد لطفل عمره ثلاثة أشهر؟ كيف يمكن الاعتقاد بأن العذراء مريم أُمٌّ لله بينما هي والدة لطفل لا يعي ولا يُدرك؟ فالمصطلح المعروف في مصر منذ القرنين الثاني والثالث للميلاد، وكان موضع تكريم وتبجيل بين رهبان مصر والأتقياء، وبصفة عامة لدى مسيحيِّي الشرق، قد صار عثرة لنسطور وكان هو سبب تهجُّمه عليه؛ مما أثار الجدال الساخن، واستثار مشاعر التقوى بين المؤمنين على اختلاف طبقاتهم وانتماءاتهم. في الوقت الذي تحوَّل فيه رجل الشارع إلى مُجادِل في أمور اللاهوت الصعبة والتي تحتاج إلى حكمة وتعقُّل في إدراكها والإلمام بها.

والعادة التي كانت سارية عند قدوم بطريرك جديد إلى كرسيه، أن يتبادَل الرسائل المجمعية مع نُظرائه في الكراسي الرسولية الأخرى. وهكذا وصلت رسالة نسطور إلى كالستوس أسقف روما متضمنة معتقداته الجديدة. ومكثت فترة طويلة حتى أمكن العثور على مَنْ هو كفء لترجمتها من اليونانية إلى اللاتينية. ولكن بمجرد وصولها إلى الإسكندرية، أُطلقت المواهب الإلهية الكامنة في القديس كيرلس الكبير، العظيم في القديسين.

فكر القديس كيرلس وتعليمه اللاهوتي:

هو التلميذ المخلِص لمبادئ وكتابات القديس أثناسيوس الرسولي بطريرك الإسكندرية الـ ٢٠ في القرن الرابع. ومن المجلدات العشرة التي خلفها لنا في مجموعة ميني Migne اليونانية، نستطيع أن نستخلص هذه المبادئ كما تشرَّبها من كتابات القديس أثناسيوس، لنرى كيف امتد بها وطوَّرها للوصول إلى نتائج غاية في القوة والروعة. وكمحاولة مبدئية لتلخيص منهجه اللاهوتي، يمكن القول إن كتاباته تتميز **بالقدرة على استنباط البراهين الدامغة من شهادات آباء الكنيسة السابقين مؤيَّدة بالأسانيد الكتابية من العهدَيْن القديم والجديد**؛ والنتيجة الحتمية هي اقتناع السامع أو القارئ. حقيقةً أنه لم يبتدع هذا المنهج، لكن استخدمه بمهارة فنية وحذق تكنيكي كامل جعله يُرسي أسس اللاهوت المسيحي العملي العلمي، التي اصطُلِحَ على تسميتها بالوسائل المدرسية Scholastic. وابتداء من عصره صار الاستشهاد بأقوال الآباء المسنودة بآيات الكتاب المقدس هو القول الفصل في المجادلات اللاهوتية والحوار في الكنيسة. واستمر هذا المنهج في تقليد كنيسة الإسكندرية حتى عصر متأخر كما يشهد بذلك مخطوط "**اعترافات الآباء**" الذي يُعدُّ مرجعاً أساسياً لكل مَنْ يريد أن يتعرَّف على تقليد الكنيسة القبطية وتعليمها اللاهوتي.

لأجل هذا يُعتبر القديس أثناسيوس الرسولي والقديس كيرلس عمود الدين هما مؤسِّسَي اللاهوت الإسكندري بحقٍّ وعن جدارة.

وأهم ما يميِّز التعليم اللاهوتي لآباء الإسكندرية هو تمركزه حول قضية خلاص الإنسان دون استغراق في المعرفة النظرية أو الدخول في متاهات "التجريدية" التي أنهكت مدرسة أنطاكية اللاهوتية. فهو لاهوت الرؤية الواضحة للعلاقة بين الحقائق الإلهية المستعلَنة في الكتاب المقدس، وبين خلاصنا نحن الخطاة؛ والمنفعة الروحية التي عادت على البشرية كنتيجة لِمَا فعله الرب يسوع لأجلنا. وآية القديس يوحنا الإنجيلي: «والكلمة صار جسداً» (يو ١:١٤)، هي الشعار العام الذي ينضوي تحته التعليم اللاهوتي لكلٍّ من القديس أثناسيوس والقديس كيرلس. الأول شرح كيف أن الطبيعة البشرية التي سقطت تحت سطوة الفساد لا يتم شفاؤها وخلاصها[٢] من خارج الجسد؛ بل لابد أن ينبع من عمق النفس الإنسانية حيث يتحصَّن فيها العدو. فالمخلِّص عليه أن

(٢) الفعل اليوناني σώζω يفيد معنى الشفاء وأيضاً الخلاص.

يتقابل مع العدو داخل هذه الطبيعة عينها ليغلبه وينزع سلاحه الكامل الذي اتّكل عليه[٣]. وأفاض القديس أثناسيوس في تقديم البراهين التي تنتهي بالنتيجة الحتمية أنَّ: ''التجسُّد صار أمراً لابد منه للخلاص''، أي أنَّ المخلِّص يقتني جسدنا وطبيعتنا كأداة يحتمل فيهما كل ضعفات الإنسان وآلامه حتى يستطيع أن يخلِّص ما لنا، أي طبيعتنا المائلة إلى الفساد.

فلا يمكن، إذن، طرح هذا السؤال: ما الداعي لكل هذا؟ أليس يسيراً على الله أن يتجسَّد في جسد جديد يخلقه من تراب الأرض كما فعل في خلقة آدم الأول؟ أو: أعسيرٌ على الله أن يُحدِر هذا الجسد من السماء؟ الجواب: بلى، إطلاقاً، بل إن المخلِّص أخذ من العذراء مريم كل الطبيعة البشرية الحاملة لضعفات الإنسان ولكن بدون خطية، لأن الحَبَل به كان من الروح القدس. ومن داخل عجنة البشرية هذه، جدَّد وصحَّح وشفى وخلَّص الطبيعة البشرية، فاندفقت على بشريتنا جميع الخيرات الإلهية المذَّخرة في لاهوت الابن المتجسِّد.

وعندما ننتقل إلى القديس كيرلس الكبير، نرى أن قاعدة الانطلاق للاهوته الخلاصي هي **"صورة الله في الإنسان"**، حيث تجتمع كل المعاني اللاهوتية المتفرقة في كتابات آباء الإسكندرية السابقين لتتمركز في شروحاته على هذه **"الصورة"** التي فيها تكمن سعادة الإنسان وهيبته وكرامته. ثم يُلقي الضوء على ست خصائص في الإنسان تعكس صورة الله: العقل، الحرية (أي حرية الاختيار)، السيادة (والمضادّ لها: العبودية)، القداسة، عدم الفساد (أو الخلود)، وأخيراً البنوَّة. هذه الخصائص حلَّت في آدم الإنسان الأول يوم أن خُلق على صورة الله وكشبهه. وبدخول الخطية تشوَّهت هذه الصورة البهية في آدم ونسله من بعده، ولكنه لم يفقدها أو يخسرها. فبَقِيَ عاقلاً، لكنه صار فاقداً كمال العقل والفطنة لانقطاع صلته بالله. وبَقِيَ حُرّاً، ولكنه صار عاجزاً عن تلقائية الاستجابة للنعمة. وتجرَّد من سلطانه وسيادته على الخليقة والطبيعة من حوله؛ فارتجف من الكوارث الطبيعية والعواصف والوحوش. وانحسرت فيه القداسة التي تهيِّئه للاشتراك في طبيعة الله القدوسة والامتثال الواعي للوصية الإلهية. وصار نصيبه، لا الموت الزمني فقط، بل وأيضاً الأبدي؛ بعد أن كان مُعَدّاً للخلود. وأخيراً، بَقِيَ ولداً (قاصراً) τὸ τέκνον وليس ابناً (بالغاً) ὁ υἱός.

---

(٣) قارِن لو ١١: ٢١،٢٢.

فبواسطة تجسُّد الرب يسوع وقيامته من بين الأموات أمكن استرجاع الصورة الأصلية والارتقاء بها. فالموت والقيامة كحدَثَيْن متلاحِمَيْن هما المحور الذي تدور في فلكه كل هبات الله للبشرية؛ والإنسان يبلغ إليهما بإيمانه وقبوله المعمودية. فالتعقُّل والفطنة يبلغان كمالهما في الإيمان، وحرية الاختيار تصل غايتها بالنعمة المنسكبة في المعمودية. فاسترد الإنسان سلطانه على الطبيعة والخلائق الأخرى، ولكن الملء سيكون في الدهر الآتي. فالمعمودية تؤهِّل الإنسان للنمو والشركة في الطبيعة الإلهية بواسطة النعمة كهبة مجانية، لذلك يتيسر للإنسان ممارسة الفضائل وتنشيطها. والحياة الأبدية بالإيمان هي نصيبه من الآن، وبصورة محقَّقة أكيدة كاملة في الدهر الآتي. وبانعتاق الإنسان من عبودية الشيطان والشهوات نال التبنِّي بالروح القدس الذي هو روح التبنِّي.

ثم قدَّم لنا القديس كيرلس عبارة جديدة نحتها في اللاهوت المسيحي وصارت محور كل شروحاته، وهي: "**الاتحاد الأقنومي**" أو: "وحدة الكيان الإلهي البشري (في المسيح)" بلا امتزاج ولا انفصال. فلأن الذي تألَّم من أجلنا بالجسد هو بعينه اللوغوس (كلمة الله) غير المتألِّم بطبعه الخاص، لذلك تلاحمت آلامنا وضعفاتنا مع ألوهيته غير المتألِّمة، فصار لنا فيه وبواسطته الشفاء والخلاص. ومن ثمَّ دُعِيَتْ بحقٍّ آلامه "آلاماً إلهية" و"آلاماً شافية".

المضادة العجيبة:

تتجلَّى قدرة هذا القديس وعظمته في قوله المقنع لسامعيه عن المضادة العجيبة التي استوفاها شرحاً: "**غير المتألِّم تألَّم**"، وهي التي عجز آباء مدرسة أنطاكية عن إدراكها. وهي بعينها صارت بعد القديس كيرلس ميراثاً وذُخراً للكنيسة الشرقية تُرتل بها في ألحانها يوم الجمعة العظيمة وفي الثيئوطوكيات. فاللوغوس لكونه إلهاً بطبعه، يُعتبر خارج نطاق الألم، ولكن لأنه شابهنا في كل شيء (ما خلا الخطيئة) اقتنى لنفسه جسداً قابلاً للألم، وتألَّم به لكي يُخلِّص الذين في العبودية والفساد؛ فذاق الموت بهذا الجسد ليحيا الإنسان في عدم الموت. فمع بقائه "غير متألِّم" إلاَّ أنه تألَّم في جسده الذي هو عجنة البشرية التي أخذها من مريم العذراء؛ فلا خوف من القول إنها "آلام إلهية" بسبب "**الاتحاد الأقنومي**"، لكنها وقعت على جسده الخاص، وليس على اللاهوت الذي بطبعه غير متألِّم.

هذه المضادة تفقد قوتها إذا أضعفنا قوة الاتحاد بين الجسد المتألِّم واللوغوس غير المتألِّم؛ كأن

نقول إن هذا الاتحاد بين اللوغوس والجسد الذي أخذه من العذراء هو حلول بـ ''المشاركة'' كقول ثيئودور المصيصي، أو: بالفصل بينهما إلى إله غير متألِّم وإنسان قابل للألم كما فعل نسطور تلميذه.

ويستطرد القديس كيرلس في الشرح: ''لو لم يكن (المسيح) قد خاف لما انعتقت طبيعتنا من الخوف. لو لم يكن قد حزن لما تخلَّصنا من الحزن. لو لم يكن قد انزعج (بالروح) واضطرب عند قبر لعازر لما خرجت طبيعتنا من دائرة الانفعالات، وهكذا...''.

فكل الضعفات التي تعرَّض لها المسيح من جوع وعطش وتعب وصراخ وحزن حدثت له بشرياً، وكانت تتحرَّك فيه، لكنها لم تَسُدْ أو تسيطر عليه مثلنا. فبواسطة اللوغوس الإلهي المتَّحد بجسده الخاص تبطل حركة ضعفات الجسد في لحظة هذا الاتحاد بين كلمة الله والطبيعة البشرية. وبالتالي تتطوَّر وترتقي طبيعتنا فيه إلى أعلى بفضل "**الاتحاد الأقنومي**".

المجمع المسكوني الثالث بأفسس

كان القديس كيرلس على إحساس مرهف بخطورة النتائج التي توصَّل إليها آباء أنطاكية بخصوص الطبيعة والأقنوم في **كلمة الله المتجسِّد** قبلما تهبُّ عواصف الهرطقة النسطورية. فذخرت مؤلَّفاته اللاهوتية المبكِّرة، قبل عام ٤٢١م، بردود ضمنية تستنكر ما توصَّل إليه الأنطاكيون.

في مواجهة العاصفة:

فلما بلغت إليه أنباء اختيار نسطور - تلميذ ثيئودور أحد عمداء اللاهوت الأنطاكي - لكرسي بطريركية القسطنطينية عام ٤٢٨م، تيقَّن أن المواجهة قد أزفت؛ فشرع في ممارسة واجبه الرعوي باعتباره بطريركاً لكرسي الإسكندرية معلِّمة الكنائس ذات الماضي الزاخر بالتقليد الراسخ. وصحَّت مخاوفه لما سمع ما يعظ به نسطور في ما يختص بالطبيعتين المنفصلتين في أقنوم الابن المتجسِّد؛ ورفضه للمصطلح الأساسي "**ثيئوطوكس**". فبعث إليه بأُولى رسائله[1] في فبراير عام ٤٣٠م يطلب إليه الاعتراف بلقب العذراء أنها "والدة الإله"، حتى يتفادى القطيعة بين الإسكندرية والقسطنطينية. فلم يتزحزح الأخير (نسطور) عن موقفه، بل تمادى أيضاً في إظهار العداء نحو الكرسي الرسولي الروماني بترحيبه بأتباع هرطقة بيلاجيوس الهاربين من روما؛ وهي الهرطقة التي أقضَّت مضجع البابا هناك.

وانقضى عام دون أن تظهر أية نتائج إيجابية؛ فأَتبعها القديس كيرلس برسالة ثانية[2] يدعوه أن ينظر ملياً في قانون إيمان نيقية الذي يقول إن الله تجسَّد وتأنَّس:

[نحن لا نعترف أن طبيعة اللوغوس قد تغيَّرت فصارت جسداً، ولا أنها تحوَّلت إلى كائن بشري كامل ذي نفس وجسد؛ بل إن اللوغوس قد اتَّحد أقنومياً καθ᾽ ὑπόστασιν بجسد مُفعم بالحياة وبنفس حيَّة، فصار إنساناً، ودُعِيَ بحقٍّ "**ابن الإنسان**"... هذا الاتحاد

---

(١) الرسالة الثانية من مجموع رسائله.

(٢) الرسالة الرابعة.

الأقنومي لم يَلْغِ تمايُز الطبيعتين، بل بالحري أنَّ اللاهوت والناسوت قد أكملا لنا الابن المتجسِّد، المسيح الرب، في وحدانية فائقة على النطق والتعبير].

وينفي القديس كيرلس القول بأن اللوغوس ويسوع قد تلاقيا مع بعضهما في هيكل (أي جسد) الرب الواحد يسوع المسيح، لأن هذا يؤدِّي إلى الإيمان بوجود ابنين، بل يستطرد قائلاً:

[ليس أننا نعبد إنساناً مع اللوغوس، لئلا يظهر هنا انقسام باستعمال لفظة "مع"، لكننا نعبد الواحد الذي هو الرب نفسه.. كابن واحد متَّحد مع جسده الخاص][٣].

والنتيجة الحتمية أن اللوغوس لما تجسَّد، فهذا يعني أنه أخذ جسده من العذراء، وبالتالي دُعِيَت بحقٍّ أنها "والدة الإله = ثيئوطوكس". وأرسل القديس كيرلس نسخة من هذه الرسالة إلى سيلستينوس بابا روما مصحوبة بترجمة لاتينية؛ فوصلته في الوقت الذي كان حزيناً فيه على نسطور بسبب قبوله أتباع الهرطقة البيلاجية عنده في القسطنطينية. وفي نفس الوقت أخبره ممثِّلوه هناك بصحة تعاليم القديس كيرلس ونصحوه بالوقوف إلى جانبه. فرد سيلستينوس على القديس كيرلس بأنه يُفوِّضه في التحدُّث باسمه في كل المواقف التي يتَّخذها ضد نسطور، قائلاً: "اكتب إلى نسطور أنه لن يحتفظ بشركته معنا طالما هو سائر في طريقه الخاطئة المضادة للتعليم الرسولي". وفي نفس الوقت حرَّر سيلستينوس رسالة إلى نسطور يُنذره فيها بقطع الشركة معه ما لم يتراجع علانية في مدى عشرة أيام عن تعاليمه التجديفية.

أما القديس كيرلس فلم يتعجَّل الأمر بل كان يتحرَّك بحصافة وذكاء يتناسبان مع مكانته كبطريرك للكرسي المرقسي. فاتصل بيوبيناليوس أسقف أورشليم ويوحنا بطريرك أنطاكية الذي كان مشدوهاً بقوة الحجة الظاهرة في ردود القديس كيرلس، فكتب الأخير إلى نسطور: "... ولماذا عشرة أيام[٤]! يكفي يوم واحد، أو بضع ساعات"!! وهكذا بلغ القديس كيرلس بذكائه التَّقَوي ما لم يبلغ إليه كل أيام بطريركيته.

وكان يمكنه الاكتفاء بما وصلت إليه تعاليمه وشروحاته من تأثير وقوة انتشار على كل الكنائس

---

(٣) "رسائل القديس كيرلس إلى نسطور"، ف ٦: ٤، ص ١٥ - إصدار مركز دراسات الآباء.

(٤) وهي المهلة التي أعطاها سيلستينوس بابا روما لرجوع نسطور عن تجديفه.

شرقاً وغرباً، إلاَّ أنه وجَّه نداءه الأخير إلى نسطور[٥] عقب انعقاد مجمع أساقفة الكرسي الإسكندري عام ٤٣٠م[٦]، الذي ضمَّنه كل مبادئه اللاهوتية؛ لكنها كانت لدى الأخير كعُصافة مُلقاة على الأرض رغم أن القديس كيرلس كتبها من عمق قلبه. وختمها بالاثني عشر حرماً التي قرَّرها المجمع الإسكندري[٧].

وهكذا وجدت الكنيسة نفسها أمام حِلْفَيْن متعارضين: القسطنطينية مع أنصار اللاهوت الأنطاكي في جانب، والإسكندرية وروما وأورشليم في جانب آخر؛ ودخل التاريخ الكنسي إلى نقطة حرجة تستلزم حسم السلطة الزمنية. فدعا الإمبراطور ثيئودوسيوس الثاني لعقد مجمع مسكوني في أفسس، المدينة التي كانت موطن عبادة أرطاميس[٨]، ثم اشتهرت في العالم كله بوجود مدفن العذراء مريم فيها؛ وحدَّد موعد المجمع عقب احتفالات العنصرة لعام ٤٣١م، تحت رعاية قائد حرسه الخاص "الكونت كانديديان" الذي قَصَرَ مهمته على حفظ النظام والاطمئنان على حُسْن سير العدالة وِفقاً لأصولها الرومانية التقليدية.

المجمع المسكوني بأفسس:

يبدو للوهلة الأولى أن الجانبين المتعارضَيْن كانا متعادلين في القوة، ولكن بنظرة متمهِّلة نستشف أن كفة القديس كيرلس كانت هي الراجحة من قبل انعقاد المجمع. فعَلَى مدى القرنَيْن الأخيرين كان الكرسي الإسكندري بؤرة المسيحية في الشرق. فلم يكن هو مُحرِّر المسيحية من الأوريجانية الإسكندرية الرمزية إلى اللاهوت الكنسي الصحيح فقط؛ بل كان الذين يدينون له بالولاء والإخلاص القلبي الكامل كل أساقفة وادي النيل والخمس مدن الغربية مع ألوف الكهنة والرهبان

---

(٥) الرسالة السابعة عشرة.

(٦) يعتقد البعض أن من قرارات هذا المجمع الإسكندري ما يُسمَّى "مقدمة قانون الإيمان": "نعظِّمك يا أُم النور الحقيقي..." الذي لا تزال تتلوه الكنيسة القبطية حتى الآن (انظر: "قصة الكنيسة القبطية"، إيريس حبيب المصري، الجزء الأول، ص ٤٣٠).

(٧) يأخذ البعض على القديس كيرلس إلحاق هذه الحرومات برسالته إلى نسطور قائلين إنها أثارت استياء الجانب المُعارِض، وكان من نتيجتها أن اجتمع نسطور مع حليفه القوي ثيئودوريت أسقف قورش بسوريا وأقوى متحدِّث بلسان اللاهوت الأنطاكي، وحرَّرا معاً اثني عشر حرماً مضاداً.

(٨) انظر أع ١٩:٢٣-٢٩.

الذين تُحيط بهم هالة من المسحة النسكية التَّقَوية الخالصة التي أضفاها عليهم القديس أنطونيوس الكبير والقديس باخوميوس أب الشركة. يُضاف إلى ذلك ثروة ضخمة من الأوقاف الدينية التي آلت إلى الكنيسة بعد انتهاء عبادة الأوثان، مع التمويل الناتج عن احتكار صناعة وتجارة الكتان المصري الذي منه كانت تُصنع ملابس كهنة سيرابيس وسائر خُدَّام المعابد الوثنية في مصر. فيمكن القول حقّاً إن القديس كيرلس جمع في يديه مقاليد الأمور كما كانت في أيام الفراعنة.

وإذا عبرنا إلى الجانب الآخر، لم يكن لكرسي أنطاكية وحدة اللغة والأرض كما كان الحال في كرسي الإسكندرية. نظرياً وكنسياً، فقد كان تحت سلطان الكرسي الأنطاكي مساحات كبيرة من الأراضي والمدن في آسيا الصغرى التي تتحدَّث جميعها اللغة اليونانية؛ كما كان تحت سلطانها أيضاً الأراضي الشاسعة شرقي أنطاكية حتى داخل مملكة فارس المعادية للإمبراطورية الرومانية، والتي كانت لغتها الآرامية. ثم إن اللاهوت الأنطاكي قد تأرجح على يد أربعة بطاركة في القرن الأخير، ابتداء من بدعة بولس الساموساطي، ثم بدعة أبوليناريوس الذي كان أسقفاً على اللاذقية في سوريا، إلى أن استقر في الربع الأخير من هذا القرن، في بطريركية القديس ملاتيوس، على لاهوت مجمع نيقية في صيغته الجديدة التي صاغها آباء كبادوكية الكبار: باسيليوس وغريغوريوس اللاهوتي وغريغوريوس النيسي. هذا بالإضافة إلى أن بعض أساقفة آسيا الصغرى، رغم تبعيتهم كنسياً للكرسي الأنطاكي، إلاَّ أنهم صرَّحوا علانية أنهم في جانب القديس كيرلس.

أما القسطنطينية نفسها فكان شعبها وكهنتها ورهبانها مع غالبية النخبة المثقفة من المتحمسين لتكريم العذراء بالحماس الشعبي المعروف. بل وأسقف أفسس نفسه "مِمنون" المصري، رغم أنه يتبع بطريرك القسطنطينية، إلاَّ أنه كان في جانب القديس كيرلس.

كل هذه الدلائل تشير بصفة شبه أكيدة إلى سقوط نسطور واستبعاده قبل صدور قرارات المجمع.

انعقاد المجمع:

عقب انتهاء احتفالات فصح عام ٤٣١م أبحر كلٌّ من القديس كيرلس ونسطور، كلٌّ من مدينته، إلى أفسس. وكان يُرافق نسطور عشرة من أساقفته مع حشد كبير من الأصدقاء والعبيد، الذين يُقال إنهم كانوا مسلَّحين، وبرفقتهم كان الكونت كانديديان ممثِّل الإمبراطور. ومع القديس كيرلس كان خمسون أسقفاً من حوالي مائة أسقف، لئلا يُحرم الشعب من رعاته طيلة فترة انعقاد

المجمع. وكانت الرحلة البحرية إلى رودس موفَّقة؛ وأما المرحلة التالية إلى أفسس فصادفتهم مصاعب أخَّرت وصولهم إلى يوم الثلاثاء أو الأربعاء قبل عيد العنصرة الذي كان يقع في هذه السنة يوم ٧ يونية. وبالطبع سبقهم نسطور؛ أما يوبيناليوس أسقف أورشليم فكان هناك الجمعة التالية للعنصرة. وبذلك امتلأت أفسس بحشود من الأساقفة المرافقين للبطاركة. وكان الجو في هذه الفترة من السنة حاراً حتى أنه كلَّف أكثر من أسقف حياته فقضى نحبه في أفسس. لهذا كان الأساقفة يتعجَّلون انعقاد المجمع الذي يبدو أنه سيتأخر كثيراً عن موعده بسبب غياب يوحنا بطريرك أنطاكية، رغم أن الرحلة إلى أفسس لا تحتمل هذا التأخير. وانقضى أسبوعان ولم يصل البطريرك مما جعل الألسن تتكلَّم أنه تأخَّر متعمِّداً. لهذا السبب قرَّر القديس كيرلس وغالبية الأساقفة البدء في المجمع صباح اليوم الثاني والعشرين من يونية؛ وحمل أربعة أساقفة هذا القرار إلى نسطور كدعوة لحضور الجلسة الأولى، في نفس الوقت الذي كان نسطور يجمع فيه توقيعات أساقفة آخرين احتجاجاً على القرار ببدء المجمع رغم غياب بطريرك أنطاكية.

في الموعد المعيَّن اتَّخذ رؤساء الكنائس أماكنهم في كنيسة العذراء بأفسس واضعين الإنجيل مفتوحاً على الكرسي الأسقفي إشارة إلى حضور الرب يسوع. وترأَّس الجلسة القديس كيرلس نظراً لمكانته المعترف بها من الجميع إضافة إلى أنه يُمثِّل أيضاً الكرسي الروماني، وإلى يمينه كان يوبيناليوس أسقف أورشليم، ثم ممنون أسقف أفسس. وبدأ بطرس، الكاهن الإسكندري وكبير الكُتَّاب، بتلاوة المرسوم الإمبراطوري بعقد المجمع؛ وأعقبه ممنون بقوله إنه قد مضى ستة عشر يوماً على الموعد المحدَّد في المرسوم. وعلَّق القديس كيرلس قائلاً بأنه يكفي ما مضى من وقت ولم يَعُدْ هناك ما يُبرِّر التأخير أكثر من ذلك. وبدأ وفد الأساقفة الذين توجَّهوا إلى نسطور، وكان عددهم ثلاثة، يحكون قصة ذهابهم إليه ورفضه مقابلتهم؛ وتلاهم الوفد الثاني، وكان أربعة أساقفة، فقالوا إنهم وجدوا المكان مُحاطاً بالجنود الذين منعوهم من مقابلته، ولكنه أرسل قائلاً إنه سيجيء متى حضر بطريرك أنطاكية، وبالمثل أيضاً كان تقرير الوفد الثالث. وبذلك تمَّت القوانين التي تبيح بعد ذلك قانونية الاجتماع.

ثم بدأوا بقراءة قانون إيمان مجمع نيقية المسكوني، وأعقبه كبير الكُتَّاب بالرسالة الثانية من القديس كيرلس إلى نسطور، وكان تعليق الأول عليها: إنكم ترون كيف أنها متفقة تماماً مع إيمان مجمع نيقية، ووافق الجميع عليها. ثم تلى كبير الكُتَّاب رد نسطور، وعقَّب أسقف أورشليم وسائر الأساقفة أنها تتناقض مع إيمان مجمع نيقية، فقالوا جميعاً إنه محروم كل مَنْ يتمسَّك بها. ثم قُرِئت

الترجمة اليونانية لرسالة سيلستينوس بابا روما، والرسالة الثالثة للقديس كيرلس والملحق بها الحرومات الاثني عشر والتي انتهت بالإنذار بقطع نسطور من الكنيسة.

والخطوة التالية بعد ذلك هي أن يتداول المجتمعون في ردِّ الفعل الذي بدا من نسطور تجاه رسالتَي سيلستينوس والقديس كيرلس. فاستمعوا إلى اثنين من أساقفة الكرسي القسطنطيني والمعتبرين من المقربين إلى نسطور. فكان تعليقهما أن الإيمان بالمسيح أغلى بكثير من المودة التي يكنوها لنسطور، وأنه لا يزال متمسكاً بآرائه.

وانتهى المجتمعون إلى تقرير الأسانيد التي تبرِّر القرار الختامي، وهي: رفضه استقبال الثلاثة وفود المرسلة لدعوته إلى حضور المجمع، وفحص رسائله وعظاته ومداولاته مع الآخرين التي أكَّدت تمسُّكه بآرائه. فقرروا أنه قد هرطق وما زال يصرُّ على هرطقته مما يحتِّم تجريده وعزله واستبعاده من كرسي البطريركية، وقطعه من شركة الكنيسة الجامعة الرسولية. ووقَّع القرار المائة وستون أسقفاً الحاضرين، والأربعون أسقفاً الباقين ألحقوا إمضاءاتهم بعد وصولهم إلى أفسس.

وبذلك انتهت الدورة الأولى من المجمع قُرْب انتهاء الليل رغم أن هذا اليوم، ٢٢ يونية، هو أطول أيام السنة. وما إن غادر المجتمعون كنيسة العذراء حتى وجدوا جموعاً كثيرة تنتظرهم بالمشاعل، فصاحبوهم بالمجامر والشموع والتسابيح إلى أماكن إقامتهم، تعبيراً عن الفرح الشعبي الغامر الذي اجتاح نفوسهم.

وفي اليوم التالي أُرسِلَ القرار إلى نسطور وعُلِّق في الميادين العامة، كما أُعلِن لإكليروس القسطنطينية ليشرعوا في اختيار خليفة لنسطور.

وبوصول وفد كنيسة روما، أسقفين وكاهن، يوم ١٠ يوليو، بدأت الدورة الثانية للمجمع بقراءة رسالة البابا المرسلة مع الوفد، فلاقت الترحيب من جميع آباء المجمع. ثم اطَّلع الوفد على جميع الإجراءات والقرارات التي تمَّت في الدورة الأولى؛ وبذلك اختتمت الدورة الثانية.

وفي اليوم التالي بدأت الدورة الثالثة بموافقة الوفد على جميع الإجراءات والقرارات التي اتُّخِذَتْ في غيابهم، ثم طلب القديس كيرلس توقيعاتهم، فوقَّعوا؛ وانتهت الدورة الثالثة.

في أعقاب قرارات مجمع أفسس:

كانت قرارات مجمع أفسس، كما جاء في إعلان أغلبية الأساقفة، تعبيراً عن عقيدة المسكونة كلها[9]. ورغم حملات التشويه والإساءة التي قام بها أتباع اللاهوت الأنطاكي ضد القديس كيرلس، إلاَّ أن تعليقات البطاركة التي بلغته كانت مؤيِّدة تماماً وتُفصح عن المكانة العالية التي يكنُّونها له. فيقول مكسيميانوس بطريرك القسطنطينية الجديد، مُخاطباً القديس كيرلس: "أنت لم تؤمن فقط بالمسيح، بل احتملتَ أيضاً لأجله أسوأ الإهانات، واستحققتَ أن تحمل سماته على جسدك. أنت اعترفتَ به أمام الناس لكي يعترف بك أمام الآب في حضرة الملائكة"[10]. كما كتب سيلستينوس بابا روما إلى شعب القسطنطينية عن القديس كيرلس: "لم ينقص هذا الإنسان الرسولي شيئاً عن رسل المسيح. كان يطلب برجاء، ثم ينصح، ثم يوبِّخ وينتهر"[11].

مثل هذه الشهادات كانت سبب عزاء القديس كيرلس في الوقت الذي كانت فيه كنائس الشرق في ارتباك شديد نتيجة الانقسامات التي تفجَّرت بسبب النسطورية ووصلت إلى تشكيك رجل الشارع في عبادته. فبعد جهاد ومثابرة القديس كيرلس وما أثمره هذا الجهاد من قرارات أقرَّها مجمع أفسس، خرجت أربعة كراسي رسولية متَّفقة وراسخة على الإيمان المستقيم.

المصالحة بين أنطاكية والإسكندرية:

وصل يوحنا بطريرك أنطاكية متأخِّراً خمسة أيام عن الجلسة الأولى للمجمع. فما أن علم بالقرارات حتى وقعت مداولات وخلافات وانقسامات جعلته يمتنع مع وفده عن حضور باقي الجلسات، بل واتَّخذ قرارات مضادَّة مع المناصرين له. فحدث تصدُّع وانفصال بين أنطاكية والإسكندرية عقب انتهاء جلسات المجمع استمر سنتين. فكان على الإمبراطور أن يرأب هذا التصدُّع الذي سبَّبه وقوف كنيسة أنطاكية وحدها ضد قرارات المجمع المسكوني. وبعد التشاور مع الأساقفة الذين كانوا واسطة التداول بين القديس كيرلس ويوحنا بطريرك أنطاكية، أمكن تحديد نقط الالتقاء التي يمكن أن يتفق عليها الطرفان، وهي: قبول الحزب الأنطاكي تحريم تعاليم نسطور

(9) Frend, W. H. C. Rise of Christianity p. 761.

(١٠) الأستاذة إيريس حبيب المصري: "قصة الكنيسة القبطية"، جزء ١، ص ٤٥٩.

(١١) المرجع السابق: ص ٤٦٠.

وعزله بسبب هرطقته، وبالمقابل أن يتغاضى القديس كيرلس عمّا لحق به من الإهانات والإساءات من الحزب المعارض. وطُرِح أيضاً إمكانية عقد اجتماع مشترك بين الطرفين في حضرة الإمبراطور في مدينة نيقوميديا، فرفض بطريرك أنطاكية الفكرة وعقد مجمعاً من أساقفته ووافق على العرض التالي: تحريم تعاليم آريوس وأبوليناريوس وقبول التفسير الصحيح لقانون إيمان نيقية (كما شرحه القديس كيرلس)، وأن يتنازل القديس كيرلس عن الاثني عشر حرماً.

وبموافقة مجمع الكنيسة الأنطاكية على هذه الصيغة بُعِثَ برسالة بهذا المعنى مع بولس أسقف حمص وأكبر الأساقفة سِنّاً إلى القديس كيرلس، فحازت رضاه حتى أنه وقف فَرِحَاً في احتفالات عيد الميلاد المجيد لعام ٤٣٣م يُهنِّئ الشعب الإسكندري: "لتفرح السموات... لأنه قد نُقِضَ حائط السياج المتوسط أي العداوة (أف ٢: ١٤، ١٥)"[١٢].

ولم تكن هذه الجهود والصراعات بغير تأثير على صحة القديس كيرلس، إذ تعرَّض مرتين لأمراض خطيرة خلال هذا العام (٤٣١م)، مما تسبَّب في امتناعه عن الإعلان شخصياً عن رسالته الفصحية لهذا العام، وظل مُعانياً من المرض طيلة هذا العام.

ونودُّ أن ننوِّه هنا في هذه المناسبة أن بعض أساقفة أنطاكية خالفوا قرار بطريركهم واستمروا على عقيدتهم النسطورية حتى زماننا الحاضر في مناطق العراق وإيران.

(١٢) الرسالة ٣٩ من مجموع رسائله.

آثار القديس كيرلس الأدبية

يُعتبر القديس كيرلس من أعاظم الشخصيات التي ظهرت على مسرح الثقافة الكنسية الأولى[1]، إذ تملأ مؤلَّفاته عشرة مجلَّدات ضخمة في مجموعة ميني اليونانية PG Migne, Vol. 68-77، رغم ضياع الكثير منها. وبدأت أولى ترجمات أعماله الأدبية في حياته. وكان أول مَنْ ترجم له للُّغة اللاتينية "ماريوس ميركاتور"، و"رابولا" أسقف الرها الذي ترجمها إلى السريانية. ثم توالت بعد ذلك ترجمات أرمينية وإثيوبية وعربية، والتي بفضلها أمكن العثور واكتشاف بعض من أعماله الضائعة في لغتها الأصلية اليونانية.

من جهة أسلوبه اللغوي فهو أبعد ما يكون عن الجاذبية والطلاوة، إذ أحياناً يطنب ويستطرد، وأحياناً أخرى يبدو في أسلوبه التكلُّف. ورغم ذلك، فالمضمون يكشف عمق الفكر وزخم المبادئ ووضوح الحُجَّة مع دقة التعبير، مما يُبرهن على موهبة تأملية جدلية speculative-dialectic. وهذه جعلت مؤلَّفاته تحتل المكانة الأولى في تاريخ العقيدة والتعليم المسيحيَّيْن.

وظهور البدعة النسطورية قسَّم نشاطه الأدبي إلى مرحلتين: الأولى منذ توليه كرسي بطريركية الإسكندرية عام ٤١٢م حتى عام ٤٢٨م، وانحصر تقريباً في الشروحات والتفاسير ضد الآريوسية؛ والثانية امتدت حتى نياحته وكانت مكرَّسة على وجه الخصوص لدحض البدعة النسطورية. و تُمثِّل تفاسيره الجزء الأكبر من نتاجه الأدبي. ويُلاحَظ أنَّ شروحاته على العهد القديم متأثِّرة بشدة بالتقليد الإسكندري رغم اختلافه عن أوريجانوس، إذ يكرر القول مراراً أن تفاصيل العهد القديم لا تتضمن بالضرورة مغزًى روحياً، وهو المبدأ الذي أصرَّ عليه أوريجانوس في كل شروحاته. أما تفسيره للعهد الجديد فهو أكثر التزاماً بالحرف ولكنه لا يرقى إلى المنهج التاريخي – اللغوي historico-philological.

(١) نُلخِّص هنا ما جاء في كتاب:

J. Quasten لعالِم الآبائيات *Patrology*, Vol. III.

أولاً: شروحاته على العهد القديم:

١ - **العبادة والسجود بالروح والحق:** سبع عشرة مقالة موضوعة على شكل حوار بين المؤلِّف وشخصية تخيلية "بالليديوس"، تدور حول مختارات من التوراة يميل فيها إلى المنهج المثالي الرمزي allegorico-typological، ليُبرهن أن الناموس قد أُلغي بالحرف وليس بالروح. فكل فرائض العهد القديم ينبغي إدراكها كمثالات مُسْبَقة للعبادة بالروح.

ونقطة الابتداء هي خطيئة آدم وحواء، ثم كيفية خلاص الإنسان من عبودية الخطيئة والشيطان بالتبرير بواسطة المسيح كوسيلة لنيل هذا الخلاص. لكن الاستمرار والثبوت في هذا الخلاص يقتضي فعل المشيئة الإنسانية، أي تقرير الإنسان بمحض حرية إرادته أن يحافظ عليه ويثابر فيه. أما أساس الخلاص فهو محبة الله والقريب. ثم ينتقل إلى شرح معنى الكنيسة والكهنوت والعبادة بالروح كما يمارسها المؤمنون، والتي سبق رؤية ظلالها في فرائض العهد القديم. وآخر هذه المجموعة من المقالات تتناول الأعياد اليهودية وبالأخص "الفصح". ويُرجَّح أن تأليفه كان في وقت سابق على عام ٤٢٩م.

٢ - **جلافيرا** Γλαφυρά "شروحات مختارة": وهي ثلاث عشرة مقالة مكمِّلة ومعاصرة للكتاب السابق، حيث تتبادل بينهما المقالات؛ ومضمونها هو أيضاً شرح لمختارات من التوراة بحسب ترتيب ورودها في الكتاب المقدس، ولكن بدون الحوار الذي رأيناه في الكتاب السابق.

٣ - **شرح سفر إشعياء:** يُلخِّص المؤلِّف مهمته كشارح في أنه يقدِّم المعنى الحرفي أولاً ثم الروحي. ويستوعب هذا الشرح المجلَّد رقم ٧٠ في مجموعة ميني اليونانية. وعلى أغلب الاحتمالات أنه كُتب قبل عام ٤٢٨م.

٤ - **شرح الأنبياء الصغار:** وهو اثنا عشر جزءاً تماثل نظيرتها في الأنبياء الصغار؛ كل منها عبارة عن مدخل ومقدمة تشرح السفر ككل.

٥ - **شروحات أخرى:** هناك شذرات مختلفة لشروحات أخرى على العهد القديم موجودة في مجموعات "السلاسل catenae" على: أسفار الملوك، المزامير، نشيد الأنشاد، الأمثال، إرميا، حزقيال، دانيال.

ثانياً: شروحاته على العهد الجديد:

١ - **شرح إنجيل يوحنا**: يظهر في هذا الشرح الاتجاه العقائدي الجدلي، تأكيداً لِمَا جاء في مقدمته، لأجل دحض التعاليم الهرطوقية. ويبدو فعلاً رغبة الكاتب في إثبات أن الابن من نفس جوهر الآب، كما أن لكل منهما أقنومه الذاتي. ثم يندِّد بالآريوسيين وأنصاف الآريوسيين eunomians وتعاليم الأنطاكيين الخاصة بالمسيح. ورغم هذا لا يظهر اسم نسطور ولا المصطلح الجدلي ''ثيئوطوكس'' ولا العبارات ذات الدلالة الخاصة التي جاءت في كتاباته المتأخرة. ولذلك صار مؤكَّداً أن زمن تأليفه كان سابقاً على تفجُّر الجدل النسطوري أي قبل عام ٤٢٩م، وعلى كل حال فمن المحتمل أنه يقع بين سنتي ٤٢٥ و٤٢٨م.

٢ - **شرح إنجيل لوقا**: يختلف في نوعيته الأدبية عن سابقه، إذ هو عظات على الإنجيل ذات هدف عملي أكثر منه عقائدي. والكتاب ضائع في لغته الأصلية اليونانية؛ ولكن اكتُشِفت ترجمة سريانية لأكثر من ١٥٦ عظة في مخطوطة بالمتحف البريطاني نُشِرَت عام ١٨٥٨م، وأُعيد نشرها عام ١٨٧٤م مع إضافات أخرى من مخطوطة أُخِذَت من دير السريان بوادي النطرون.

٣ - **شرح إنجيل متى**: لم يبقَ من هذا الشرح سوى شذرات موجودة في ''السلاسل catenae''. ولكن في مجموعها تتضمَّن شرحاً وافياً على الإنجيل كله يُماثل شرحه على إنجيل يوحنا. ويُرجَّح كتابته بعد عام ٤٢٨م.

٤ - **بقية ما جاء في ''السلاسل** catenae'': هي ما تبقَّى من تفاسير على: رسالة رومية، والرسالتين إلى كورنثوس الأولى والثانية، ورسالة العبرانيين.

ثالثاً: كتاباته التعليمية العقائدية:

١ ـ **الكنز في الثالوث الأقدس المتَّحد الأقانيم**: بعد أن استعرض القديس كيرلس الآريوسية ونتائجها الختامية في نهاية القرن الرابع، تتبَّع معلِّمه القديس أثناسيوس في الجزء الثالث من كتابه ''ضد الآريوسية''. وعلى ما يبدو، أنه كان يقتبس أيضاً من مؤلَّف ضائع للعلاَّمة ديديموس الضرير ضد أنصاف الآريوسيين *Contra Eunomium*. وفي تعليق لأحد الكُتَّاب البيزنطيين ''فوتيوس''، يقول: إن هذا العمل هو أوضح أعمال القديس كيرلس، وبالأخص لأولئك الذين يستطيعون إدراك مغزى أساليبه المنطقية. وهناك إجماع بين علماء الآبائيات أن تأليفه كان قبل

اندلاع الجدل النسطوري عام ٤٢٨م.

٢ - **ضد التجاديف النسطورية:** هو فحص دقيق لمجموعة عظات نشرها نسطور عام ٤٢٩م. وفي ردِّه عليها لا يذكر اسم نسطور بل يقتبس ويناقش ما جاء فيها: سواء مهاجمة نسطور للقب ''ثيئوطوكس''، أو دفاعه عن لاهوت الابن المتَّحد بناسوته.

٣ - **على الإيمان الصحيح:** وضعه القديس كيرلس عام ٤٣٠م، ووجَّهه إلى الإمبراطور ثيئودوسيوس الثاني والعائلة المالكة خشية تأثُّرهم بآراء نسطور بطريرك عاصمتهم.

٤ - **الاثنا عشر حَرْماً:** نشرها القديس كيرلس في نفس السنة ردّاً على الادِّعاء بأنه من أتباع هرطقة أبوليناريوس وعلى اتهام ثيئودوريت. ولا ذِكْر فيها لمجمع أفسس لأنها قد صدرت عن مجمع أساقفة كنيسة الإسكندرية قبيل انعقاد المجمع المسكوني بأفسس عام ٤٣١م[٢]؛ ولكن أضاف عليها براهين من الكتاب المقدس.

٥ - **على تجسُّد الابن الوحيد:** يشرح فيه ألقاب الابن: المسيح، عمانوئيل، يسوع. ثم يتطرَّق إلى التعريف بالاتحاد الأقنومي مقابل ''المشاركة أو المساكنة''[٣]. والنص الكامل موجود في اللاتينية والسريانية والأرمينية؛ أما الأصل اليوناني فلم يتبقَّ منه سوى شذرات قليلة. وتاريخ كتابته يرجع إلى ما بعد عام ٤٣١م.

٦ - **ضد ديودوروس وثيئودور:** وهو ضد معلِّمي نسطور: ديودوروس أسقف طرسوس، وثيئودور أسقف المصيصة. كُتب حوالي عام ٤٣٨م، ولا زالت منه بقايا في اليونانية والسريانية.

٧ - **وحدانية الأقنوم في المسيح:** هو حوار يدور حول التعليم الخاطئ بأن اللوغوس لم يَصِرْ جسداً بل هو مجرَّد اتحاد بالإنسان؛ وبالتالي يكون هناك ابن حقيقي لله وآخَر بالتبنِّي لا يُشاركه في الكرامة ولا في المجد. وفي هذا الحوار يظهر نضوج الفكر والتعبير مما يجعل هذا الحوار هو آخر كتاباته ضد النسطورية.

٨ - **الردُّ على يوليانوس الجاحد:** بعدما مضت أكثر من خمس وعشرين سنة على تولِّيه

---

(٢) انظر: فصل "المجمع المسكوني الثالث بأفسس" المنشور في هذا الكتاب.

(٣) "συνάφεια"، وهو المصطلح الذي ابتدعه لاهوتيو أنطاكية.

كرسي البطريركية كتب هذا المؤلَّف وكرّسه للإمبراطور، ربما لأن ادِّعاءات يوليانوس ضد أتباع يسوع الجليلي كانت ما تزال بدون ردٍّ مُفْحِم. وهنا يتتبَّع القديس كيرلس أسلوب النقاش خطوة بخطوة، فيقتبس براهين الجانب المضاد ويُحلِّلها بالنقد والحوار حتى تسقط من تلقاء نفسها. وللأسف بقيت منه العشرة الفصول الأولى في اللغة اليونانية الأصلية والباقي مفقود إلاَّ في شذرات متفرِّقة في السريانية. ويقع تاريخ كتابته في الفترة ما بين ٤٣٣ـ٤٤١م.

رسائله الفصحية:

واظب القديس كيرلس على التقليد السنوي لبطاركة الإسكندرية بإرسال الرسائل الفصحية إلى كنائس مصر وليبيا والخمس المدن الغربية، والتي فيها يُحدِّد عيد القيامة المجيد وموعد بدء الصوم الأربعيني المقدس. ولا يزال التاريخ يحفظ منها ٢٩ رسالة، كتبها من عام ٤١٤م حتى عام ٤٤٢م.

ولا يقتصر مضمونها في الحثِّ على الصوم والنسك وأعمال المحبة والصدقة فقط؛ بل تتطرَّق أيضاً إلى المجادلات العقائدية المعاصرة بخصوص أقنوم المسيح، كما يظهر ذلك في رسائله: الخامسة، الثامنة، الثانية عشرة، السابعة عشرة، والسابعة والعشرون. كما يناقش أيضاً ممارسة البعض من المؤمنين للعادات اليهودية والوثنية عن جهالة.

عظاته:

رغم كثرة عظاته التي ألقاها خلال بطريركيته التي امتدت ما يزيد على ثلاثين عاماً، إلاَّ أن التاريخ لم يحفظ منها سوى اثنتين وعشرين عظة. الثماني عظات الأولى منها أُلقيت خلال انعقاد مجمع أفسس صيف عام ٤٣١م، وأشهرها العظة الرابعة المعروفة باسم: "العظة المريمية"، لأنها قيلت في كنيسة العذراء مريم بأفسس خلال الفترة من ٢٣ـ٢٧ يونية عام ٤٣١م.

مراسلاته:

احتفظ لنا التاريخ، لحسن الحظ، بمجموعة كبيرة منها ترجع أهميتها إلى التعريف بالعلاقات بين الكنيسة والدولة، وبين كنائس الشرق والغرب. وقد استطاعت الدراسات النقدية المعاصرة تحقيق الكثير منها في الترجمات اللاتينية القديمة والسريانية والقبطية والحبشية. وتُعتبر الرسالة الرابعة، التي اشتهرت باسم: "الرسالة العقيدية epistola dogmatica" أهمها جميعاً؛ إذ نالت موافقة إجماعية في

أول دورة لانعقاد مجمع أفسس المسكوني بتأكيد اتفاقها مع قانون إيمان نيقية وصِدْق تعبيرها عن عقيدة الكنيسة الجامعة، وإليها رجع بابا روما في الجدال الأوطاخي الذي ثار عام ٤٥٠م[٤]؛ كما دخلت ضمن محاضر مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م الذي لم تعترف به الكنيسة القبطية، ومجمع القسطنطينية الثاني عام ٥٥٣م والذي لم تحضره الكنيسة القبطية.

أما الرسالة الثالثة إلى نسطور[٥] التي أرسلها عقب انعقاد مجمع أساقفة كنيسة الإسكندرية في نهاية عام ٤٣٠م، والمصحوبة بالاثني عشر حرْماً، فقد دخلت أيضاً ضمن محاضر مجمع أفسس المسكوني والمجامع التالية رغم الصعوبات التي رافقتها[٦].

ونختم هذا العرض الموجز بالتنويه بأهمية الرسالة ٢٩ المرسلة في ربيع عام ٤٣٣م بعد المصالحة بين أنطاكية والإسكندرية، واشتهرت باسم: "قانون الإيمان الأفسسي Symbolum Ephesium"، لأنها جمعت إيمان الأنطاكيين مع الكرسي الإسكندري، ووقَّعها أساقفة الطرفين ودخلت أيضاً ضمن محاضر مجمع خلقيدونية في ما بعد.

القدَّاس الكيرلسي:

يتميَّز تقليد كنيسة الإسكندرية بالاحتفاظ بليتورجية مرقس الرسول التي طوَّرها القديس كيرلس، فأعطاها شكلها الذي يتناسب وليتورجيات العصر. فجميع مصادر الأدب المسيحي الكنسي تخلو من ذِكْر أي شيء عن هذا الموضوع؛ إلاَّ أن العالِم القبطي ابن كبر في القرن الرابع عشر يؤكِّد في موسوعته الكبرى "مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة" أنَّ القديس كيرلس قد استخدم قلمه في التعليق على ليتورجية القديس مرقس، فيقول:

[جَرَتْ عادة المصريين أن يُقدِّسوا بقدَّاس القديس الشهيد مار مرقس الرسول الإنجيلي كاروز الديار المصرية، الذي أكمله الأب كيرلس الأول البطريرك الرابع والعشرون][٧].

---

(4) Contra. Eutych. Haer. 1.

(٥) وهي الرسالة ١٧ من مجموع رسائله.

(٦) راجع فصل: "المجمع المسكوني الثالث بأفسس"، المنشور في هذا الكتاب.

(٧) نُحيل القارئ إلى الدراسة المنهجية التي جاءت عن هذا القداس في كتاب: "الإفخارستيا عشاء الرب"، الأب متى المسكين، مطبعة دير القديس أنبا مقار، الطبعة الثانية: سنة ٢٠٠٠ (مزيدة ومُنقَّحة)؛ ←

قداسة البابا كيرلس عمود الدين:

في الكنيسة المسيحية قديسون متزوِّجون وأرباب عائلات إلى جانب الأفراد والمتبتِّلين؛ ملوك قدِّيسون وفنانون قديسون؛ ثم لاهوتيون قدِّيسون أبرزهم بلا شك **القديس كيرلس الكبير** بإجماع الكنائس شرقاً وغرباً، والذي **ترجع قداسته إلى لاهوته**. ونعلم أيضاً أن في الكنيسة قدِّيسين اشتهروا بعظاتهم وفصاحتهم مثل يوحنا ذهبي الفم. لكن القديس كيرلس يتميَّز بأنه بلور تعاليم ومبادئ السابقين له في دراسة وبحث وتأمُّل ينمُّ عن عبقرية مذهلة وذهنية فائقة. وبالرغم من ذلك فحينما منحته الكنيسة لقب القداسة، فلم يكن ذلك بسبب دراسته في تعاليم السابقين له، ولكن **بسبب تعليمه اللاهوتي** الذي صار مرجعاً لجميع الكنائس. ومهما اجتهدنا باحثين شخصيته وظروف نشأته وحياته لنتحسس أسباب قداسته، فستبقى كلها أموراً في الظل. لكن إن قلنا إنه قديس فنحن نعني أولاً وقبل كل شيء **تعليمه اللاهوتي**، ولا شيء خلاف ذلك. وقداسة أي إنسان تعني أنه يعكس بصورة محدَّدة سمة معيَّنة من سمات الرب يسوع.

ولقب القداسة اعتراف كنسي بأن سرَّ المسيح يشعُّ من حياة القديس، فيعكس لنا حكمة الله وقوته وقداسته[٨]. لم يمُت القديس كيرلس ميتة الشهداء، بل كانت نياحته عادية تماماً كأي مؤمن. كما أنه لم يحمل في جسده سمات الرب يسوع الأليمة، حتى نقول إنه يتشبَّه بالقديس بولس الرسول في قوله عن نفسه: «... لأني حاملٌ في جسدي سمات الرب يسوع» (غل ٦:١٧)، رغم ما ناله من حسد ووشاية المناوئين له مِمَّن كانوا أقل منه ذهنية أو رتبة كنسية[٩]. وحتى في هذه أيضاً لم يكن أكثر من المألوف الذي يتعرَّض له ذوو المناصب الرفيعة في الكنيسة أو الدولة. وإذا طالعنا مؤلَّفاته اللاهوتية، فقراءتها لا تمنح قارئها بهجة الأدب اليوناني الرفيع المستوى، لأنه لم يهدف من كتابتها أن يكون مشهوراً، أو أن تعطيه الرِّضا النفسي أو الاعتزاز الشخصي.

وكذلك دراسة في نصوص قداس القديس مرقس الرسول في المخطوطات القديمة قام بها الأنبا إبيفانيوس أسقف ورئيس دير الأنبا مقار، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٥.

(٨) «نحن نكرز بالمسيح مصلوباً: لليهود عثرة، ولليونانيين جهالة. وأما للمدعوِّين: يهوداً ويونانيين، فبالمسيح قوة الله وحكمة الله. لأن **جهالة الله أحكم من الناس! وضعف الله أقوى من الناس!**» (١كو ١:٢٣-٢٥)

(٩) يُلمِّح القديس كيرلس عن هذه الوشايات في الرسالة ٣٩.

ولم تكن إفاضته في الشروحات كمَنْ يكتب مُدافعاً بإصرار عن ذاته أو وجهة نظره؛ ولكن كان فكره اللاهوتي **يفيض بسخاء من الحق الذي هو المسيح** ذاته القائل عن نفسه: «أنا هو الطريق **والحق** والحياة» (يو ١٤:٦). فكان استسلامه لفيض هذا الحق مع الخضوع التام لمشيئته مطابقة كاملة لِمَا جاء عن المسيح: «هأنذا أجيء، في دَرْج الكتاب مكتوبٌ عني، لأفعل مشيئتك يا الله» (عب ١٠:٧). فوقفت الكنيسة شرقاً وغرباً مشدوهة ومُصدِّقة لكل كلمة قالها؛ فدخلت كتاباته اللاهوتية وشروحاته - بإجماع الكنائس - ضمن محاضر المجامع المسكونية، سواء التي حضرتها الكنيسة القبطية أم غابت عنها.

هذا الاستسلام ''اللاذاتي'' هو الفاعل الأساسي وراء فيض تعاليم القديس كيرلس اللاهوتية؛ بل هو النور الذي أشرق من سرِّ الصليب، ففاق كل حكمة بشرية، ونفذ إلى أعماقه مثيراً كوامن مواهبه الأدبية، ففاضت كتاباته اللاهوتية بنور هذا الحق؛ فملأت مؤلَّفاته عشرة مجلدات ضخمة من مجموعة ميني اليونانية PG Migne, Vol. 68-77. فقد فشل اللاهوت الأنطاكي في التعبير عن كيفية اتحاد الطبيعة الإلهية مع الطبيعة البشرية في شخص اللوغوس، بقولهم مرة أنه: اتصال συναφεία connection، ومرة أخرى أنه: مساكنة ἐνοίκησις indwelling، ومرة ثالثة أنه: مشاركة حميمة ἕνωσις σχετική close participation. ففي مواجهة هذا الفشل، صاغ القديس كيرلس المصطلح اللاهوتي: **الاتحاد الأقنومي** ἕνωσις καθ' ὑπόστασιν؛ مؤكِّداً أن رفض هذا التعبير، كأنه تعبيرٌ مستحيل أو غير لائق، سيؤدِّي إلى الاعتقاد بازدواج أقنوم الابن:

[إذا رفضنا الاتحاد الأقنومي، سواء لتعذُّر إدراكه أو بسبب عدم قبوله، نسقط في التعليم بوجود ابنَيْن. لأنه توجد كل الضرورة للتمييز والقول إنه كإنسان، من جهة، ذو وضع منفرد كُرِّم بصفة خاصة بتسميته ''الابن''؛ ومن جهة أخرى، فإن كلمة الله ينفرد حسب الطبيعة بامتلاك كلٍّ من اسم البنوة وحقيقتها. لذلك لا ينبغي أن يُقسَّم الرب يسوع إلى ابنَيْن][10].

ولكي يؤمِّن هذا المصطلح ضد أية تخريجات قد تُلصَق به من جهة غير الفاهمين والمتحذلقين، أضاف أنه: اتحاد **بغير اختلاط** ἀσυγχυτός، حتى يبقى لكلٍّ من الطبيعتين في المسيح وضعه

---

(10) Epist. 4:6.

المتميِّز؛ مبرهناً أن تمايُز الطبائع لم يُبْطَل بسبب الاتحاد الأقنومي:

[إنه هو نفسه في الأيام الأخيرة، من أجلنا ومن أجل خلاصنا، وُلد من العذراء مريم بحسب ناسوته؛ وهو – بآنٍ واحدٍ – من نفس جوهر الآب بحسب لاهوته، لأنه قد جرى اتحاد بين الطبيعتين. وبمقتضى هذا الفهم **للاتحاد بدون اختلاط** نعترف أن العذراء القديسة هي والدة الإله θεότοκος... لأن الرب يسوع المسيح هو واحدٌ حتى لو كنَّا نعلم التمايُز بين الطبيعتين اللتين نقول إن الاتحاد الفائق للوصف قد صار منهما](11).

وامتداداً من هذا المعنى، انطلق القديس كيرلس إلى **التطبيق العملي في سرِّ الإفخارستيا**:

[لقد دفع المجرِّبُ الإنسانَ الأول للخطية والعصيان، فأوقعه تحت لعنة الله. فكيف يمكن للإنسان الذي صار تحت سلطان الموت أن يستعيد الخلود؟ كان لابد أن جسده الميت يدخل في شركة القوة المحيية التي لله... فصار اللوغوس إنساناً **واتحد بجسدٍ قابل للموت**، فأعطاه مناعة ضد الفساد، **وجعله جسداً محيياً. لكن كان ينبغي أن يحلَّ فينا إلهياً بواسطة الروح القدس، وأن يمتزج بطريقةٍ ما بأجسادنا بواسطة جسده المقدس ودمه الكريم. وهذا ما نناله بالإفخارستيا كما بخبزٍ وخمرٍ**](12).

فأصبح التناول من الإفخارستيا أمراً حتمياً لِمَنْ يسعى لحياة القداسة. ويقول العالِم Mahé المتخصِّص في كتابات القديس كيرلس، ما معناه أن هذا التحوُّل الفائق لكل كياننا لا يُرَى ولا يُحسُّ؛ فهو سرٌّ غير مادي ولا محسوس، ولكنه حقيقة بكل تأكيد. إنه ركن أساسي لإيماننا باعتراف التقليد كله، وينبغي أن نؤمن به بشكر بدون أن نفحص كيفيته كما فعل اليهود قائلين: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل» (يو ٦:٥٢)؟ أليس الله حُرّاً في عطاياه؟ والذي خلق الإنسان في البدء خالداً، أَلا يستطيع أن يُعيد له الخلود؟ والذي هو الحياة بطبعه، أيمكن أن يتَّحد ويمتزج بنا دون أن يُعطينا الحياة؟

وهكذا يتأكَّد لنا بكل وضوح أن إنكار الاتحاد الأقنومي بين اللوغوس الإلهي والناسوت، إنما ينقُض أساساً فاعلية سرِّ الإفخارستيا، لأنه هو أساس هذه الفاعلية.

(11) Epist. 39:3,9.

(١٢) تفسير إنجيل لوقا ١٩:٢٢.

فتعليم القديس كيرلس اللاهوتي في شرحه الاتحاد الأقنومي، ليس تعليماً لاهوتياً مدرسياً scholastic أو موضوعياً objective؛ بل تعليماً لاهوتياً يفيض بالحق الإلهي في أعماقٍ لم تعرفها الكنيسة من قبل أن يستعلنه هذا القديس، ليكون أساس ''شركة ذاتية'' بين الإنسان والرب يسوع.

وللقديس كيرلس أيضاً تطبيقات أخرى كقوله:

[إنه حسب التدبير قد بارَك (المسيح) الزواج بنفسه وحضر، حينما دُعِيَ إلى (عُرْس) قانا الجليل مع رسله القديسين][١٣].

في الختام:

الاستطراد في عرض حياة القديس كيرلس وكتاباته وتعاليمه اللاهوتية، ثم قداسته؛ كان بهدف لفت نظر القارئ إلى أهمية هذه الشخصية العالية القدر، حتى تتهيَّأ الأذهان والقلوب للصلاة بلجاجة لإنجاح مساعي الوحدة المسيحية بين كنيسة الإسكندرية وباقي الكنائس الخلقيدونية والكنيسة الكاثوليكية.

---

(13) *Epist.* 17:18.

مجمع خلقيدونية

١ . البدعة الأوطاخية

مرَّت السنون وطُويت الأزمان إلى أن أتى جيل المجمع المسكوني الثالث بأفسس، الجيل الذي عاصر القديس كيرلس الكبير في كفاحه ضد بدعة الفصل التام بين اللاَّهوت والناسوت في اللوغوس المتجسِّد، والتي اشتهرت في التاريخ باسم: "البدعة النسطورية".

تنيَّح بابا روما، سكستوس الثالث، عام ٤٤٠م، وجلس على كرسي البابوية "لاون الكبير" المعروف بدوره في مجمع خلقيدونية. كما تنيَّح يوحنا بطريرك أنطاكية عام ٤٤١-٤٤٢م، وهو الذي وقَّع سنة ٤٣٣م مرسوم المصالحة مع الكرسي الإسكندري، وخلفه ابن شقيقته دومنوس الذي لم يكن على مستوى المسئولية التي تفرضها عليه البطريركية. فقد تسرَّع، مثلاً، في وضع اليد على أحد الحُكَّام الذي يُدعى إيرينيئوس، ثم تبيَّن بعد ذلك أنه قد تزوَّج مرتين. مما اضطر الإمبراطور ثيئودوسيوس الثاني[1] إلى عزله من الأسقفية. وفي عام ٤٦٦م، انتقل مكسيميانوس بطريرك القسطنطينية واختير بعده فلابيانوس، وكان معتدلاً حكيماً.

ولكن نياحة القديس كيرلس الكبير عام ٤٤٤م كانت ذات أثر عميق محزن في أوساط الكنيسة والدولة بسبب شخصيته الفذَّة العميقة التي استطاعت السيطرة على مجريات الأمور الدينية والسياسية. فقد كان هو العامل غير المباشر، ولكنه الأساسي، في استقرار السلام والهدوء اللذين سادا الإمبراطورية عقب المجمع المسكوني الثالث. فاختارت كنيسة الإسكندرية رفيقه في الجهاد القديس ديوسقوروس رئيس الشمامسة، خلفاً له، استمراراً للمسيرة.

---

(١) ويُسمَّى أيضاً "ثيئودوسيوس الصغير" تمييزاً له عن جدِّه ثيئودوسيوس الكبير مؤسِّس العائلة المالكة التي أعقبت أسرة قسطنطين الكبير.

الخلفية السياسية المعاصرة:

كان الإمبراطور ثيئودوسيوس الثاني شخصاً متديِّناً مُسالماً[٢]، له أربع أخوات نذرن البتولية[٣] اكتفاءً بتَوَلِّي أخيهن العرش. وكانت أهمهن بولخاريا التي تكبره بعامين فقط؛ إذ عيَّنها أبوها الإمبراطور أركاديوس في درجة ''أوغسطا Augusta'' أي ''إمبراطورة مساعدة''، ولم تكن قد بلغت بعد السادسة عشرة من عمرها. وهي التي اختارت لأخيها زوجته الإمبراطورة أودكسيا التي أنجب منها ابنة وحيدة صارت زوجة لابن عمته فالنتينوس الثالث إمبراطور الغرب. وربما هي التي أوحت إليه، بعد ذلك، أن يطلب مشورة رهبان ومتوحِّدي شيهيت في موضوع النسل الذي يخلفه على العرش[٤]، خوفاً من انقراض الأسرة لعدم وجود وريث.

وفي كل الأحوال، استقرَّت أوضاع السلطة الزمنية على تركيز كل الجهود في مناصرة الكنيسة ضد البدع والهرطقات. فانسجام الدولة بمؤسَّساتها يتوافق مع السلام الذي يسود الكنيسة ووحدتها.

أوطاخي المبتدع:

يُظَن أنه من مواليد عام ٣٧٠م، ومنذ سنة ٤٢٠م كان يرأس ديراً بالقسطنطينية به ٣٠٠ راهب. وقد عاصر أوطاخي أحداث مجمع أفسس المسكوني، فظهر مدى حماسه في تأييد القديس كيرلس ومهاجمته العنيدة ضد النسطورية. وبسبب شيخوخته ونسكه الظاهر وحماسه الاندفاعي لمجمع أفسس، نال حظوة لدى البلاط الإمبراطوري حتى أن الخصيَّ ''كريزافيوس'' كبير حرس الإمبراطور كان ابنه الروحي. ولم تستطع شيخوخته الطاعنة في السن أن تخفِّف من غلوائه واندفاعاته ضد كل ما هو نسطوري؛ حتى انتهى به الأمر عام ٤٤٨م إلى التطرُّف العكسي. فأنكر أن الطبيعة البشرية التي اتَّحد بها أقنوم الابن هي من جوهر طبيعتنا البشرية، ما دام الله قد صار جسداً. وعلَّم بأن مرور الرب من أحشاء البتول مريم كان مروراً خيالياً[٥].

---

(٢) تزخر بعض مخطوطات بستان الرهبان بقصص عن خروجه متنكِّراً يجول متنقِّلاً بين قلالي المتوحِّدين طالباً إرشادهم الروحي.

(٣) يخطئ مَنْ يقول إنهن صرن راهبات، وذلك لانعدام ركن الفقر الأساسي في حياة القصور.

(٤) مخطوطة استشهاد التسعة والأربعين شهيداً شيوخ شيهيت.

(٥) الأستاذة إيريس حبيب المصري، قصة الكنيسة القبطية، الجزء الثاني، ص ١٨.

لم يتغاضَ أوسابيوس، صديق أوطاخي، والذي أثار هرطقة نسطور منذ عشرين سنة مضت - وقد صار الآن أسقفاً على دوريليا - لم يتغاضَ عن تطرُّف صديقه القديم. ودخل الموضوع مرحلة الحوار الساخن، حيث، في المزاج الشرقي، لا تُعالج الأمور بتعقُّل، بل تختلط العاطفة مع الحماس الديني. فكان لابد أن ينعقد مجمع محلِّي في القسطنطينية برئاسة بطريركها فلابيانوس للنظر في هذه البدعة الدخيلة على الكنائس المتَّحدة في العقيدة، وبسبب لباقة هذا المبتدع وقوة تأثيره وقدرته على التلاعب بالألفاظ، وإمكانية التهرُّب منها وقت الحاجة. فلما حضر أوطاخي المجمع بعد الاستدعاء الثالث أقرَّ بالإيمان باللاهوت والناسوت في المسيح، لكنه تحاشى الاعتراف بأن الناسوت هو من جوهر طبيعتنا البشرية، مؤكِّداً أن الاتحاد تمَّ قبل التجسُّد، حتى يصح القول إن ابن الله كان ذا طبيعة إلهية واحدة فقط. والتفسير الذي يقوله أي إنسان بناءً على هذا التعليم الخاطئ: إذن، فالطبيعة البشرية في المسيح قد تلاشت في اللاهوت. وانتهى المجمع إلى الحُكْم بعزل أوطاخي وحرمانه. وقد وقَّع قرار المجمع المحلي ٣١ أسقفاً و١٨ من رؤساء الأديرة.

المجمع الثاني بأفسس:

كان أوطاخي شخصاً عنيداً صعب المراس، فلم يستسلم للحكم بل أرسل احتجاجاته إلى الأباطرة والمجامع الكنسيَّة في الإسكندرية وروما وأنطاكية وأورشليم، وإلى أساقفة تسالونيكي ورافنَّا حيث مقر الحكم للإمبراطورية الغربية وقتذاك. وجاء ردُّ الفعل من لاون الكبير بابا روما، مُظهِراً تعجُّبه لقرار عزل أوطاخي رغم أن إيمانه ليس عليه أي لوم، بل إن سقوطه في البدعة ليس أكثر من **جهل** لا يستحق هذه الضجة[6]. كما كتب إلى فلابيانوس يستحثّه على الصفح عن أوطاخي طالباً إعادة النظر في الحكم الصادر ضده.

أما إمبراطور القسطنطينية، ثيئودوسيوس الثاني، فالتقوى عنده تختلط بالأسطورة. فكان يعتقد أن وراء النسطورية شيطاناً عاد يتحرَّك ليبث القلق في سلام الإمبراطورية. فوجَّه الدعوة لعقد مجمع في أفسس برئاسة بطريرك الإسكندرية ديوسقوروس أول أغسطس عام ٤٤٩م، وذلك لبحث الخلاف بين أوطاخي وبطريركه فلابيانوس. كما أوصى باستبعاد ثيئودوريت أسقف قورش النسطوري، وإيباس أحد الأساقفة الذين تركوا لثيئودوريت منبر الكنيسة ليُلقي عظاته النسطورية على الشعب.

---

(6) LEO; Letter 34:1,29. المرجع السابق، ص 28

ولما حان وقت افتتاح الجلسات، دخل ديوسقوروس مباشرة إلى موضوع الخلاف بين فلابيانوس وأوطاخي، والذي لأجله كان انعقاد هذا المجمع؛ بينما قدَّم مندوبو بابا روما لاون الكبير رسالته المعروفة باسم: ''طومس لاون''، والتي للأسف الشديد جاءت ترجمتها اليونانية – لغة مجامع الشرق – خاطئة، فكانت أقرب إلى النسطورية(٧) منها إلى مبادئ القديس كيرلس الكبير التي صارت دستوراً يُحتكَم إليه عند ظهور أي خلاف. بل ويقول أحد المؤرِّخين المحدثين(٨) إنه لحسن الحظ تأجَّلت قراءة هذا الطومس؛ وإلاَّ لكان هذا المجمع قد حكم بصحة هرطقتها. والثابت على كل حال أن ديوسقوروس لم يرفض قراءتها، لكن كبير الكُتَّاب هو الذي أوصى بالتأجيل إلى حين انتهاء المجمع من نظر القضية الأساسية، وهي الخلاف بين أوطاخي وبطريركه فلابيانوس، وذلك بحسب نص القرار الإمبراطوري بانعقاده. بينما الطومس كان رسالة عقائدية تشرح اللاَّهوت الغربي في فهم الطبيعتين الإلهية والبشرية في أقنوم الابن، كتبها البابا لاون إلى فلابيانوس بطريرك القسطنطينية.

وكعادة أوطاخي، قدَّم دفاعه مكتوباً ومؤيَّداً بأقاويله التي تراجَع فيها عمَّا قاله من قبل، وظهر أمام المجتمعين أنه متوافق مع إيمان نيقية وأفسس. واستقر المجتمعون على تبرئة أوطاخي وإدانة فلابيانوس مجاملةً للإمبراطور الذي لم يكن راضياً عن بطريرك القسطنطينية بسبب تغاضيه عن الجماعات النسطورية التي كانت لا تزال قائمة في العاصمة. واختير أناطوليوس مبعوث بطريرك الإسكندرية في العاصمة الإمبراطورية، وكان شمَّاساً إسكندرانياً، ليحلَّ محل فلابيانوس المعزول؛ الأمر الذي أثار أيضاً حفيظة البابا الروماني لاون الكبير بسبب تعاظُم تأثير كنيسة الإسكندرية في الشرق المسيحي.

ومن المهم جداً أن يتنبَّه القارئ إلى أن هذا المجمع انعقد لإعادة النظر في الحكم الصادر نتيجة خلاف وليس لأجل قضية إيمانية. فرغم أن الحاضرين كانوا من أسقفيات متنوعة وبطاركة كراسي رسولية، وأنَّ انعقاد المجمع كان بناءً على دعوة الإمبراطور؛ إلاَّ أن كنيسة الإسكندرية لم تعتبره مجمعاً مسكونياً، بل مجرد محكمة استئنافية بالنسبة لحكم محكمة إبتدائية.

(٧) المرجع السابق، ص ١٩.

(8) FREND; The Rise of Christianity, p. 768.

٢. شخصيات مجمع خلقيدونية الرئيسية

نتائج مجمع أفسس الثاني المنعقد سنة ٤٤٩م:

من وجهة نظر المؤرِّخ العلماني، يُعتبر هذا المجمع أسمى ما بلغت إليه كنيسة الإسكندرية من المجد والفخار. فقد رأسه بطريرك كنيسة الإسكندرية القديس ديوسقوروس صاحب الحظوة لدى الإمبراطور ثيئودوسيوس الثاني. كما أن نتائجه الختامية كانت موضع رِضا السلطات الحاكمة، حتى أن الأسقف ثيئودوريت الذي أدانه هذا المجمع، حاول تحريك القضية لدى إمبراطور الغرب فالنتينوس، الذي بدوره راسَلَ نظيره إمبراطور الشرق، فكان جواب الأخير عليه أنه راضٍ كل الرِّضا على سير الأحداث التي جرت، فهذا كان أفضل ما أمكن الوصول إليه.

شخصية البابا ديوسقوروس

يليق بنا أن نتوسَّع قليلاً في التعرُّف على شخصيته، كتمهيد حتمي لفهم انقلاب الموازين في مجمع خلقيدونية ضد كنيسة الإسكندرية في السنتين اللتين أعقبتا مجمع أفسس الثاني.

إن كنَّا لا نعرف شيئاً عن بداية حياته، إلاَّ أننا نفترض أنه من مواليد الإسكندرية في بداية القرن الخامس. ولأجل حماسه الديني وغيرته على الأرثوذكسية رسمه البابا كيرلس عمود الدين رئيساً لشمامسة كاتدرائية القديس مرقس الرسول بالإسكندرية؛ فكان يُصاحب البطريرك في المقابلات والأسفار الكنسية التي تقتضيها وظيفته البطريركية، كما رافقه إلى مجمع أفسس المسكوني عام ٤٣١م. من ذلك نستنتج أنه كان من القُوَى العاملة وراء الستار في كل مواقف البابا كيرلس الكبير ضد النسطورية. إذن، طول عشرته وخبرته مع القديس كيرلس جعلته يتشرَّب تعاليمه وما تضمنته من مصطلحات وعبارات نحتها وقامت عليها قرارات هذا المجمع المسكوني.

فما بلغ إليه القديس ديوسقوروس من مكانة، مهَّدت له قبولاً في القصر الإمبراطوري وإجماعاً على انتخابه بطريركاً على الكرسي المرقسي في الإسكندرية (البطريرك الـ ٢٥ في عداد بطاركة الإسكندرية)، دون ظهور أية معارضة ضده. وكان طبيعياً أن يستمر في التمسُّك بالمصطلح

اللاهوتي: ”طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسِّد“ الذي يركِّز على ألوهية المسيح إلى درجة عدم صحة القول بالطبيعتين بعد التجسُّد، وهي العقيدة التي بَلْورها نسطور وإليه نُسِبَت هذه البدعة. وصار أي حديث أو مقال يتكلَّم عن الطبيعتين مدموغاً بالنسطورية.

وبعدما تبوَّأ القديس ديوسقوروس الكرسي البطريركي أرسل رسالة مجمعية إلى البابا لاون الكبير أسقف روما مع رسول خاص. وردَّ عليه البابا برسالة يؤكِّد فيها الاتفاق التام بين الكنيستين في أمور العقيدة واللاهوت والطقس الكنسي، الأمر الذي كان يتمنَّاه أي مؤمن في المسيحية. ولكن وراء الكواليس كان هناك تنافس غير ظاهر. فقرارات مجمع نيقية أعطت لكنيسة الإسكندرية المرتبة التالية بعد كرسي روما. وجاء كفاح القديس كيرلس في مجمع أفسس المسكوني، فصارت كنيسة الإسكندرية موازية تماماً لكرسي روما، وكانا يتبادلان الرسائل والآراء بروح المحبة والتقدير دون أن تتطرَّق عقدة الأولية أو الأسبقية في الودِّ الكائن بينهما.

بعد قرار مجمع أفسس الثاني بإرجاع أوطاخي وعزل فلابيانوس بطريرك القسطنطينية، تعرَّض الأخير للضرب والاعتداء عليه بإيحاء من كريزافيوس كبير مستشاري الإمبراطور، والذي كان الابن الروحي لأوطاخي. حدث هذا قبل انصراف المجمع الذي يرأسه ديوسقوروس.

وكما ذكرنا سابقاً[1]، أن البابا لاون قد أرسل ردّاً باللاتينية على رسالة فلابيانوس بطريرك القسطنطينية؛ وللأسف وصل الردُّ متأخِّراً، وفي ترجمة يونانية ركيكة. فأجَّل ديوسقوروس قراءتها إلى حين الانتهاء من تأييد أو نقض الحكم على أوطاخي. ولكن بسبب الهرج والمرج الذي صاحَب الاعتداء على فلابيانوس عقب الحكم بعزله، انسحب مندوبو بابا روما هاربين من المجمع وقدَّموا تقريراً سيِّئاً عن مسار هذا المجمع، ظهرت نتيجته في تسمية البابا لاون هذا المجمع باسم: ”مجمع اللصوص“ الذي كان يرأسه ”فرعون الجديد“.

كان القديس ديوسقوروس شخصية لا تعرف اللين في ظل العوامل المتداخلة الصعبة؛ ومن جهة أخرى كوريث لكفاح أثناسيوس الرسولي وكيرلس عمود الدين، فكان من المتوقَّع أن تكون لديه الكياسة الرئاسية والحكمة وبُعد النظر التي تُعرِّف الإنسان متى يحني الرأس إلى أن تعبُر العاصفة.

---

(١) انظر فصل ”١. البدعة الأوطاخية“، المنشور في هذا الكتاب.

البابا الروماني لاون الكبير

(٤٤٠-٤٦١م)

هو البابا الذي ألبس البابوية papacy لحماً ودماً في الكنيسة الغربية، إذ أعطاها مفهومها الكتابي والعقائدي. كان يؤمن إيماناً راسخاً بامتيازات كرسي روما عن سائر الكراسي الرسولية على مستوى المسكونة شرقاً وغرباً.

وإن كانت شخصيته ليست معروفة إلاَّ من كتاباته المحفوظة لنا باللاتينية، فلا شك في رعويته الرومانية التي أورثته الكرامة والاعتزاز الظاهرين في موهبته التشريعية والإدارية. وهو يتفوَّق على جميع آباء الكنيسة الغربية في حِدَّة وعمق الفكر؛ لذلك لقَّبته الكنيسة الغربية بـ "الكبير". فقد استطاع أن يستثمر كل الظروف الزمنية والسياسية المواتية لنشر وتدعيم البابوية. كما أن حماسه وغيرته على وظيفته الرعوية غرست فيه الاعتقاد أنه مُقام من المسيح لحمل هموم المسيحية شرقاً وغرباً دون انحصار في السلطان الديني، بل تعدَّاه إلى الزمني أيضاً. فالتاريخ المدني لا ينسى له خدماته لأجل مدينة روما؛ إذ أنقذها مرتين من الدمار الذي أحاط بها وأوشك على الانقضاض عليها. فمع تقدُّم قبائل الهون الهنغارية بعد تدميرها أكويليا - (ما كان يُعرف بـ "يوغوسلافيا" قبل انهيار الشيوعية) - حاصرت مدينة روما. ففي الحال اصطحب البابا لاون اثنين من الرفقاء ومعه عصا الرعاية التي تُجسِّم السلطان الإلهي المفوَّض من القديس بطرس - رئيس الرسل (كما يلقِّبونه في كنيسة روما) - ودخلوا معسكر الأعداء. ولأجل هيبته ولأجل الهدايا التي قدَّمها لقائد الأعداء، حوَّلوا هدفهم وانسحبوا من حصار المدينة.

وبعد ذلك بثلاث سنوات، تقدَّم ملك قبائل الفاندال الآريوسي، وهي قبائل تعيش في غرب أوروبا غَزَت شمال أفريقيا واستقرت فيها، وعَبَرَ ملك الفاندال البحر الأبيض المتوسط واقترب من روما لتخريبها انتقاماً من أودكسيا امرأة فالنتينوس إمبراطور الغرب. فخرج إليه البابا لاون وحصل منه على وعد بعدم تخريب روما أو حرقها، وإن كان قد ترك جنوده يسلبون وينهبون المدينة مدة ١٤ يوماً، ثم عادوا بعد ذلك إلى بلادهم في شمال أفريقيا.

البابوية الرومانية:

كان لاون الكبير يؤمن إيماناً راسخاً أن الرب قد استودعه مسئولية الكنيسة باعتباره ''خليفة القديس بطرس الرسول''. فكان أول مَنْ استخرج وشرح البراهين الكتابية التي تستند عليها عقيدة الكنيسة الكاثوليكية حتى الآن. ومع اعترافه بالأهمية القصوى للمسيح بالنسبة للكنيسة كرأس للجسد، وهو اعتراف مشترك لكل الكنائس الرسولية، إلاَّ أن هذا السلطان الإلهي قد انتقل إلى القديس بطرس لَمَّا اعترف: «أنت هو المسيح ابن الله الحي. فأجاب يسوع وقال له: طوبى لك يا سمعان بن يونا، إن لحماً ودماً لم يُعْلِن لك، لكن أبي الذي في السموات. وأنا أقول لك أيضاً: أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (مت ١٦:١٦-١٨).

والشرح اللاهوتي الذي قدَّمه البابا لاون، هو أن كنيسة المسيح قد بُنِيَت، ليس على إيمان القديس بطرس كما تؤمن كافة الكنائس الأرثوذكسية، بل على شخصية هذا الرسول بصفة خصوصية. فعليه، إذن، تقوم العلاقة التأسيسية بين الرب يسوع وبين كنيسته كحقيقة قائمة في الزمن والواقع. وبالتالي فيكون بطرس الرسول، بصفة **شخصية** استثنائية، هو المؤتمن على مفاتيح الملكوت. بينما تؤمن باقي الكراسي الرسولية، أن سلطانهم الكنسي ذو صبغة جماعية ويتحقَّق في اجتماعهم معاً، وهي العقيدة اللاهوتية التي يقوم عليها سلطان المجامع المسكونية.

امتياز القديس بطرس الرسول في تعليم البابا الروماني لاون:

ويستطرد البابا لاون في شرح عقيدة البابوية، أنه بسبب المهمة الإلهية المؤتمن عليها القديس بطرس، قدَّم الرب يسوع لأجله صلاة خاصة خلال آلامه، باعتبار أن ثبات بقية التلاميذ في الرسولية والإرسالية مستمدٌّ من رسوخ وثبات بطرس الرسول بصفة خاصة: «لكني (أنا الرب يسوع) طلبت من أجلك لكي لا يَفْنَى إيمانك. وأنت (يا بطرس) متى رجعتَ ثَبِّتْ إخوتك» (لو ٢٢:٣٢). وتأكَّدت هذه المهمة الإلهية للقديس بطرس عقب القيامة عندما استودعه الرب رعاية الغنم الروحية: «قال يسوع لسمعان بطرس: يا سمعان بن يونا، أتحبُّني أكثر من هؤلاء؟... قال له (يسوع): ارْعَ خرافي. قال له أيضاً ثانيةً: يا سمعان بن يونا، أتحبُّني؟... قال له (يسوع): ارْعَ غنمي. قال له ثالثة: يا سمعان بن يونا، أتحبُّني؟... قال له (يسوع) ثالثة: ارْعَ غنمي» (يو ٢١:١٥-١٧). وبذلك صار القديس بطرس راعي الكنيسة الجامعة بأسرها حسب تعليم لاون اللاهوتي. فمن خلال بطرس الرسول وبواسطته يمارِس الرب سلطانه على النفوس في الأرض.

فليس غريباً بعد ذلك أن يكون بابا روما هو "نائب المسيح Vicar of Christ"، بغض النظر عن شخصية هذا البابا!!

امتداد الخلافة الرسولية حسب تعليم البابا لاون:

لذلك فإن سلطان القديس بطرس - حسب معتقد كنيسة روما - لم ينحصر في العصر الرسولي، كقول بعض المفسِّرين، بل هو ممتدٌ بامتداد الكنيسة من خلال أساقفة روما الذين يرتبطون بالقديس بطرس كارتباطه هو بالرب يسوع. فكما أن الرب كائن في بطرس كياناً خصوصياً متميِّزاً عن سائر التلاميذ، هكذا أيضاً القديس بطرس - على نفس المستوى - كائن في خلفائه أساقفة روما، يُطعم ويرعى خراف الرب أي المؤمنين.

امتداد السلطان الديني ليُغطِّي الزمني أيضاً حسب البابا لاون:

يستنتج البابا لاون من امتياز القديس بطرس فوق بقية التلاميذ؛ أن مدينة روما بالتالي، بسبب كرازة القديس بطرس لها وارتوائها بدم استشهاده، قد تحوَّلت من معقل الشيطان والخطية وعاصمة الوثنية إلى مدينة مقدسة يتمحور العالم حولها، ليس سياسياً فهذا عديم القيمة، بل لاعتبارات دينية تَقَوية بالدرجة الأولى. فهي أُم العالم المسيحي التي اكتست برداء السيادة الروحية التي تفوق بما لا يُقاس على السلطان الزمني.

وبالتالي، تُعتبر القسطنطينية عاصمة سياسية باعتبار سلطانها الزمني فقط. ولكن لا تتساوى مع روما دينياً ولا سياسياً. أما أنطاكية، فكانت مجرَّد مَعْبَر مؤقت للقديس بطرس قبل استقراره في روما واستشهاده فيها. والقديس مرقس الذي كَرَزَ بالإنجيل في الإسكندرية، ليس أكثر من تلميذ لبطرس الرسول. إذن، كل الكراسي الرسولية تُعتبر تالية في الأهمية لكرسي روما الذي أسَّسه القديس بطرس واستشهد في مدينتها، وهذا هو مفهوم البابا لاون.

هذا هو ملخَّص التعليم اللاهوتي عن عقيدة البابوية(٢) الذي كان يردِّده لاون الكبير بابا روما في كل أعياد وتذكارات القديس بطرس الرسول واحتفالات عيد جلوسه على كرسي أسقفية روما، وتضمَّنته جميع مراسلاته مع أساقفة العالم. إلاَّ أنه كانت تظهر في أحاديثه عن شخصه كلمات

(2) Ph. Schaff, History of the Christian Church III, pp. 314-322.

التواضع والمسكنة، فيقول في إحدى عظاته: ”ربي، سمعتُ صوتك يدعوني فخشيتُ، تأمَّلتُ العمل الذي أودع بين يديَّ فارتعبتُ. كيف يتناسب الثقل الموضوع عليَّ مع ضعفي؟ وارتفاعي إلى الأسقفية مع عدمي؟ ما أرهب التسامي بدون استحقاق! وممارسة المهام المقدسة الملقاة على عاتق إنسان غارق في الخطية! آه! عليَّ طرحتَ هذا الحِمْل الثقيل، يا رب، فاحمله معي. أتوسَّل إليك، كُنْ عوني وسندي“(٣). ولكن هذا لا يُنقص من عظمة وظيفته التي يُطالِب لها بالطاعة من جميع أساقفة وبطاركة العالم. وكل مَنْ لا يَرَى ما يراه الكرسي الروماني كرأس تنسكب منه المواهب والنِّعَم على بقية أعضاء الجسد - أي الكنيسة الجامعة - فلا نصيب له في هذه النعمة(٤).

هذه النظرة المزدوجة لتواضعه الشخصي مع تعظيم مرتبته الرسولية، جعلته يختم مقالاته ورسائله بعبارة: ”عبد عبيد الله“، وفي آنٍ واحد: ”نائب المسيح vicarius Christi“. ومن هذا المنطلق كان احتفاله السنوي بعيد جلوسه على كرسي أسقفية روما.لقد ظل البابا لاون أقوى وأعظم شخصية في المسكونة شرقاً وغرباً خلال مدة حبريته التي امتدت حتى عام ٤٦٢م.

---

(٣) Ibid., p. 316 - ربما كانت هذه العظة قد ألقاها البابا لاون بمناسبة تكريسه أسقفاً لمدينة روما.

(٤) يقول البابا لاون في إحدى رسائله: إن مقاومة سلطانه الرسولي تمهِّد حتماً الطريق إلى جهنم - Ep. X,2.

٣. جلسات مجمع خلقيدونية

لقد استعرضنا في الفصل السابق الشخصيتين الرئيسيتين اللتين عليهما سيقوم مجمع خلقيدونية؛ ورأينا كيف أن كنيسة الإسكندرية خرجت من مجمع أفسس الثاني عام ٤٤٩م، باعتبارها معقل الأرثوذكسية. في نفس الوقت الذي نضجت فيه عقيدة البابوية في الفكر اللاهوتي الروماني لدى بابا روما لاون الكبير الذي اعتقد اعتقادًا جازماً مؤيَّداً بتفاسير متوالية أنه مُقام من العناية الإلهية لرعاية الخراف. والخراف بحسب التعليم اللاهوتي للبابا لاون هي الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية)، وهي ليست فقط الكراسي الأسقفية الخاضعة للكنيسة الغربية، بل وامتدَّت لتُغطِّي كراسي البطاركة الأقدمين منذ عهد الرسل: كنيسة الإسكندرية، وكنيسة أنطاكية، وكنيسة أورشليم، انتهاءً بكنيسة القسطنطينية.

بقيت شخصية ثالثة، وهو **ثيئودوريت أسقف قورش في لبنان** وأقوى المدافعين عن التعليم اللاهوتي الأنطاكي، والمعروف عنه حساسيته التاريخية كمؤرخ يستطيع أن يستطلع الأحداث ونتائجها قبيل وقوعها. فبعد قرارات مجمع أفسس خرج منه ثيئودوريت محروماً بسبب انحياز الفكر اللاهوتي الأنطاكي للنسطورية. ولأجل صلابة رأيه وحُسن استغلاله للفرص المواتية، أرسل نداءات متتالية للبابا لاون وللعديد من البطاركة والأساقفة مُطالباً بعقد مجمع لتصحيح أخطاء قرارات مجمع أفسس الثاني حسب اعتقاده. وجرت مراسلات وتداولت الخطابات بين فالنتينوس إمبراطور الغرب وزوج ابنة ثيئودوسيوس الثاني إمبراطور الشرق. ولكن هذا الأخير كان مقتنعاً تماماً بصحة سير الأحداث وقرارات هذا المجمع التي لا تتعارض مع اللاهوت الكنسي المستقر. لذلك رفض فكرة أية مجامع أخرى.

مفاجأة تقلب موازين الأحداث:

كان من الممكن أن تبقى الكنيسة شرقاً وغرباً في سلام لولا حادثة موت ثيئودوسيوس الثاني إمبراطور الشرق عقب وقوعه من فوق حصانه في رحلة صيد عام ٤٥٠م، أي بعد سنة واحدة من انعقاد مجمع أفسس الثاني. فقد مات الإمبراطور ولم ينجب وريثاً للعرش رغم المحاولات المستميتة من الأخت الكبرى الأميرة بولخاريا التي اختارت له زوجته أودوكسيا؛ بل وخططت أن تنذر بتوليتها مع شقيقتيها الأُخرتين حتى لا يتزوَّجن وينجبن نسلاً يُنازِع الوريث المنتظر لثيئودوسيوس،

واعتزلن في جناح منفرد في القصر اشتهر باسم جناح العذارى الملكات. ولم تكتفِ بذلك بل سعت لدى أخيها الإمبراطور أن يستطلع رأي شيوخ برية شيهيت في الزواج بأخرى لعلَّه ينجب منها[١]. ورغم كل ذلك مات الإمبراطور دون أن يخلف وريثاً للعرش. وفي الحال نقضت الأخت الكبرى نذر بتوليتها وتزوَّجت من أحد القادة وكان عضواً في مجلس السيناتو الحاكم، وهو مرقيانوس، كما انسحبت أرملته الإمبراطورة أودوكسيا إلى أورشليم حيث قضت بقية حياتها.

واقتضى تغيير الهيئة الحاكمة التخلُّص من كل الوزراء والمستشارين وحاشية الإمبراطور السابق. فعُزل كريزافيوس كبير المستشارين وحُكم بإعدامه، وتقرر إعادة جثمان فلافيانوس بطريرك القسطنطينية الذي تنيح في المنفى متأثِّراً بإصاباته في مجمع أفسس الثاني، وأخيراً الاستجابة لرغبة بابا روما لاون الكبير في عقد مجمع يُصحِّح أخطاء "مجمع اللصوص" كما سمَّاه لاون، لكن مكان انعقاده كان قريباً من القسطنطينية وليس في روما، حتى يتولَّى الإمبراطور مرقيانوس رئاسته، وتحدَّد موعد انعقاده في أكتوبر عام ٤٥١م.

هذه الأحداث تكشف انهيار تحالف الإسكندرية/ روما الذي قام منذ عهد القديس أثناسيوس الرسولي، وقيام محور جديد روما/ القسطنطينية؛ لكن في هذه المرة كان موجَّهاً ليس ضد الآريوسية والنسطورية بل ضد الإسكندرية وبطريركها بصفة خصوصية.

انعقاد المجمع:

كانت استجابة بولخاريا/ مرقيانوس سريعة لدعوة بابا روما لعقد المجمع المقترح، وظهر ردُّ الفعل في الخطاب الذي بعثت به الإمبراطورة الجديدة إلى لاون الكبير في قولها إنها ضد "المانوية manichism"، قاصدة بذلك قرارات مجمع أفسس! وطلب الإمبراطور مرقيانوس أن تكون مدينة نيقية هي مقر المجمع وليست روما كاقتراح البابا لاون، هادفاً بذلك الدعاية السياسية، حيث اشتهرت هذه المدينة بمجمعها المسكوني الأول الذي أقرَّ قانون الإيمان المعروف. وفعلاً توافد العدد الكبير من الأساقفة الذين دُعوا إليه. ولكن بسبب تهديد قبائل الهون الهنغارية لحدود العاصمة وإصرار الإمبراطور على رعايته الشخصية للمجمع، انتقلت الوفود بسرعة إلى خلقيدونية المدينة

(١) لا تزال هذه الرواية محفوظة في سيرة التسعة والأربعين شهيداً شيوخ شيهيت بدير القديس أنبا مقار.

المقابلة للقسطنطينية والمطِلَّة على خليج البوسفور على الشاطئ الآسيوي.

وتفيض روايات المؤرِّخين البيزنطيين والكاثوليك بأوصاف هذه المدينة ذات المناظر الخلاَّبة. فسفوح التلال المقابلة لكاتدرائية القديسة إفومية، مقر المجمع، تكسوها الأشجار الكثيفة وتتخلَّلها الأحراش الغنية بالمحاصيل النباتية الثمينة كالبندق والفستق. وتنحدر السفوح في جلال ومهابة إلى بحر مرمرة الذي تُردِّد مياهه البللورية صوت حفيف الأمواج الساكنة والقصور الوردية الألوان، وعلى الجانب الآخر من البوسفور كاتدرائية آجيا صوفيا في تناسق بديع خلاَّب. مثل هذه الأوصاف لا تغيب عن قريحة أي مؤرِّخ تاريخي، لأنها تعكس نجاح الدعاية السياسية أكثر من العقائدية وراء انعقاد هذا المجمع.

وقد فوَّض الإمبراطور ١٩ مندوباً عنه لرئاسة وتنظيم الجلسات في غيابه، تحسُّباً لأي هجوم متوقَّع، وحتى يتناسب مع العدد الكبير من البطاركة والأساقفة الذين حضروا المجمع والذي يفوق عددهم أي عدد آخر عرفته المجامع المسكونية على الإطلاق. ولكن الأمر الذي يُتعَجَّب له، أن المصادر التاريخية لدى البيزنطيين والكاثوليك لم تتفق على عدد الحاضرين: إذ كان يترواح ما بين ٣٥٠ إلى ٦٥٠ أسقفاً!

• الجلسة الأولى للمجمع:

تصدَّر الكنيسة الإمبراطور والإمبراطورة جالسَيْن على منصة تتوسَّط الصحن خلف الحاجز المعدني الذي يفصل الهيكل عن الصحن. وقد جلس عن يمينهما البابا ديوسقوروس الإسكندري ثم جوفينال بطريرك أورشليم ثم أساقفة اليونان وإيلليريا وفلسطين، وجميعهم كانوا مؤيِّدين للبابا ديوسقوروس. وعن اليسار جلس مندوبو بابا روما: الأسقف بسكاشينوس واثنان من الكهنة الرومانيين، ثم بطريرك القسطنطينية، ثم بطريرك أنطاكية، ثم باقي أساقفة قيصرية وأفسس وآسيا الصغرى.

وقبيل افتتاح الجلسة الأولى كان واضحاً أن الميزان يميل منحازاً إلى بابا روما. وهذا ما أحسّه أنبا ديوسقوروس وتحقَّق من تحذير أساقفة كرسيه أن دعوة هذا المجمع يظهر فيها خاتمة المطاف للتعليم اللاهوتي للقديسَيْن أثناسيوس الرسولي وكيرلس الكبير، كما أنها تحمل مضموناً خفياً بالموت أو الاستشهاد. إذ بمجرد افتتاح الجلسة الأولى طالَب مندوبو بابا روما بخروج البابا ديوسقوروس

بسبب الاتهامات الكثيرة ضده، ولا حاجة بنا للدخول في تفاصيلها. فانتقل البابا ديوسقوروس إلى وسط الكنيسة ليحسم الأمر، في الوقت الذي احتج فيه الأساقفة المصريون بضرورة طرد ثيئودوريت أسقف قورش الموجود في المجمع بناءً على الحِلِّ الذي ناله من لاون وليس من مجمع حسب القوانين الكنسية.

ولما بدأت قراءة محاضر جلسات مجمع أفسس الثاني، والذي بسببه ينعقد هذا المجمع، تنصَّل رؤساء الأساقفة والأساقفة من توقيعاتهم مدَّعين أنهم وقَّعوا على أوراق بيضاء وتحت تهديد. وكانت هذه بداية المهاترات التي تردَّى فيها هذا المجمع إرضاءً للسلطان المدني وللمحور الكنسي الجديد بين روما والقسطنطينية تخلُّصاً من المكانة الأدبية الأولى لكرسي الإسكندرية. وبدأت عمليات انسحاب الأساقفة الذين كانوا مؤيِّدين للبابا ديوسقوروس إلى الناحية المقابلة حيث جلس وفد كنيسة روما. وكان بابا الإسكندرية يُلاحظ كل هذا وهو راسخ في العقيدة التي تسلَّمها من سلفه البابا كيرلس الكبير والتي لم تذكر تعاليمه شيئاً عن أنَّ المسيح ''في طبيعتين'' بعد الاتحاد. وكان جوابه الذي يكرِّره دائماً: إننا نقبل القول بأن الأقنوم الثاني، **طبيعة واحدة من طبيعتين**. لكن أن نقول بطبيعتين بعد الاتحاد! فهذا غير مقبول. وانتهت الجلسة الأولى بالمطالبة بعزل ديوسقوروس وحلفائه وكل مَنْ وقَّع قرارات مجمع أفسس الثاني.

• الجلسة الثانية:

تقرر فيها رفع الحرومات التي وقَّعها مجمع أفسس الثاني على فلافيانوس بطريرك القسطنطينية المتنيح في المنفى، كما بُدئ في شرح التعريفات الإيمانية المقررة في قرارات مجمعَي نيقية وأفسس المسكونيين ومن كتابات آباء الكنيسة المعروفين. ولكن أهم ما استجدَّ على الساحة هو الشرح الذي جاء في طومس (أي ''إعلان إيمان'') لاون وعبارته الصريحة عن وجود **طبيعتين في المسيح**؛ والتي ما أن سمعها الأساقفة المنحازون لكرسي روما، حتى صاحوا هاتفين: إنه تعليم أرثوذكسي، إن الرسول بطرس يتكلَّم بفم لاون، إن تعاليم القديس كيرلس هي هي التي يُنادي بها لاون! وبلا شك، كان أساقفة مصر وفلسطين واليونان أبعد ما يكون عن هذه الهتافات لأنهم متيقِّنون تماماً أن تعاليم القديس كيرلس بريئة من هذا التعبير.

في هذه الجلسة كرر القديس ديوسقوروس دفاعه أن قرار حرمان فلافيانوس راجع إلى مناداته بالطبيعتين بعد التجسُّد، بخلاف أقوال الآباء أثناسيوس وكيرلس وآباء كبادوكية التي تؤكِّد على

الطبيعة الواحدة لله الكلمة المتجسِّد من بعد الاتحاد بين الطبيعتين. فإن كانوا سيُقرِّرون عزله، فبالأَوْلَى أن يحكموا على الذين سبقوا وقرَّروا هذه العقيدة؛ أما هو فسيبقى متمسِّكاً بأقوالهم، ولن ينحرف عن تعاليمهم. فلم يوجد مَنْ استطاع أن يُعارضه بل اتجهوا في مناقشاتهم إلى نواحي أخرى أكَّدت لدى القديس ديوسقوروس الدوافع الخفية وراء هذا المجمع، وأنه هو بشخصه المقصود به.

• الجلسة الثالثة:

بعد أن اتضح أن السهام مصوَّبة إلى بطريرك الإسكندرية، امتنع عن حضور الجلسات التالية كقول المؤرخين البيزنطيين. لكن الحقيقة، بحسب ما نستشفه من شخصية وشجاعة البابا ديوسقوروس، أن الحُرَّاس منعوه من المجيء إلى المجمع، فهو ليس بالشخصية التي تقبل تسوية مهينة. وحيث إنه امتنع عن المجيء بعد ثلاث مرَّات استدعاء، استأنف المجمع جلساته بتوجيه الاتهامات الشخصية له من المدَّعين أو المنتفعين من إكليروس الإسكندرية، بأنه طاغٍ ومستبد وقد صادر أموال وثروة أسرة سلفه القديس كيرلس الكبير، وكان من أغنى عائلات الإسكندرية... إلخ.

من هذا العرض الموجز نرى أنه لم يُمسك على البابا ديوسقوروس أي خطأ لاهوتي ولا هرطقة، بل كلها ادِّعاءات لمخالفات تنظيمية. وفي هذه الجلسة كان المفوَّضون الملكيون غائبين، فترأَّس الجلسة مندوب بابا روما ونطق بقرار العزل قائلاً: باسم بطرس صخرة الكنيسة وأساس العقيدة الأرثوذكسية نعلن حرمانك من السلطان الكهنوتي. والذين حضروا الجلسة كانوا ١٨٥ أسقفاً فقط.

لا شك أن طومس لاون قد قوبل بمعارضة عنيفة فاجأت المفوَّضين الملكيين الذين كانوا يترأَّسون الجلسات. لذلك نشط أناتوليوس بطريرك القسطنطينية في تقريب وجهات النظر محاولاً إيجاد مخرج من هذا المأزق الحرج، وعمل مسوَّدة لقرار لاهوتي تُعتبر الآن في حكم المفقودة. إلاَّ أنها بلا شك تؤكِّد على وحدانية أقنوم الابن وأنه **من طبيعتين**. لكن هذه التعديلات لاقت معارضة شديدة من مندوبي بابا روما مع التهديد بمقاطعة المجمع والانسحاب؛ في نفس الوقت الذي ارتفعت فيه صيحات الاحتجاج من الجانب الآخر: "لتبقَ العقيدة الصحيحة، وإما نعود إلى بلادنا. هؤلاء المندوبون هم نساطرة، ليرجعوا إلى روما"! والحقيقة أنه لو نجح المجمع في إبقاء تعبير "**من طبيعتين**" لما حدث الانقسام المؤلم الذي انتهى إليه المجمع، فالقديس ديوسقوروس وافق عليه.

وهكذا توقَّف عمل لجنة التوفيق المشكَّلة من أناتوليوس بطريرك القسطنطينية وبعض الأساقفة، وجاء الإمبراطور مرقيانوس والإمبراطورة بولخاريا في الجلسة السادسة ونطقا بالعقيدة المتَّفق عليها، والتي جمعت تعابير القديس كيرلس والبابا لاون مع إضافة أربع صفات لاحقة: بغير اختلاط ولا امتزاج ولا انقسام ولا تغيير، تأميناً ضد النسطورية والأوطاخية.

ثم توالت جلسات المجمع حتى النهاية، ١٥ جلسة، في بحث أمور تنظيمية وإدارية وفض مشاكل وخلافات الأساقفة حول حدود ولاياتهم وكراسيهم. ولكن أهم ما انتفعت به القسطنطينية هو القرار رقم ٢٨ الذي ينص على المساواة بين كرسي العاصمة وكرسي روما مع بقاء الأفضلية الأدبية والكرامة لكرسي روما بسبب أولويته التاريخية. وبذلك صار لبطريرك القسطنطينية الولاية على كل أسقفيات الشرق مثلما لبابا روما على كراسي الغرب؛ وهذا أصبح سهلاً بعدما أُزيحت الإسكندرية من الطريق.

وبالنسبة لروما، وافق لاون الكبير على قرارات مجمع خلقيدونية بعد مُضِيِّ سنتين، مع الاحتجاج على القرار ٢٨، ورفضه للمساواة مع كرسي القسطنطينية. ولا يزال هذا القرار معلَّقاً حتى عصرنا هذا.

في أعقاب مجمع خلقيدونية

بالرغم من التعريفات العقائدية التي وضعها هذا المجمع، إلاَّ أنه لم ينجح في وقف الجدال الحاد الثائر حول تحديد العلاقة بين اللاهوت والناسوت في أقنوم الابن كلمة الله المتجسِّد[1]، ولا حتى استطاع القضاء على البدعة الأوطاخية التي تفجَّرت منذ عام ٤٢٨م، في عهد البابا كيرلس عمود الدين. بل على النقيض، يمكن القول بمزيد من الأسى إنه كان بداية أزمات متلاحقة بين الكنائس بعضها مع بعض بسبب الانقسام الذي تولَّد عنه؛ أزمات امتدَّت من منتصف القرن الخامس إلى ما بعد دخول العرب أراضي وشعوب الكنائس الشرقية والغربية على السواء. وبذلك بدأ التاريخ الكنسي مرحلة مأساوية حزينة لا تزال تئنُّ تحت وطأتها الشعوب والكنائس حتى الآن.

مراجعة تاريخية:

بدأ التاريخ الكنسي بميلاد الكنيسة يوم الخمسين بحلول الروح القدس على التلاميذ مثل ألسنة نار منقسمة على كل واحد منهم: «وامتلأ الجميع من الروح القدس، وابتدأوا يتكلَّمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا... وكانوا كل يوم يُواظبون في الهيكل **بنفسٍ واحدة**. وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت (شركة الإفخارستيا)، كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب، مُسبِّحين الله، ولهم نعمةٌ لدى جميع الشعب. وكان الرب كل يوم يضم إلى الكنيسة (بواسطة المعمودية) الذين يخلصون» (أع ٢: ٤، ٤٦، ٤٧). هكذا كانت الكنيسة تنمو وتمتد مُحقِّقةً طلبة الرب يسوع إلى الآب قبيل الآلام والصليب: «احفظهم في اسمك الذين أعطيتني... ليكونوا **واحداً كما أننا نحن واحد**. أنا فيهم وأنت فيَّ **ليكونوا مُكمَّلين إلى واحد، وليَعْلَم العالم أنك أرسلتني**» (يو ١٧: ١١، ٢٢، ٢٣).

فبشارة التلاميذ والرسل منذ البدء أن تكون الكنيسة واسطة استعادة البشرية المفكَّكة والمفتَّتة إلى قوميات وشعوب وأجناس يتصارعون لأجل العظمة والمكان الأول، إلى وحدانية فائقة على قدرات العقل والإنسان، ووسيلتها في ذلك هي "المعمودية" التي بواسطتها يُولَد الإنسان ميلاداً

(1) *New Catholic Encyclopedia,* Vol. III, Council of Chalcedon.

جديداً من الماء والروح، ويصير هيكلاً للروح القدس الذي يرفع الفوارق الاجتماعية والعِرْقيَّة والجنسية: «لأن كلَّكم الذين اعتمدتم في المسيح قد لبستم المسيح[٢]. ليس يهودي ولا يوناني (فروق ثقافات). ليس عبدٌ ولا حُرٌّ (فروق اجتماعية). ليس ذَكَرٌ وأُنثى (تفوُّق الرجل على المرأة)، لأنكم **جميعاً واحدٌ في المسيح يسوع**» (غل ٣: ٢٧، ٢٨). سقوط هذه الفوارق وحلول السلام هو من ثمار الصليب المجيد: «لأنه **هو سلامنا، الذي جعل الاثنين واحداً**، ونَقَضَ حائط السياج المتوسط أي العداوة. مُبطلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائض، لكي **يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً، صانعاً سلاماً**» (أف ٢: ١٤، ١٥).

[فانظر، أيها القارئ العزيز، كم كلَّفتْ الله عداوةُ الإنسان من نحو أخيه الإنسان؟ كيف رفعها الله من الوسط بدمه وأسقطها بارتفاعه على الصليب؟... وبهذا أصبحت العداوة مرة أخرى بالنسبة لأي إنسان آخر هي بمثابة دَوْس ابن الله، واحتقار الدم الذي سُفِك ثمناً للمصالحة، والازدراء بروح النعمة التي سكبها الله ثمناً لموت ابنه لأجل الجميع بدون تفريق، وعودة إلى الإنسان العتيق][٣].

هكذا بدأت الكنيسة موقَّعة على الزمن منذ يوم الخمسين، فقدَّست الزمن فعلاً لأن الإنسان دخل بواسطتها إلى الأبدية واللازمن. وظهرت البشرية الجديدة بأخلاقٍ وسلوكيات إنجيلية تفوق كل الأعراف البشرية في الثقافات والفلسفات والمذاهب بأجمعها. فكانت الكنيسة بأعضائها المتجدِّدين هي بالفعل عروساً مزيَّنة لرجلها: «وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً: هوذا مسكن الله مع الناس، وهو سيسكن معهم، وهم يكونون له شعباً، والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم» (رؤ ٢١: ٣). ومن خلال اثني عشر تلميذاً وسبعين رسولاً في منتصف القرن الأول الميلادي، افترشت الكنيسة بثوبها الإلهي البشريةَ قاطبةً؛ فانهارت الوثنية في القرن الثالث، وتحوَّل الإمبراطور إلى المسيحية في بداية القرن الرابع، ومُسِحَت الفلسفة اليونانية بمسحة الروح القدس لتصبح علم اللاهوت المسيحي على يد آباء كنيسة الإسكندرية، وما تبقَّى من الأقليات الوثنية صاروا من الضآلة حتى أن التاريخ المدني لم يحسَّ بنبضاتهم.

---

(٢) ترجمة أدق، كما وردت في كتاب: "شرح رسالة القديس بولس إلى أهل غلاطية"، للأب متى المسكين، مطبعة دير القديس أنبا مقار، الطبعة الثانية: ٢٠٠٦، ص ٢٤٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٥٠.

لم يكن هذا أمراً سهلاً كما يبدو للقارئ البسيط، فامتداد الكنيسة التاريخي كان على بساط دم الشهداء مبتدئاً من القديس إسطفانوس بكر شهداء المسيحية، وصار دمهم هو البذار التي أخصبت الكنيسة، فتمخَّضت عن بشرية جديدة مقدسة امتداداً لذبيحة الصليب. واتساع الكنيسة ألزمها بقيام مؤسساتها الكهنوتية من شماس إلى كاهن إلى أسقف، ثم انعقاد مجامع محلية ومسكونية تتحاور في سلامٍ مقدِّمة حلولاً لاهوتية وتنظيمية تفضُّ بها المجادلات الفلسفية في أمور اللاهوت أو التداخلات التنظيمية.

ولكن للأسف، في غفلةٍ والناس نيام، زرع العدو زواناً وسط الحنطة؛ وبدأ التاريخ الكنسي يسجِّل قيام منافسات بين الكراسي الرسولية. فتسلَّلت الألقاب والأولويات لتحتل المكانة الأولى عِوَضاً عن المكان الأخير الذي يوصي به الإنجيل. وتصاعَد هذا التنافُس فبلغ ذروته في منتصف القرن الخامس، حيث كان القديس ديوسقوروس بطريركاً على الكرسي الإسكندري، مقابل البابا لاون الكبير أعظم مَنْ كتب باللاتينية في كتابات آباء الكنيسة الغربية اللاهوتية، والذي زجَّ بأولوية القديس بطرس على التلاميذ ليكون من حق خليفته - أسقف روما - أن يترأَّس على الكنائس شرقاً وغرباً. وبين هذين القطبين، انعقد مجمع خلقيدونية، ليُثمر النتيجة المتوقَّعة بغياب الكنيسة الواحدة ليحلَّ بدلاً منها كنائس متعددة: خلقيدونية ولاخلقيدونية، ويخلف التصدُّع المأساوي الذي نئنُّ تحت ثقله حتى الآن.

ونستعرض فيما يلي، بإيجاز، ردود الفعل في كل كنيسة من الشرق المسيحي:

أولاً: كنيسة الإسكندرية:

انحياز السلطة الرومانية بكل وطأتها وبدون شروط إلى قرارات المجمع، ثم محاولة فرضها بالقوة الجبرية بالاستعانة بالجيش؛ أيقظت غريزة التحدِّي وهي إحدى غرائز الإنسان الطبيعي (وبالتالي العتيق) في الشعب المصري. فإذا أضفنا إليها الصدمة العاطفية والنفسية التي أصابت أساقفة الكرسي الإسكندري بعد علمهم بالمهانة والرذل الذي نال بطريركهم في المجمع، ثم حرمانه ونفيه إلى غنغرا في آسيا الصغرى، فلابد أن نتوقَّع ردَّ الفعل العنيف الذي حدث ضد مجمع خلقيدونية أو أي تلميح ضمني من جهته. فكنيسة الإسكندرية، بحسب طبيعة شعبها، شديدة التمسُّك والترابُط، وفيَّة لتقليدها العريق؛ لذلك فقد ناصرت القديس ديوسقوروس. وطالما أن القديس كيرلس الكبير قد قال إن اللوغوس الإلهي بعد التجسُّد هو صار ''طبيعة واحدة من طبيعتين''،

فهذا يعني أن هذه العبارة هي عقيدة غير قابلة للحوار وغير خاضعة للتفسير. **وللأسف جاء في تعليق لأحد القواميس الكاثوليكية عند سرد حياة القديس ديوسقوروس: ''إن تعبير "طبيعة واحدة" هو على وجه الدقة تعبيرٌ يؤسَف له للقديس كيرلس** one nature is precisely the unfortunate expression of St. Cyril''. والبابا لاون في الطومُس (أي الإعلان العقائدي) المعروف باسمه، يعطي عين هذا التعبير تفسيراً آخر: ''إن كل طبيعة من الاثنين قد احتفظت بخاصيتها كاملة بدون نقص... الرب يسوع هو شخصٌ واحدٌ Prosopona = Person ، وبناءً على هذه الوحدانية نفهم أنها كائنة في كِلاَ الطبيعتين''. ثم يدين قول أوطاخي: ''أنا أعترف أن ربنا كان من طبيعتين قبل الاتحاد. ولكن بعد الاتحاد أعترف بطبيعة واحدة''، وتعليق البابا لاون: ''إن هذا الاعتراف ليس فيه التوقير اللائق بالله impious''(٤).

ولم تقبل الكنيسة القبطية هذه التفسيرات، ولم تتزحزح عن تعبيرات القديس كيرلس، ورذلت قرارات المجمع الخلقيدوني، ورفضت البطريرك البديل ''بروتاريوس'' الذي أرسلته السلطات الحاكمة ليكون بطريرك الكنيسة القبطية، والذي لم يتمكَّن من ممارسة مهامه الكهنوتية إلاَّ بقوة السلاح؛ فدارت معارك دامية في شوارع الإسكندرية. ولأول مرة في التاريخ الكنسي يقف شعب وكنيسة موقفاً نسميه بلغتنا الحاضرة ''حرية الرأي والعقيدة''، وهو أهم حقوق وثيقة حرية الإنسان التي أصدرتها هيئة الأُمم المتحدة في القرن العشرين.

هنا علينا أن ننبِّه القارئ لئلا ينساق وراء العواطف البشرية أو المناصرة القومية، لأن تفجُّر العوامل الوراثية الدفينة يعود بالإنسان الجديد الذي تحلَّى بالآداب المسيحية إلى الإنسان العتيق مرَّة أخرى. وهي بلا شك الثمرة المرَّة لفرض الرأي والعقيدة بالقوة.

ليس هذا فقط، بل ظهر عنصر دخيل إلى مفاهيمنا الإنجيلية. فنحن نعلم أن الموت لأجل المسيح والإنجيل هو استشهاد يبلغ صورته المثالية في القديس إسطفانوس. لكن بعد التصدُّع الذي أصاب الكنيسة الجامعة، صارت العقيدة التي تؤمن بها هي وحدها ''الحق الإلهي'' الذي تحتضنه وتدافع عنه؛ وبالتالي فمَن يموت لأجل العقيدة التي تؤمن بها الكنيسة تعتبره شهيد إيمان. كان يمكن لكنيستَي روما والقسطنطينية قبول تعبير القديس كيرلس الكبير ''طبيعة واحدة'' دون

---

(4) New Catholic Encyclopedia, The Tome of St. Leo.

تفسيرات مُلزمة تفرضها بالقوة العسكرية.

وبسبب هذا التمسُّك بتعبير "الطبيعة الواحدة"، صارت كنيسةُ الإسكندرية في نظر كرسي روما وكرسي القسطنطينية كنيسةً أوطاخية، وصار أتباع مجمع خلقيدونية ومَنْ شايعه في نظر كنيسة الإسكندرية نساطرة؛ مما فتح الباب لتسلُّل العصبيات القومية لتسيطر على مقدرات الكنائس فيما بعد. والخطوة التالية الحتمية أن ضَعُفَتْ في كنيسة الإسكندرية معرفة اللغة اليونانية، لغة العهد الجديد وكتابات آباء كنيستها عَبْرَ خمسة قرون من الزمان، لأنها لغة المستعمر؛ لتحلَّ محلها اللغة القبطية لغة الشعب في مصر. وصاحَبَ هذا الانتقال التدريجي، اصطباغ الطقس الكنسي الإسكندري بالصبغة الشعبية، فصار طقساً قبطياً منحصراً في أرضها، ينمو ويتطوَّر مستقلاً عن بقية العالم المسيحي.

ورغم انحياز السلطة الإمبراطورية بكامل ثقلها إلى قرارات هذا المجمع، والاستعانة بالقوة العسكرية لفرضها في سائر أنحائها؛ إلاَّ أن المعارضة الشعبية وتكتُّل الجماهير وراء القديس ديوسقوروس لم تنقص أبداً. لكن هذا لم يمنع وجود أقلية يونانية ذات منفعة ومصالح مشتركة مع السلطة الحاكمة، وهذه ارتضت بالبطريرك الدخيل الذي وافقت عليه القسطنطينية بديلاً للقديس ديوسقوروس. واشتهرت هذه الجالية اليونانية وبطريركها باسم: "المِلْكانيِّين"، وهي كلمة سريانية تفيد التبعية للملك. وقليلاً قليلاً تضاءل نفوذ هؤلاء الملكانيين وضعفت شوكتهم خاصة بعد دخول العرب أرض الشام ومصر، حتى أنهم قضوا فترات كثيرة بدون بطريرك، أي أنه انقطع تسلسُل كرسيهم الرسولي، فكانوا يتبعون بطريرك القسطنطينية، مما جعل الطقس الإسكندري المِلْكاني يقترب جداً من الطقس القسطنطيني؛ بينما حافظ الطقس الإسكندري القبطي على خصائصه الرسولية القديمة.

ومن جهة أخرى، ونظراً لارتباط الحزب الخلقيدوني بالسلطة الحاكمة اصطبغت حياتهم بصبغة العالم، إذ كثيراً ما كان الإمبراطور البيزنطي يُفوِّض البطريرك الخلقيدوني بالسلطان الزمني مع الديني ليتمكن من فرض ولايته بالقوة، كما حدث مع مَن كان يُسمَّى "المقوقس" وقت دخول العرب مصر(٥). بينما اتجه اللاخلقيدونيون، بسبب وقوف السلطات ضدهم، ناحية التبشير والخدمة

(٥) راجع: ألفريد بطلر، "فتح العرب لمصر"، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد.

الروحية مستعينين بالرهبان والأديرة المنتشرة في البقاع المصرية. فكان هذا من وسائل تدعيم القاعدة الشعبية في ريف مصر ضد المجمع، حتى أنه يُحكى أن جماعة من النساء سُئلن عن علّة المقاومة العنيفة ضد قرارات هذا المجمع؛ فكان جوابهن: نحن لسنا سوى نساء لا دراية لنا بالجدال الثائر الآن، لكن ما تسلّمناه من آبائنا الشرقيين لن نفرّط فيه ما دُمنا أحياء(٦).

ثانياً: كنيسة أنطاكية:

حتى عام ٤٣٠م، كانت أنطاكية مُعارِضة للإسكندرية ومقاومة لتعليم القديس كيرلس الكبير اللاهوتي بسبب البدعة النسطورية. لكن تغيُّر الظروف والسياسات أدّى إلى انحسارها في المناطق الجبلية النائية بين سوريا والعراق، ثم استوطنت العراق بعيدة عن التأثيرات الرومانية، حيث كان الحُكّام من الغساسنة أو من بلاد فارس.

لذلك قام في أنطاكية الحزبان المتعارضان، وكثيراً ما أدّى التصادُم بينهما إلى القتال في الشوارع، إذ لم يكن الخلقيدونيون ضعفاء بالمقارنة مع نظرائهم من أهل الإسكندرية. فالبطريرك الأنطاكي بطرس القصّار(٧)، الذي سيم بطريركاً بين سنتي ٤٧٠م و٤٨٨م، عُزِل وعاد إلى منصبه أربع مرات خلال الـ ١٨ سنة التي امتدت إليها ولايته.

وأشهر الذين رسمهم البطريرك بطرس القصّار هو القديس فيلوكسينوس المنبجي، أو اكسينايا بحسب اسمه السرياني؛ ويُعتبر هذا القديس أقوى المدافعين عن عقيدة "الطبيعة الواحدة"، وفي نفس الوقت من كبار كُتّاب الأدب السرياني في العقيدة والروحانية. وكما أدّت المقاومة الشعبية في مصر إلى ازدهار الأدب القبطي؛ هكذا أيضاً في سوريا برز الأدب السرياني نتيجة مقاومة مجمع خلقيدونية، فظهر الكثير من الأعمال الدينية بهذه اللغة.

والأمر الذي لا ينبغي أن نعبر عليه بسهولة، وباعتراف مؤرّخين مُحدثين أيضاً(٨)، أن معارضة مجمع خلقيدونية وما استتبعه من مقاومة للُّغة اليونانية أفسحت المجال لقيام لاهوتيين عِظام في

---

(6) W.H.C. Frend, The Rise of Christianity, p. 875.

(٧) لقب "القصّار" الذي اشتهر به راجع إلى أن مهنته كانت تبييض (أو صبغ) الأقمشة، وهي المهنة التي مارسها عقب طرده من دير "الذين لا ينامون" قرب خلقيدونية (بسبب اعتناقه لعقيدة الطبيعة الواحدة).

(8) J. Danielou & Marrou, The Christian Centuries I, p. 356.

الكنيسة السريانية، مثل البطريرك بطرس القصَّار وفيلوكسينوس المنبجي ويعقوب البرادعي، في الوقت الذي لم يوجد مَنْ يضاهيهم في الجانب الخلقيدوني، خاصةً في نشاطهم الطقسي. فتاريخ الطقس يُسجِّل لنا أن البطريرك بطرس القصَّار هو الذي أدخل في الليتورجيات الشرقية الثلاثة تقديسات Trisagion المعدَّلة التي تُقال قبل قراءة الإنجيل: "قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الحيّ الذي لا يموت، الذي صُلِبَ عنا، ارحمنا" لتصير مردّاً شعبياً ينهي على عقيدة "الطبيعتين" الخلقيدونية، وتُرسِّخ الشعب في "الطبيعة الواحدة". وهو بذلك يُطبِّق ما قاله القديس ديوسقوروس: "حينما عُلِّق (المسيح) على الصليب لم يفترق لاهوته عن ناسوته"[٩]، والذي هو بدوره امتداد لقول القديس كيرلس الكبير في الحرم الثاني عشر: "الله الكلمة قد تألَّم بالجسد". والبطريرك بطرس القصَّار هو أيضاً الذي أدخل في الليتورجيا تلاوة قانون الإيمان تأكيداً لقرارات مجمع نيقية ومجمع القسطنطينية، وبذلك دخل مجمع خلقيدونية دائرة النسيان في أذهان الشعب.

ومثلما حدث في مصر، اتَّجه السريان إلى مواطنيهم من عرب بادية الشام حتى العراق، فأقاموا العديد من الكنائس البسيطة والأديرة بعيداً عن الكاتدرائيات البيزنطية الفخمة، وصاحَبَها أيضاً فكرة مشابهة للمذابح المتنقلة لإقامة الإفخارستيا لعرب البادية لتيسير تناولهم من الأسرار المقدسة.

ثالثاً: كنيسة أورشليم:

لم تلقَ كنيسة أورشليم المؤازرة الشعبية مثل تلك التي قامت في الإسكندرية ومصر؛ إلاَّ أن الرهبان ثاروا على البطريرك جوفينال بسبب تخليه عن البابا ديوسقوروس وتأييده لطومس لاون. ولم يستطع البطريرك الأُورشليمي جوفينال استرجاع كرسيه إلاَّ بعد سنتين وبالاستعانة بالجيش. والبطريرك الذي حلَّ محله في هذه الثورة، وبالطبع كان مؤيِّداً للبابا ديوسقوروس، رَسَم أساقفة كثيرين منهم بطرس الإيبيري ابن أول ملك لمقاطعة جيورجيا آمن بالمسيحية. وكان هذا البطريرك قد تربَّى في القسطنطينية، ولَمَّا كبر ترهب في أورشليم ثم في دير قريب من غزة، إلى أن أُقيم أسقفاً على إحدى البلاد المجاورة منها وهي: مايوما Maiouma. وبطرس الإيبيري هو أحد الأساقفة الذين وضعوا اليد على القديس تيموثاوس الثاني الذي رُسم بطريركاً على الإسكندرية عقب نياحة القديس ديوسقوروس.

---

(٩) الأستاذة إيريس حبيب المصري، "قصة الكنيسة القبطية"، الجزء الثاني، ص ٧٦.

النتيجة العامة لمجمع خلقيدونية:

كان من ثمرة التصدُّع الحزين الذي تسبب فيه هذا المجمع:

– ضياع وحدانية الروح التي للمحبة والتقوى، إذ بدأتْ كل كنيسة محلية تنحصر في ذاتها، وأصبح لها قديسوها وشهداؤها الذين تختارهم بناءً على معايير خاصة بكل كنيسة.

– خضوع قادة الكنائس المنقسمة للتيارات الشعبية، أبرزت النعرة الطائفية. فكان مجرد ظهور أي شخص متحيِّز لمجمع خلقيدونية كفيلاً بهياج الشعب المسيَّب تحت سلطان النعرة الطائفية، ولا يهدأ إلاَّ بعد الإنهاء على هذا الدخيل. فحينما اختار الخلقيدونيون في الإسكندرية كبير كهنتها وتلميذ القديس ديوسقوروس "بروتيريوس" بطريركاً، تربَّصت به الجموع حتى بات لا يستطيع التحرُّك أو الصلاة إلاَّ تحت الحراسة المسلحة. ورغم هذا، استطاعوا الانفراد به واغتياله، دون اعتبار لمهابة ذلك اليوم الذي كان يوافق خميس العهد أو الجمعة العظيمة، ودون اعتبار أيضاً لاختبائه منهم في موضع معمودية الكنيسة[١٠]. وصار بروتيريوس شهيداً في نظر الكنائس الخلقيدونية.

– انحياز الكنائس الخلقيدونية للسلطات الحاكمة، أدخلها تحت نير السياسة الزمنية وأضعف فيها روح الكنيسة الرعوية. فالخمسمائة أسقف الذين وقَّعوا قرارات مجمع خلقيدونية عادوا عام ٤٧٥م وأنكروا توقيعاتهم حينما اغتصب بازيلسكوس الحكم من الإمبراطور زينون، لأن المغتصِب وجد أن المناورة السياسية تقتضي مناصرة بطريرك الإسكندرية واللاخلقيدونيين. وبعد عامين عاد نفس الموقِّعين على قرار الجحد وغيَّروا عقيدتهم الإيمانية تمشياً مع الحاكم، لأن الإمبراطور زينون استعاد السلطان وكان من أنصار المجمع. وهذا يكشف مدى تدهور السلطان الرسولي التعليمي، وفقدان الأساقفة جسارتهم في الدفاع عن الإيمان.

والمحصِّلة التي يخرج بها كل دارس متأمِّل في التاريخ الكنسي في هذه الحقبة الزمنية، هي أنَّ الخلاف الذي ترتَّب على انعقاد مجمع خلقيدونية، لم يَعُدْ خلافاً لاهوتياً ولا عقائدياً، بل طائفياً بحتاً.

(10) J. M. Neale, A History of the Holy Eastern Church, Vol. II, p. 12.

الكنيسة بعد البابا المعترف ديوسقوروس

إنذارات بانقسام الكنيسة

في سنة ٤٥٤م، وصلت الأنباء بأن البابا ديوسقوروس استراح من أتعابه وأولها ظلم البيزنطيين وسطوة القوى السياسية الغاشمة. فعمَّ الحزن جميع القلوب وتوجَّع المصريون واتجهوا بأبصارهم جميعاً نحو تلك الجزيرة النائية التي لفظ فيها باباهم آخر أنفاسه، وهي جزيرة غنغرا عند شواطئ آسيا الصغرى، والتي نُفِيَ فيها بعد اتهامه بأنه امتنع عن حضور جلسات مجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١). ولكن الإشاعات والتشهير بالبابا الإسكندري جعلت سُمعته تلوكها الألسنة بأنه "هرطوقي" أي كافر بالإيمان الأرثوذكسي، وهذا ليس الحقيقة، لأن المجمع الخلقيدوني المشئوم لم يحكم عليه بتهمة "الهرطقة"، كما أن أئمة المجمع من سياسيين وإكليروسيين أجمعوا على أرثوذكسية البابا ديوسقوروس[١]، حتى اللاهوتيون البيزنطيون في القرن العشرين اعترفوا بعدم هرطقة البابا ديوسقوروس[٢].

أصل وجذر الانقسام: التنازُع على الكرامات:

ولكن هذا الغبار المتصاعد حول شخصية البابا ديوسقوروس كان بمثابة عاصفة دخان تخفي وراءها الحالة الروحية المتدنِّية لرجال الكنيسة الكبار في العالم في أواخر القرن الخامس، ما لم ينتبه إليه أحد في ذاك الزمان - إلاَّ قلة - وكان أول مظاهر هذا التدنِّي الروحي: التنازُع **على الكرامات والكراسي والمتكآت الأولى** بين الرؤساء الكبار لكنائس العالم.

وكان هذا هو أول وأخطر إنذار بانقسام الكنيسة الواحدة. وقد بدأت جذور هذا التنازُع تُزرع في الكنيسة خفية قبل ذلك بأكثر قليلاً من نصف قرن في المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية،

---

(١) راجع: "قصة الكنيسة القبطية"، إيريس حبيب المصري، الكتاب الثاني، ص ٧١،٧٢.

(٢) كما في رأي الدكتور جان مايندورف العميد السابق لمعهد فلاديمير اللاهوتي بنيويورك: St. Vladimir's Theological Quarterly - المجلد ٣٣، العدد ٤، نوفمبر ١٩٨٩. (راجع ترجمة مقاله في مجلة مرقس، مارس ١٩٩٠، ص ٣٦-٣٩).

حينما ظهر إلى الوجود اسم كنيسة كرسي القسطنطينية الرسولي باعتبارها كنيسة رسولية مثلها مثل الكنائس الأربع القديمة: روما، الإسكندرية، أنطاكية، أورشليم. ولكن كان ذلك يرجع في حقيقة إلى أنها كانت كنيسة العاصمة الجديدة للإمبراطورية الرومانية التي أسَّسها الملك قسطنطين، الذي أراد أن يكون لبطريركها صفة "المسكونية" (أي العالمية) على المسيحية تماماً كما أنه هو الملك الزمني المسكوني للعالم، وذلك لأسباب سياسية محض تخص مصالحه. وهكذا سنَّ هذا المجمع المسكوني الثاني (سنة ٣٨١) القانون الثالث بالتقدُّم في الكرامة لكرسي القسطنطينية بعد كنيسة روما (وهكذا أخذ مكان كرسي الإسكندرية). لكن هذا القانون أدَّى إلى تذمُّر كنيسة روما (العاصمة القديمة للإمبراطورية) لأسباب عقائدية تخص بابا روما.

والآن، وبعد ٧٠ سنة من المجمع المسكوني الثاني، حدثت في المجمع الجديد (خلقيدونية – عام ٤٥١) نفس المنازعات بين رؤساء كنيسة روما ورؤساء كنيسة القسطنطينية الذين أرادوا أن يؤكِّدوا مكانة كنيسة القسطنطينية ويضعوها في مرتبة كنيسة روما. وهكذا وضع المجمع هذا القرار المرغوب فيه من رؤساء كنيسة القسطنطينية بالرغم من تذمُّر رؤساء كنيسة روما.

ولأن البابا الإسكندري بصفته رئيس أساقفة كنيسة الإسكندرية كان واسع النفوذ وله سلطة أدبية بعيدة المدى، ليس اعتماداً على أية امتيازات مدنية سياسية بل على واقع روحي لاهوتي؛ لذلك اكتسب احترام كافة كنائس المسكونة آنذاك. ولهذا جاهد الطرفان (روما والقسطنطينية) على انتهاز فرصة تعطُّل البابا ديوسقوروس عن حضور بعض جلسات المجمع، لاتخاذ قرار نفيه لإضعاف نفوذه الأدبي هذا.

وهكذا بُذِرَت أُوْلَى بذار انشقاق الكنيسة: التنازُع على مَن يكون الأول وصاحب السلطان ومَنْ يخضع له الكل، الأمر الذي حذر منه المسيح – له المجد – تلاميذه وكل الكنائس في كل الأجيال (يو ١٣:١٢-١٧).

لقد كان مبدأ كنيسة الإسكندرية وباباواتها هو ما سبق أن عبَّر عنه البابا تيموثاوس الأول بابا الإسكندرية الـ ٢٢ في المجمع المسكوني الثاني، وهو أن الأوَّلية والتقدُّم بين رؤساء كنائس العالم يجب أن تُسند على أساس روحي وليس على أساس جغرافي – سياسي geo-politicus بقوله: "لقد علَّمنا مخلِّصنا بأن مَن أراد أن يكون عظيماً فينا، فليكن للجميع عبداً. فالأوَّلية هي روحية ويجب

أن تُسند إلى مَن يمتاز من الأساقفة في الجهاد في الروحيات" (**البابا تيموثاوس الأول**)(٣).

وقد كان آباء كنيسة الإسكندرية يضربون المِثَل على ذلك، فإن نسكهم وزهدهم في الأمجاد العالمية الباطلة والغِنَى الزائف، وتمسُّكهم بالحياة النسكية المسيحية والجهاد ضد شهوات النفس والجسد إلى أقصى حدٍّ، كان هو من شروط اختيارهم أساقفة لكرسي الإسكندرية. ولهذا توجَّهت نحوهم أنظار الكنائس في العالم في أوقات الأزمات والمحن العامة، كما حدث مع البابا كيرلس الكبير (٤١٢-٤٤٤م) ومن قبله البابا أثناسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م)، فكانوا يتشاورون معهم ويمدُّون يد التعاون والشركة لمواجهة الأخطار المحدقة (كما في أثناء ظهور هرطقة البطريرك نسطور، ومن قبله ظهور وانتشار هرطقة القس الليبي آريوس وغيرهما).

ولكن الأمور تطوَّرت في مجمع خلقيدونية، وبُذرت بذور الانشقاق وحدث ما حدث من مآسٍ ومحن أصابت شعوب الشرق الذين رفضوا مقررات مجمع خلقيدونية، اللاهوتية منها وبعض الإدارية. وهكذا ظل البابا ديوسقوروس في منفاه حتى نياحته عام ٤٥٤م.

الشعب القبطي هو الذي حفظ الإيمان، وكان ضحية التنازُع على الكرامات:

وما حدث بعد ذلك كان ضحيته الشعب القبطي أولاً ومعه من الأساقفة مَن وقف وقفة الشجعان المخلصين للإيمان والمدافعين عنه، لأن ليس كل الأساقفة وقفوا في صف الإيمان الأرثوذكسي. وهكذا وقف الشعب في وجه البطريرك الذي فرضه الإمبراطور على الكنيسة، والذي عيَّن قساً اسمه بروتيريوس أسقفاً على الإسكندرية بديلاً عن البابا ديوسقوروس، وكان ذلك بموافقة المجمع الخلقيدوني. وقد صاحَبَ هذا التعيين رسالة إمبراطورية يتهدَّد فيها صاحب السلطان كل مَن يجرؤ على العصيان بأشدِّ العقوبات. وكان يصحب بروتيريوس أينما حلَّ شرذمة من الجند (من الشرطة والجيش الرومانيين) مكلَّفون بمعاقبة مخالفي الرسائل الإمبراطورية. ولكن الشعب القبطي قاوم هذا البطريرك والأساقفة المنحازين له، والذين كانوا يمثِّلون عندهم العقيدة المنحرفة عن التقليد الكنسي وتعاليم آباء الكنيسة، والتي علَّم بها هذا المجمع.

(٣) "قصة الكنيسة القبطية"، إيريس حبيب المصري، الكتاب الأول، ص ٣٣٤.

ومن الملفت للنظر أن نسطور البطريرك الهرطوقي الذي حكم عليه المجمع السابق (مجمع أفسس سنة ٤٣١م)، والذي كان ما يزال حيّاً وفي المنفى، ادَّعى أن قرارات مجمع خلقيدونية تُعبِّر عن رأيه وعقيدته تماماً(٤)، وناشد النسطوريين عموماً أن يؤيِّدوا طومس (إعلان إيمان) البابا لاون الذي تزعَّم عملية إقصاء البابا ديوسقوروس(٥). وهذا الاتجاه الخطير من جانب نسطور وأتباعه هو الذي أسبغ على عقيدة مجمع خلقيدونية الكثير من الشكوك حول مطابقتها لعقيدة مجمع أفسس.

---

(4) Gerald Bray, *Creeds, Councils & Christ,* IVP, England, 1984, p. 160.

(5) Ibid., p. 163.

البابا تيموثاوس الثاني

البطريرك السادس والعشرون

في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري

(٤٥٧-٤٨٠م [حسب التقويم الغريغوري])

خلافة البابا تيموثاوس الثاني للبابا ديوسقوروس، تأكيد لإيمان الكنيسة، ومواصلة ومثابرة على حفظ الوديعة:

حالما تنيَّح البابا المعترف ديوسقوروس صمَّم الشعب القبطي على اختيار خليفة له ليحفظ الإيمان الأرثوذكسي، ويُعلن استقلال الكنيسة عن طغيان السلطة الزمنية المناصرة للبطريرك الدخيل "بروتيريوس". فانتخبوا مع أساقفتهم الراهب القلموني (دير الأنبا صموئيل فيما بعد) تيموثاوس الذي تتلمذ أولاً على البابا كيرلس الكبير ثم اختاره كاهناً على الكاتدرائية البطريركية لِمَا وجده فيه من سيرة نسكية فاضلة وتبحُّر في العلوم الروحية وسِيَر آباء الكنيسة وتعاليمهم.

وكما قيل في تاريخه إنه كان نحيل الجسم ولكن عينيه البرّاقتين وذهنه الصاحي كانا شاهِدَي حق على ما بلغه من سمو روحي. ثم داوم على الخدمة والتعليم بعد انتقال البابا كيرلس وتسلُّم البابا ديوسقوروس مقاليد الرعاية في كنيسة الإسكندرية. لذا أحبه الشعب ورأى أن ينتخبه لرعاية كنيسة الإسكندرية والكرازة المرقسية.

وكان قد نُفي إلى ليبيا بعد نفي البابا ديوسقوروس حتى موت الإمبراطور مرقيانوس في يناير سنة ٤٥٧م، ثم عاد إلى الإسكندرية حيث أجمع الشعب على رسامته بعد نياحة البابا ديوسقوروس.

وقد اشترك في رسامته أساقفة من كنيسة أورشليم التي كانت تحت الاضطهاد البيزنطي عينه بسبب رفض شعبها مقررات مجمع خلقيدونية. ومن بين هؤلاء الأساقفة بطرس الإيبيري الذي كان

ابناً لأحد الملوك الأوائل لمملكة جيورجيا ثم ترهَّب في أورشليم ثم في أحد أديرة غزة، ثم رُسم أسقفاً على "مايوما". ولما عارض مجمع خلقيدونية، هرب إلى مصر واعتكف في براريها ثم غادرها ليشترك في رسامة البابا الإسكندري تيموثاوس[1] باسم: "تيموثاوس الثاني".

وبسبب هذه الرسامة اشتد اضطهاد والي الإسكندرية الموالي للإمبراطور البيزنطي للأقباط، مؤيِّداً البطريرك الدخيل "بروتيريوس". وإزاء هذا الاضطهاد عقد البابا تيموثاوس مجمعاً من أساقفته، حيث أكَّدوا فيه حَرْم كل مَن يقبل قرارات المجمع الخلقيدوني.

وقد أجمع الإكليروس والأراخنة والشعب على مؤازرة البابا الجليل في حفظه للإيمان الأرثوذكسي، ولم يشذ عنهم سوى بعض الأساقفة، الذين قيل إن عددهم ٤ والبعض ذكر أنهم ١٤.

وبدأ البابا تيموثاوس زيارة رعوية إلى مختلف البلاد المصرية، وحيثما نزل كان يُثبِّت قلوب أبنائه على الإيمان الأرثوذكسي. وفي هذه الأثناء عُيِّن الكونت ديونيسيوس أميراً للجيش، ووصل إلى الإسكندرية حاملاً الأوامر المشدَّدة لإخضاع المصريين للبطريرك الدخيل "بروتيريوس" بكل ما أوتي من قوة. فاقترف من الفظائع ما ذكَّر المصريين بما قاساه آباؤهم على أيدي الأباطرة الوثنيين. وأضاف إلى ذلك، أنه حينما عاد البابا تيموثاوس من رحلته الرعوية موفَّقاً، وجد أن ديونيسيوس هذا قد أغلق في وجهه جميع أبواب مدينة الإسكندرية ليمنعه من دخول مقر كرسيه. فاضطرم غضب المصريين، واشتبكوا مع رجال الجيش البيزنطي في معركة دامية سقط فيها الكثيرون، وتهوَّر البعض منهم فأصابوا البطريرك الدخيل في مقتل.

النفي الثاني للبابا تيموثاوس:

ولما بلغ الوالي هذا الأمر وحدوث هذه الأحداث طلب من الإمبراطور لاون الأول أن يأمر بنفي البابا تيموثاوس الثاني، فاستجاب له في صيف عام ٤٦٠م ونفاه هو وشقيقه أناطوليوس إلى نفس جزيرة غنغرا التي سبق أن نُفي إليها البابا ديوسقوروس ثم إلى جزيرة مارسوفيا. ثم أكمل سعيه بأن عيَّن رجلاً اسمه تيموثاوس أيضاً ويُلقَّب: "سولوفاتشيولي"[2] بطريركاً بديلاً عن البطريرك

(1) Jean Daniélou & Henri Marrou, *The Christian Centuries,* Vol. I, p. 354.

(٢) كلمة مُركَّبة من ألفاظ لاتينية تعني: "لابس العمامة البيضاء".

المقتول ''بروتيريوس''. واستمرت مقاطعة المصريين للبطريرك الدخيل الجديد[٣].

واستمر البابا وهو في المنفى يوالي دفاعه عن الإيمان، فأرسل إلى مؤمني مصر وفلسطين يُحذِّرهم من بدعة أوطيخا (أوطاخي)، وأتبعها برسالة ثانية إلى بعض المصريين المقيمين في القسطنطينية للغرض عينه، وأعقب هاتين الرسالتين برسالة ثالثة دعَّمها بشهادة الكتاب المقدس وبتعاليم الآباء القديسين أثناسيوس الرسولي وكيرلس عمود الدين وباسيليوس الكبير وغريغوريوس اللاهوتي ويوحنا ذهبي الفم وغيرهم من معلِّمي الكنيسة الجامعة، حيث كانت هذه هي عادة بابوات الإسكندرية أن يشفعوا رسائلهم وتعاليمهم بما يؤيِّدها من تعليم الإنجيل وآباء الكنيسة الأبرار. ولم يكتفِ بذلك، بل أرسل رسالة رابعة إلى الرهبان والراهبات والمؤمنين في كنيسة الإسكندرية، وضَّح فيها الإيمان الأرثوذكسي مستنداً إلى إحدى رسائل البابا المتنيح ديوسقوروس.

دوام الحال من المحال، وتبدُّل الأحوال:

وفي نهاية سنة ٤٧٥م، توفِّي الإمبراطور لاون، وبموته زال الملك عن أسرة ثيئودوسيوس، حيث آل إلى ''باسيليسكوس'' الذي تسلَّم مقاليد الإمبراطورية الشرقية. ودبَّرت العناية الإلهية أن عيَّن الإمبراطور الجديد لبلاطه طبيباً إسكندرانياً. ومرة أخرى يُظهر أراخنة الشعب دورهم في حفظ السلام والأمان في الكنيسة القبطية في الأيام الصعبة، حيث نجح مسعى هذا الطبيب في طلب الشعب القبطي إعادة باباهم من المنفى إليهم. ولبَّى الإمبراطور الطلب وعاد البابا تيموثاوس إلى شعبه.

وفي عودة البابا تيموثاوس إلى وطنه، عرج على القسطنطينية أولاً ليُقدِّم الشكر بنفسه للإمبراطور، وثانياً ليشرح له حقيقة الأمور منذ مجمع خلقيدونية ويدعوه إلى عقد مجمع جديد لمراجعة ورأب الصدع الذي حدث في هذا المجمع. واقتنع الإمبراطور بمنطق البابا تيموثاوس، وأرسل منشوراً دورياً إلى أساقفة الإمبراطورية يدعوهم فيه إلى عقد مجمع جديد وإلى حرم قرارات مجمع

---

(٣) كان هذا البطريرك الدخيل متعاطفاً أحياناً مع المصريين، ولكي يُرضي الأقباط وسعياً وراء المصالحة، أدرج اسم البابا ديوسقوروس في لوحات أسماء القديسين (التي تُسمَّى بالذبتيخا)، حيث يُذكر اسمه ضمن أسمائهم علناً في الكنيسة المنشقة عن الكنيسة القبطية. لكن الأقباط مع ذلك لم يدخلوا في الشركة معه.

خلقيدونية وأن يدينوا "كل الابتداعات في الإيمان التي حدثت في خلقيدونية"(٤).

وعقد البابا تيموثاوس هذا المجمع في أفسس أثناء زيارته لها في طريق عودته إلى وطنه حضره ٥٠٠ أسقف. وبعد أن تشاوروا معاً، أجمعوا على حرم مجمع خلقيدونية وإعلان لاون ومَن يعترفون بهما. كما وقَّع على هذا المنشور ما بين ٥٠٠ - ٧٠٠ أسقف.

عودة البابا تيموثاوس إلى وطنه، ومغادرة البطريرك الدخيل الإسكندرية:

وعاد البابا تيموثاوس إلى وطنه ومقر كرسيه: الإسكندرية. وحالما وصل البابا الإسكندري، غادر المدينة البطريرك الدخيل سولوفاتشيولي من تلقاء نفسه ولجأ إلى ديره في ضاحية كانوبيس(٥).

نياحة البابا تيموثاوس الثاني:

وبعد أن استراح البابا تيموثاوس من جميع أتعابه بعد جهاد دام ما يقرب من ٢٣ عاماً (٢٢ سنة و١١ شهراً)، انضم إلى آبائه القديسين المدافعين عن الإيمان حيث تنيَّح عام ٤٨٠م (عام ٤٧٢ حسب التقويم اليولياني الذي كان سائداً آنذاك).

وتستمر مسيرة الإيمان الأرثوذكسي وسط جهاد وصراع لا يتوقَّف، وسنقرأ في الفصل القادم: محاولات الوحدة التي نجحت لمدة ٣٦ عاماً ولكنها لم تَدُمْ.

---

(4) Evagr. iii.4.

(5) Dict. of Christ. Biography, U.S.A., 1994, p. 889.

محاولات استرجاع الوحدة في كنيسة الله
(منشور الاتحاد "الهينوتيكون")

لا أحد من النفوس التقية يقبل الانقسام في كنيسة الله، إلاَّ غير الأتقياء فقط، فهم الذي يسرُّهم بل ويعملون على تمزيق ثوب[1] جسد المسيح أي كنيسته تحت ادِّعاء الحق والدفاع عن الأرثوذكسية. وكما كان في القرن الخامس بعد مجمع خلقيدونية هكذا في كل جيل. حتى جيلنا الحاضر هناك معركة بين دعاة الوحدة في كنيسة الله وهم الحاملون لواء الإيمان الحق، وبين المستميتين في تمزيق ثوب[114] جسد المسيح بالادِّعاء بـ "الأرثوذكسية"، والأرثوذكسية منهم براء.

ونحن نعرض لتاريخ كنيستنا لنتعظ مما حدث من مآسٍ أدت في النهاية إلى خسارة عمَّت على الجميع على حدِّ المثل القائل: "أعظم النار من مُستصغر الشرر" و"شرارة صغيرة كفيلة أن تحرق البيت على كل مَن فيه". لعل الجميع ينصت لصوت العقل ويعمل مع الأتقياء لوحدة الكنيسة لمجد الله.

حالة الكنيسة بعد مجمع خلقيدونية:

كما أوضحنا من قبل، لقد لاقت كنيسة الإسكندرية وكنيسة أنطاكية وكنيسة أورشليم الأَمرَّين على يد أصحاب السلطة الزمنية في القرن الخامس من جراء تمسُّكهم بإيمان الكنيسة الأرثوذكسية كما علَّمت به المجامع المسكونية الثلاثة (نيقية سنة ٣٢٥، القسطنطينية سنة ٣٨١، أفسس سنة ٤٣١). وكان شهيد الأرثوذكسية الأول بدون سفك دم هو البابا ديوسقوروس الذي أوردنا سيرته من قبل ثم خليفته البابا تيموثاوس الثاني.

---

(١) استخدمنا هذا التعبير لوصف أي انقسام في الكنيسة يصنعه الأفراد الجهلاء، وذلك نقلاً عن الرؤيا التي رآها البابا بطرس الأول خاتم الشهداء، وقد رأى المسيح وثوبه ممزَّقاً بفعل آريوس. فجسد المسيح لا يمكن أن ينقسم، بل ثوبه فقط الذي هو نحن المؤمنين المتَّحدين به.

تأثير الكنيسة الأرثوذكسية في سوريا ولدى الأباطرة:

وقد كان أتباع البابا ديوسقوروس من الكثرة ما صعَّب على مقاوميهم أن ينفوهم أو يمحقوهم أو يسيطروا عليهم، وقد امتد تأثيرهم إلى سوريا أيضاً. وكما يشهد العلماء اللاهوتيون الحديثون فإن علماء الكنائس اللاخلقيدونية ـ آنذاك ـ كانوا هم الأكثر قدرة في كل العالم المسيحي(٢)، وظلوا في القرون من الخامس إلى السابع، قادرين على أن يقلبوا قرارات مجمع خلقيدونية رأساً على عقب(٣). وكانوا يقولون: "نحن الأرثوذكس الحقيقيون لأننا نتبع تقليد أثناسيوس وكيرلس، ولسنا ملوَّثين بهرطقات نسطور ولاون". ومن المؤكَّد تاريخياً أن كثيرين في مدينة القسطنطينية كانوا يحسُّون روحياً في نفوسهم أنهم أكثر التصاقاً بكنائس الشرق من كنيسة الغرب (روما)، وقد أعطى هذا الإحساس التلقائي لتعليم كنائس الشرق قبولاً حسناً في البلاط الملكي أكثر مما كان متوقَّعاً، وقد ظهر هذا التعاطُف واضحاً شديد الوضوح في المجمع الذي عُقد في القسطنطينية عام ٥٥٣ (والمعتَبَر لدى الكنائس البيزنطية أنه المجمع المسكوني الخامس). فهذا المجمع بالرغم من أنه لم يجحد مجمع خلقيدونية إلاَّ أنه أكَّد على عقيدة "الطبيعة الواحدة"، ولكن دون موافقته على إدانة اللاهوتيين الأنطاكيين الذين عبَّروا عن آراء مضادة لآراء البابا ديوسقوروس. فقد كان هناك إحجام عن النطق بالحرم على أُناس ماتوا منذ ١٠٠ عام.

المقاومة تستعصي على الأباطرة:

وقد حاول الأباطرة عبثاً أن يكسروا حدَّة المقاومة للقرارات العقائدية لمجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١). وكما رأينا، فقد عبَّأوا كل نفوذهم وقوتهم التي يستطيعون بها فرض آراء هذا المجمع، ولم يتردَّدوا في أن يُمارسوا العنف من أجل أن يفرضوا أساقفة مُشايعين لهذا المجمع على الإيبارشيات التي لا تنصاع لأوامرهم، وحتى إذا طُرد مثل هؤلاء الأساقفة كانوا يعيدونهم بالقوة.

هذه السياسة في التدخل السافر العنيف، والذي مارسه الإمبراطور مرقيانوس، استمر أو استؤنف بواسطة خلفائه، وهم: الإمبراطور لاون، ثم زينون (على الأقل قبل عام ٤٨٢م، حينما أصدر منشور الوحدة – الهينوتيكون)، ثم جوستين الأول، ثم جوستنيان، ثم جوستنيان الثاني الذي مارس التدخل حتى عام ٥٧١م.

(2) Henry Chadwick, The Early Church, Penguin Books, 1988, p. 206.
(3) Gerald Bray, Creeds, Councils & Christ, Inter Varsity Press, 1984, p. 164.

معارضون داخل البلاط الملكي:

ولكن حتى هذه الأعمال القمعية كان يُبطئها ويُعرقلها المعارضة المؤثِّرة من داخل عُقر دار الحكومة، مثل: القائد ذو النفوذ القوي "آسبار" ومثله "آلان" تحت حكم الإمبراطور لاون، وزوجة جوستنيان الإمبراطورة "ثيئوذورا" التي مارست تأثيراً فعّالاً جداً في معارضة آراء زوجها الإمبراطور الموالي للكنائس الشرقية.

وكان طبيعياً أن هؤلاء الأباطرة حينما كانوا يتواجهون مع المقاومة الشديدة وغير المذعنة، كانوا أحياناً يتأرجحون في أفكارهم، فيُغيِّرون اتجاهاتهم بطريقة فجائية ويتَّبعون سياسة مخالفة بديلة، فيحاولون إيجاد طرق للمصالحة أو بتعبير أدق **للاتحاد** مع الكنائس المعارضة.

أول محاولة للاتحاد (الهينوتيكون):

هذه السياسة اتضح نجاحها إلى حدٍّ ما، من حيث إن الثغرة العقائدية التي كانت تفصل بين الطرفين كانت تبدو متسعة وغير ممكن تجاوزها. وهكذا إذ تأثَّر الإمبراطور زينون جداً بتشبُّث هذه الكنائس برأيها (بعد أن كان مُحارباً مُضطهِداً لها منذ سنة ٤٧٦م) غيَّر رأيه، حتى أنه في عام ٤٨٢ أصدر مرسوماً سُمِّي بمرسوم "**الاتحاد**" أو "الهينوتيكون" من كلمة "هينوس Henos" أي "الواحد"، وذلك تحت تأثير البطريرك القسطنطيني "أكاكيوس" (٤٧١-٤٨٩)، الذي غيَّر هو أيضاً رأيه وموقفه من انحيازه لمجمع خلقيدونية، **وكان ذلك بفضل المراسلات الحكيمة الرزينة الحبيَّة بين البابا الإسكندري الجديد "بطرس الثالث"**، وبين هذا البطريرك الذي كان قد سبق وأصدر حرماً ضد كنيسة الإسكندرية وباباها من قَبْل (البابا تيموثاوس الثاني).

أثر المراسلات السلامية الحبيَّة بين الخصوم:

ومَن يقرأ هذه المراسلات اليوم[٤] - وليت يقرأها كل مَن يُعنيهم الأمر - يتعلَّم كيف يمكن أن تحوِّل سياسة المحبة والحوار والدبلوماسية في المقارعة مع الخصوم، تحوِّل الخصوم إلى أحباء وتُغيِّر

(٤) وهي منشورة بالنص في كتاب: "الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة" للأسقف الأنبا إيسيذوروس، الطبعة الثانية ١٩٦٤، الجزء الأول، من ص ٥٣٨-٥٥٦. كما تجد ملخَّصاً لها ومقتطفات منها في كتاب: "قصة الكنيسة القبطية"، الكتاب الثاني، ص١٠٢-١٠٧.

الانقسام ليعود اتحاداً. فليقرأها كل مَن يُعادي ويطعن ويُشهِّر بأعلام الكنيسة ويستعدي الآخرين على الخصوم! حيث يُظهر البطريركان كل مشاعر التوبة الصادقة والاعتراف بالخطأ. ولا يمكن أن تتم المصالحة، وبالتالي الوحدة في كنيسة الله، بدون توبة الجميع والاعتراف بالخطأ من الجميع، لأن الانقسام هو خطية الجميع.

ملخص منشور الاتحاد(٥):

وقد خاطب منشور الاتحاد: الأساقفة والإكليروس والرهبان وشعب الله في بطريركية الإسكندرية، واعترف بدستور الإيمان الذي سبق أن أصدره مجمع نيقية المسكوني الأول سنة ٣٢٥ والذي حضره ٣١٨ أسقفاً وثبَّته مجمع المائة وخمسين أسقفاً المجتمعين في القسطنطينية سنة ٣٨١، ثم قرارات مجمع أفسس سنة ٤٣١؛ بالإضافة إلى الاثني عشر حرماً التي أصدرها القديس كيرلس الكبير، وقد استخدم التعبيرات المختصة بالمساواة في الجوهر للمسيح مع الإنسان وهي التي ذكرها أول مَن ذكرها القديس كيرلس الكبير في خطاب ''استرجاع الوحدة مع المشارقة''، ورفض المنشور أي حديث عن ''انفصال'' أو ''اختلاط'' بين الطبيعتين في شخص المسيح. وشمل الحرم كلاً من أوطاخي ونسطور. ولم يجحد المنشور صراحة مجمع خلقيدونية، بل استخدم عبارة يمكن قبولها من كل الأطراف وهي: ''ونحن نحرم كل مَن علَّم أو يُعلِّم بأفكار أخرى سواء في خلقيدونية أو في أي مجمع آخر''. وهي تعود على كِلاَ الطرفين: الذين اعترفوا بمجمع خلقيدونية، أو الذين لم يعترفوا به، أو الذين ظلوا نسطوريين في قلوبهم. كما لم يعترف المنشور صراحة بمجمع خلقيدونية.

ردود الفعل على منشور الاتحاد:

وقد تراوح ردُّ الفعل لهذا المنشور ما بين مؤيِّد له وجاحد. وقد أيَّده البابا بطرس الثالث(٦)، واعتبر أن هذا المنشور هو أساس طيِّب لاسترجاع الوحدة في كنيسته. ونشره في محفل عام وعلَّم الجموع بما فيه وحثَّ على قراءته في كل مكان. بينما اتخذ أسقف روما موقفاً عدائياً إلى حدِّ أنه

(٥) نص المنشور تجده في كتاب: ''الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة'' للأسقف الأنبا إيسيذوروس، الطبعة الثانية ١٩٦٤، الجزء الأول، ص ٥٤٩-٥٥١.

(٦) الذي خلف البابا تيموثاوس الثاني بعد نياحته عام ٤٨٠م (٤٧٢ بالتقويم اليولياني السائد آنذاك). وسنأتي على ذِكر سيرته في الفصل القادم.

حرم المنشور وأصدر حرماً ضد البطريرك القسطنطيني أكاكيوس والإمبراطور أنسطاسيوس (خليفة زينون) كليهما!

وكان هذا الإنشقاق بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية من أكثر الانشقاقات خطورة في تاريخ الكنيستين قبل الانفصال الكبير بينهما سنة ١٠٥٤م.

واستمر هذا الانشقاق بين الكنيستين حوالي ٣٤ عاماً (٤٨٤-٥١٩م) لحين اعتلاء الإمبراطور جوستينيان العرش وتأييده السافر لمجمع خلقيدونية. بينما استمر هذا المنشور الوحدوي مستمراً ٣٦ عاماً في التوحيد بين كنيستَي الإسكندرية والقسطنطينية.

أما خلفاء البطريرك أكاكيوس، فبينما كانوا يرفضون أن يدينوا ذِكرى سلفائهم، وبينما كانوا يتظاهرون بقبول الهينوتيكون، إلاَّ أنهم كانوا موالين في قلوبهم لمجمع خلقيدونية. لذلك كان الإمبراطور أنسطاسيوس يعزلهم الواحد تلو الآخر، وذلك ما بين عامي ٤٩٦-٥١١م.

وحدث هذا بالمثل في سوريا وفلسطين، حيث كانت كنيسة أنطاكية وكنيسة أورشليم قد وقعتا تحت يد الأساقفة الذين كانوا يتظاهرون بالولاء لمنشور الاتحاد ليظهروا أنهم أرثوذكسيون؛ لكن بقاء أحد الغيورين على قيد الحياة وهو "القديس فيلوكسينوس المنبجي"، كان فرصة لأن يُقاومهم لأنه كان أحد القلائل الذين عاشوا منذ الأجيال السابقة بعد موت أبطال منشور الاتحاد هذا، وعلى رأسهم: أكاكيوس بطريرك القسطنطينية، وبطرس الثالث بابا الإسكندرية، وغيرهما، ما بين ٤٨٨-٤٩٠م. ولكن بعد عدة تقلُّبات في الأحوال، انتصر فيلوكسينوس أخيراً.

ففي عام ٥١٥م، عُزل البطريرك الأنطاكي الدخيل المفروض من السلطة الزمنية، واستُبدل بالراهب العالم ساويرس. وفي عام ٥١٥م، قدَّم البطريرك ساويرس الأنطاكي تفسيراً أرثوذكسياً لهذا المنشور مضاداً لمجمع خلقيدونية، ليكون له فضل السيادة على مجمع صور الذي كان متذبذباً في ردِّ فعله تجاه هذا المنشور.

مصير مشروع الاتحاد:

لم يَلقَ منشور الاتحاد "الهينوتيكون" الإجماع من أيٍّ من أساقفة ورهبان الفريقين. ففي الكنيسة اللاخلقيدونية ذاتها وُجد من الأساقفة مَن تشكَّك في أرثوذكسية إعلان الإيمان هذا، إذ لم يجدوا فيه جحداً صريحاً لمقررات مجمع خلقيدونية العقائدية ولطومس لاون (أي إعلان لاون

الذي قرره هذا المجمع). كما أن البعض من رهبان كنيسة القسطنطينية في دير الذين لا ينامون Acoemetae والبطريرك الأنطاكي كالانديون، كانوا مشمئزين منه.

وحتى في الكنيسة القبطية انفصل بعض الأساقفة المصريين عن الشركة مع بطريركهم البابا بطرس الثالث، ظنّاً منهم أنه وافق على دستور مجمع خلقيدونية واعترف بالطبيعتين المنفصلتين في المسيح، فتدارَك البابا بطرس الأمر ودعا أساقفة الإيبارشيات إلى مجمع في الإسكندرية وعرض عليهم صورة المراسلات بينه وبين البطريرك القسطنطيني أكاكيوس وصورة مرسوم الاتحاد. فاقتنع بعضهم، غير أن مجموعة منهم أَبَت إلاَّ توقيع الحرم والحكم ضد البطريرك أكاكيوس، فرفض البابا طلبهم، فانفصلوا من شركته وقطعوا العلاقة معه، واستقلوا بأنفسهم وعُرفوا بالذين لا رأس لهم acephalos(٧).

أما كنيسة روما التي كان يرأسها فيلكس الثالث فقد رأينا كيف حرم المنشور والبطريرك أكاكيوس. لذلك، فلم تنعم الكنيستان الخلقيدونية واللاخلقيدونية بالاتحاد إلاَّ مدة ٣٦ عاماً فقط، ثم تعاقَب على كنيسة القسطنطينية بطاركة رفضوا المنشور وعادوا مرة أخرى إلى الانقسام والتغرُّب عن إخوتهم في الإيمان في مصر وسوريا.

ولم يدروا أن هذا الخرق الذي مزَّق ثوب جسد المسيح سوف يتسع خرقه قليلاً قليلاً حتى تأتي جحافل الجراد بعد ما لا يقل عن مائة عام لتأكل الحنطة والزوان معاً، ويحترق البيت كله بكل مَن فيه!

---

(٧) كتاب: "الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة" للأسقف الأنبا إيسيذوروس، الطبعة الثانية ١٩٦٤، الجزء الأول، ص ٥٥٦ـ٥٥٧. ويُذكر أن مثل هذا الموقف حدث مع البابا ديوسقوروس، إذ اتهمه بعض أساقفته أنه مشايع لمجمع خلقيدونية (!!)، لأنه ذكر في رسالته لهم أنَّ: "المسيح **تألَّم بالجسد**"، لأن الخلقيدونيين يقولون ذلك. فرد عليهم البابا ديوسقوروس بالمقولة التي صارت حكمة في الكنيسة: "لا نرفض كل ما يقوله المخالفون، فإن قال المخالفون كلاماً صحيحاً فنأخذ به" (مخطوط اعترافات الآباء).

خلفاء مار مرقس يحفظون الإيمان

البابا بطرس الثالث

البطريرك السابع والعشرون

في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري

(٤٧٢-٤٨١م.ش حسب التقويم اليولياني السائد آنذاك)

اختيار القس العابد لله بطرس بطريركاً:

كان في الإسكندرية شماس (دياكون) اسمه "بطرس" مرسوم بيد البابا القديس ديوسقوروس. ثم سامه قساً وصيَّره تلميذاً له، وربما كان أحد الذين رافقوه إلى المنفى بعد مجمع خلقيدونية. وبعد نياحة البابا تيموثاوس الثاني (عام ٤٧٢ بالتقويم اليولياني الذي كان سائداً آنذاك)، أجمع الشعب الإسكندري على اختيار بطرس ليكون أسقفاً على المدينة العظمى الإسكندرية ورئيس أساقفة الكرازة المرقسية. وما لابد أن نعرفه هو أن أسقف الإسكندرية كان يختاره الشعب بالتوافق مع الإكليروس، لكي يرعى ويحفظ إيمان الرسل المسلَّم مرة من الرسل القديسين ومنهم إلى الكنائس وشعوبهم في كل صقع ومكان في ربوع الكرازة المرقسية. لذلك فقد اختار شعب الكنيسة هذا القس العابد لله، لقُربه من البابا المجاهد ديوسقوروس، ولتشبُّعه بتعاليمه، مما يعطيه القدرة على أن يحفظ إيمان الكنيسة ويشهد له في تلك الحقبة الخطرة التي كانت تمر بها المسيحية في الشرق، حيث امتلأت بالمنازعات المذهبية والعقائدية وسادها تدخُّل الأباطرة البيزنطيين (في القسطنطينية) في شئون الكنائس وفي إرادة شعوبها في اختيار المؤتمنين على الإيمان الأرثوذكسي.

ومنذ اللحظات الأولى لرسامته، أعلن البابا بطرس الثالث إيمانه الأرثوذكسي الذي أصبح حارساً عليه بموجب ثقة وتكليف الشعب. وهكذا بدأ حبريته بعقد مجمع من أساقفته ليُعلنوا تجديد الحرم على منشور (طومس) لاون البابا الروماني الذي أصدره مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م، والذي أثار عاصفة من الاحتجاج بين كنائس الشرق.

أحداث سياسية، ونفي البابا بطرس الثالث:

وفي تلك الأثناء حدثت أحداث سياسية حاسمة، إذ أن عرش القسطنطينية كان مثار نزاع بين "زينون" صهر الإمبراطور السابق لاون وبين الإمبراطور باسيليسكوس؛ انتهى بانتصار زينون وإقامته إمبراطوراً في العاصمة الشرقية "القسطنطينية" (من ٤٧٤-٤٩١م).

ولما كان "زينون" مُشايعاً لمجمع خلقيدونية بكل جوارحه، فقد استُثير من جرأة الإسكندريين بعقدهم مجمعاً لتجديد حرم منشور لاون، واعتبره تحدِّياً لسلطته الإمبراطورية الجديدة، فأصدر أمره بنفي البابا بطرس الثالث وبفرض بطريرك دخيل اسمه جورجيوس.

وبإزاء الاعتداءات المتكررة من أباطرة القسطنطينية، رأى المصريون أن يبذلوا جهوداً جريئة لانتزاع حقِّهم في إدارة كنيستهم دون تدخُّل من السلطة السياسية. لذلك سافر وفد منهم إلى مقر الإمبراطور بالقسطنطينية وتمكَّنوا من مقابلته وطالبوه باحترام حق المصريين في انتخاب باباهم وفي استقلال كنيستهم عن تدخُّل السلطة السياسية والحكام المدنيين. وكان يرأس هذا الوفد كاهن اسمه "يوحنا طلايا". هذا تسبب في أن يتمنَّع الإمبراطور في الاستجابة لمطالب المصريين لِمَا لاحظه في هذا الكاهن من نية في استرضاء الإمبراطور طمعاً في أن يُعيَّن بابا للكنيسة مناوئاً للبطريرك الشرعي بطرس الثالث (الذي كان منفياً). ولم يتردَّد يوحنا في أن يُقسِم أمام الإمبراطور بأنه لن يسعى إلى هذا المنصب أبداً! حينئذ رَضِيَ الإمبراطور زينون أن يحترم شعور المصريين القومي تجاه كنيستهم وأعطاهم مطلبهم هذا. لكن يوحنا طلايا هذا كانت له قصة أخرى بعد ذلك تزيد من آلام الكنيسة وعثراتها أمام العالم.

مَن هو يوحنا طلايا هذا؟

كان يوحنا راهباً في دير "طبانسين"[١] في كانوبي بالقرب من الإسكندرية، وانتُدِب رئيساً للكنيسة الكاتدرائية بالإسكندرية. وبعد أن مات البطريرك الدخيل في عصر البابا السابق تيموثاوس - وكان اسمه تيموثاوس أيضاً ولكن كان يُقرَن باسمه لقبه "سولوفاتشيولي" (لابس

---

(١) منطقة "طبانسين" في إسنا في صعيد مصر، ولكن كان يوجد دير تابعاً لأديرة القديس باخوميوس المدعوة بـ"الطبانسيين" بجوار الإسكندرية.

العمامة البيضاء) - سنة ٤٨٢م، استطاع يوحنا طلايا هذا بحيلة أن يُنصَّب كبطريرك دخيل للإسكندرية، لكنه قوبل برفض الشعب القبطي له؛ كما لم يستطع كسب ثقة بطريرك القسطنطينية أكاكيوس الذي رفضه وأقنع الإمبراطور زينون بطرده وبالاعتراف بالبابا بطرس الثالث وإعادته من منفاه إلى كرسيه. وبعد موت الإمبراطور زينون سنة ٤٩٢م، حاول يوحنا طلايا هذا استرضاء الإمبراطور الجديد أنسطاسيوس الذي سبق أن أغاثه يوحنا في الإسكندرية حين ارتطمت سفينته الإمبراطورية أمام شواطئ الإسكندرية، وأظهَرَ له لطفاً كبيراً، لكنه خاف من أن لا يأبه لطلبه، فسافر إلى القسطنطينية وطلب مقابلة الإمبراطور. فحالما سمع الإمبراطور بوجود يوحنا في القسطنطينية أمر بنفيه! فهرب يوحنا إلى روما حيث احتضنه أسقفها فيلكس، وباءت كل محاولاته للعودة إلى الإسكندرية بالفشل. وقد حاول بعض مشايعيه أن يعوِّضوه عن فشله هذا، فأوكلوا إليه كرسي أسقفية مدينة نولا في كامبانيا، فذهب إلى هناك حيث مات بعد سنين قليلة.

ولعلَّ في شخصية هذا الرجل الذي حنث بقَسَمه وعهوده أمام الإمبراطور زينون بأنه لن يطمع في كرسي الإسكندرية، ما جعل حتى الأباطرة المناصرين لمجمع خلقيدونية أن يشيحوا بوجههم عنه ولا يؤيدوه في مسعاه أن يكون بطريركاً دخيلاً لمناوأة البطريرك الأرثوذكسي بطرس الثالث[٢]. وهذا النوع من الشخصيات سيظهر على مسرح التاريخ بعد قليل في شخص مَن يُدعى "المقوقس"، وسيكون له دور مؤسف أثناء الغزو العربي لمصر بعد ذلك بحوالي المائة عام!

جهاد البابا بطرس بعد رجوعه من المنفى:

نعود إلى سيرة البابا بطرس الذي - كما ذكرنا في الفصل السابق - تصالح مع بطريرك القسطنطينية من خلال المراسلات الحبيَّة الصريحة. وكانا كلاهما متواضعَيْن بلا اعتداد أو عنصرية دينية بغيضة، فاستطاعا أن يتقابلا معاً في صيغة منشور الهينوتيكون، وكادا أن يشفيا جروح الانقسام ويُجنِّبا الكنيسة شر انقسام سوف يظهر أثره - للأسف - فيما بعد حيث تزعزعت أركان الكنيسة كلها في الشرق بعد أقل من مائة عام!

أما سبب عدم صمود هذا المشروع الوحدوي، فهو أن بعض أساقفة ورهبان كنيستَي

(2 (Dict. of Christ. Biog., p. 553.

الإسكندرية والقسطنطينية لم يرضيا عن هذه الصيغة التي لم تُرضِ مفاهيمهم عن الأرثوذكسية، بعد أن بدأت تدخل في قوالب من الألفاظ والتعبيرات الصماء بمعزل عن المضمون اللاهوتي، وتنحو نحو الشك في نيات كل طرف تجاه الأطراف الأخرى. وزاد منْ حدَّة هذه التضادات أن رفض أسقف روما فيلكس الثاني (الذي احتضن يوحنا طلايا المنفي بأمر الإمبراطور) منشور الهينوتيكون، وكذلك رفض بعض أساقفة الكنيسة القبطية منشور الهينوتيكون (كما يذكر المؤرخ إيفاجريوس)(٣) الذين اشتكوا أيضاً ضد بطريركهم البابا بطرس. كما أرسل أسقف روما أسقفين إلى القسطنطينية ليُعلن جحده للبابا بطرس، وليستدعي البطريرك الأنطاكي أكاكيوس إلى روما ليُحاكم البابا بطرس هناك! لكن الأسقفين خافا من تبليغ هذه الرسالة القاسية وعادا إلى روما برسائل من الإمبراطور زينون والبطريرك القسطنطيني يؤكِّدان على أرثوذكسية البابا بطرس الثالث. فوبخهما أسقف روما على ضعفهما وعقد مجمعاً عزلهما فيه من وظيفتيهما واتهم فيه البابا بطرس بالأوطاخية (لاحِظ أن المعاملات بين الأساقفة بدأت تتسم بالاتهام بالهرطقة من طرف واحد).

نياحة البابا بطرس الثالث:

وتنيح البابا بطرس الثالث في آخر أكتوبر سنة ٤٨١م.ش، تاركاً وراءه كتابات كثيرة. ويقول كتاب ''تاريخ البطاركة'' لابن المقفع إن جميع رسائله محفوظة في دير أنبا مقار ومن بينها رسالة إلى الإمبراطور زينون والرد عليها. ولكن يبدو أن هذه الرسائل سُرقت فيما بعد ضمن ما سُرق من هذا الدير من مخطوطات في أجيال الضعف والجهل ما قبل القرن الثامن عشر! ولكن هيئة الآثار الفرنسية عثرت على نسخة من هذه المراسلات في دير الأنبا شنودة بسوهاج باللغة القبطية، فترجمتها إلى اللغة الفرنسية عام ١٨٨٨م وطبعتها. وقام الأنبا إيسيذوروس بترجمتها إلى اللغة العربية عام ١٨٨٩ ونشرها في كتابه: ''الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة'' - الجزء الأول.

---

(3) Evagr., III, 20B.

البابا أثناسيوس الثاني

البطريرك الثامن والعشرون

في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري

(٤٨١-٤٨٨م.ش)

انتخاب القس أثناسيوس بطريركاً:

ويتوالَى البابوات البطاركة على الكرسي المرقسي الإسكندري، وتُوالي الكنيسة بشعبها ورهبانها وإكليروسها على الصلوات والعبادة والتأليف والكرازة. وساعدها في ذلك استمرار الهدوء والسلام برهة من الزمن.

فلما تنيح البابا بطرس الثالث، لم تعترض السلطات البيزنطية في القسطنطينية على انتخاب البابا الجديد، ولم تفرض بطريركاً دخيلاً بعد رفض الإمبراطور أنسطاسيوس المدعو يوحنا طلايا الذي سعى لديه ليكون بطريركاً دخيلاً على الأقباط. وبذلك تمكَّن الشعب الإسكندري من الاجتماع والتشاور مع الإكليروس في مَن يجلس على كرسي القديس مرقس. ومن مراحم الله أن اتفقت كلمة الجميع على انتخاب القس العابد لله أثناسيوس كاهن الكنيسة المرقسية والقيِّم على كنائس الإسكندرية، لأنه كان من المجاهدين الروحيين البارزين، حتى لقد كانت قدسية حياته مضرباً للأمثال، وجاهد بحرارة في طريق الله، والروح القدس كان ساكناً فيه، كما يذكر ذلك سنكسار الكنيسة الإثيوبية المترجم إلى الإنجليزية بواسطة المستشرق واليس بودج - جزء أول، ص ٧٦[١].

وهكذا تمت رسامته، فأصبح هو الخليفة الثامن والعشرين للقديس مرقس الإنجيلي كاروز الديار المصرية، وذلك عام ٤٨١م (بتقويم ذلك الزمان).

(١) "قصة الكنيسة القبطية" - إيريس حبيب المصري - الكتاب الثاني - ص ١١٣.

وكعادة البابوات في ذلك الزمان استهل أعماله البابوية بكتابة رسائل الشركة إلى الأساقفة والبطاركة الأرثوذكسيين وأولهم بطريرك أنطاكية، وعلى الأخص البطاركة والأساقفة الذين وقَّعوا على الرسالة الدورية التي كتبها سَلَفه الأسبق البابا تيموثاوس في عهد الإمبراطور باسيليسكوس والتي تدعَّمت بمنشور الوحدة: ''الهينوتيكون''، والذي نشره الإمبراطور زينون على الأساقفة.

مواجهة العقبات:

وقد واجه هذا البابا موقفاً حسَّاساً حينما أرسل أسقف روما مندوبَيْن إلى الإمبراطور أنسطاسيوس (الذي كان قد صار إمبراطوراً خلفاً لزينون في غضون هذه الفترة)، يرجوه أن يُصدر منشوراً ينقض الهينوتيكون. ولما وصل هذان المندوبان إلى القسطنطينية جمعهما الإمبراطور مع سفراء البابا أثناسيوس الثاني المقيمين دائماً في القسطنطينية ليشرحوا وجهة نظر الكنيسة المصرية، فشرحوا لهما إيمان الكنيسة وموقفها من تعليم مجمع خلقيدونية المختص بطبيعة المسيح وحرمهم لنسطور وأوطيخا (أوطاخي) مع كل تعاليمهما.

ومن نعمة الله أن الإمبراطور أنسطاسيوس كان مُحباً للسلام، خائفاً الله، فلم يتخذ موقفاً انحيازياً مع أو ضد أيٍّ من الطرفين، وبالتالي رفض منشور الإمبراطور زينون.

على أن بابوية الأنبا أثناسيوس الثاني لم تَدُم غير ٧ سنين، إذ انتقل إلى عالم الخلود عام ٤٨٨م.ش.

البابا يؤانس الأول (الراهب)
البطريرك التاسع والعشرون
في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري
(٤٨٨-٤٩٧م.ش)

وتوالَى بعد ذلك، في عصر السلام القصير الذي عاشته الكنيسة القبطية، البابوات الجالسون على كرسي القديس مار مرقس كاروز الديار المصرية ومنهم:

اختيار الراهب يؤانس بطريركاً:

وهذا كان راهباً قضى السنين الطوال في الجهاد الروحي داخل برية شيهيت، ومِن ثَمَّ فقد قصد وفد من الأساقفة والأراخنة إلى برية شيهيت لمقابلته والإعراب له عن رغبتهم في انتخابه. فامتنع في أول الأمر، ولكن لما وجد إصرار الذين جاءوا إليه؛ استرشد بمشورة الله فعاد إليهم، فاصطحبوه معهم إلى الإسكندرية، حيث قام الأساقفة بوضع الأيادي عليه ليُسلِّموه موهبة الرئاسة الكهنوتية الروحية على الكرازة المرقسية خلفاً للقديس مرقس الرسول الإنجيلي والبابوات الثمانية والعشرين السابقين عليه.

ولم يُعكِّر صفو حبرية البابا يؤانس غير الوباء الذي انتشر في الإسكندرية وقضى على الكثيرين من أبنائه. ولقد دأب هذا البابا اليقظ على تفقُّد شعبه أثناء تفشي الوباء ليُواسي المتألمين ويُعزي الحزانى.

وفي سنة ٤٩٧م بتقويم ذلك الزمان، انضم إلى آبائه بعد أن رعى شعبه بحكمةٍ وعدل مدة تناهز الثماني سنوات.

البابا يؤانس الثاني (الناسك)

البطريرك الثلاثون

في عداد بطاركة الكرسي الإسكندري

(٤٩٧-٥٠٨م.ش)

وبعد نياحة البابا يؤانس الـ ٢٩، بدأ الإكليروس والشعب في البحث عمَّن يخلفه على كرسي مار مرقس الرسول.

اختيار ناسك متوحد ليكون بطريركاً:

كان أحد النسَّاك المتوحدين يعيش في صومعة منفردة نائية، على أن عُزلته في هذه المغارة النائية لم تكن سبباً في جعله بمعزل عن آلام البشر وما يقاسونه في حياتهم اليومية. فقد ذاع صيت روحانيته حتى بلغ المدن الآهلة بالسكان، وذلك بسبب صلواته ونسكه وعزوفه عن أمجاد وكرامات الدنيا. ومثل سلفه كان إجماع الإكليروس والشعب كافياً لإرغامه على قبوله هذه الخدمة العظمى التي كانت في ذلك الزمان محلاً للألم، وعُرضة للنفي والتشريد ومحطّاً لكل أنواع الإهانات من السلطات السياسية المدنية الغريبة عن البلاد. وهكذا أصبح هو البابا الإسكندري الثلاثين في تعداد بطاركة الكرسي الإسكندري.

وكان أول ما قام به البابا الجديد كتابة رسائل الشركة إلى إخوته الأساقفة الشرقيين الذين تصالح سلفاؤه معهم بفضل البابا بطرس الثالث بعد القطيعة التي نجمت عن مجمع خلقيدونية. وكان من ضمن هؤلاء الأساقفة أسقف القسطنطينية وأسقف أنطاكية.

وفي تلك الفترة أظهر الله عجائبه. فكما يقول كتاب "تاريخ البطاركة" لأنبا ساويرس المشهور بابن المقفع، إن الله أظهر في أيامه أمراً عجيباً وأقام مملكة وكهنوتاً معاً للكنيسة، والمقصود بذلك الملك أنسطاسيوس المؤمن التقي والبطريرك ساويرس الأنطاكي لابس النور الذي صار قَرْن خلاص للكنيسة. فقد قَبِلَ هذا البطريرك الأنطاكي رسالة الشركة التي أرسلها البابا يؤانس الثاني وأساقفته حيث رفعوا الصلوات وشكروا المسيح الذي أعاد الأعضاء المقطوعة إلى مواضعها. وبفرح عظيم

وابتهاج روحاني كتب البطريرك الإسكندري يؤانس إلى البطريرك الأنطاكي ساويرس، وتلقَّى ردّاً على رسالته، كما والَى البابا يؤانس كتابة الرسائل الراعوية لشعبه، وعلى الأخص تلك الرسائل المسمَّاة بالرسائل الفصحية. وأقام الأنبا يؤانس الثاني إحدى عشرة سنة وتنيح في السابع والعشرين من بشنس من عام ٢٠٨م.ش.

(تم الجزء الأول)

كتب تاريخية مناسبة للقراءة مع هذا الكتاب

- القديس أثناسيوس الرسولي
- الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار
- لمحة سريعة عن دير القديس أنبا مقار
- قديسو دير القديس أنبا مقار
- دراسات في آباء الكنيسة
- اكتشاف رفات القديس يوحنا المعمدان

تُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا – تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين – محرم بك – تليفون ٤٩٥٢٧٤٠

أو من مكتبة الدير

أو عن طريق موقع الدير على الإنترنت:

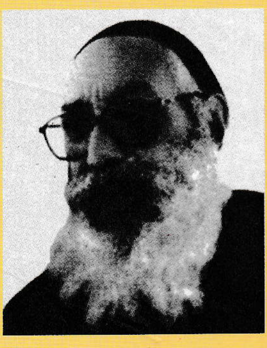
www.stmacariusmonastery.org



القديس أثناسيوس الرسولي

عن كنيسة دير القديس بشاي (الدير الأحمر بسوهاج)

(من القرن السادس/السابع أو الثامن)



الراهب القس يعقوب المقاري (المتنيح) أحد الآباء المجاهدين الذين عاشوا مع أبيهم الروحي الأب القمص متى المسكين (١٩١٩-٢٠٠٦). ترهبن فى ٨ يناير ١٩٦٨بصحراء وادى الريان. وبعد انتقاله مع الآباء هناك إلى دير القديس أنبا مقار بوادى النطرون عام ١٩٦٩ بتوجيه من قداسة البابا القديس كيرلس السادس، رُسم قساً بيد نيافة الأنبا ميخائيل مطران أسيوط ورئيس دير القديس أنبا مقار

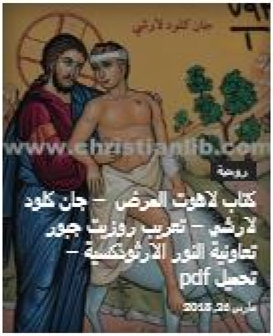
كان عالماً وباحثاً كنسياً يجيد اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وكان يعرف اللغة اليونانية القديمة واللغة العبرية. وكان له مقال أو أكثر فى مجلة مرقس الشهرية، ومن بينها سلسلة تاريخ الكنيسة، وهو محتوى هذا الجزء الأول من سلسلة تاريخ الكنيسة.

وُلد عام ١٩٣٥، وترهبن فى ٨ يناير ١٩٦٨ بوادي الريان، وتنيح يوم ١٣أغسطس سنة ٢٠٠٢.

الثمن: ٦٠ جنيه

٥٨٠

مكتبة الكتب المسيحية



روحية

كتاب لاهوت المرض – جان كلود لارشي – تعريب روزيت جبور تعاونية النور الارثوذكسية – تحميل pdf

مارس 24, 2018



العهد الجديد

كتاب شبهات وهمية حول الكتاب المقدس – إعداد الدكتور القس منيس عبد النور – تحميل الكتاب pdf

مارس 24, 2018



روحية

كتاب الايادي الضارعة – ميشال كواست ترجمة الاب فكتور الدويهي دار المشرق – تحميل الكتاب pdf

مارس 24, 2018



مقالات

لا تموت قبل أن تقرأ هذه الكتب – ترشيحات الفيلسوف بيتر كريفت Peter Kreeft

مارس 21, 2018

كتب روحية



روحية

كتاب الباحث عن الله – مذكرات كتبها الفيلسوف المصري المشهور نوستراداميس – د ق لبيب مشرقي pdf



ابائيات

كتاب من اخبار و حكم الآباء النساك – نقله عن اليونانية الآب منيف حمصي – تحميل الكتاب pdf



انسانيات

كتاب يوميات طبيب في ضوء الكتاب المقدس – بول تورنيية – مكتبة دار الكلمة LOGOS – تحميل pdf



روحية

كتاب لاهوت المرض – جان كلود لارشي – تعريب روزيت جبور تعاونية النور الارثوذكسية – تحميل pdf



روحية

كتاب الايادي الضارعة – ميشال كواست ترجمة الاب فكتور الدويهي دار المشرق – تحميل الكتاب pdf



روحية

كتاب صوم يونان و الصوم الكبير – الآب متى المسكين – سلسلة عظات مختارة على اناجيل القداسات pdf